

النثر الفني الأندلسي في
عصر الخلافة الأموية
' ٣١٦ - ٤٢٢ هـ '

إعداد
منال سالم العقباني

المشرف
الأستاذ الدكتور صلاح جرّار

قدّمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة في
اللغة العربية وآدابها

الجامعة الأردنية
كلية الدراسات العليا

كانون أول / ٢٠٠٨

الجامعة الأردنية

نموذج التفويض

أنا الطالبة منال سالم العقباني، لفوض الجامعة الأردنية بتزويد نسخ من رسالتي
للمكتبات أو المؤسسات أو الهيئات أو الأشخاص عند طلبهم حسب التعليمات النافذة للجامعة
الأردنية.

التوقيع: منال عكباني
التاريخ: ٢٠٠٨-١٤-٢٤

قرار لجنة المناقشة

نوقشت هذه الرسالة (النثر الفني الأندلسي في عصر الخلافة الأموية) وأجيزت بتاريخ :
٢٠٠٨/١١/٢٧ م

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

الدكتور صلاح جرار، مشرفاً
أستاذ - الأديب الأندلسي

الدكتور جاسر أبو صافية، عضواً
أستاذ - الأديب الأموي والبرديات

الدكتور مصطفى عليان، عضواً
أستاذ - الأديب الأندلسي

الدكتور يونس شديفات، عضواً
أستاذ - الأديب الأندلسي
جامعة اليرموك

تعتمد كلية الدراسات العليا
هذه النسخة من الرسالة
التوقيع: ٢٠٠٨/١١/٢٧

الإهداء

إلى شخصيَّة عظيمة زرعت في نفسي بذرة الطموح، وإلى قلبٍ ما بخِل عليَّ يوماً، وإلى منلٍ أعلى في التحدي والعزيمة، إلى والدي رحمه الله أهدي هذا العمل.

الشكر والتقدير

لقد حباني الله بالذين التفوا حولي في أثناء إنجازي لهذا العمل، فما يملك العبدُ الفقير إلا أن يقدم الاعتراف بالجميل لكل من مدَّ يد العون لإنجاز هذا العمل.

أتقدم بالشكر إلى أستاذي الفاضل الدكتور صلاح جرّار الذي ما ضنّ عليّ بعلم ولا رأي، وقدم لي من جهده ووقته ومكتبته الفكرية الكثير، وأرشدني إلى النصح والتوجيه والنقاش العلمي في أثناء سيرورة هذا العمل، بطول أناة وسعة دربة، فله مني موفور الشكر ووافر التقدير.

كما أتقدم بالشكر لأساتذتي الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة: الدكتور جاسر أبو صفيّة والدكتور مصطفى عليان والدكتور يونس شنوان الذين تفضلوا بوقتهم وبتوجيهاتهم التي ستُغني هذا العمل وتقومّه، فلهم مني جميعاً الشكر والامتنان.

ولا يفوتني شكرُ أسرتي التي ما فتئتُ تصقل عزيّمتي، وتتطّلع إلى إنجاز هذا العمل. فالثناء والشكر هو أقلُّ أدواتي لكِ أمي التي ما فتئتُ عبارات دعائكِ قنديلَ دربي، ولكم إخوتي وأخواتي نبيل ونزيه ومحمد وأسامة وزيد وأنصاف وست الكل؛ إذ كنتم قبس الضوء الذي يقوم سيري.

أمّا أسرتي الصغيرة نزار ومجد ومالك فقد تحمّلت معي عناء هذا العمل وسهره، فما كانوا إلا معيناً من شحذ الهمة لا ينقطع، فلكم مني كلّ الودّ والشكر.

ويبقى اللسان مقصراً عن شكر كلِّ من الزملاء السيدة سامية دواني ود. محمد الأشقر والأنسة حنين جاسر على جهودهم المُنّني في تسهيل مهمة هذا العمل، وكذلك الأخت حنان سليمان التي تحمّلت معي ثقل هذا العمل، فلهم مني جميعاً موفور الشكر وجزاهم الله عني كلّ خير.

فهرس المحتويات

ب	قرار لجنة المناقشة
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ - و	فهرس المحتويات
ح - ط	الملخص باللغة العربية
١ - ٤	المقدمة
٥٧ - ٦	الفصل الأول: العوامل المؤثرة في ازدهار حركة الأدب في عصر الخلافة الأموية
٣٠ - ٦	المبحث الأول: العوامل المؤثرة في الأدب إبان حكم الخليفة الناصر
١٠ - ٦	أ- الأوضاع السياسيّة وعلاقات الجوار
١٦ - ١١	ب- الأوضاع الاقتصاديّة والمظاهر الحضاريّة
٢١ - ١٦	ج- الأوضاع الاجتماعيّة
٣٠ - ٢١	د- الأوضاع الثقافيّة
٤٤ - ٣٠	المبحث الثاني: العوامل المؤثرة في حركة الأدب إبان خلافة الحكم المستنصر
٣٨ - ٣٠	أ- العوامل الثقافيّة
٤٣ - ٣٨	ب- العوامل الاجتماعيّة
٤٤ - ٤٣	ج- الأوضاع السياسيّة
٥٣ - ٤٥	المبحث الثالث: العوامل المؤثرة في حركة الأدب إبان الحجابة العامريّة
٤٨ - ٤٥	أ- الأوضاع السياسيّة
٥٣ - ٤٨	ب- الأوضاع الثقافيّة
٥٧ - ٥٣	المبحث الرابع: العوامل المؤثرة في الأدب في عهد الفتنة البربريّة
٥٤ - ٥٣	أ- الأوضاع السياسيّة
٥٧ - ٥٤	ب- الأوضاع الثقافيّة
١٦٨ - ٥٩	الفصل الثاني: أغراض النثر الفني "دراسة في المضامين"
٩٧ - ٥٩	المبحث الأول: الرسالة
٨١ - ٦٢	أولاً: الرسائل الديوانيّة
٧١ - ٦٥	أ- كتب البشارة والفتوحات
٧٤ - ٧١	ب- كتب الولاء والطاعة

٧٤ - ٧٨	ج- كُتِبَ البيانات السلطانية
٧٨ - ٨١	د- كُتِبَ التعنيف والتفريع
٨١ - ٩٠	ثانياً: الرسائل الإخوانية
٩٠ - ٩٧	ثالثاً: رسائل وصف الورود
٩٧ - ١٠٤	المبحث الثاني: العهود والمواثيق وكُتِبَ السفارات
١٠٤ - ١١٦	المبحث الثالث: الخُطبة
١١٠ - ١١٦	أ- الخُطبة السياسية
١١٦ - ١١٠	ب- الخُطبة الدينية
١١٦ - ١٢٧	المبحث الرابع: المقالات الطويلة "رسالتنا ابن حزم: تفضيل الأندلس وطوق الحمامة"
١١٦ - ١٢٢	أولاً: رسالة تفضيل الأندلس
١٢٢ - ١٢٧	ثانياً: طوق الحمامة
١٢٣ - ١٢٤	أ- طوق الحمامة ودواعي التأليف
١٢٤ - ١٢٧	ب- طوق الحمامة "العنوان وفلسفة المحتوى وزمن الكتابة"
١٢٧ - ١٤٠	المبحث الخامس: فن القصة الهزلية "التوايح والزوايح نموذجاً"
١٢٩ - ١٤٠	- قراءة في المضمون
١٢٩ - ١٣٤	أ- الاتجاهات النقدية
١٣٤ - ١٤٠	ب- قراءة في جدران القصة "التشويق - تنامي الحدث - الدلالات"
١٤٠ - ١٤٥	المبحث السادس: النثر الوصفي
١٤٥ - ١٥١	المبحث السابع: الوصايا
١٥١ - ١٥٦	المبحث الثامن: النثر العلمي "آراء في النقد الأدبي نموذجاً"
١٥٦ - ١٥٨	المبحث التاسع: المأثورات "الشكر والتحميدات نموذجاً"
١٥٩ - ١٦٤	المبحث العاشر: التوقيعات
١٦٥ - ١٦٨	المبحث الحادي عشر: المناظرات
١٧٠ - ٢١٠	الفصل الثالث: الخصائص الفنية للنثر في عصر الخلافة الأموية
١٧٠ - ١٧٤	المبحث الأول: الشخصية الأندلسية والخصوصية الفنية "بين الإبداع والاتباع"
١٧٤ - ١٧٨	المبحث الثاني: الأثر الديني
١٧٨ - ١٨٤	المبحث الثالث: إطلالة الشعر
١٨٤ - ١٨٩	المبحث الرابع: التكتيف والإيجاز

١٨٤ - ١٨٥	أ- الدلالات والإيحاءات
١٨٦ - ١٨٨	ب- الرمزية
١٨٨ - ١٨٩	ج- قصر العبارة
١٨٩ - ١٩٣	المبحث الخامس: العمق الزمني
١٩٣ - ٢٠٠	المبحث السادس: البنية المكانية " سُلطة المكان في رسم صورة الخطاب "
١٩٣ - ١٢٢	أ- الأندلس في مراسلات الورود
١٩٥ - ١٩٧	ب- شخصية الأديب من خارطة المكانية
١٩٨ - ١٩٩	ج- أثر عشق قرطبة على النثر
١٩٩ - ٢٠٠	د- هيبة المكان في السفارات والعهود
٢٠٠ - ٢٠٥	المبحث السابع: لغة النص
٢٠١ - ٢٠٤	أ- اللغة والموضوع
٢٠٤ - ٢٠٥	ب- اللغة والأديب الناثر
٢٠٥ - ٢٠٨	المبحث الثامن: التناسّ
٢٠٨ - ١١٠	المبحث التاسع: الروح الدرامية
٢١١	الخاتمة
٢١٢ - ٢١٩	ثبّت المصادر والمراجع
٢٢٠	الملخص باللغة الإنجليزية

النثر الفني الأندلسي في عصر الخلافة الأموية

إعداد

منال سالم العقباني

المشرف

الأستاذ الدكتور صلاح جرّار

المُلخَص

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في النثر الفني الأندلسي في عصر الخلافة الأموية من ناحيتي الشكل والمضمون، مروراً بالظروف العامة التي أفرزت النتاج النثري لهذا العصر، ووصولاً لاستنتاج السمات الفنية له.

وقد جاءت الدراسة في مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة، بيّنت المقدّمة دوافع الدراسة، ووضّحت آلية البحث من ناحيتي المناهج المعتمدة، ومصادر الدراسة.

وعرض الفصل الأول للعوامل المؤثرة في ازدهار الأدب لهذه الحقبة، إذ شكّلت بعض المظاهر العامة أرضيةً للنتاج النثري الفني في قالب والمضمون عبر عهود عصر الخلافة الأموية الأندلسية ابتداءً من عهد الخليفة الناصر، وانتهاءً بعصر الفتنة البربرية، مروراً بالمظاهر الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية.

أمّا الفصل الثاني فكان في أغراض النثر الفني ومضامينه، وجاء هذا الفصل في أحد عشر مبحثاً مثّلت أنواع النثر الفني المختلفة؛ وهي الرسالة و "العهود والمواثيق" والخطبة، والمقالات، والقصة الهزلية والنثر الوصفي، والوصايا والنثر العلمي والمأثورات، والتوقيعات والمناظرات.

وجاء الفصل الثالث في الخصائص الفنية للنثر في عصر الخلافة، فعرض لهذه الخصائص من تسع زوايا أبرزت الخصائص التي أثّرت في الشكل والمضمون؛ وهي أثر الشخصية على الفنية الأدائية للنثر، والأثر الديني وبروز الشعر، أمّا التكثيف والإيجاز فقد انتظمها الحديث عن الدلالات والإيحاءات والرمزية وقصر العبارة، فيما مثّل كلٌّ من العمق الزمني والبنية المكانية خصيصتين متفرّدتين عكّستا خصوصية المكان والزمان في النثر

الأندلسي في عصر الخلافة، ولم تُغفل الخصائص الوقوف عند سمات اللغة والتناصّ والروح
الدرامية.

وتضمّنت الخاتمة أبرز نتائج هذه الدراسة؛ مُبرزةً خصوصيّة النثر الفنّي في عصر
الخلافة الأموية عن سائر العصور الأدبية في الأدب العربي.

المقدمة

إنّ المتتبع للأدب العربي عبر حقبة المختلفة، يقف عند مفاصل زمنية أثرت في نمطيّة هذا الأدب من حيث الموضوعات والخصائص، بدءاً من الأدب الجاهلي، وانتهاءً بأدبنا الحديث المعاصر.

ولا يستطيع الدارس حين يتوجّه بأنظاره إلى الغرب للدراسة المقارنة مثلاً إلا أن يستعيد ألق الحضارة الأندلسية التي سطع شمسها ثمانية قرون، فأثرت وتأثرت فيمن حولها من الحضارات والأمم، ونبت أدب خالص استمدّ جذوره من المشرق، ونما في أرض الأندلس، فنضجت ثماره الأدبية بنكهة خاصة، ورائحة مميزة، ما نزال نشتم عبيرها إلى الآن.

ولمّا كان الأدب لا ينفصل بحالٍ عن واقع الأمة الحضاري، فقد تأثر الأدب الأندلسي بذلك الواقع انعكاساً للأحوال السياسية والاجتماعية والاقتصادية، ممّا حدا بالدارسين أن يدرسوه مقسماً إلى عصور أدبية لم تخرج عن التقسيم السياسي ابتداءً من عصر الفتح وانتهاءً بعصر الموحدّين وبني الأحمر.

ويبدو أنّ تلك الدراسات قد تركّزت على عصور أكثر من الأخر كعصري ملوك الطوائف والموحدّين، وقد يكون لذلك مسوغاته من حيث الوفرة الأدبية التي وصلت إلينا عن هذه العصور.

أمّا عصر الفتح والعصر الأموي مُمثلاً بعهدي الإمارة والخلافة فلم ينال العناية نفسها، ومن هنا جاء اختياري لدراسة النثر الفني في الأدب الأندلسي في عصر الخلافة الأموية محاولةً لاستكمال حلقات الدراسة في العصور الأدبية الأندلسية، وإطلالة على عهد كان له من القوة السياسية ما كان، فهل كان واقع الأدب فيه بتلك القوة أيضاً؟

اعتور معظم الدراسات التي تناولت النثر الفني في عصر الخلافة الأموية النقص من زوايا معينة، أبرزها:

- إنّ بعض الدراسات الأدبية التي درست الأدب في عصر الخلافة انصبّت على دراسة الشعر تحديداً حتى في الكتب التي وسمت بالأدب، فلم يكن حظّ النثر منها إلا اليسير، ولنا في كتاب "تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة" للدكتور إحسان عباس مثال بيّن؛ فالمتوقّع أن تتعادل كفتا الشعر والنثر في الكتاب المذكور، إلا أنّ المطالعة الفعلية له تؤكد أنّ النسبة الغالبة منه كانت للشعر، وللحديث عن أبرز الشعراء في معظم الفصول والأبواب، وحتى حين عرض لابن درّاج الأديب مثلاً، انصبّت الدراسة على إبرازه شاعراً فحسب. أمّا دراسة النثر الفني فجاءت مقتضبة انصبّت على الرسالة الديوانية، ومصنّفي طوق الحمامة والتوابع والزوابع.

- إنَّ بعض الدراسات تناولت فنّاً نثريّاً بعينه عبر العصور الأندلسية المختلفة، فجاء المرور بهذا الفن في عصر الخلافة الأموية مروراً سريعاً آتياً من طول المدّة الزمنيّة المدروسة التي قد لا تُتيح للدارس الوقوف عند هذا الفن في كلّ عصر بالتفصيل والشرح والنمذجة، ومن ذلك رسالتنا نوال الشوابكة وحذيفة عزام، فقد عرضت الباحثة الشوابكة لفن الخطابة في الأندلس، فيما عرض الباحث عزام إلى فن الوصايا في الأندلس، فكان حظّ عصر الخلافة من الدرس والتحليل يسيراً إنَّ بالموضوعات وإنَّ بالسّمات الفنيّة التي تركّزت على الفن الأدبي بمجمله أكثر ممّا ركّزت على الاستقراء الزمني للخصائص الفنيّة، وللموضوعات في كلّ عصر أدبي.

- جاءت بعض الدراسات الأدبية معتمدة على التقسيم الزمني الحدي لا العصور الأدبية، كأنَّ تحدّثت عن القرن الرابع الهجري أو الخامس الهجري مثلاً، ممّا جعل الحديث في بعض الموضوعات منقطعاً عن العصر الأدبي، فعصر الخلافة الأموية امتدَّ إلى الربع الأول من القرن الخامس الهجري إضافة إلى القرن الرابع الهجري، فكانت رسالة فايز القيسي الموسومة بأدب الرسائل في القرن الخامس الهجري مثلاً من هذا الاتجاه، ومع أنّ الباحث أفرد لهذا الفن فصلاً خاصاً عن الرسائل في القرن الرابع، إلا أنّ القطع الزمني بسنة، أو بعام محدّد يعزله أحياناً عن الواقع السياسي، والصدى الأدبي الذي يخضع لتغيّر عام قد يكون العصر الأدبي أصدق في التعبير عنه من مجرد حسم زمني لنهاية قرن مثلاً، ذلك أنّ العصر الأدبي كثيراً ما ارتبط بالعصر السياسي.

- إنَّ التركيز على دراسة بعض الأدباء النثرين دون غيرهم أمثال ابن حزم وابن شهيد في عصر الخلافة الأموية، يجعل الدرس الأدبي ناقصاً لمن أراد استيفاء صورة النثر في ذلك العصر، كما يغيب صورة بعض الأدباء الآخرين أمثال الجزيري وابن درّاج وابن يرد وغيرهم الذين لا يقلون عن شأو كبار الأدباء النثرين.

- عرضت بعض الدراسات للأدب الأندلسي في أكثر من عصر أدبي أندلسي، فصبغت العمومية مثل هذه الدراسات، وغدا من الطبيعي أن يكون المرور بعصر الخلافة - وتحديدًا في النثر - متواضعاً. وتقدّم بعض الكُتب أمثلة واضحة على ذلك مثل كتاب "الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة" لأحمد هيكل، وكتاب "الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة" لمنجد بهجت، فالناظر في الكتاب الأول مثلاً يقف على أنّ نثر عصر الخلافة الأموية لم ينل من مادة الكتاب سوى خمس صفحات أشار المؤلّف فيها إلى جزء من خطبة البلوطي، وجزء من رسالة رسميّة، فيما استأثر الشعر بنصيب الأسد. وإذا كان الكتاب الأول قد وقف عند ثلاثة عصور

أندلسية ولم يكن للنثر نصيب، فلا يُستغرب أن الكتاب الثاني الذي دَرَسَ العصور الأدبية الأندلسية جميعها قد مرَّ بنثر عصر الخلافة بما يعادل الصفحتين فحسب، ولا يُظن بأن هذا تقصير في حق نثر عصر الخلافة؛ لأنَّ طبيعة الدرس الأدبي العام تختلف عن الدرس الأدبي الخاص من حيث الكم والكيف.

- لم تتل بعض الفنون النثرية التي برزت في عهد الخلافة العناية الكافية من الدراسة، ففي حين نالت بعض الفنون كالرسالة والخطبة والتوقيعات دراسات مستقلة متخصصة نوعاً ما ، لم تحظ بعض الفنون كالنثر العلمي والنثر الوصفي والمأثورات وكتب العهود والسفارات مثلاً بدراسات موازية، وإن لم نعدم إشارات متوزعة لتلك الفنون في بعض الدراسات، لكنها ما زالت متواضعة مقارنة بالفنون الأخرى.

ويمكن تلخيص دوافع هذه الأطروحة بأنَّ النثر الفني لعصر الخلافة الأموية الأندلسية دُرِسَ مبتوراً من زاويتين؛ أولاهما دراسة فنِّ نثري بعينه ضمن أكثر من عصر أدبي أندلسي، وثانيتهما غلبة الدراسات الشعرية على النثرية.

ويُتوقع لهذه الدراسة أن تحمل إجابات عن واقع النثر الفني في عصر الخلافة الأموية

ضمن الأوعية الاستفسارية الآتية:-

- ما أبرز العوامل التي ساهمت في تشكيل النتاج النثري لعصر الخلافة؟
- ما أبرز أغراض النثر الفني الأندلسي؟
- من أبرز الأدباء الناثرين الأندلسيين في الأغراض الفنيّة المختلفة؟
- ما أبرز الخصائص الفنيّة التي ميّزت النتاج النثري؟
- هل حمل النثر الفني خصوصية معينة، سواء بالموضوعات أم بالخصائص؟

جاءت الأطروحة في مقدّمة وثلاثة فصول وخاتمة. عرض الفصل الأول للعوامل المؤثرة في حركة الأدب في عصر الخلافة الأموية، وعدّها أرضيةً انبثق عنها النتاج الأدبي، لكون الأدب لا ينفصل عن الظروف العامة للعصر الذي يفرزه، وقُسّم الفصل إلى أربعة مباحث بناءً على التقسيم السياسي، وقد ارتأيت أنْ أعرض لأبرز المظاهر الأدبية وبخاصة النثرية التي سادت في كلِّ عصر ابتداءً بعصر الخليفة الناصر وانتهاءً بزمان الفتنة البربرية مروراً بعهدي الحكم المستنصر والحاجب المنصور، وانتظمت العوامل السياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية هذه المباحث.

أمّا الفصل الثاني فكان في أغراض النثر الفني التي تشعبت إلى أحد عشرَ غرضاً فنياً، واجتهدتُ أن أعرض للنموذج في كثير من هذه الفنون والأغراض؛ لما للنموذج من أثر في إعطاء صورة وافية عن الفن النثري أشمل من مجرد بتر النص وعرض جزئية منه، ومن ناحية أخرى يمثل النموذج في العادة مثلاً مكتملاً على نماذج أخرى في الفن نفسه، يمكن من خلاله أخذ صورة عامة عن الفن النثري الأدبي، مثل كتب الفتوح والمناظرات والمقالة.

وعرض الفصل الثالث للخصائص الفنية للنثر الفني من تسع زوايا؛ أبرزت السمات الفنية التي أثرت في الشكل والمضمون، توزعت ما بين أثر الشخصية والبنية المكانية والزمانية على اللغة والأسلوب، في محاولة استنتاج خصوصية سمات هذا النثر، وحدود الالتقاء والتفرد عن بقية العصور الأدبية.

أمّا مصادر هذه الدراسة فقد تنوّعت ما بين المصادر التاريخية والأدبية والمراجع الأدبية والنقدية الحديثة، وقد غلبت الصبغة التاريخية على مصادر الفصل الأول، وكان مصنفًا المقتبس والبيان المغرب الأكثر بروزاً، فيما رجحت كفة الكتب الأدبية في الفصل الثاني وبخاصة الذخيرة ونفح الطيب والبديع، ومع هذا فلم تغب المصادر التاريخية عن هذا الفصل وبخاصة في فن الرسالة الديوانية.

وجاءت مصادر الفصل الثالث متوزعة بين المصادر الأدبية والتاريخية المختلفة - حين عرض للمثال التطبيقي للسمة المعيّنة - والمراجع النقدية الحديثة التي عززت الخصيصة المعينة من منظار نقدي حديث.

وكانت أدوات البحث متنوعة بحسب الدرس الأدبي أو النقدي للفصل موضوع الدراسة؛ فغلب المنهج الوصفي والتاريخي على الفصل الأول، فيما عضدت المناهج النقدية الأسلوبية والتحليلية الفصلين الثاني والثالث.

وتبقى هذه الدراسة ومضة في حلقة الدراسات الأدبية التي أطلت على النافذة الأندلسية، حاولت فيها الاجتهاد والدرس في تشكيل صورة للنثر الفني في عصر الخلافة الأموية. وتظلّ هذه الومضات تطلب النقد والتحليل والدرس الذي يُذكيها ويقوم عودها، فإن اجتهدتُ وأصبتُ فمنه تعالى الفتح والتوفيق خدمة للغة وأدب نقف أمامهما باستحياء لأنهما يستحقان المزيد، وإن مسّ هذا العمل الخطأ أو التقصير فألمي فيمن يُهدي إليّ عيوبي، فأقومها من ملاحظات أساتذتي الأفاضل، أو ممن يتناولها بالنقد البناء من محبي الأدب الأندلسي والأدب العربي بعامة.

والله ولي التوفيق

الفصل الأول

العوامل المؤثرة في ازدهار الأدب في عصر الخلافة الأموية

(٣١٦ - ٤٢٢هـ -)

- المبحث الأول:- العوامل المؤثرة في الأدب إبّان حكم الخليفة الناصر
- المبحث الثاني:- العوامل المؤثرة في الأدب إبّان خلافة الحكم المستنصر
- المبحث الثالث:- العوامل المؤثرة في الأدب إبّان الحجابة العامرية
- المبحث الرابع:- العوامل المؤثرة في الأدب في عهد الفتنة البربرية

الفصل الأول

العوامل المؤثرة في ازدهار حركة الأدب في عصر الخلافة الأموية ٣١٦-٤٢٢هـ

إنّ الدارس لعصر الخلافة الأموية في الأندلس لا بُدَّ أن يقف عند بعض العوامل التي شكّلت الأرضية الصلبة لعصرٍ ذهبيٍّ ما زال ألقه مُشعّاً في خبايا كتب الأندلس والتاريخ بعامّة، إذ لا خلاف بأنّ القوة السياسية التي ظفرت بها الدولة الأندلسية في عهد الخلافة جذّرت شجرة التألق التي تعددت مظاهرها، فأخذت تسبك ذهبها حلّى متنوعة.

١- العوامل المؤثرة في الأدب إبّان حكم الخليفة الناصر (٣٠٠ - ٣٥٠هـ)

أ- الأوضاع السياسية وعلاقات الجوار

جاءت سنة (٣١٦هـ) نتيجة منسجمة لخمسَ عشرَ عاماً من السير على درب الوحدة والقوة؛ فبعد وفاة الأمير عبدالله بن محمد^(١) سنة ٣٠٠هـ تولّى الخلافة حفيده الشاب أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد الذي عُرف فيما بعد بالناصر لدين الله، فقد ولي الناصر الأمر سنة ٣٠٠هـ " والأندلس جمرّة تحتدم ونار تضطرم، وقد عظم الشقاق والنفاق، وارتجت الآفاق، فسكّنها الله بسعده، وعزّ نقيبته"^(٢).

وجاءت أخباره في الكتب تحكي قصص نجاحه، ففي العام الذي ولي فيه الإمارة كانت أولى غزواته إلى معاقل جيّان^(٣)، حيث كان ابن حفصون^(٤)، فقطع عليه الأمر، لتتوالى الغزوات

(١) الأمير عبدالله بن محمد: ذكره ابن الخطيب بقوله: (كان مقتصدًا في أموره شديد التواضع، لكنّ ابن حزم صرح بالحمل عليه لقتله ولديه معاً وأخيه أيضاً) وكان ذا حظ من الشعر وحسن التوقيع، احتدمت الأندلس بالثورات والفتن في زمانه، ت ٣٠٠هـ. انظر ترجمته في ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب السلمياني (ت ٧٧٦هـ)، أعمال الأعلام (تحقيق ليفي برفنسال)، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦. ص ٢٦ - ٢٨.

(٢) المصدر السابق ص ٢٩.

(٣) جيّان: مدينة أندلسية كثيرة الخصب تقع في سفح جبل عال، وفي داخلها عيون وينابيع مطردة ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية وكانت تربي دود الحرير. انظر الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٩٠٠هـ)، صفة جزيرة الأندلس (تحقيق ليفي برفنسال)، مطبعة دار الجيل، بيروت، ١٩٨٨. ص ٧٠ - ٧١.

(٤) ابن حفصون: هو عمر بن حفصون، كبير الثوّار في الأندلس، استمرت مدة خلافه وفتنته ٥٢ عاماً، وقد تحصن في مدينة بيشتر، وسار في طاعته أكثر بلاد رية وإلبيرة، اقام عهد أمان في خلافة الناصر إلى أن توفي ٣٠٦هـ انظر حول أخباره في ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣١ - ٣٤.

إلى معاقل الأندلس المختلفة من إلبيرة إلى بشيرة^(١) وسرقسطة، ثم توالى الغزوات التي قضت على ثورة ابن حفصون، وعلى الفتن التي دامت قرابة نصف قرن^(٢). ولم تكن الغزوات مقتصرة على محاربة الفتن الداخلية، وإنما كان للناصر انتصاراته على الحدود ضد المسيحيين أيضاً^(٣).

فتنبت بذلك حكم الناصر ليولى الخلافة سنة ٣١٦ هـ، ويبدأ بذلك عصر الخلافة الأموية بانطلاق متينة هيأت له أسباب التفرد. أمّا عن تحوّل هذا الشاب من لقب الإمارة إلى الخلافة فقد يكون له منطقيته فيما ذهب إليه بعض الدارسين أمثال أحمد العبادي الذي يرى أنّ "إقدام عبد الرحمن على إقامة خلافة سنّية جديدة في غرب العالم الإسلامي رغم وجود خلافة أخرى قديمة بالشرق... يعود إلى مصلحة العمل، وتغيّر الظروف السياسية التي حتمت الخروج عن ذلك الأصل النظري، ووضعه محلّ الاجتهاد"^(٤).

ورأي العبادي السابق تدعمه ظروف الانشقاق قبل تحوّل الناصر للقب الخلافة؛ فالخلافة لقب يُوجب الإذعان لأرضيته الشرعية، أمّا الإمارة فقد تتكىء كثيراً على الزعامة القبليّة الموروثة التي ما عادت ظروف الأندلس ترحّب بها، فقد عانى الناس الشقاق، وهذا ابن الأبار يؤكدها حقيقة بقوله: "وظهر لأوّل ولايته من يُمن طائرته وسعادة جده، واتّسع ملكه وقوة سلطانه وخمود نار الفتنة - على اضطرّامها بكلّ جهة - وانقياد العصاة لطاعته، ما تعجز عن تصوّره الأوهام وتكلّف في تحبيره الأقلام"^(٥).

(١) بشيرة: إحدى حصون وادي آش حيثُ تمنّع فيها ابن حفصون وأصحابه، وهو حصن صعب المسير والطرقات وكان يمتاز بكثرة الثلوج. انظر ابن عذاري، أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي (ت ٦٩٥ هـ)، البيان المغرب في أخبار الأندلس المغرب (تحقيق ج س، كولان وليفي بروفنسال)، مطبعة برل، هولندا، ١٩٥١. ج ٢، ص ١٦٢.

(٢) انظر تفصيلاً لهذه الغزوات في المصدر السابق ج ٢ ص ١٦٠ - ١٩٨.

(٣) انظر تفصيلاً في فكري، أحمد، قرطبة في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية د.ت، ص ٨٨ - ١٠٠.

(٤) وقصد بالأصل النظري وجود أكثر من خليفة في آن واحد، وقد أجز ذلك ببعد المسافة. انظر العبادي، أحمد، في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧١. ص ٢٧٧.

(٥) ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله البننسي (ت ٦٥٨ هـ)، الحلة السراء، ط ١، (تحقيق حسين مؤنس)، دار المعارف، القاهرة. ١٩٦٣. ج ١، ص ١٩٨ - ١٩٩.

ولمّا كان لهذا الخليفة ما كان حُق لليراع أن يسأل عن عظيم نتاجه، وشموخ عمله فيما بيّنت جذور دولته.

تكثر الأخبار التي تؤكد مقولة "قرطبة حاضرة الخلافة"، وللمقولة السابقة وقفة في المصادر والمراجع، لعلّ في العناية الشديدة بالنشاط الفكري والعلمي، إضافة إلى الجوانب الحضارية العامّة - ما يعزّز تلك المقولة ويُعليها.

لقد شكّلت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية مسرحاً فكرياً جعلها تتفاخر بذلك وتزدان؛ فلا نستغرب ما نقله المقرئ حين روى أبو الفضل التيفاشي ما قاله ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة على إشبيلية: " ما أدري ما تقول غير أنه إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى إشبيلية" (١).

تتعدّد المظاهر العامة التي شهدتها مدة حكم الناصر، حيث يأتلف الشعر والنثر في رسم زاوية من زوايا تلك القوة السياسية؛ إذ يُؤكد تاريخ تلك الحقبة انشغال الخليفة الناصر بالغزوات وإخماد الفتن والانتصارات فنرى لفتح بيشتر (٢) مثلاً صدىً واضحاً في الأدب فلقد " قالت الشعراء في ذلك أشعاراً كثيرة حسنة" (٣)، ومنها ما قاله ابن إدريس (٤):

أحقاً خُضوعُ المعقلِ المتجبرِ
وفتحُ أمينِ اللهِ حصنِ بيشترِ

(١) المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، فحح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ط١، (تحقيق د. إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨. ج١، ص ١٤٧.

(٢) بيشتر: حصن منيع بينه وبين قرطبة ثمانون ميلاً، وهو حصين تزل عنه الأبصار على صخرة صماء منقطعة لها بابان، يتوصل إلى أعلاهما من شعب يسلكه الرجل الخفيف، وقد كان قاعدة العجم. كثير السديرات والكنائس، وقد أتت فتنة ابن حفصون على أكثر ما به. انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس (تحقيق ليفي بروفنسال) ص ٣٧.

(٣) ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ)، المقتبس، (تحقيق شالميتا و ف. كورينطي)، المعهد الإسباني العربي، مدريد ١٩٧٩. ج٥، ص ٢٢١.

(٤) ابن إدريس: هو أبو عثمان عبيد الله بن يحيى بن إدريس، أحد وزراء الخليفة الناصر المقرئ، ارتبط ذكره بالناصر في خطبة لابن المشاط. انظر القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (تحقيق أحمد بكير)، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧ ترتيب المدارك، ج٣، ص ٤٣٢، ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج٥، ص ٢٢١.

كفى خبراً مُستشنعاً من مُخبرٍ

وحسبك بشرياً أعظمت من مُبشراً^(١)

وقد كان لافتتاح بُبشتر صدّي في الروايات التاريخية لعلّ في رواية الرازي مثلاً على ذلك ممّا فتح القريحة، فنراه يقول: " ثمّ انتقل فيه إلى مدينة بُبشتر فنزل عليها مستقراً فيها، مُحيطاً بها، مُحاصراً لها مضيّقاً عليها.... فعمّ الناصر لدين الله جميعها بالقتال والتضييق، حتى أشرقها بالريق " (٢).

أمّا كتاب الناصر لدين الله بهدم بُبشتر فمظهرٌ آخرٌ قيّد بحبر النصر، واستقر في بطون الكتب عبر الأزمان، فظل مثلاً واضحاً على الكتب الرسمية ضمن الرسائل الديوانية، ونقرأ في افتتاح الكتاب ما نصّه: " الحمد لله الذي علا فقهه، ومكّ فقدره، وأحكم ما دبّر وأعزّ الإسلام ونصره، وأذلّ الكفر ودمر... واستنزلنا من قروم النفاق لكلّ ما استنزلنا حرّماً وتعريجاً إليها، وسعيّاً في الفراغ لها والانفراد لمحاصرتها، وعملاً في إدخال النقض عليها والإيهان لقوتها " (٣).

ومع أنّ الاهتمام بالأوضاع السياسية ممّا شغل الخليفة الناصر، إلا أنّ اهتمامه بالأدب يُستشف في أكثر من خبر في المصادر، وهذا يُلقى بظلاله على ازدهار الأدب في هذه الحقبة؛ فقد كان الخليفة الناصر ممّن " يرتاح للشعر وينبسط إلى أهله، ويراجع من خاطبه به من خاصته " (٤).

وينقل لنا ابن الأبار رواية أبي عمر أحمد بن محمد بن فرج^(٥) صاحب كتاب "الحدائق" قائلاً: " حدّثني أبو بكر إسماعيل بن بدر أنّه خاطب أمير المؤمنين الناصر لدين الله عبد الرحمن

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا)، ج٥، ص ٢٢١.

(٢) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٢٣.

(٣) المصدر نفسه، ج٥، ص ٢٢٧ - ٢٢٩، وسيتم التفصيل بكتاب الفتح هذا في الفصل الثاني.

(٤) ابن الأبار، الحلة السيرة، ج١، ص ١٩٩.

(٥) أحمد بن محمد بن فرج المعروف بالجواني: أديب غزير الأدب، عاش في كنف خلافة المستنصر. ومن مؤلفاته كتاب الحدائق وكتاب المنتزين والقائمين بالأندلس، (ت ٣٦٦هـ)، انظر ترجمته في الحميدي، محمد بن فتوح (ت ٤٨٨هـ)، جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي)، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٥٢. ص ٩٧. - ابن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد، (ت ٥٢٩هـ)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس (تحقيق محمد شوابكة)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣. القسم الثالث ص ٣٣٢ - ٣٣٤. - ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، المغرب في حلى المغرب، ط١، (تحقيق خليل منصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧. ج٢، ص ٥٦.

ابن محمد - رحمه الله - في غزوة كان آلى ألا يأنس فيها بمنادمة أحد حتى يفتتح معقلاً، فافتتح معقلاً بعد آخر، وتمادى على عزمه في العزوف عن المنادمة، فذكر أنه كتب إليه:

لقد حَلَّتْ حُمِيًّا الرَّاحَ عِنْدِي وَطَابَتْ بَعْدَ فَتْحِكَ مَعْقَلِينَ
وَإِذْنَ كُلُّ هَمٍّ بَانَ فَرَاغٍ وَأَنْ يَقْضِيَ غَرِيمٌ كُلَّ دَيْنٍ

قال: فلم يُحرِّكه ما خاطبته به، فعاودته بالمخاطبة، فقلت:

يا ملكاً رأيه ضيَاءٌ في كلِّ خُطْبٍ أَلَمَّ دَاجٍ
مَنْ لِي بِيَوْمٍ بِهِ فَرَاغٌ لَيْسَ أَخُو حَرْبِهِ بِنَاجٍ
بِكُلِّ بَيْضَاءٍ مَنْ رَأَاهَا يَحْسِبُهَا شَعْلَةَ السَّرَاجِ
لَا تَنْسَ مَوْلَاكَ فِي وَغَاهِ وَانْذَرَهُ فِي حَوْمَةِ الْهِيَاجِ

فذكر أنه جاوبه:

كَيْفَ وَأَنْى لَمَنْ يِنَاجِي مِنْ لَوْعَةِ الْهَمِّ مَا أَنْاجِي
يَطْمَعُ أَنْ يَسْتَرِيحَ وَقْتاً أَوْ يَقْتُلَ الرَّاحَ بِالْمِزَاجِ
لَوْ حُمِّلَ الصَّخْرُ بَعْضَ شَجْوِي عَادَ إِلَى رِقَّةِ الزَّجَاجِ^(١)

ولعلَّ أرجوزة ابن عبد ربه في فتوحات الناصر الممتدة من بداية القرن الرابع الهجري إلى ربعه الأول خير دليل على عظم غزواته، وكثرة فتوحاته مما " لا يبلى على مرّ الأحقاب أثرها"^(٢) وفيها يقول:

سَبْحَانَ مَنْ لَمْ تَحْوِهِ أَقْطَارُ وَلَمْ تَكُنْ تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ
وَمَنْ عَنَتَ لَوَجْهَهُ الْوَجُوهُ فَمَا لَهُ نَدٌّ وَلَا شَبِيهِه

ونستطيع القول إن انتصارات الخليفة الناصر المتلاحقة، وتوطيد أركان الخلافة الأموية الأندلسية انعكس على الأدب فيما شكّله من مادة للشعر وللخطب في تلقّي أخبار الانتصارات والإشادة بالفتوحات. ناهيك عن كُتُبِ الفتوح والبشارة وكتب الولاء والطاعة^(٣) التي حفظت لنا المصادر عدداً منها بالنصّ الحرفي أو بالمضمنون، وأحياناً بالإشارة إليها.

(١) انظر الخبر في ابن الأبار، الحلة السيرة، ج١، ص ١٩٩ - ٢٠٠.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٣٢٥.

(٣) سيفصل هذا بنماذج متعددة في الفصل الثاني (باب الرسائل الديوانية).

ولا يغيب عن الذهن أنّ تلك القوة السياسية قد جعلت قرطبة محطّ الوفود والسفارات التي جاءت "راغبةً في إيقاع المؤالفة واتّصال المكاتبة"^(١)، فانعكس ذلك على الأدب في مظهرين بارزين؛ شكّلت الرسائل التي كانت تُحمل عبر تلك الوفادات والسفارات شقّها الأول^(٢)، فيما مثّلت الخطب^(٣) التي كانت تُعدّ وتُعرض لتلك المناسبات المميّزة المهيّبة شقّها الثاني.

ب- الأوضاع الاقتصادية والمظاهر الحضاريّة

تقدم المصادر التاريخية اعترافاً جلياً بشغف الخليفة الناصر بالعمران، ويُستجلى ذلك بوضوح من مواقف عديدة، وأخبار شتى لعلّ معظمها متعلّق ببناء مدينة الزهراء وتوسعة مسجد قرطبة العظيم؛ إذ شكّل ذلك مظهراً يُقرأ صدهاء في الأدب بوضوح.

جاء بناء مدينة الزهراء تنويجاً لبدء الاستقرار في دولة بني مروان في الأندلس، وينقل لنا المقرّي خبر بناء الزهراء قائلاً: "لما استفحل مُلك الناصر، صرف نظره إلى تشييد القصور والمباني، وكان جدّه الأمير محمد وأبوه عبد الرحمن الأوسط، وجده الحُكم قد احتفلوا بذلك وبنوا قصورهم على أكمل الإتقان والضخامة. وكان فيها المجلس الزاهر والبهو الكامل والمنيف، فبنى هو إلى جانب الزاهر قصره العظيم وسماه "دار الروضة"، وجلبّ الماء إلى قصورهم من الجبل، واستدعى عُرفاء المهندسين والبنّائين من كلّ قطر، فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية..... ثمّ اختطّ مدينة الزهراء^(٤) واتّخذها لنزله كرسياً لمُلكه، وأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما عفى على مبانيهم الأولى، واتّخذ فيها محلات للوحش فسيحة الفناء متباعدة السياج، ومسارح للطيور مظلّلة بالشباك، واتّخذ فيها دوراً لصناعة الآلات من آلات السلاح للحرب والحلى والزينة، وغير ذلك من المهن. وأمر بعمل المظلة على صحن الجامع بقرطبة وقايةً للناس من حرّ الشمس"^(٥).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٣١٥.

(٢) سيفصل هذا في الفصل الثاني (باب السفارات والعهود).

(٣) سيفصل هذا - وعلى الأخص خطبة البلوطي المشهورة - في الفصل الثاني (باب الخطب السياسية).

(٤) يعزو المؤرخون أسباب إنشاء مدينة الزهراء إلى قصة تقترب من الأساطير؛ فهم يذكرون أن جارية من جوارى الناصر حصلت على أموال كثيرة أوصت بها لافتداء أسرى المسلمين، ولكنّ الناصر لم يجد أسيراً ليفتدي فطلبت منه جاريته الزهراء وكانت أثيرة عنده أن يبني بالمال مدينة تحمل اسمها فاستجاب لرغبتها إلا أن بعض الكتاب المحدثين لم يرق لهم ذلك ونسبوا اسم المدينة إلى قصورها الزاهرة. انظر حول ذلك في المقرّي، نفع الطيب، ج٢، ص ٦٥ - أدهم، علي، عبد الرحمن الناصر، دار القدس، بيروت، ١٩٧٥. ص ١٣٨ - أبو زيتون، وديع، تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة القرطبية، الأهلية للنشر، عمان، ٢٠٠٥. ص ٣٣٨.

(٥) المقرّي، نفع الطيب، ج٢، ص ٤١١.

أمّا ما أنفقّه الناصر على هذه المدينة فجوابه في بطون الكتب، إذ يذكر ابن عذاري في البيان المغرب أنّه: " ابتدئ بنائها من أول سنة ٣٢٥هـ، وكان يُصرف فيها كل يوم من الصخر المنجور ستة آلاف صخرة سوى التبليط في الأوسوس. وجلب إليها الرخام من قرطاجنة إفريقية ومن تونس، وكان الأمناء الذين جلبوه عبدالله بن يونس، وحسن القرطبي، وعلي بن جعفر الإسكندراني، وكان الناصر يصلهم على كل رخامة بثلاثة دنانير... وعلى كل سارية بثمانية دنانير سجلماسية، وكان فيها من السواري أربعة آلاف سارية وثلاثمائة سارية وثلاث عشرة سارية، والمجلوبة منها من إفريقية ألف سارية وثلاث عشرة سارية، وسائر ذلك من رخام الأندلس. وأمّا الحوض الغريب المنقوش المذهب بالتمثيل فلا قيمة له، جلبه ربيع الأسقف من القسطنطينية من مكان إلى مكان حتى وصل في البحر، ووضع الناصر في بيت المنام في المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس. وكان عليه اثنا عشر تمثالاً من الذهب الأحمر مُرصعاً بالدرّ النفيس الغالي ممّا صنعه بدار الصنعة بقصر قرطبة، وكان المتولي لهذا البيان المذكور ابنه الحكم، لم يتكل الناصر فيه على أمين غيره، وكان يُخبز في أيامه كل يوم برسم حيطان البحيرات ثمان مائة خبزة، وهذا من أعظم الأشياء، إلى ما فوق ذلك. وكان الناصر قد قسم الجباية على ثلاثة أثلاث، ثلث للجند، وثلث للبناء، وثلث مدّخر. وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة ألف وثمانين ألف دينار، ومن المستخلص والأسواق سبعمائة ألف دينار وخمسة وستين ألف دينار^(١).

إن الوشائج القوية التي تربط الخليفة الناصر بالزهراء، تبرز شغف الخليفة بالبيان، إضافة إلى تميّز هذه المدينة التي تكاد المصادر التاريخية تجمع على أنّه ممّا لم يُبن مثلها في الإسلام ألبتة وأنّه "ما دخل إليها قطّ أحد من سائر البلاد النائية، والنحل المختلفة من ملك وارد ورسول وافد، وتاجر وعالم إلاّ وقطع أنّه لم ير شيئاً لها"^(٢).

ويكفيها كما ينقل لنا المقرئ السطح الممرّد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبّة، وعجيب ما تضمّنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة.... وحياض وتمثيل عجيبة الأشخاص لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها^(٣).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٤٥.

(٢) انظر أدهم، عبد الرحمن الناصر، ص ١٣٨ - بلباس، ليوبولد، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ط ١، (ترجمة علي البمبي وآخرين)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢. ج ٢، ص ١٢٠ - ١٢١.

(٣) المقرئ، نفح الطيب، ج ٢، ص ١٠٢.

ويبدو أنّ السجال الذي دار بين الخليفة الناصر والقاضي الخطيب المنذر بن سعيد البلوطي يؤكّد ما كانت تعنيه الزهراء وعظمتها للناصر من جهة، وتُبرز أثر هذه المدينة على موضوعات النثر، وبخاصة ما نُقل على لسان الخطيب منذر البلوطي الذي يُعدّ من أبرز خطباء عصر الخلافة، ويغدو خبر بناء هذه المدينة مادة للخطب والمساجلات بين الخليفة وإمام دار الخلافة؛ فيُروى: "أنّ الناصر لدين الله اتخذ بسطح القبة الماثلة على الصرح الممرّد المشهور شأنه بالزهراء، قراميدَ مغطّاة ذهباً وفضة، أنفق عليها مالاً جسيماً، وقرمداً سقّفها بها فاقعة إلى بيضاء ناصعة تستلب الأبصار بمطارح أنوارها المشعّعة. وجلس فيها إثر إتمامها لأهل مملكته، فقال لوزرائه وخاصته، مفتخراً بما صنعه، وبما يتّصل به من البدائع: هل سمعتم أو رأيتم ملكاً كان قبلي فعل مثل فعلي هذا أو قدر عليه؟ فقالوا: لا والله يا أمير المؤمنين! وإنّك لأوحد في شأنك كلّ، وما سبقك إلى مبتدعاتك هذه ملك رأينا، ولا انتهى إلينا خبره... فأبهجه قولهم وسره جداً. وبينما هو كذلك تضحك أسارير وجهه، إذ دخل عليه القاضي منذر بن سعيد واجماً ناكساً، فلما أخذ مجلسه، قال له كالذي قال لوزرائه من ذكر السقف المذهب، واقتداره على إيداعه. قال: فأقبلت دموع القاضي تنحدر على لحيته، وقال له: " والله يا أمير المؤمنين! ما ظننت أنّ الشيطان - لعنه الله - يبلغ منك هذا المبلغ، ولا أنّك تمكّنه من قيادك هذا التمكن، مع ما آتاك الله وفضلتك به على العالمين، حتى ينزلك منازل الكافرين، قال: فاقشعرّ عبد الرحمن الناصر لدين الله وقال: انظر ماذا تقول! كيف أنزلتني منازلهم؟ فقال: نعم، أليس الله تعالى يقول: [ولولا أنّ يكون الناس أمةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضةٍ ومعارجٍ عليها يظهرون * ولبيوتهم أبواباً وسريراً عليها يتكئون] ^(١) قال: فوجمّ الناصر لدين الله، ونكس رأسه ملياً ودموعه تنحدر على لحيته خشوعاً لله تعالى، وتذمّماً ممّا أجري إليه، ثمّ أقبل على منذر بن سعيد فقال: جزاك الله عناً وعن نفسك خيراً، وعن المسلمين والإسلام خير جزائه. وكثّر في الناس أمثالك! فالذي قلتَ هو الحق.. وقام من مجلسه ذلك يستغفر الله، وأمر بنقض سقف القبة، وإعادة قراميدها تراباً على غير تلك الصفة" ^(٢).

والناظر في الخبر السالف يتنبّط من مظهر كان له أعمق الأثر في ازدهار العلم والأدب؛ ذلك أنّ جوّ الحرّية الذي يتيح للخطيب وللعالَم أن يذكر رأيه بصراحة - حتى لو خالف

(١) سورة الزخرف الآيتان (٣٣ - ٣٤).

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٨، وانظر تفصيلاً آخر للخبر في ابن خاقان، مطمح الأنفس ص ٢٥٧ - ٢٥٩.

السلطان - يوسّع دائرة الفكر ويعليها، ليُشاهد هذا الخطيب وأمثاله يتبارون في الأفضل والأجود دون خوف، فتفتح القرائح ويحسن الكلام.

ويقرأ تقبل الخليفة الناصر للرأي وتحكيمه للمنطق في أكثر من خبر، ومن ذلك أن الخليفة قد تغيب عن شهود الجمعة بالمسجد الجامع في قرطبة ثلاث جمعة متواليات منشغلاً بالبنيان، ثم حضر الجمعة الرابعة فانتقده منذر بن سعيد في خطبته بقوله: [أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةً تَعْبَثُونَ] (١) فتحرك الناس لذلك، وعلم الناصر أنه عرض به. فلما فرغ قال لابنه المستنصر فيما جرى عليه منه، ثم قال: لكن علي الله يميناً ألا أصلي خلفه ما عشت. فلما جاءت الجمعة الثانية قال لابنه: كيف صنع في اليمين؟ قال يؤمر بالتأخر ويُستخلف غيره، فاغتاظ الناصر وقال: أيمثل هذا الرأي الفائل تشير علي! والله لقد ندمت على ما فرط مني في اليمين، وإنني لأستحي أن أجعل بيني وبين الله غير منذر. ثم رأى أن يصلي في جامع قرطبة، فواصل ذلك بقية مدته (٢).

ولا يستطيع الدارس أن يمرّ بأخبار الناصر المتعلقة بشغف البنيان، دون أن يكون للحكام وللسفارات التي غشيت قصره نصيب؛ إذ كانت قصور الزهراء مما زينت بأبهى حللها، وكان حُسن الاستقبال وكرم الضيافة المادة الخصبة للخطباء والأدباء، فأبلغوا في ذلك وتباروا، ومن ذلك ما نقله صاحب مطمح الأنفس في ترجمته للبلوطي من " أن الناصر لما احتفل لدخول ملك الروم صاحب القسطنطينية بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره وانبهر أمره، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه بذكر جلاله مقعده، ووصف ما تهيأ له من توطد خلافته، ورمي الملوك بأمالها، فنقدّم إلى الأمير الحکم ابنه بإعداد من يقوم لذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء، فنقدّم الحکم إلى أبي علي البغدادي (٣) ضيف الخلافة، وأمير الكلام وبحر اللغة أن يُقام، فقام - رحمه الله - وأثنى على الله وصلّى على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم انقطع وبُهِت، فما وصل إلا قطع، ووقف ساكناً متفكراً، وتشوّف لا ناسياً ولا متذكراً، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام من ذاته بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبي علي البغدادي بكلام عجيب، ونادى من الإحسان في ذلك المقام كل مجيب، وقال: أمّا بعد: فإن لكل حادثه مقاماً ولكل مقام مقال، وليس

(١) سورة الشعراء الآية (١٢٨).

(٢) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٢٤.

- انظر تفصيلاً للحادثة في ابن خاقان: مطمح الأنفس، القسم الثاني، ص ٢٤٥ - ٢٤٨.

(٣) أبو علي البغدادي: هو اسماعيل بن القاسم القالي، قدم من المشرق ودخل الأندلس سنة ٣٣٠هـ، ومن مؤلفاته النوادر و الأمالي (ت ٣٥٦هـ)، انظر الحميدي: جذوة المقتبس ص ١٥٤. - الضبي، أبو جعفر محمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ)، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس (تحقيق روحية السويقي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧. ص ٢٣١.

بعد الحق إلا الضلال. وإني قمتُ في مقام كريم بين يدي ملكٍ عظيم، فأصغوا إلي بأسماعكم، والفتوا عليّ بأفئدتكم، معاشرَ الملأ: إنَّ من الحق أن يُقال للمحق صدقتَ وللمبطل كذبتَ..... وصارتُ وفود الروم وافدة عليكم، وآمال الأقبصين والأدنين إليكم، يأتون من كلِّ فجٍّ عميق، وبلدٍ سحيق. إلى أنْ أنهى، فقال العليج: هذا والله كبشُ الدولة. وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه، وثباتِ جنانه وبلاغة لسانه، حتى إنَّ الخليفة الناصر لدين الله سأل عنه ابنه الحكم، فأجابه بأنَّه منذر بن سعيد البلوطي، فقال الناصر: والله لقد أحسنَ ما أنشأ، ولئن أبقاني الله تعالى لأرفعنَّ ذكره؛ فضع يدك يا حكْمُ عليه واستخلصه وذكّرني بشأنه، فما للصنعة مذهب عنه. فلما ابنتى الناصر الجامع بالزهراء ولآه الصلاة فيه والخطبة^(١).

لا غرو أنْ ورود الحكام على بلاط الخليفة مما كثر ذكره على ألسنة الأدباء، وما نرى فيما عُرِضَ آنفاً إلا واحداً من الأدلة على علو شأن هذا المظهر في الأدب، يضاف إلى ذلك قدوم السفارات التي جابت بلاط الخليفة الناصر فكان لها صداها الواضح^(٢)، ويبقى الرخاء الاقتصادي الذي عمّ دولة الناصر ممّا انعكس على أحوال الشعب بعامة، ويتساءل الدارس عن أثر ذلك الرخاء على الأدب تحديداً؛ فالمتوقع أن دار الخلافة قد أغدقت على الأدباء، وأن ذلك كان سبباً في التنافس بين الشعراء والناثرين، ويعضد هذا التوقع مطالعة في مصنفات كتب التراجم، إذ تكثر الإشارة إلى إكرام الخليفة الناصر وابنه الحكم للعلماء، فتبرز عبارات من مثل "وتوسّع له في العطاء" أو "توسّع له في النزل". ويشمل ذلك الترجمة لعلماء وأدباء استقروا بالأندلس، أو رحلوا إلى المشرق ثم عادوا إلى قرطبة، أو ممّن وفد من المشرق؛ نذكر منهم على سبيل المثال الحصني الشاعر الذي قدم من مصر سنة ٣٤٣هـ وحين وصل قرطبة زمن الخليفة الناصر أمر له ولي العهد الحكم بالإنزال والتكريم "وتوسّع له في العطاء وأثبتته في ديوان قریش"^(٣).

ولم تتعد ترجمة الرباحي محمد بن يحيى عمّا سبق، فقد ذكره صاحب طبقات النحويين بقوله: "رحل إلى المشرق فلقي النحاس ... فحمل عنه كتاب سيبويه رواية ... وقدم قرطبة فلزم التأديب، وقُرئ عليه كتاب سيبويه، وأخذ عنه رواية، وعقد للمناظرة فيه مجلساً كلَّ جمعة، ولم

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني، ص ٢٣٩ - ٢٤٥.

(٢) انظر تفصيلاً في تلك السفارات وكيفية استقبالها وعددها وهداياها ومضمونها في الحجى، عبد الرحمن، العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع، المجمع الثقافي، الإمارات، ٢٠٠٢. ص ٧٠ - ٩٥.

(٣) انظر ترجمته في ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد (ت ٤٠٣هـ)، تاريخ علماء الأندلس، ط ٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩. تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ترجمة ١٤٠٥.

يكن عند مؤدبي العربية ولا عند غيرهم من عني بالنحو كبير علم حتى ورد محمد بن يحيى هذا عليهم ... واستأدبه أمير المؤمنين الناصر لولده المغيرة، ثم صار بعد ذلك إلى خدمة أمير المؤمنين المستنصر في مقابلة الدواوين ... وتوسّع له - رحمه الله - في النزل والجرية، ولم يزل لديه أثيراً^(١).

والناظر في خبر الرباعي السابق يقف عند مجموعة من المظاهر الثقافية التي لا نتوقع أنها يتيمة في هذا الخبر فحسب، بل من المتوقع أنها مثال لما كان يدور في ذلك العصر؛ فدخل كتاب سيبويه رواية يشكّل وقفة للدارس، ثم ما يعقد من مناظرات أسبوعية فيه، والأغلب أن أهل اللغة والأدب هم من كانوا يتبارون للزوم تلك المساجلات. أضف إلى ذلك ما تعلّق بمقابلة الدواوين والاهتمام بالنتقيح والتجويد من مصادر مختلفة، وصولاً إلى إكرام الخليفين لهذا العالم الجليل في مظهر جليّ لانعكاس الأحوال الاقتصادية على الأحوال الثقافية. ومن نافلة القول التكهن بأن أمثال هؤلاء العلماء والأدباء الذين كانوا يتكبّدون السفر إلى المشرق لو لم يلاقوا ذاك التكريم لما آتت رحلاتهم أكلها، ولما تشجّع البقية في تكبّد عناء السفر، والرحلة في طلب العلم من بعدهم.

ويمكننا إضافة استكتاب دار الخلافة لعدد من الكتاب المبرزين مظهراً آخر من مظاهر انعكاس الرخاء الاقتصادي على الأدب، نذكر منها من الوزراء الحاذقين في دواوين الإنشاء والرسائل ابن شهيد الجد^(٢)، وجعفر المصحفي^(٣) اللذين شهدت لهما كتب التراجم بالنفوق. وتعزّز الأخبار الكثيرة التي وصلت إلينا حول تميّز العلوم والآداب في قرطبة، بعصر الخلافة الأموية الأندلسية تحديداً، أنّ الظروف العامة ومن بينها الرخاء الاقتصادي قد ساهمت في خلق ظاهرة فكرية وأدبية متميزة جعلت "قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ومحط الرحلة في رواية الشعر والشعراء، ومركزاً للكرماء الأفاضل من العلماء والأدباء."^(٤)

(١) انظر الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ)، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤. ص ٣١٠ - ٣١٤.

(٢) ابن شهيد الجد: هو أحمد عبد الملك بن شهيد، استوزره الخليفة الناصر في دولته، وكان ذا حظّ وافر في البلاغة والأدب فسمّى بذى الوزارتين، وكان بذلك أول من تسمّى بها بالأندلس. وهو صاحب الهدية المشهورة للخليفة الناصر التي قال عنها ابن خلدون "إنه لم يتهدأ أحد بها من ملوك الأندلس". انظر ترجمته في المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٣٥٨ - ٣٦٠.

(٣) الوزير الأديب جعفر بن عثمان المصحفي: عمل مؤدباً للحكم فاستخدمه الحكم في وزارته وأمضاه على كتابته الخاصة، لكنّ نجمه أفل مع حجابة المنصور الذي كاد له وقتله. انظر ترجمته في ابن عذاري، البيان المغرب، ج ١ ص ١٢٢. - ابن الأثير، الحلة السيرة، ج ١، ص ٢٥٧ - ٢٦٧.

(٤) المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ١٤٧.

ج- الأوضاع الاجتماعية

لعلّ الاقتراب من المجتمع الأندلسي يجعل الدارس يتقرّى ويكتشف خصائص تفسّر له جوانب من ازدهار الأدب في هذه الحقبة، إذ يشير أ. بيبير غيشار^(١) إلى " أن مختلف العناصر العرقية الدينية التي يتكوّن منها المجتمع الأندلسي بقيت على شكل فسيفساء، مكوّنة من مجموعات متجاورة أكثر ممّا هي منصهرة لمدة طويلة في خليط اجتماعي معقد من جراء التناقضات وبخاصة زمن الاضطرابات"^(٢). ثمّ يتابع غيشار حديثه عن المجتمع الأندلسي وصولاً إلى القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) قائلاً: " وقد ساعد على رجوع السلم السياسي والصلح المدني الإنهاك الذي أصاب الطبقة الشعبية وتزايد عدد المعتنقين للإسلام، والشعور المتزايد بضرورة الوحدة في الجماعة الأندلسية وعوامل أخرى، كان العامل الأساسي في استرجاع سلطة الحكم المركزي على مجموع التراب الأندلسي هو الأمير الأموي الثامن عبد الرحمن الثالث أمير قرطبة"^(٣).

إن رأي غيشار يتوافق وما نقلته المصادر التاريخية عن تغيير حال الأندلس السياسي والاجتماعي والاقتصادي مع قدوم الخلافة الناصرية، فيغدو من المنطقي بعد زوال بذور الشقاق واستتباب الأمن أن يتسابق الأدباء والعلماء إلى بلوغ نهاية الأدب؛ ذلك أن تجانس المجتمع وانصهاره في بوتقة واحدة من المظاهر التي سادت قرطبة في القرن الرابع الهجري، فغدت قرطبة محطّ أنظار العلماء والأدباء؛ فلا نعجب من قول الحجاري في المسهب: " وكانت قرطبة في الدولة المروانية قبة الإسلام ومجتمع علماء الأنام الأعلام، بها استقرّ سرير الخلافة المروانية وفيها تمخّضت خلاصة القبائل المعديّة واليمانية، وإليها كانت الرحلة في رواية الشعر والشعراء إذ كانت مركز الكرماء ومعدن العلماء، ولم تزل تملأ الصدور منها والحقائب، وبياري فيها أصحاب الكتب أصحاب الكتائب"^(٤)، ويضيف الحجاري: " وهي وطن أولي العلم والنهْي وقلب الإقليم، وينبوع متفجّر العلوم، وقبة الإسلام وحضرة الأنام، ودار صوب العقول، وبستان ثمر الخواطر وبحر دُرر القرائح. ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر وفرسان النظم والنثر، وبها أنشئت التأليفات الرائعة وصنّفت التصنيفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم حديثاً

(١) أ. بيبير غيشار Pierre Guichard أستاذ تاريخ العصر الوسيط في جامعة لومبير - ليون الثانية.

(٢) الحبوسي، سلمى، الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ط٢، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٩. فصل زينة الدنيا بقلم بيبير غيشار، ج٢، ص ٩٧٣.

(٣) المرجع نفسه، ج٢، ص ٩٧٣.

(٤) المقرّي، نفع الطيب، ج١، ص ١٤٧.

وقديماً على مَنْ سواهم أن أفقهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب لأنواع العلم والأدب.^(١)

إن سبراً أكثر للمجتمع الأندلسي يجعلنا نفصل في العلاقات الاجتماعية التي أطرت حيثيات المجتمع الأندلسي، فكانت الدولة منفتحة على شعبها، وما أدل على ذلك من قضائها المتميز الذي تشهد له الأخبار المروية، والمصنّفات المتخصصة، أضف إلى ذلك المرأة وعملها حتى في دور الخلافة. ليرز السؤال واضحاً حول تأثير هذه العوامل في أدب تلك الحقبة. إن شيوع الأمن وسيادة الاستقرار يشكّلان أذرعاً قوية تجعل الشعب يصفق بقوة لسيادته، فإذا أضفنا أن هذا الأمن والاستقرار قد ارتبط بقضاء نزيه وشريعة مطبقة وحزم اقتضته الظروف، فلا نعود نجد تناقضاً فيما يعرض له "لين بول ستانلي" في مصنّفه "قصة العرب في إسبانيا" حين عرض لحزم سياسة الخليفة الناصر قائلًا: "فحكّم مستنقلاً الرأي مستنبداً، وقابلت الأمة استبداده بسرور وغبطة بعد عدة سنوات قضتها في الاضطراب والفوضى، وبعد أن استراح الناس من العصبية التي كانت تغير على زروعهم وكرومهم...^(٢).

ويستشف من الخبر السابق أن الاستبداد لا يمكن أن يقابل الظلم كما هو المعهود، وإنما الحديث كان مختصاً بالحزم، إذ يبين الخبر نفسه استقبال المجتمع الأندلسي لتلك السياسة المستبدة! إذ قوبل ذلك بفرح وغبطة، وما ذلك إلا لإحقاق الحق، ويبدو أن "بني عامر لم يكونوا طغاة مستبدين كما وصفهم بعض الدارسين مستندين على ذلك بقتل الناصر لابنه عبدالله الذي تأمر عليه عام ٣٣٩هـ، واستعانته بالعناصر الأجنبية من الصقالبة الذين وثق بهم وولاهم أهم الوظائف في الجيش والحكومة، لكن فاة هؤلاء جميعاً أن يعرفوا طبيعة العصر وطبيعة الشعب، ووضع الدولة الأندلسية التي كان يحيط بها الأعداء من شمالها وجنوبها، وفاتهم أيضاً ماذا كان يحدث للأندلس لو نجح عبدالله في مؤامراته وقتل أباه ذلك الخليفة العظيم الذي رأب الصدع وأعلى كلمة الإسلام"^(٣).

لعل في مطالعة مصنّف الخشني "قضاة قرطبة" إجابة شافية لما شكّله مظهر العدل من أمن، فهدأت النفس واطمأن السكان، فغداً للفكر تجوال، وللأدب مطالعة وتذكّار، فنقرأ في مقدمة المصنّف خبر تأليف الكتاب في "أنه لما وصل الله بالأمير الحكم المستنصر - ولي عهد المسلمين - أسباب السعادة، ومدّ له في مدة العز، ولما حسن رأي الأمير أبقاه الله واستحكمت

(١) المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ١٤٧.

(٢) ستانلي، لين بول، قصة العرب في إسبانيا، (ترجمة علي الجارم)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٧. ص ٩٧.

(٣) عبد الحليم، رجب، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٥. ص ١٨٦.

بصيرته في حفظ العلوم ومطالعة الأخبار وفي معرفة النسب وتقييد الآثار، وفي الإشادة لفضائل السلف والتقليد بمناقب الخلف... فتحرّك أهل العلوم بما حرّكهم إليه الأمير؛ فاستحفظوا ما أضعوا من غرر الأخبار وقيدوا ما أهملوا من عيون المعارف، واتصلت بجمعهم بركة الأمير في ذلك"^(١). ثمّ يضيف الخشني حول الفصول المتعلّقة بصفات القضاة ونصحهم من الخلفاء قائلاً: " وفي نصح القضاة بحميد العظمت وفي إيثار الصدق وتأييد الحق؛ وذلك جدير بقضاة هذا المصر الأكبر: بيضة الخلافة ودار الإمامة، وحاضرة الجماعة ومعدن الفضائل، ومسكن الأفاضل وكمين العلوم ومجمع العلماء وقاعدة الأرض؛ فأدام الله فضلها وأكمل حسناتها بالإمام العادل، والملك الفاضل أمير المؤمنين عبد الرحمن ثمّ بالمصطفى لعهد "^(٢).

إنّ نظرة متعمّقة فيما سبق تبين مدى اهتمام الخلافة بالقضاء ونزاهته. وما الطلب بتصنيف مثل هذا الكتاب إلا من باب تمثّل أخبار العدل وتحقيق الأمن. ولعلّ في عبارة الخشني " وذلك جدير بقضاة هذا العصر " ما يؤكّد مدى حاجة قرطبة للأمن، وهو ما تحقّق بالفعل"^(٣). ولا تقتصر مظاهر العدل على نزاهة القضاء وأخباره، بل تتجاوزها إلى أخبار الخلفاء أنفسهم، إذ تتناقل المصادر بعض الروايات التي تعزّز مظاهر العدل وإنصاف المظلوم، ومن ذلك ما نقله ابن سعيد عن الحجاري في أخبار الناصر، فذكر أنّه " رُفِعَ للناصر أنّ تاجراً زعم أنّه ضاعت له صُرة فيها مائة دينار، ونادى عليها واشترط أنّ يهب للآتي بها عشرة دنانير، فجاء بها رجل عليه سمة خيرٍ ذكرَ أنّه وجدها، فلمّا حصلت في يديه قال: إنّها كانت مائة وعشرة، وأنّ العشرة نقصت منها أخذها الذي أتى بها، وأبى أنّ يدفع له ما شرط. فوقع الناصر: صدّقَ التاجر والرجل الذي وجد المال، ولولا صدّقَ الرجل ما أتى بشيء مجهول، فاردّد عليه المائة، ونادى على مال التاجر، فإنّه مائة وعشرة "^(٤).

(١) الخشني، أبو عبدالله محمد بن حارث (ت ٣٦١هـ)، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية (تحقيق السيد عزت العطار)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤. ص ١٠ - ١١.

(٢) الخشني، قضاة قرطبة، ص ١٠ - ١١.

(٣) انظر جرّار، صلاح، صلاة في أروقة الزهراء، أمانة عمان الكبرى، عمان، ٢٠٠٣. باب عوامل النهضة، ص ٦١ - ٦٦.

(٤) ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٢٦.

والخبر السابق على ما فيه من لطافة وملحة يؤكد فراسة الناصر وحزمه في اتخاذ القرار، كما إننا لا نعدم أخباراً موازية في اتخاذ القرار الصائب حتى لو كان مما يتعارض مع مصلحة الخليفة، أو لا يتوافق مع مزاجه^(١).

ويُلمح أثر القضاء في الأدب في بعض الفنون النثرية كفن التوقيعات وفن الرسائل الديوانية؛ إذ حفظت لنا المصادر بعض التوقيعات^(٢) للقضاة التي تميزت بجزالة واضحة، فكان لزاماً على مجتمعٍ تميّز فيه القضاء العادل أن يتميز بقدرة بلاغية واضحة للقضاة تجعل أحكامهم أو توقيعاتهم على المظلمات أمراً مميّزاً. ولا ننسى أن مجموعة من الأعلام الخطباء قد اشتهروا في القضاء أيضاً كالخطيب منذر بن سعيد البلوطي، ونقرأ في المصادر أيضاً نماذج متعددة من كتب رسمية اختصت بالقضاء العادل^(٣)، ولم يغب ذلك المضمون عن الوصايا وعن الخطب. وعلينا الاعتراف أنه لولا ذلك الهامش من الحرية والنزاهة في حكم الشعب لَمَا ازدهر الأدب ذلك الازدهار.

ولا يكتمل الحديث عن مظاهر الحرية في الأندلس دون الولوج الى مرآة من مرايا المجتمع، تحكي أحواله. وإنما أخصّ بحديثي هذا المرأة الأندلسية التي نالت قسطاً من الحرية يمكن استكشاف أركانه من مطالعة المصادر الأندلسية ومراجعتها، فالمرأة الأندلسية تخرج للعمل حتى في دور الخلافة، وهي في مجالس الخلفاء والعلماء ومنتديات الشعراء، فيذكر لنا صاحب الصلة إحدى كاتبات الخليفة الناصر واسمها مزنة، وقد كانت حاذقة في الخط^(٤)، والترجمة السابقة لمزنة تكشف عن مهنة للعمل في ديوان الخليفة لم تكن مقتصرة على الرجال. وعوداً على بدء فإن الإقرار بانفتاح المجتمع الأندلسي واقع تُقرّه الأخبار والحوادث، إذ نطالع في سيرة ابن حزم الأندلسي ما مفاده أن النساء كنّ يؤدّبن التلاميذ، ويبدو أن ذلك كان دارجاً، فيقول ابن حزم " وهنّ علّمنني القرآن، وروينني كثيراً من الأشعار، ودرّبنني في الخط".^(٥) وهذا دليل واضح على اتساع الأفق الفكري والأدبي، والعناية بالخط بشكل ملحوظ. وقد عزا (روبرت هيلنبراند) ازدهار الثقافة في الأندلس في عهد الخلافة إلى استخدام عشرات

(١) انظر بعض هذه الأخبار في القاضي عياض، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (تحقيق أحمد بكير)، ج ٣، ص ٣٩٩ - ٤٠٢.

(٢) سيتم التفصيل بهذا في الفصل الثاني (باب التوقيعات).

(٣) سيتم التفصيل بهذا في الفصل الثاني (باب الرسائل).

(٤) ابن بشكوال، أبو القاسم خلف بن عبدالله (ت ٥٧٨هـ)، الصلة في تاريخ علماء الأندلس (تحقيق عزت العطار)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤. ج ٢، ص ٦٥٤.

(٥) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)، طوق الحمامة في الألفه والألاف (تحقيق إحسان عباس)، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت ١٩٩٣. ص ١٦٦.

النساخات النساء حيث عدّ مراكز النسخ تلك بمثابة دور النشر في هذه الأيام^(١). وإذا كنا نتفق مع الباحث هيلنبراند في حكمه النهائي على مساهمة المرأة في الدور الإعلامي، إلا أنه من الضرورة توسيع دائرة دور المرأة الثقافي والفكري على ما يزيد على دور نسخ الكتب والامتهان بذلك من أجل كسب العيش، إذ تُظهر مطالعةً لمصنّف ابن حزم مثلاً "طوق الحمامة" الهامش الكبير الذي أعطي للمرأة في الحرية، فأخذت تُشاطر الرجل في آرائه ودوره الفكري والاجتماعي^(٢).

وإذا كانت هذه هي أحوال المرأة من الوجهة الاجتماعية والثقافية، فإنّ الباحث يتساءل عن دور المرأة في النهضة الأدبية على وجه الخصوص؛ فلا يتوقّع أنّ دورها كان هامشيّاً، ولا يتعدّى أخباراً تتعلّق بعمل المرأة في النسخ أو دواوين الدولة. والاستنتاج المنطقي يقود إلى أنّ وجودها في دار الخلافة ونيلها قسطاً من الحرية الاجتماعية يجعلها حاضرة في المنديات الأدبية التي كانت تشجعها دار الخلافة. أمّا عدم وصول النثر النسائي لعهد الخليفة الناصر فقد يكون مرتبطاً بثقافة الكتّاب الذين دونوا لنا أخبار ذلك العصر، سيّما وأنّ الأمور ترجح لصالح تدوين النثر السابق بعد نهاية القرن الرابع الهجري، ولنا في أخبار ولادة بنت المستكفي مثال واضح على ذلك.

د- الأوضاع الثقافية زمن الناصر

لولا أنّ مقتضيات البحث العلمي تستلزم التبويب المنظم للمظاهر المختلفة لما خصّصت المظاهر الثقافية بعنوان مختص، لأنّ تلك المظاهر نتاج منطقي طبيعي لواقع السياسة والاقتصاد والاجتماع، فالنتاج الفكري للأمم إنّما هو عصاراة الحياة وألق المعدن الذي لا يعلوه الصداً مع مرور الأيام، والمظاهر الثقافية في زمن الناصر تتعدد وتتداخل، ومن أبرزها الرحلة في طلب العلم والموسيقا والغناء وحركة التأليف.

- الرحلة في طلب العلم

لم يزل الارتحال في طلب العلم مقصداً يلمح بشكل ملحوظ في مطالعة الحياة الأندلسية بعامة، وفي عصر الخلافة بخاصة، وأعظم ملامح هذا الارتحال أنّه باتجاهين؛ فالأندلسي يرنو بعينه للمشرق الذي يشكّل النموذج المُحتذى، والمشرقيّ يتطلّع إلى الأندلس ليكتمل زاده من

(١) انظر الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، فصل زينة الدنيا بقلم: روبرت هيلنبراند، ج ١، ص ١٩٤.

(٢) سيفصل هذا في الفصل الثاني (باب المقالات الطويلة).

الغرب، وتتعدّد أغراض الرحلة العلمية، وإن كان أبرزها الغرض الديني والغرض المعرفي العلمي. أمّا الأول فكانت تتمثله رحلة الحج وزيارة الأراضي المقدسة، ولما كانت هذه الرحلة ممتدة الزمن ومكلفة فكان من يقوم بها يلجأ للعمل، أو للتجارة أثناء رحلتي الذهاب والعودة^(١).

أمّا الغرض الثاني فكان امتثالاً لرغبة الأندلسي في الإحاطة بالعلم أنى كان، ولم تبتعد رواية المقرّي عن هذا المعنى حين أخبرنا بحرص الأندلسي على نيل المعرفة قائلاً " فالعالم منهم بارع لأنه يطلب ذلك العلم بياعث من نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه، وينفق منه حتى يعلم"^(٢). ويُسْتَشْفِ العَدَد الكَبِير من طَلَّاب العِلْم المرْتَحِلين من مطالعة ما نقله المقرّي في موسوعته حين أشار إلى ضخامة العدد، وأنه لم يقوَ على حصرهم، مع كثرة ما أورده في النسخ من تراجم الذين ارتحلوا حتى إنه أفرد بابين لمن رحل إلى الشرق أو وفد إلى الأندلس^(٣). لقد شكّلت الرحلة الجماعية الأندلسية مظهرًا يستحق الوقوف، وكان الباعث وراءها تخفيف العبء عن متاعب الرحلة الفردية، إذ امتدت بعض الرحلات إلى أعوام، فدامت رحلة منذر بن سعيد البلوطي أربعين شهرًا^(٤). فيما دامت بعض الرحلات عدة سنين كرحلة بقيّ داوود ابن هذيل الطليطلي الذي يذكره صاحب أخبار الفقهاء والمحدثين بقوله: "وكان في اثني عشر عاماً طالباً للعلم لم يشتغل فيها بغير الطلب"^(٥). ولم يبتعد بقيّ بن مخلد عن الحرص ذاته حين قام برحلتين امتدت كل منهما أعوامًا^(٦)، ولنا في تصفّح المصادر الأندلسية ما يغني ويؤكد اهتمام الأندلسيين في طلب العلم الذي يُجَلِّي بوضوح أنّ العلم الموسوعي كان يُنشد ويطلب. وينسجم مع ذلك ما رواه ابن الفرضي حين ترجم لعبد السلام بن يزيد بن غياث الإشبيلي (ت ٣٥٠هـ) الذي رحل للمشرق وسمع بمكة على عبد السلام بن السمح الذي كان يعذله على طول تردده بالمشرق، ويحضّه على الرجوع للأندلس، فكان يقول له: "لا أدخل الأندلس حتى

(١) انظر بني ياسين، يوسف، علم التاريخ العام في الأندلس، حمادة للدراسات الجامعية والنشر، إربد، ٢٠٠٢. ص ٣٩.

(٢) المقرّي، نفع الطيب، ج ٣، ص ٢٢١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥.

(٤) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ص ١٤٢.

(٥) الخشني، أبو عبدالله محمد بن حارث (ت ٣٦١هـ)، أخبار الفقهاء والمحدثين (دراسة وتحقيق ماريا لويسا آبيلا و لويس مولينا)، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٩٢. ص ٨٩.

(٦) المصدر نفسه، ص ٥٠.

أدخل بغداد وأكتب فيها الحديث والآداب والأشعار، وأنصرف إلى الشام فأكتب فيها وأنقصي كتاب أسمعني، ثم أصدر إلى الأندلس^(١).

ولم يكتف طلاب العلم بما سمعوه ودوتوه، بل كانوا يتزودون بالكتب ويحملونها معهم إلى ديارهم^(٢)، وكانت قرطبة حاضرة الخلافة ومستقرها ممن فضل العائدون الإقامة فيها على غيرها من مدن الأندلس^(٣)؛ ولا غرو في ذلك فالعالم كان يُكرم من الخليفة ويُجل من الناس، وهذا طبع الأندلسيين الذي يذكره صاحب النسخ بقوله: "وللعالم مكانة مرموقة؛ فهو معظم من الخاصة والعامة، ويشار إليه ويُحال عليه، وينبّه قدره وذكره عند الناس، ويُكرم من جوار أو ابتياع حاجة"^(٤). ولعل هذا الإجلال وهذا التكريم إضافة إلى الشغف الداخلي بالاطلاع على علوم الأندلس رغب العلماء في الرحلة المغربية، فنطالع أن أبا علي القالي قد قدم الأندلس زمن الناصر سنة ٣٢٨هـ بعد أن رغبه ولي العهد الحكم المستنصر في القدوم، وكان أبو علي كما يذكره صاحب الجذوة "إماماً في اللغة فاستفاد الناس منه واتخذوه حجة في كلامهم"^(٥). ومن أخباره التي تعزّز إقرار الأندلسيين بعلمه أن الزبيدي الذي كان إماماً في الأدب قد روى الأدب عن القالي وأقرّ بفضلته^(٦). وكان القالي قد أملى في قرطبة كتاباً أسماه النوادر وهو مبار لكتاب الكامل الذي جمعه أبو العباس المبرّد، ويتميز كتاب أبي علي بكثرة الشعر وجودة اللغة^(٧). وأثر هذه الرحلات في الأدب قد يُلمس في الأثر المشرقيّ الذي بدا في بعض المصنّفات الأدبية فيما يمكن تسميته بالاحتذاء المشرقي. ولنا في رسالة التوابع والزوابع مثالٌ بينٌ على ذلك؛ إذ مر ابن شهيد بتوابع الشعراء والأدباء المشرقيين على وجه الخصوص^(٨). وألف ابن عبد ربه مصنفه "العقد الفريد" في أدب أهل المشرق تحديداً. ولا يستطيع الباحث أن يمر بظاهرة الاحتذاء المشرقي هذه دون أن يقف عندها بإنعام وموضوعية، ويسأل عن أصدائها في الأدب الأندلسي، ولنا مع مصنف "العقد الفريد" الذي نال شهرة واسعة إطلالةً ووجهة نظر؛ فالعقد الفريد كتابٌ في تاريخ الأدب المشرقي لكننا مع ذلك نطلّ على هذا الكتاب من زوايا مضيئة أثرت في الأدب الأندلسي أبرزها:

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٣٣٠ - ٣٣١.

(٢) انظر المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٣، ٩٩، ٣٠٠.

(٣) الخشني، أخبار الفقهاء ص ٨٩.

(٤) المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٢٢٠.

(٥) الحميدي، جذوة المقتبس، ج ٢، ص ٢٥٢.

(٦) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٣.

(٧) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٢٥٤.

(٨) انظر تفصيلاً بذلك في الفصل الثاني ص ١٣١ - ١٣٢.

- قد يرى بعض الدارسين أنّ هذا الكتاب هو اعتراف بقصور الأندلسيين، فذلك لم يحرّك ابن عبد ربه الأدب الأندلسي وحرّكه المشرقي، إلا أنّ الأمور قد تُفهم بطريقة مغايرة، وقد يكون هذا الكتاب تحديداً من باب إظهار الثقافة الموسوعية العالية التي جعلت الأندلسي يُجاري المشرقيين في تأليف تاريخ الأدب العربي حتى وإن كانت البضاعة مشرقية.
- إنّ منهجية الاختصار التي صرّح بها صاحب العقد في مقدمة كتابه بقوله "إنّما لي فيه تأليف الاختيار وحسن الاختصار"^(١) تقف بنا على سياسة عامة كان الأندلسيون ينتهجونها في مؤلفاتهم - كما سيمر لاحقاً - وهو بهذا يعطينا ملمحاً من ملامح سياسة الكتابة النثرية آنذاك.
- على الرّغم من أنّ هذا الكتاب عُرف بمشرقية موضوعاته التي صرّح بها صاحب بن عباد في عبارة "هذه بضاعتنا ردت إلينا"، إلا أنّ الكتاب لا يخلو من أدب أندلسي خالص مثله ابن عبد ربه في الشعر والنثر، فقد أطلّ علينا بما يناهز الألف بيت من إنشائه عدا الأرجوزة، ولم تخلُ كثير من الأخبار التي أوردها من مقدّمات كان يصوغها بأسلوب أدبي متين.
- قدّم كتاب العقد نماذج أدبية متميزة بما حفظ لنا من موادّ في الرسائل والخطب والتوقيعات والوصايا والفنون الأدبية المختلفة لكبار الأدباء؛ أمثال المبرّد والجاحظ وابن قتيبة والجمحي وابن المقفع والأصمعي^(٢). ممّا يؤكد أنّ كتب هؤلاء قد دخلت الأندلس قبل الربع الأول من القرن الرابع الهجري، وهو زمن تأليف الكتاب، وهذا ما جعل الاحتذاء المشرقي ميسور الطرق، لما عُرف عن الأندلسيين من ميلهم لهذا الاتجاه. ويبقى أنّ نذكر لابن عبد ربه التبويب المنظم وترتيب المادة التي تعطيه تفوقاً على كثير من المصادر الشرقية التي استقى مادته منها.
- وفي الجهة المقابلة كان لدخول القالي أثرٌ بيّن في حركة الأدب؛ فالإيه يُعزى دخول بعض الأمهات من كتب المشاركة الأدبية كالمفضليات وديوان الهذليين.^(٣) هذا من جهة التآثر بالموضوعات، أمّا فيما يتعلق بفتية الكتابة فكان لها أصدأؤها أيضاً، لعلّ في فتية رسالة التوابع والزوابع ورسالة الغفران، وما قام عليهما من دراسات، مثلاً يقدم مثلاً واضحاً على أنّ الرحلة ما بين المشرق والأندلس كانت العامل الأبرز لتواصل الثقافة بعامة والآداب بخاصة. وقد توالفت أمثال هذه الرحلات^(٤) التي يُقصد بها تبادل المعرفة عبر عصر الخلافة فكانت خير معين للثقافة
-
- (١) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٨هـ)، العقد الفريد (تحقيق بركات يوسف)، دار الأرقام، بيروت، ١٩٩٩. ج ١، ص ٥٤.
- (٢) انظر دراسة في مصادر العقد الفريد في جبور، جبرائيل جبور، ابن عبد ربه وعقده، ط ٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط ٣، ١٩٧٩. ص ٤٤ - ٧٠.
- (٣) انظر ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق (ت ٤٣٨هـ)، الفهرست (تحقيق شعبان خليفة)، العربي للنشر، القاهرة، ١٩٩١. م ١، ص ٢٣٨ - ٢٤٠.
- (٤) سيعرّف بنماذج أخرى في عهد الحكّم وفي عهد الحجابة العامرية.

والأدب. ولا أظن الدارس يمرّ ببعض الأخبار التي تبرز هذه الرحلات دون أن ينتبّه لأثرها الكبير؛ ومنها ما كان من ابن الجرّز الأديب في رسالة ناقض بها عبدالله بن المقفع في اليتيمة فظهر فضله فيها بعد أن عاد من رحلته المشرقية. (١)

ولعلّ هذا الشغف بالارتحال من أجل العلم يفسّر لنا ما نقرأه في ترجمة ابن عثمان الأصمّ الذي كان نحويّاً وشاعراً، وفي الوقت نفسه كان أصمّ، ولكنّ ذلك لم يمنعه من الرحلة في طلب العلم. ويتابع صاحب طبقات النحويين الترجمة له بقوله: "فإذا أحبّ المرء إخباره كتبّ له في الهواء أو رمز له بشفتيه فيفهم منه، وكانت له رحلة إلى بلاد الشرق دامت سنة" (٢). ونخلص من ذلك إلى أن رحلات الأندلسيين إلى المشرق سواء لتحسين العلم أم لأداء فريضة الحج أو للتجارة قد أسهمت في استحضار النموذج المشرقي إلى الأندلس في النثر والشعر، ممّا أدى إلى استمرار تأثير الأدب المشرقي في الأدب الأندلسي في الموضوعات والأساليب.

وجاء ارتفاع فنون الموسيقى والغناء زمن الناصر متواشجاً مع ما عرفته الأندلس من اهتمام بهذه الفنون في عصر الإمارة حين أحدث دخول زرياب ثورة في المدرسة الفنية الأندلسية. (٣) وقد يخيل للدارس أن سيرة عبد الرحمن الناصر الحافلة بتوحيد الأمة والفتوحات المتلاحقة أبعدهته عن الاهتمام بالجانب الفني، إلا أن واقع الأخبار وما وصلنا من النقولات يؤكّد عكس ذلك؛ إذ ينقل ابن الأثير في أخبار الناصر أن الخليفة قد بعث سنة ٣٤٤هـ - رغم أعبائه الثقيلة في الداخل والخارج - سفينة إلى المشرق لشراء عدد من المغنيات من الإسكندرية، وأن السفينة قد عادت مشحونة بعدد من الجوّاري والمغنيات. (٤)

ولعلّ في مطالعة هذا الخبر ما يُغري الباحث في استعراض حيثياته؛ فالواضح أنّ الأمر قد خضع لتنظيم وترتيب إداري اقتضى إرسال سفينة وعقد صفقة تجارية مع المشرق، مما يدعم انفتاح المجتمع الأندلسي وتواصله مع المجتمع المشرقي وفق تنظيم مدرّوس وعلاقات منظّمة حتى في مجال الفنون، أمّا عن مجالس الفن والطرب في دار الخلافة ودور الوزراء وحتى في بيوت المجتمع الأندلسي لمّا نتفكّه في المصادر المتنوعة؛ فيروي صاحب الجذوة في أخبار

(١) انظر ترجمة ابن الجرّز في الزبيدي، طبقات النحويين الطبقة السادسة ص ٣٠١.

(٢) المصدر نفسه ص ٣٠٦.

(٣) انظر تفصيلاً حول دخول زرياب الأندلس في ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج ٦، ص ٣٤. - المقري، نفع الطيب، ج ٤، ص ١١٨ - ١٢٨، ج ٥، ص ١٤٩. - سالم، السيد، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٢. ج ٢، ص ٨٦ - ٩٠.

(٤) انظر ابن الأثير، عز الدين علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ)، الكامل في التاريخ، ط ١ (تحقيق خليل مأمون)، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٢. ج ٨، ص ٥١٣.

زامر يدعى "النكوري" أنه كان يزمر في البوق لعبد الرحمن الناصر^(١)، ولم يبتعد خبر صاحب النوح في أخبار الأمير عبد العزيز ابن الخليفة الناصر عن تلك الدائرة في الاهتمام بالغناء، فيذكر المقرئ أن الأمير عبد العزيز ممن شُغف بالغناء^(٢).

إن ازدهار الموسيقى يُلقى بظلاله على الأدب؛ فقد كان الأدب مادة الغناء، ومثل هذا التعاضد بين الأدب والموسيقا ينسجم وما ينقله صاحب الجذوة مثلاً - عن غناء النكوري الزامر في موكب عام في شوارع قرطبة، فقد كان هذا الغناء من قبل مجموعة من المغنين تجوب شوارع قرطبة، وشكلت مادة الغناء أبياتاً للشاعر أحمد بن كليب النحوي^(٣). ويرد في هذا الخبر أخباراً عديدة نجدها في^(٤) الجذوة والذخيرة والنوح تؤكد اهتمام دار الخلافة والمجتمع الأندلسي بالموسيقا والغناء، وتعزّز أن هذا الاهتمام ألقى بظلاله على الأدب، وقد يغدو السؤال مشروعاً حول ظهور فن الموشحات فيما بعد، فلا يُعتقد أن فناً جديداً مثل الموشحات كان سيظهر عقب ذلك العصر دون المرور بتغييرات منطقية في الذوق الغنائي بمادته وفنيته إبان عهد الخلافة الأموية الأندلسية.

أما عن حركة التأليف فتتنوع العناوين التي تطالعنا في ازدهارها، سواءً أكانت في المصادر أم في المراجع الحديثة التي تصدّت للحركة الثقافية في قرطبة إبان عهد الخلافة، ولعلّ معالم هذا المظهر يبرز في اتجاهين؛ أولهما: النتاج المتنوع الذي غدّى المكتبة الأندلسية وأثرها بالأغراض الموسوعية، وثانيهما: رعاية دار الخلافة لذاك النتاج. أما الاتجاه الأول فشاهد عيان ينطق بما كان، فالنتاج تعدّد في موضوعات متشعبة؛ إن في الأدب وإن في المعارف والعلوم العامة. وقبل استعراض بعض الأمثلة التي تعزّز ازدهار حركة التأليف، تجدر الإشارة إلى أن ذلك الازدهار هو جزء من الأحوال الثقافية، وأن حال الأدب لم ينفصل عن الدائرة الثقافية، فكما اشتهرت كتب الطب والعلوم الدينية مثلاً اشتهرت الكتب الأدبية واللغوية كما سنرى. إضافة إلى أن بعض المصنّفات في العلوم غير الأدبية قد حفظت لنا قسطاً وافراً من الأخبار الأدبية؛ فبعض الخطب الدينية وصلتنا في قضاة قرطبة، وترجمة بعض الأدباء كانت في كتابي ابن جلجل وابن أبي أصيبعة. ولم تبتعد الأخبار الأدبية عن كتب التاريخ بعامة.

(١) الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ٣٩٨.

(٢) المقرئ، نوح الطيب، ج ٥، ص ١٢٢.

(٣) انظر الحميدي، جذوة المقتبس ص ٣٩٨، وسيتم التعرّيج بظاهرة الاهتمام الفني في الصفحات اللاحقة.

(٤) انظر مزيداً من الأخبار في الحميدي، جذوة المقتبس، ص ٣٩٨ - ٣٩٩. - ابن بسام، أبو الحسن علي بن

بسام الشنتريني (ت ٥٤٣هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط ٢، (تحقيق إحسان عباس)، دار الثقافة،

بيروت، ١٩٧٩. م ١/ق ١، ص ٣٧٧، ج ٢، ص ٢٢٨. - المقرئ، نوح الطيب، ج ٢، ص ١٤٦، ج ٥،

ص ١٢٢.

وإذا ما استعرضنا حركة التأليف فإننا نلمح ازدهاراً واضحاً؛ ففي الطب يطالعنا ابن جلجل^(١) في مصنفه "طبقات الأطباء والحكماء" بظهور بعض الأطباء في عهد الناصر ممن صنفوا في الطب أمثال "يحيى بن إسحق" الذي ألف كتاب "الإبريشم" وتكمن أهمية هذا المصنف - كما يذكر ابن جلجل - بأنه أول تأليف لأطباء الأندلس^(٢)، وتأتي الشهادة بالتفوق في المجال العلمي والطبي على الأخص على لسان ابن جلجل إذ يقول: "ثم ظهرت دولة الناصر لدين الله عبد الرحمن بن محمد، فتتابعت الخيرات في أيامه، ودخلت الكتب الطبية من المشرق. وجميع العلوم، وقامت الهمم، وظهر الناس ممن كان في صدر دولته من الأطباء المشهورين"^(٣). والمطالع للخبر الأنف الذكر يقف على تميز الثقافة في عهد الناصر في جميع العلوم وعلى التواصل المشرقي الأندلسي في ميدان العلوم، ولا يفوت المتتبع لأخبار الأندلس الطبية زمن الناصر أن يستأنس بخبر الهدية التي وصلت الخليفة من الملك "أرمانوس" صاحب القسطنطينية سنة ٣٣٧هـ^(٤)؛ إذ "هاداه بهدايا لها قدر عظيم، فكان في جملة هديته" كتاب دسقوريدس "مصور الحشائش بالتصوير الرومي العجيب، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقي الذي هو اليوناني، وبعث معه "كتاب هرويسيس" صاحب القصص، وهو تاريخ للروم عجيب، فيه أخبار لدهور وقصص الملوك الأول وفوائد عظيمة. وكتب أرمانوس في كتابه إلى الناصر أن كتاب دسقوريدس لا تجتني فائدته إلا برجل يحسن العبارة باللسان اليوناني"^(٥). ويتابع ابن أبي أصيبعة نقل الخبر السابق مبيناً أنه لم يكن هنالك من يقرأ اللاتينية في قرطبة، وأن الخليفة قد جاوب ملك القسطنطينية طالباً منه أن يرسل له من يجيد اللسان اللاتيني، وأن ملك القسطنطينية قد لبى ذلك وأرسل له راهباً يدعى نقولا، قام بترجمة الكتاب إلى العربية فاستفاد منه أطباء ذلك الزمان كثيراً، وكان من نباهة الخليفة الناصر وحرصه على الثقافة أن جعل مجموعة من العبيد تتلمذ على يدي الراهب في اللغة اللاتينية ليصبحوا مترجمين في دار الخلافة^(٦).

-
- (١) ابن جلجل، هو أبو داود بن حسان، كان طبيباً عالماً أيام الخليفة الناصر وابنه الحكم، له بصيرة قوية في الأدوية. له من الكتب طبقات الأطباء والحكماء، تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس. انظر ترجمته في ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨. ص ٤٥٣ - ٤٥٥.
- (٢) انظر ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسان (ت ٣٧٧هـ)، طبقات الأطباء والحكماء (تحقيق فؤاد رشيد)، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة ١٩٥٥. ص ١٠١.
- (٣) ابن جلجل، طبقات الأطباء ص ٩٧.
- (٤) ورد في البيان المغرب أن ذلك من حوادث وأخبار سنة ٣٣٨هـ. انظر ابن عذارى، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣١٥.
- (٥) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص ٤٥٣ - ٤٥٤.
- (٦) انظر تفصيلاً لخبر قدوم الراهب نقولا والإفادة التي حصلت بقدمه في المصدر نفسه ص ٤٥٤.

والخبر الآنف الذكر يبيّن رعاية دار الخلافة للعلوم وللتقافة وإدراك أهمية الترجمة، ويبدو أنّ رأي "روبرت هيلنبراند" الذي حاول الانتقاص من مكانة قرطبة العلمية يحتاج إلى مناقشة؛ إذ يرى هيلنبراند في الخبر السابق دليلاً على أنّ تلك "الأحدوثة قد تفيد في تصحيح بعض المبالغات التي تُطلق أحياناً حول ما كانت قرطبة تتمتع به من ثقافة عالميّة في ذلك العهد"^(١)، لكنّ الأحدوثة السابقة إنّما تعزّز مكانة قرطبة وعالميتها، ولولا ذلك لبقى ذلك الكتاب مجرد تحفة تزيّنت بها مكتبة القصر. ولم ينتقص طلب المترجم من مكانة قرطبة أو قلّ من شأن الخلافة، بل يُذكر الخبر في المصادر القديمة وفي المراجع الحديثة بإكبار، يؤكّد تقدير العلم وإجلال السلطة لذلك.

ولم تكن حركة التّأليف في المجالات الأخرى أدنى حضوراً، فقد برزت مصنّفات في التاريخ العام كمصنّفات أحمد بن محمد الرازي -الذي لُقّب بالتاريخي لكثرة اشتغاله بالتاريخ- وأبرز تلك المصنّفات كتاب "أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم"، وكتاب "في أنساب مشاهير الأندلس" وغيره^(٢)، ونستطيع إدراج كتاب "أخبار مجموعة" لمؤلّف مجهول في الزمرة ذاتها، إذ يرجّح الكاتب ريبيرا الذي عُنِيَ بنشر الكتاب أنّ يكون الكتاب قد أُلف في زمن عبد الرحمن الناصر^(٣)، وتكمن أهمية هذا الكتاب بما حفظه لنا من مواد أدبية، وقد أفدت منه بشكل خاص في هذا البحث العلمي؛ إذ تفرّد هذا المصنّف ببعض الرسائل الديوانية كما سنرى.

أمّا العلوم الدينية فكان لها حظّها من التصنيف، فيطالعنا صاحب النفع بغير ذي مصنّف "كالمجتبي" لقاسم بن أصبغ البياني وكتاب "فقه الحسن البصري لأبي عبد الله القنتوري القرطبي (ت ٣٤٨هـ)"^(٤). ولم تغب دائرة العلوم الفلسفية عن حركة التّأليف لكنّها سارت بمنطق خاص؛ إذ كانت الفلسفة في العصر الأموي وفي عصر الناصر بخاصة "موضع اضطهاد

(١) الجبوسي، الحضارة العربية، فصل زينة الدنيا بقلم: روبرت هيلنبراند، ج١، ص ١٩٧.

(٢) انظر حول هذه المصنّفات وأهميتها وكيف استفاد منها ابن الأبار في بالنتيا، أنخل، تاريخ الفكر الأندلسي (ترجمة حسين مؤنس)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٠. ص ١٩٧.

(٣) المرجع السابق ص ٢٠٠. وانظر في الكتاب نفسه الإشارة لمجموعة من الكتب التاريخية التي ألّفت زمن الناصر ص ٢٠٣ - ٢٠٦.

(٤) انظر المقرّي، نفع الطيب، ج٢، ص ٢٥٤.

ونفور لأنها تبيح التفكير في الوجود والعدم^(١) ولذا أمر الخليفة الناصر بإحراق كتب ابن مسرّة^(٢) خارج باب قرطبة^(٣).

وجاء النتاج الأدبي غزيراً إنْ بمؤلفات تاريخ الأدب واللغة وإنْ بالمؤلفات ذات الصبغة الأدبية الخالصة، فيبرز مصنف العقد الذي وسم بـ " الفريد "^(٤) فحوى أخباراً ونقولات في الأدب والمعارف، وقد جرى فيه على طريقة المشاركة في التأليف الأدبي كما تقدم. وتتغذى العقول بما وصل إلينا من أشعار الرمادي^(٥) وابن درّاج القسطلي^(٦) وابن هانئ^(٧) الذين ذاع صيتهم في خلافة الناصر، وكان لدخول القالي (كما أشير آنفاً) أثره اللغوي والأدبي فذاعت دواوين الجاهليين والأمويين التي أدخلها القالي معه كشعر النابغة الذبياني والأعشى وكثير عزة والأخطل، كما يعود للقالي الفضل في دخول بعض المجموعات

-
- (١) سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ٢، ص ٢١٦.
- (٢) ابن مسرّة: أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن مسرّة القرطبي، أول من عرف الاشتغال بالفلسفة في الأندلس، كانت له آراء في الباطن والمادة، اتهم بالزندقة فرحل إلى المشرق، ثم عاد للأندلس وله مدرسة وأتباع. (ت ٣١٩هـ). انظر ترجمته في ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ص ٦٨٧ - ٦٨٨.
- (٣) انظر انظر صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ)، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت. ص ١٠٣.
- (٤) يرجح د. جبرائيل جبور صاحب كتاب " ابن عبد ربه وعقده " أن اسم الفريد لم يلتصق بالعقد إلا في زمن متأخر ويراه في مصنف المستطرف للأبشيهي. انظر جبرائيل جبور، ابن عبد ربه وعقده، ط ٢، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٧٩. ص ٤٩.
- (٥) الرمادي: هو أبو عمر يوسف بن هارون، من شعراء قرطبة، اشتهر في عصر الحكم وأصبح من المقربين له إلى أن أبدى استيائه من قرار الحكم بإراقة الخمر، (ت ٤٠٣هـ). انظر ترجمته في المقري، نفع الطيب، ج ٤، ص ٣٥.
- (٦) ابن درّاج: هو أبو عمر بن محمد القسطلّي، ولد سنة ٣٤٧هـ وهو من شعراء عهد الفتنة، كان مقرباً من الحاجب المنصور وفي عهد الفتنة. تنقل ابن درّاج بين المدن الأندلسية طالباً الرزق، (ت ٤٢٠هـ). انظر ترجمته في - ابن بسّام: الذخيرة م ١/ق ١ ص ١٥٤ - ابن خلّكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط ١، (تحقيق محمد المرعشلي)، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧. ج ١، ص ١٣٥.
- (٧) ابن هانئ: هو أبو القاسم محمد بن سعدون، من شعراء المغرب والأندلس المشهورين، لقب بمتنبي الأندلس، ولد سنة ٣٢٦هـ وتوفي سنة ٣٦٢هـ. انظر ترجمته في ابن خلّكان، وفيات الأعيان، ج ٤، ص ٤٢١.

الشعرية الكبيرة كالمفضليات وشعر الهذليين^(١)، وكان لدخول هذه المجموعات الشعرية أثرها البين في حركة التأليف، إذ انبرى غير مُصنّف يشرح تلك الدواوين أو المجموعات الشعرية^(٢).

أما ظاهرة تطبيق الشعراء فصداها مسموع بوضوح في كتب عدة، منها "طبقات الشعراء بالأندلس" لعثمان بن ربيعة (ت ٣١٠هـ)، و"طبقات الكتاب بالأندلس" للأفشتين (ت ٣٠٩هـ) و"أخبار شعراء الأندلس" لمحمد بن هشام الأموي وقد ألفه زمن الخليفة الناصر. وقد تتبع د. إحسان عباس في مصنّفه "تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة" أربعة عشر مصنفاً في الموضوع نفسه^(٣)، عدا المصنّفات في عصر الخلافة بعامة في شتى الميادين ممّا يؤكد الحقيقة المنطقية التي ذهب إليها د. عباس حين وجد في تنوّع موضوعات التأليف ما يُذهب ويُبطل تهمة ابن الربيب إلى الأندلسيين؛ إذ ذهب الأخير إلى أنّ همم الأندلسيين قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم ملوكهم ومحاسن فقهاءهم، واستند د. عباس في دفاعه على رسالة ابن حزم في فضائل الأندلس^(٤) التي أشارت إلى كثرة المصنّفات وتنوّع أغراضها. ولعلّ الكلمة الفصل في أثر حركة التأليف في النهضة الثقافية التي بدأ شعاعها يلعب زمن الخليفة الناصر - هي ما جاء على لسان محمود مكّي الذي رأى "أنّ الناصر لدين الله كان من أعظم رجال الدولة الذين حكموا في إسبانيا في جميع العصور، فعصره يُعدّ أزهى عصور الأندلس في جميع المجالات"^(٥).

ونستطيع تلخيص أثر حركة التأليف في الأدب في أنّ تلك الحركة قد حفظت لنا كثيراً من المواد الأدبية ما كنا سنحصل عليها إلا من تلك المصادر، ومن زاوية أخرى فإنّ المصنّفات اللغوية والأدبية تؤكد أهمية تلك المصادر في دراسة أدب هذه الحقبة، ولا ننسى أنّ طريقة التأليف ذاتها انعكست على بعض التأليف النثريّة كما لمسنا في العقد الفريد الذي انصبت مادته على المادة المشرقية، وكما حدث مع القالي فيما أدخله من مصنّفات أدبية لأهل المشرق أخذت تؤثر في طريقة التأليف فيما عُرف بالنمذجة المشرقية. ناهيك عمّا تعرضت له بعض تلك المصنّفات من شرح ودراسة شكّلت جزءاً من مادة النثر الفني لهذا العصر كما سندرس في الفصول اللاحقة.

(١) انظر تفصيلاً في الكتب التي أدخلها القالي في ابن النديم، م ١، ص ٢٣٨ - ٢٤٤.

(٢) المصدر نفسه م ١، ص ٢٤١ - ٢٤٤.

(٣) انظر عباس، إحسان، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة، ط ٢، دار الشروق، عمان، ٢٠٠١. ص ٧٠ - ٧١.

(٤) انظر المرجع نفسه ص ٧٢، وسيتم التفصيل بهذه الرسالة في الفصل الثاني.

(٥) الجبوسي، الحضارة العربية، فصل تاريخ الأندلس السياسي بقلم: محمود مكّي، ج ١، ص ٨٩.

العوامل المؤثرة في حركة الأدب إبّان خلافة الحكم المستنصر أ- العوامل الثقافية

لا يُجامل اليراع ما يخطئه وهو يعرض للمظاهر الثقافية التي تميزت بإبداع إبّان حُكم الخليفة الحكم المستنصر، ولا يقصد هذا الباب أن يلمّ بالعامل التاريخي والاستعراض الكمّي، إنّما يقصد إلى الاستئناس بالظاهرة، ممّا يُجلي حقيقة الواقع الثقافي الذي لا بدّ أن ينصبّ أثره على واقع الأدب، فماذا يشعّ في خبايا المصادر الأندلسية؟

لعلّ شغف الخليفة الحكم المستنصر بالثقافة يتجلى في أمور عديدة؛ فمنّ إغناء شديد لمكتبة قصر الزهراء إلى إكرام ملحوظ للعلماء وعناية موصولة بالكتاب وجمعه ومطالعته والنظر فيه، وصولاً إلى إنشاء دور تعليم للفقراء والأيتام واقتراح الموضوعات على المؤلفين؛ فيطالعنا صاحب "الحلة السيرة" حين ترجم للحكم بجُلّ من الأخبار تؤكّد حقيقة التميّز الثقافي "فقد كان الحكم مشغولاً بالعلوم، حريصاً على اقتناء دواوينه، يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان، ويبدل في أعلّاقها ودفاترها أنفس الأثمان، ونفق ذلك لديه، فحملت من كلّ جهة إليه ... حتى غصّت بها بيوته وضاقّت عنها خزائنه، ولم يُسمع بخليفة في الإسلام بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب والدواوين وإيثارها والتهمّم بها؛ أفاء على العلم، ونوّه بأهله، ورغّب الناس في طلبه، ووصلت عطاياه وصلاته إلى فقهاء الأمصار النائية عنه، ومنهم أبو إسحق محمد بن القاسم بن شعبان بمصر، وأبو عمر محمد بن يوسف بن يعقوب الكندي، وبعث إلى أبي الفرج الأصفهاني القرشي المرواني ألف دينار عيناً ذهباً، وخاطبه يلتمس منه نسخة من كتابه الذي ألفه في الأغاني، وما لأحد مثله، ووصل بذلك المال رحمة، فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقّحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق، أو ينسخه أحد منهم ... وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له غرائب التوليف، ورجال يوجّههم إلى الآفاق باحثين عنها.... وكان مع هذا كثير التهمّم بكتبه، والتصحيح لها والمطالعة لفوائدها، وقلّما تجد له كتاباً كان في خزائنه بخطه إمّا في أوله أو آخره أو في تضاعيفه - نسب المؤلف ووفاته والتعريف به، ويذكر أنساب الرواة له، ويأتي من ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده، لكثرة مطالعته وعنايته بهذا الفن. وكان موثقاً به مأموناً عليه، صار كلّ ما كتبه حُجة عند شيوخ الأندلسيين وأئمتهم، ينقلونه من خطه ويحاضرون به"^(١).

إنّ تفحص النص السابق يقف بنا على حقيقة الحال الثقافية التي كانت بدار خلافة الحكم، ومنّ المنطقي أن ينقلب هذا الجو الثقافيّ على الواقع الثقافيّ للبلد بعامّة، ذلك أنّ رأس الهرم السياسي إنّما يعكس ما يمثّله من اهتمامات في واقع الشعب وأمانيه؛ فالمظاهر الثقافية التي

(١) انظر ترجمة الحكم، وجُلّ هذه الأخبار في ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٢٠٠ - ٢٠٥.

ساقتها لنا المصادر تقتضي الوقفة والتفصيل؛ فلا تمر عبارة " ولم يُسمَع بخليفة في الإسلام بلغ مبلغ الحكم في اقتناء الكتب " دون أن يُعلَى من ذلك الجو العلمي الذي مثل فيه الخليفة الحكم ظاهرة بعينها تستحق الوقفة والتنويه، ثم إنَّ المتتبع لبقية الأخبار يعلم أنَّ هذا الولع والشغف بالاقْتناء لم يكن من باب الجمع ورفض رُفوف مكتبة الخلافة فحسب، إنما كان بانسداد ذاتي داخلي نحو التزوّد بزيد العلم والثقافة. ولذا لا نستهن بمجموعة الأخبار التي أكّدت إغداقه على العلماء داخل الأندلس وخارجها وطلبه اقتناء الكتب، حتى وإن كانت بعيدة المنال^(١). ولا تقف ظاهرة الحكم الثقافية عند حدّ مطالعة الكتب والشغف باقتنائها والنظر فيها، وإنما تتجاوزها إلى شخصيّة العالم المكتملة، ولذا استهجن ابن الأبار عدم إدراج الخليفة الحكم ضمن تراجم العلماء قائلاً " عجباً لابن الفرضي وابن بشكوال كيف لم يذكرهما، وقلما يوجد كتاب من خزائنه إلا وله فيه قراءة أو نظر في أي فن كان، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته، ويأتي بعد ذلك بغرائب لا تكاد توجد إلا عنده!"^(٢). ويلحظ أثر هذه الشخصية على الأدب بخاصة في أكثر من مظهر؛ منها كثرة المصنّفات الأدبية واللغوية التي كانت بايعاز شخصي أحياناً كما سنراها مع الزبيدي مثلاً، إضافة لوجود مجالس أدبية كان الأدباء يتبارون في إظهار الحداقة في حضرة مجلس الخليفة، ولا ننسى بعض التوقيعات المميّزة التي وصلتنا للحكم.

إنّ مجالسة الخليفة للعلماء جانب مَصون الذكر في أخبار الحكم المستنصر يؤكّد حقيقة مزدوجة؛ طرفها الأول يدعم حقيقة فرادة هذا الخليفة في تجذير الظاهرة الثقافية، وطرفها الثاني يُجلي ما الذي كان يدور في الأروقة الثقافية لقرطبة، فدار الخلافة هي موئل العلماء، ولنا أن نتفحص ما تمّ تناقله عن اقتراحات في التأليف كان الحكم شخصياً الركن الأساسي فيه، فنطالع في "طبقات النحويين واللغويين" ما يرويه الزبيدي في مقدّمة مصنّفه قائلاً: " وإنّ أمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله - رضي الله عنه - لما اختصّه الله به، ومنحه الفضيلة فيه من العناية بضروب العلوم والإحاطة بصنوف الفنون، أمرني بتأليف كتاب يشتمل على ذكر من سلف من النحويين واللغويين في صدر الإسلام، ثمّ من تلاهم من بعد إلى هلمّ جرا زماننا هذا، وأنّ أطبقهم على أزمانهم وبلادهم حسب مذاهبهم في العلم ومراتبهم، فألفتُ هذا الكتاب على الوجه الذي أمرني، وأقمته على الشكل الذي حدّه، وأمدّني - رضي الله عنه - في ذلك بعنايته وعلمه، وأوسعني من روايته وحفظه؛ إذ هو البحر الذي لا تُعبر أواذيه ولا تُدرك سواحله"^(٣).

(١) مثل طلبه كتاب الأغاني قبل أن يطالعه أهل المشرق، ومثل طلبه شرح مختصر ابن عبد الحكم من القاضي

أبي بكر الأبهري. انظر المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٨٦.

(٢) المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٩٥.

(٣) الزبيدي، طبقات النحويين واللغويين ص ١٧.

إنّ اعتراف الزبيدي السابق بخطّة العمل المُبرمجة في منهجية تأليف مصنّفه، تومئ إلى نموذج الشخصية العلميّة التي مثّلها الحُكمّ المستنصر، هذا مع اعترافنا بأنّ الزبيدي كان عالماً متميّزاً شهدت له المصادر، وأشارت له كتب التراجم والأدب بالبنان؛ فذكره الثعالبي بقوله: " أحفظ أهل زمانه للإعراب واللغة والمعاني"^(١). أمّا صاحب المقتبس فقد وقّف على خبر الزبيدي والحُكمّ بعنوان "ذكر إيداء الزبيدي النحوي" ضمن أخبار سنة ٣٦٢هـ، مؤكّداً الحُطوة العالية والمنزلة الرفيعة التي نالها الزبيدي، فقد " استقبل بصلة سنّية وخلعة فاخرة جزاءً على الذي تولّاه من اختصاره لكتاب العين للخليل بن أحمد، وإقامته على الترتيب والتصنيف اللذين حدّهما له أمير المؤمنين فيهنّ، فارضى عمله فيه عند تصفّحه له، وأجزل صلّته وأدنى مكانه وأوصله إلى نفسه إلى يومه هذا"^(٢). ثمّ يتابع ابن حيّان الخبر لافتاً النظر إلى مظهر ثقافي لابّد من التنويه إليه، إذ يقول: " ففاوضه في عمّله الذي برّع فيه، واستنار له من غوامض فنونه، وناظره بين يديه يومئذ الوزير الكاتب الأديب جعفر بن عثمان في غرائب من فنه في النحو واللغة والشعر، فتباريا في الشأو"^(٣) وتسبقاً في ميدان الإصابة، فسُرّ بهما قيّوم المعرفة (المقصود به الحكم). وانتظم اتصال الزبيدي من يومئذ بالخليفة الحُكمّ وابنه هشام الأمير، ونال الحُطوة"^(٤)، ولا بدّ للناظر في الخبر الأنف أن يقف على المناظرة الأدبية التي جرت بين الزبيدي والوزير جعفر، ممّا يدعم بأنّ دار الخلافة كانت حلقة بحث وأدب دوّوب، وأنّ ذلك التشجيع ألقى بظلاله على الأدب؛ فتبارى علماء اللغة والأدباء فيما أنتجوا وأبدعوا.

ولا تقف رعاية الحُكمّ عند ما سبق، إذ تتوالى الأخبار تترى في احتضانه للعلم والعلماء، فيتسّق هذا مع خبر ابن سعيد في ترجمته للجواني الذي ألف كتاب الحقائق بطلب من الحُكمّ. وفرادة كتاب الحقائق تأتي من أنّه معارضة لكتاب الزهرة لمحمد بن داود مُربياً عليه في عدد الأبواب والأبيات^(٥)، مختصاً بشعر الأندلسيين^(٦). أمّا ترجمة الخُشني فقد اتصلت بأخبار الخليفة

(١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ)، بيتمة الدهر في محاسن أهل العصر (تحقيق مفيد قميحة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣. ج ٢، ص ٨٠.

(٢) ابن حيّان، المقتبس (تحقيق الحجّي)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥. ص ١٣٣ - ١٣٤.

(٣) الشأو: الهمة والغاية. انظر ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧. مادة (شأو).

(٤) ابن حيّان، المقتبس (تحقيق الحجّي) ص ١٣٤.

(٥) انظر ابن سعيد، المغرب، ج ٢، ص ٥٦.

(٦) كتاب الزهرة هو مختارات شعرية في مائة باب تدور حول قصة الحب ووقائعه وأحواله، ومؤلفه ابن داود، ولد في بغداد سنة ٢٥٥هـ وتوفي سنة ٢٩٦هـ. انظر ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى

الحكم الثقافية، وتتجلى حقيقة هذه الصلة حين نقرأ ما نقله ابن الفرضي من أنه " ألف لأمير المؤمنين المستنصر بالله كتباً كثيرة ... وأنه ألف له مائة ديوان "(١)، ومرّ أنفاً كيف اقترح عليه مُصنّف "قضاء قرطبة" حين كان الحكم ولياً لعهد الناصر.

ولا تفتأ هذه الأخبار أن تكون نماذج لشخصية الخليفة العالم الذي يرى فيه المستشرق برونفسال أنه "رئيس لمنندى علمي، وأن مدينة الزهراء كانت تحتضن اجتماعات الفقهاء والأدباء بحضور الحكم الذي يمضي ساعات طويلة وهو يحمل قلمه في يده." (٢) ولم يأت هذا الوصف الوظيفي من المستشرق الفرنسي إلا تأكيداً للدور الثقافي المبرز؛ فلم يعد الحديث عن الحكم مجرد رعاية ثقافية، وإنما أضحت ظاهرة استحققت الدرس والتحليل، ويغدو من المنطقي أن تكون هذه الرعاية مظهرًا لافتًا انعكس على حركة الأدب في المجالس الأدبية، وفي تبرز الأدباء فيمن يصل الخليفة الحكم، الذي كان يحمل قلمه في يده، ولا نظنّ هذه العبارة إلا اعترافاً بدوره النقدي الذي جعل أيّ مادة أدبية قابلة للنقد والدرس والتحليل من رأس الهرم السياسي شخصياً؛ لأنه - كما ذكرته المصادر - رأس في الهرم الفكري والنقدي كذلك. وهذا ينسجم مع أخبار اهتمامه بمقابلة المصنّفات وضبط لغتها، وعدم قبول أيّ تصحيف فيها، ممّا حافظ على وصول عددٍ من مصادر تلك الحقبة بنسخ متميزة.

- مكتبة الحكم المستنصر

لا يمرّ الباحث بالأصداء الثقافية زمن الخليفة الحكم المستنصر دون أن يقف بإجلال عند مكتبة طار ذكرها في الآفاق، ولعلّ خير ابن حزم في عدّد مصنّفاتنا ووجود فهرس لمقتنياتها ممّا يسترعي الانتباه؛ إذ يذكر ابن حزم الحكم بقوله: " وكان مُحِبّاً في العلم، ملأ الأندلس بجميع كُتب العلوم وأخبرني " تأييد" (٣) الفتى - وكان على خزانة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس -

(ت ٦٨٥هـ-)، رايات المبرزين وغايات المتميزين، (تحقيق النعمان القاضي)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣. ص ١٠٤.

(١) ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ٢، ترجمة ١٤٠٠.

(٢) انظر تفصيلاً في برونفسال، ليفي، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، ط ١ (ترجمة علي البمبي)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ٢٠٠٢. ج ٢، ص ٤٣١.

(٣) ورد في الحلة السيرة باسم " تليد ". انظر ابن الجبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٢٠٣. - المقري، نفع الطيب، ج ١، ص ٣٩٤.

أنّ عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كلّ فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط^(١).

إنّ إحصائية الفهرسة السابقة جعلت معظم المصادر الحديثة التي تناولت مكتبة الحکم بالدرس - تشير إلى أنّ عدد المصنّفات قرابة ٤٠٠ ألف مجلد، معتمدةً على ما رواه صاحب النفع الذي روى: "وقال بعض المؤرّخين في حقّ الحکم أنّه كان حسن السيرة، عليه جمع من الكتب ما لا يُحدّد ولا يوصّف كثرةً ونفاًسة، حتى قيل إنّها كانت أربعمئة ألف مجلد، وإنهم لمّا نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها"^(٢). والعدد وحده - على كثرته في ذلك الوقت - قد لا يشكّل اندهاشاً مقارنة مع الاعتناء بجودة كلّ مجلد فيما يختصّ بالنسخ أو الترجمة المنقّحة أو التجليد. وكان الخليفة يشرف على ذلك بشكل شخصي أحياناً، وقد أكّد صاحب النفع ذلك بقوله: "وجمّع بداره الخدّاق في صناعة النسخ والمهّرة في الضبط والإجادة في التجليد"^(٣). ومن ذلك ما ينقله لنا أيضاً صاحب الجذوة عن تخصيص دار للعلماء ممّن يؤلّفون أو يترجمون أو يقابلون النسخ بقوله: "وقد اتفق مرةً أنّ اجتمع علماء اللغة ومنهم محمد بن أبي الحسين، وأبو علي القالي وابنا سيّد، وطلب الحکم إليهم أنّ يقابلوا نسخ كتاب العين للخليل بن أحمد، حيث كان للكتاب نسخٌ كثيرة، ومنها النسخة التي كتبها القاضي منذر بن سعيد البلوطي رواية عن ابن ولاد بمصر"^(٤).

والرواية الأنفة تؤكّد ما كان يرومه الحکم من أنّ تتجاوز تلك المكتبة صفة التجميع للكتاب إلى ما يقترّب ممّا نسميه اليوم بدار النشر والتحقيق، ولعلّ هذه الحقيقة تتجلي إذا ما قارنا سمات هذه المكتبة بما كان موجوداً في العالم الإسلامي الشرقي وخارج نطاق العالم الإسلامي، فنجد أنّ دير القديس غال (S. Gall) في سويسرا كان يضم واحدة من أكبر المكتبات في شمال أوروبا، وكانت معاصرة لمكتبة الحکم، لكنّ محتوياتها لم تزد على ستمائة كتاب^(٥). ويعزو الباحث "هيلنبراند" هذا الشحّ الكبير في عدد الكتب مقارنة بما كان يجري في الأندلس إلى فنّيّة استخدام الرقّ في الأندلس، فيما كان الورق الرخيص هو المستخدم في مكتبات أوروبا، كما يضيف هيلنبراند عاملاً آخر، هو وجود المدارس الإسلامية التي استخدمت عشرات النسخات من النساء^(٦).

(١) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)، جمهرة أنساب العرب، (تحقيق ليفي بروفنسال)، دار

الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣. ص ١٠٠.

(٢) المقرّي، نفع الطيب، ج ١، ص ٣٩٤ - ٣٩٥.

(٣) المصدر نفسه، ج ١، ص ٣٨٦.

(٤) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ٩٢.

(٥) انظر الجبوسي، الحضارة العربية، فصل زينة الدنيا بقلم: روبرت هيلنبراند، ج ١، ص ١٩٣.

(٦) انظر المرجع نفسه، ج ١، ص ١٩٤.

وقد بقيت شهرة هذه المكتبة وقيمتها الكبيرة لقرون كما يبدو؛ فالقلقشندي يذكر أنها تُضارع مكتبات العباسيين في بغداد والفاطميين في مصر، وأنها واحدة من ثلاث مكتبات عظيمة في العالم الإسلامي^(١). ولعل من أسباب هذه الشهرة إضافة لعددتها العظيم، ولقيمة موجوداتها أنها كانت تحوي تعليقات بخط الحكم نفسه - كما أشرنا آنفاً - مما أعطها قيمة خاصة، إضافة إلى اعتراف علماء التراجم بعلمه وبتأخذهم خطه حجة، فقد أشاروا إلى تفردّه؛ إذ كان في المعرفة بالرجال والأخبار والأنساب نسيج وحده^(٢)، وهذا ما حدا ببعض المستشرقين إلى نعتّه بالمؤرخ الكبير^(٣).

إن مكتبة الحكم التي مثلت حقاً مكتبة ملكية زاهرة، إنما مثلت أوج عناية موصولة بالعلم والأدب عكست ما كان يتمتع به القرطبيون من إلف بالكتب والمكتبات، ليغدو ما ينقله لنا ابن سعيد في سياقه الطبيعي؛ فقد كان في قرطبة من الكتب أكثر من أي مدينة أخرى من مدن الأندلس، وكان أهلها من أكثر الناس حرصاً على العناية بمكتباتهم، فقد كانت مجموعات الكتب تُعدّ علامة على علو المنزلة في المجتمع، وكان من ليس لهم حظ من المعرفة يسعون لاقتناء مكتبة في دورهم، ويختارون مقتنياتهم لكي يفخروا بامتلاك نوادر الكتب أو النسخ النفيسة بخط أحد مشاهير الخطاطين^(٤).

إن مطالعة المستوى الثقافي للعلماء والأدباء زمن الحكم تكشف عن ديمومة شغف العلماء فيما يعرف بالثقافة الموسوعية، والباحث في الثقافة العربية الإسلامية للقرن الرابع على الأخص يجدها سمة عامة تجذرت في العالمين الشرقي والغربي، وأما تخصيصي لهذه الظاهرة زمن الحكم فيأتي من خصوصية بروز الشخصية الأندلسية، ولنكن أكثر تحديداً ولنقل - القرطبية - مؤئل العلم ودار احتضان الثقافة التي فتحت قنوات التواصل الثقافي، سواء في توفير الكتاب أم احتضان العالم وإكرامه، أم في الترجمة وما إلى ذلك، مما يجعل المعلومة ميسورة؛ فكان من ملامح هذه الشخصية الثقافية الموسوعية، ولنا في أخبار رحلات العلماء وتراجمهم ما يعزّز ذلك. إن تصفحنا لمصنّف ابن جلجل مثلاً الموسوم بـ "طبقات الأطباء والحكماء" قد يوهم في البداية أنّ الأخبار لن تتعدى الحديث الطبي والمعلومة العلمية البحتة، إلا أنّ فتح طيات المصنّف تؤكد الزاد الموسوعي للشخصية الأندلسية، وليكن المثال الأول شخصية ابن جلجل نفسه كما

(١) انظر القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفزاري (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (تحقيق محمد شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩. ج ١، ص ٥٣٧.

(٢) انظر المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٣٩٦.

(٣) انظر الجبوسي، الحضارة العربية، فصل زينة الدنيا، ج ١، ص ١٩٢.

(٤) انظر المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٢٢١.

ينقلها لنا ابن الأبار في " تكلمة الصلة " فلقد "سمع الحديث بقرطبة سنة ٣٤٣هـ وأخذ العربية عن محمد بن يحيى الرباحي، وقرأ عليه كتاب سيبويه في سنة ٣٥٨هـ، وعُني بطلب الطب وغلب عليه"^(١). وتتابع في مصنف ابن جلجل هذه الظاهرة حين يترجم لعدد كبير من الأطباء الأندلسيين في الطبقة التاسعة، ومن ذلك حين ترجم لسعيد بن عبد ربه الطبيب، فقد افتتح ترجمته بـ " كان طبيباً نبيلاً شاعراً أديباً، وله في الطب رَجَزٌ أحسن فيه"^(٢). أمّا أحمد بن حَكَم بن حفصون فقد كان نبيلاً فيلسوفاً حافظاً جيد القريحة حَسَنَ الفطنة، وخدم بالطب المستنصر بالله^(٣). ولم تكن ترجمة محمد بن عبدون الجبلي ببعيدة عما سبق؛ إذ رحل إلى المشرق سنة ٣٤٧هـ، ودخل البصرة بالمشرق بمدينة الفسطاط ودبرَ مارستانها، ورجع إلى الأندلس سنة ٣٦٠هـ وخدم بالطب المستنصر، وكان قبل أن يتطبب يؤدّب بالحساب بالأندلس^(٤). ولم يتجاوز مصنف ابن أبي أصيبعة هذه الثقافة المتنوعة حتى في مصنف طبي قد يستوجب التخصص العلمي الدقيق، ومن ذلك أن ابن السمع أبا القاسم أصبغ بن محمد الذي عاش في زمن الحكم كان محققاً لعلم العدد والهندسة متقدماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم، إضافة إلى عنايته بالطب^(٥). أمّا ترجمة الكرمانى فتبين أنه من الراسخين في علم العدد والهندسة، وقد رحل إلى المشرق للاستزادة من العلوم، ثم رجع إلى الأندلس زمن الحكم، وجلب معه الرسائل المعروفة برسائل إخوان الصفا^(٦)، ويؤكد ابن أبي أصيبعة أن الكرمانى هو أول من أدخل تلك الرسائل إلى الأندلس.

إنّ المتنبع للنماذج السابقة في أخبار الأطباء ليتثبت من أن ردف الشخصية الأندلسية بمجموعة متنوعة من أصناف العلوم كان مطلباً سعى إليه المعظم، ويكفينا استجلاءً لهذه الظاهرة أنّ المصنّفين الطبيين اللذين اتكأت عليهما في توضيح نموذج الشخصية الأندلسية العلمية - أنّهما من المصادر المهمة التي حفظت لنا كثيراً من الأشعار الأندلسية، والأخبار التي كانت تُعنى بالمستوى الثقافي للشعب وللحكام، فلا غرو أن نمرّ بعبارة رأيت أو قرأت بخط أمير المؤمنين الحكم المستنصر، ففي ترجمة الحرّاني مثلاً في مصنف ابن أبي أصيبعة نطالع حكاية تتصل

(١) انظر تفصيلاً في ترجمته في ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ)، التكملة لكتاب الصلة

(تحقيق عبد السلام الهراس)، دار الفكر بيروت، ١٩٩٥. ج ٤، ص ٨٥.

(٢) ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكام ص ١٠٤ - ١٠٥.

(٣) المصدر نفسه ص ١١٠.

(٤) المصدر نفسه ص ١٥١.

(٥) انظر ابن أبي أصيبعة، عيون الأنبياء ص ٤٤٤ - ٤٤٥.

(٦) انظر ترجمة الكرمانى في المصدر نفسه ص ٤٤٦.

بالرازي تبدأ بـ " رأيتُ حكاية عند أبي الأصبع الرازي بخط أمير المؤمنين الحكم المستنصر"^(١).

ونستطيع تلخيص المظهر السابق في الأدب في مظهرين؛ الأول أن الأديب كان متقفاً بثقافة موسوعيّة انعكست على أدبه كما يُلاحظ في أدب ابن عبد ربه مثلاً، وكتابات ابن حزم في الطوق، وابن شهيد في رسائل الوصف، والتوابع والزوابع^(٢). فجاءت هذه الكتابات مصبوغة بثقافات عديدة فلسفيّة وأدبية، وأمّا الجهة الثانية فبدت في المصنّفات الطبية والتاريخية والجغرافية المتعددة، التي حفظت لنا عدداً لا بأس به من الأخبار الأدبية التي أسعفتنا في إكمال رسم الخارطة الأدبية لهذا العصر.

أمّا مجالس الطرب والاهتمام بالموسيقى والغناء، فدائرة متّصلة مع ما كان من اهتمام في عهد الخليفة الناصر، إذ لم يقصر الحكم اهتماماته على النواحي الثقافية الأنفة، وإنما كانت مجالس الغناء والمغنيين والمغنيات ممن تتناقلت المصادر أخبارهم؛ فاستمرّ النكوري الزامر الذي خدم في عصر الخليفة الناصر في عهد الحكم يزمر له كما اشتهر معه أبو مقيم الزامر^(٣). ويبدو أن مظاهر الغناء والموسيقى قد تجاوزت الأخبار الخاصة بالمغنيين إلى الآثار المادية التي بقيت شاهداً على اعتناء دار الخليفة بالغناء، ومن ذلك " النقوش المحفورة في العُلب والصناديق العاجيّة التي كانت تنتجها دار الصناعة بقرطبة، وهي نقوش تمثل في بعض الأحيان مجالس أنس وشراب، منها نقش محفور على علبة من العاج أسطوانية الشكل من عصر الحكم المستنصر تحمل تاريخ ٣٥٧هـ محفوظة اليوم بمتحف اللوفر، يمثل منظراً لمجلس من تلك المجالس، نشاهد فيه صورة رجلين جالسين يحمل أحدهما قنينة الشراب ويعزف الآخر على عود يحمله بين يديه"^(٤). ويؤكد الخبر السابق أن مدينة قرطبة التي سطعت شمسها في عهد الخلافة قد تمازجت في مظاهرها فإذا المظهر الصناعي يعجّ بظاهرة ثقافية، ممّا يعزّز أن الحضارة أو المدنيّة التي يُكتب لها الذكر والشأن هي التي توسّع أذرعها وتشعّب اهتماماتها في شتّى المجالات، ولعلّ هذا ما حدا بالكاتب " لين بول ستانلي " إلى القول "إنّ قرطبة كانت بحق " مفخرة للعالم " في الفنون والعلوم وأسباب المدنيّة جمعاء"^(٥) ولا نتوقع أن الاهتمام بالموسيقى يمثّل ظاهرة ثقافية لها علاقة بالفنون فحسب، فلا زالت مادة الغناء هي الشعر، وما زلنا نقرأ بالمصادر الأندلسية انعكاس البيئة المحلية على الشعر، وشغف الأندلسيين بالغناء والموسيقى ممّا

(١) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص ٤٤٧، وانظر ابن جلجل، طبقات الأطباء ص ٩٥.

(٢) سيفصل في هذا في الفصل الثاني، باب المقالات الطويلة وباب القصة الهزليّة.

(٣) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ٣٩٨.

(٤) سالم، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج ٢، ص ٩٦.

(٥) ستانلي، قصة العرب في إسبانيا ص ١٣٠.

حدا بهم إلى إحداث تطوير مهم في الشعر العربي، ونقصد بذلك الموشحات. وقد نضيف علاقة مهمة إلى ما سبق تتعلق بالشخصية الأندلسية التي عشقت الموسيقى فانعكس ذلك على فنية الأداء في الأدب - كما سنلاحظ في الخصائص الفنية - إذ وصلنا أدبٌ تغلب عليه الرقة. (١)

ب- العوامل الاجتماعية

يتسامى مفهوم الأمن الشامل في الأروقة القرطبية، فالنتاج الإنساني يصعد برعاية سلطانية مميزة في أذرع متشعبة يشكل التعليم والصحة والاقتصاد أسسه المتينة، ودعائمه القوية، وتتحوّل هذه الحقائق النظرية إلى واقع مرئي إذا ما تصفحنا بعض المصادر الأندلسية التي عكست لنا أحوال الشعب في عهد خلافة الحكم المستنصر؛ فالتكافل الاجتماعي ورعاية الفقراء كانا يدين دار الخلافة، ونقرأ في مصنف ابن جلجل حين ترجم لابن يونس بن أحمد الحراني (أحمد وعمر) ووقف على ترجمة أحمد أنه: "تولّى إقامة خزانة بالقصر للطب لم يكن قطّ مثلها، ورتّب لها اثني عشر صبيّاً من الصقالبة طبّاخين للأشربة صانعين للمعجونات، واستأذن أمير المؤمنين (الحديث عن الخليفة الحكم) أن يُعطي منها من احتاج من المساكين والمرضى، فأباح له ذلك" (٢). إنّ الرعاية الطبية المجانية التي تبيح للفقراء العلاج المجاني لا بُدّ أن تتعكس على أحوال الرعاية ووضعهم الصحي، أضف إلى ذلك أنّ الخبر المسوق آنفاً كان في خضمّ الحديث عن الصيدلية الملكية التي لم تسدّ أبوابها أمام من يحتاجها، ولنا أن نتخيل أنّ أفضل الصيادلة والأطباء كانوا يرعونها، وأنّ خدمات أولئك كانت تصل للشعب الفقير منهم على الأخص بشكل مجاني.

أمّا تعليم الفقراء فله حديثه الخاصّ في ثنايا المصادر، ومن ذلك ما يعرض له ابن عذاري ضمن أخبار سنة ٣٥٦هـ فيما يخصّ الخليفة الحكم "فمن مستحسنات أفعاله وطيبات أعماله اتخاذه المؤدّبين يعلّمون أولاد الضعفاء القرآن حوالي المسجد الجامع، وبكلّ ربّض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ابتغاء وجه الله العظيم، وعدد هذه المكاتب سبعة وعشرون فيها حوالي المسجد الجامع ثلاثة، وباقيها في كلّ ربّض من أرباض المدينة، وفي ذلك يقول ابن شخيص (٣):

وساحة المسجد الأعلى مكلّلة مكاتباً لليتامى من نواحيها

(١) سيتم التفصيل في هذا في الفصل الثالث.

(٢) ابن جلجل، طبقات الأطباء ص ١١٣.

(٣) ابن شخيص: شاعرٌ من أعيان الشعر المشهورين، كان يتردد إلى مجلس المظفر بن أبي عامر،

(ت ٤٠٠ هـ). انظر ترجمته في الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ٣٤٢.

لو مُكُنْتُ سُورَ الْقُرْآنِ مِنْ كَلِمٍ نَادَتْكَ يَا خَيْرَ تَالِيهَا وَرَاعِيهَا^(١)

إنَّ إيلاءَ العنايةِ التعليميةِ لأبناءَ الفقراءِ بشكلٍ مجانيٍّ يأتلفُ مع ما سبق من أخبارِ العنايةِ الصحيَّةِ، إضافةً إلى توزيعِ الصدقاتِ، مما حققَ مستوى الحياةِ الكريمةَ للشعبِ، ويطالعنا ابن حيان في المقتبس بمجموعةٍ من الأخبارِ تعزَّزَ دورَ الخليفةِ الحَكَمِ في منحِ الصدقاتِ؛ ومن ذلك في أحوال سنة ٣٦١هـ أنه " في غرّةِ شهرِ رمضانِ جدّدَ الخليفةُ المستنصر بالله الحَكَمَ، عادته التي لا يخل بها، من إفشاءِ الصدقاتِ ومظاهرةِ القرباتِ سرّاً وعلانيةً فنعشَ الله بمعروفه أمةً من ذوي الحاجة " (٢).

ولمّا كان توزيعُ مثل هذه الصدقاتِ من عاداتِ الخليفةِ راعي الحُكْمِ، فلا عجبَ أنْ نقرأ أخباراً عديدةً لسنواتٍ متعددةٍ عن الاهتمامِ بالوضعِ الماديِّ للرعية؛ فنطالع في أخبارِ سنة ٣٦٢هـ في المقتبس أيضاً أنَّ " الخليفةُ الحَكَمَ قد عهد في غرّةِ شهرِ رمضانِ بتضعيفِ صدقاته المعاوذةِ الإخراجِ في مثله، في تجديدِ ما اعتاد فيما قبله من زلفاته إلى بارئه وقرباته إلى ربه. فأبرز الأموالَ الرغيبيةَ إلى أمنائه وحكّامه الذين نصبهم لها، ليجولوا بها في أرباضِ حضرته قرطبةَ والزهراءِ وأكنافها، يتحرّون بها أهلَ السترِ وذوي الحاجةِ، فعمّتهم وتخطّتهم إلى أبناءِ السبيلِ ومكشّفي السترِ فنالوا منها ذنوباً، وفرّجَ الله بها عن كثيرٍ منهم كروياً " (٣) ولم تغب أخبارِ صدقاتِ الحَكَمِ، والإنفاقِ على ذوي العوزِ عن ابن عذاري في بيانه، ففي أخبارِ سنة ٣٥٣هـ — عرض لمجاعةٍ عظيمةٍ كانت بقرطبةٍ وأشار إلى " أنَّ الحَكَمَ قد تكفّل بضعفائها ومساكينها بما تُقيم أرقامهم، وأجرى نفقاته عليهم بكلِّ ربضٍ من أرباضِ قرطبةٍ وبالزهراءِ. " (٤) ولم تقف الصدقاتِ وتوزيعها عند هذا الحدِّ، بل تجاوز الحَكَمَ ذلك إلى تأسيسه دار الصدقة الذي أمر ببنائها غربي الجامع بحيث أصبحت معهداً لتفريقِ صدقاتِ الحَكَمِ (٥).

ولعلَّ تلك المظاهر الاجتماعية تقود لاستشكاف بعض مظاهر المدنية التي سادت النصف الثاني من القرن الرابع الهجري ممّا حقّق الرخاء والاستقرار، ومن ذلك "جرّ الماء في ساقيات إلى قرطبة وهو ماء عذب جُلب من عين بجل قرطبة خرق له الأرض وأجراه في قناةٍ من حجر متقنة البناء مُحكمة الهندسة أودع جوفها أنابيب الرصاص لتحتفظه من كلِّ دنس، وفي ذلك يقول ابن شخيص:

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٢٤٠.

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٧٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١١٠.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٣٣٦.

(٥) انظر المصدر نفسه، ج٢، ص ٣٤٠.

وقد خَرَفَتْ بَطُونِ الأَرْضِ عن نُظْفٍ من أَعَذَبَ المَاءِ نحو البَيْتِ تُجْرِيهَا
 طَهَّرُ الجُسُومِ إِذَا زَالَتْ طَهَارَتُهَا رِيَّ القُلُوبِ إِذَا حَرَّتْ صَوَادِيهَا
 قَرَنْتَ فخرًا بِأَجْرٍ قَلَّ مَا اقترنا فِي أُمَّةٍ أَنْتَ رَاعِيهَا وَحَامِيهَا^(١)

ولا يُتَوَقَّعُ أَنْ شَعَرَ ابنُ شَخِيصٍ وَأَمْثَالُهُ كَانَ بِقَصْدِ التَّكْسَبِ؛ فَالظَّاهِرُ مِنْهُ الإِشَادَةُ بِأَحْوَالِ الأَوْضَاعِ الاجْتِمَاعِيَةِ الَّتِي سَادَهَا الرِّخَاءُ. فَانعَكَسَ ذَلِكَ عَلَى لِسَانِ شِعْرَاءِ الشَّعْبِ الأَنْدَلُسِيِّ الَّذِي كَانَ يُمَثِّلُ الوَسِيلَةَ الإِعْلَامِيَّةَ النَّاظِقَةَ بِظُرُوفِ الأُمَّةِ آنَ ذَاكَ.

وَلَمْ تَتَبَعْدَ أَحْوَالُ العِمْرَانِ وَالإِهْتِمَامِ بِمُظَاهِرِهِ عَمَّا سَبَقَ، فَقَدْ نَهَجَ الخَلِيفَةُ الحَكَمَ نَهْجَ والدِهِ النَّاصِرِ مُوسَى اهْتِمَامَاتِهِ خَارِجَ نِطَاقِ قُصُورِ الحَكَمِ، فَاهْتَمَّ بِإِنْشَاءِ السُّدُودِ كَالسُّدِّ الَّذِي أَمَرَ الخَلِيفَةُ بِإِنْشَاءِهِ قَرِيبًا مِنْ مَنَابِتِ شَجَرِ الشُّعْرَاءِ^(٢) وَكَسَدِ المَنْعَةِ الَّذِي أَمَرَ بِإِنْشَاءِهِ أَسْفَلَ نَهْرِ قَرْطَبَةَ^(٣) وَأَمَّا الإِهْتِمَامُ بِجَامِعِ قَرْطَبَةَ^(٤) وَتَوْسِعَتِهِ وَتَوْسِيعَةِ الأَسْوَاقِ وَالطَّرِيقَاتِ فَكَانَتْ مِنْ أَوْلَى اهْتِمَامَاتِ الخَلِيفَةِ، حَتَّى أَنْ ابنَ عَذَارِيِّ يَذْكَرُ أَنَّ أَوَّلَ عَمَلٍ نَفَّذَهُ الحَكَمَ إِثْرَ تَوَلِيَّتِهِ الخِلَافَةَ هُوَ النُّظْرُ فِي الزِّيَادَةِ فِي المَسْجِدِ الجَامِعِ بِقَرْطَبَةَ فَهُوَ "أَوَّلُ عَهْدٍ أَنْفَذَهُ."^(٥)

إِنَّ إِطْلَالَ تَائِقِيَّةٍ فِي الأَخْبَارِ السَّابِقَةَ تَجَلَّى حَقِيقَةً أَوْضَاعِ الشَّعْبِ المَحَاطَةَ بِكُنْفِ الرِّعَايَةِ مِنْ دَارِ الخِلَافَةِ، وَهُوَ مَظْهَرُ اجْتِمَاعِيٍّ مَهْمٌ لَا بَدَّ أَنْ يَنْعَكَسَ عَلَى تَفْكِيرِ النَّاسِ وَطَرِيقَةِ تَعْبِيرِهِمْ أَكَّانَ ذَلِكَ فِي الأَدَابِ أَمْ فِي أُسْلُوبِ المَعِيشَةِ بِعَامَةٍ. وَمِنْ ذَلِكَ تَصَدَّى بَعْضُ الشُّعْرَاءِ لِلحَدِيثِ عَنْ هَذِهِ الأَوْضَاعِ كَمَا لَاحِظْنَا عِنْدَ ابنِ شَخِيصٍ، وَمِنْهَا أَيْضًا بَرُوزُ بَعْضِ الرِّسَائِلِ الدِّيوانِيَّةِ وَالمَراسِيمِ السُّلْطَانِيَّةِ^(٦)، إِضَافَةً إِلَى بَعْضِ التَّوْقِيعَاتِ الَّتِي اخْتَصَّتْ بِأَحْوَالِ الشَّعْبِ. وَكُلُّ ذَلِكَ يُوَكِّدُ أَنَّ اسْتِعْرَاضَ الأَحْوَالِ الاجْتِمَاعِيَّةِ لِذَلِكَ العَهْدِ لَمْ يُقْصَدْ لِذَاتِهِ، وَإِنَّمَا لِبَيَانِ الأَوْضَاعِ العَامَةِ الَّتِي انبَثَقَتْ مِنْهَا أَدَبُ تِلْكَ الحَقْبَةِ، فَلَا نَتَخِيلُ أَنَّ الأَدِيبَ يَحْيَا بِمَعزَلٍ عَنِ تِلْكَ الظُّرُوفِ؛ فَالأَدِيبُ هُوَ ابنُ بَيْتِهِ، إِضَافَةً إِلَى أَنَّهُ صَاحِبُ رِسَالَةٍ إِعْلَامِيَّةٍ فِي إِيرَازِ تِلْكَ الأَحْوَالِ وَانعَكَاسِهَا عَلَى الشَّعْبِ وَعَلَى الأَدِيبِ ذَاتِهِ، كَوْنَهُ فَرْدًا مِنَ الشَّعْبِ.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ص ٣٤٠.

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٥٨.

(٣) المصدر نفسه ص ٦٤.

(٤) ذكر الإدريسي جامع قرطبة حين عرض لمدينة قرطبة بقوله: "وفيها المسجد الجامع الذي ليس بمساجد المسلمين مثله بنية وتميقاً". انظر الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن محمد (ت ٥٦٠هـ)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٢. ص ٥٧٥.

(٥) انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٦) انظر أمثلة في المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٧٩.

إن استجلاء المظاهر الاجتماعية التي فرشت أرضية تفكير هذا العصر، وحددت نمط سلوكه، تبين ارتباط الخليفة الحكم بالعدل وبسياسة الشورى؛ فليس من قبيل المصادفة أن يكون نقش خاتمه: " الحكم بقضاء الله راض " (١) فأرضية حكمه ومنهجيته كانت تستند إلى العدل وتلتزم لذلك أنجع السبل وأشدّها سداداً. يخطّ ابن عذاري في أخبار سنة ٣٥٦هـ " أن الخليفة الحكم قد عهد بمخاطبة العمّال بكون الأندلس يعنفهم على جرأتهم، ويحذّرهم من سطوته وعقوبته إذ اتّصل به أن بعضهم قد استزادوا زيادات فاحشات يُعاملون بها الرعية ظلماً لهم، فأنكر ذلك عليهم " (٢)، ولعلّ فحوى ما ينقله ابن عذاري يثبت أن سياسة الحزم المستندة إلى العدل كانت الشغل الشاغل للخليفة في شتى أمصار خلافته، فحتى حاشيته وولاته لم تسلّم من التعنيف حين أرادت الجور على الرعية، ولم تكن تلك السياسة الحازمة دون تروٍّ ومشورة، ففي النبأ المشهور الذي ارتبط بالحكم والشورى نقف على سعة إدراك الخليفة وحسن سياسته، فقلماً ترجم مصدر للحكم إلا وأشار إلى هذه الحادثة، ذلك " أن الحكم رام قطع الخمر من الأندلس فأمر بإزالتها، وتشدّد في ذلك وشاور في استئصال شجرة العنب من جميع أعماله، فقيل إنهم يعملونها من التين وغيره، فتوقّف عن ذلك " (٣).

إن اعتماد مبدأ الشورى وتقبل وجهة النظر وسعة الأفق وعدم التصلّب في إصدار الأوامر التي قد تصطدم بواقع التنفيذ - كلّ ذلك كان من سمات خلافة الحكم التي انعكست على واقع الشعب بشتى فئاته ومختلف أديانه، فمن المظاهر التي يقف المرء عليها - ممّا لا يبتعد عن ساحة حديثنا هذا - التسامح الديني الذي كان من قطاف العدل الناضج، ولنا في الأخبار المنشورة في بطون الكتب ما يعزّز هذه الحقيقة، فاختلاف الدين لم يحرم عالماً من الخطوة أو التكريم. وإذا ما وسّعنا الدائرة قليلاً فإنّ هذا العصر قد شهد انصهاراً واضحاً واندماجاً نسيجياً بين أبناء الشعب الأندلسي دون أن يُشكّل الدين أساس تفريق أو تحيّر، فلمع بعض العلماء والمترجمين من اليهود والنصارى، أمثال نقولا الراهب الذي أرسله أرمانوس ملك القسطنطينية أيام الخليفة الناصر ليتّرجم كتاب " دسقوريدس " الذي سبق ذكره، ثمّ استمر نقولا في الترجمة وتعليم اللغة الإغريقية أيام الحكم، ولم يبتعد عن ذلك ذكر الطبيب اليهودي حسداي بن بشروط الإسرائيلي الذي كان مقرباً من الخليفة الناصر، وابنه الحكم من بعده، وقد نال حظوة وذكراً أشارت له المصادر بالبنان (٤). ولا نعلم إن كان بمقدورنا عدّ هذا الخليفة المتسامح نموذجاً للسلطة المنفتحة التي ثمنت أهمية الاندماج والانفتاح، ممّا جعله شخصية تُقابل بالمثل من هذا

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٣) انظر ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٣٠٢ - ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٢٦.

(٤) انظر حول نقولا وحسداي في ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص ٤٥٤.

الانفتاح، وإلا فكيف نفسّر أن يحفظ الإسبان أثراً عجبياً من آثار الحكم فوق المذبح الأعلى لكنيسة قرطبة لا يزال موجوداً إلى الآن؛ وهو عبارة عن عُلْبَة ملبّسة بالفضة مرصّعة بالدر وقد كتب عليها بالعربية دعاء وتمجيد لأمير المؤمنين الحكم المستنصر بالله، وهو دعاء يُعدّ غريباً فوق مذبح للمسيحية^(١)، ولكنه قد لا يبدو غريباً إذا ما استعرضنا ذلك التسامح الديني الذي بقي أثره عبر مئات السنين!

قد يعدّ بعض الباحثين مظهر سياسة العدل السابقة مجرد بيان لأحوال السلطة وعلاقتها مع الشعب، ولكننا نعتقد أن انعكاس هذا المظهر على الأدب له مسوغاته وآثاره؛ ومن ذلك حرية الرأي والتفكير التي جعلت بعض الأدباء يعبرون عن أفكارهم دون وجل^(٢) إضافة إلى آثار ذلك على الشعب ونمطية تفكيره غير المقيدة، إذ كانت أحوال الشعب أحياناً مادةً للأدب وموضوعاته كما سنلاحظ في كتاب طوق الحمامة، ورسائل الاستعطاف عند ابن شهيد وغيرها. فكُلّها استنقت موادها من هذه البيئة التي تسودها حرية الفكر والعدل، وأما اندماج الشعب الأندلسي بفئاته العرقية والدينية فأثاره على الأدب بآثنته، لعلّ أبرزها تميّز بعض النثرين من غير المسلمين في دار السلطة في الكتابة الديوانية وفي الترجمة كما بيّنا.

ج- الأوضاع السياسية

إنّ إطلالة على الوضع السياسي الذي ساد خلافة الحكم تكمل حلقة الإطلال على أوضاع هذا العصر، لتتجلي الصورة وتتكامل؛ فلقد تابع الخليفة الحكم نهج والده في توطيد أركان دولته فكانت سياسة الجهاد واضحة، وكانت رُسل الممالك المجاورة ممّن توافد على بلاط المستنصر، ففي أخبار سنة ٣٥١هـ - أي في بداية تسلّم الخليفة الحكم للسلطة - يذكر ابن عذاري أنّ الحكم المستنصر " قد غزا بلاد الروم ففتح بها حصوناً كثيرة ومدناً جليلاً"^(٣). ويتابع ابن عذاري تأكيد النهج السياسي العام حين بيّن أنه " في مُحَرَّم من العام نفسه أنفذ الحكم الكتب إلى جميع الولاة والقوادر والعمال بأقطار الأندلس يأمرهم بإرباط الخيل، والقيام عليها والاستعداد بالعدد والأسلحة والآلات برسم الجهاد في سبيل الله"^(٤).

(١) انظر ستانلي، قصة العرب في إسبانيا ص ١٢٩.

(٢) انظر كيف استقبل الشعراء وعلى الأخص "الشاعر الرمادي" قرار الحكم بقطع الخمر في انظر المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط ١، (تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العلمي)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩. ص ٣٩.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٣٤.

(٤) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٣٣٥.

ويعجّ كتاب ابن عذاري بمثل الأخبار السابقة في شتى سنوات خلافة الحَكم، إضافة إلى الأخبار المتصلة بكتب الفتوح والبشارة والرسائل الرسمية التي كانت تنظّم العلاقات بين القيادة والجيش^(١). ويتوافق مصنف "أعمال الأعلام" مع ما يذكره ابن عذاري، ففي "أيام الحَكم سكنت الفتنة وفي أيامه ظهرت المجوس المُجلبّة على المسلمين من بحر الجُرف، فتحرّك إلى المريّة وقد حصروا حصن القبطة من حُصونها، فأوقع بهم، وأنشأ الأسطول لغزوهم وهو الذي ألفت الأقطار إليه بالمقاليد ونجعت بالطاعة، ووردَ عليه أرسال ملوك البلاد وجبابرة العباد"^(٢).

إنّ الغلبة السياسية فيما نطالع لخلافة الحَكم بائنة، إلا أنّ بعض المستشرقين يشككون في هذه الغلبة ظناً منهم أنّ اهتماماته الثقافية لم تواز اهتماماته السياسية، ويعدّون ذلك سبباً للضعف الذي بدأ بعد مماته، حتى إنّ بعض المستشرقين قد وقع بالتناقض حين ناقش هذا الأمر؛ فيذكر لين بول ستانلي "أنّ انهماك الحَكم في الدرس سلبه الاهتمام بالغزو، والتشوق إلى الظفر في الحرب، فقد أغرق في إلقاء العنان لطبيعته الميالة إلى الاطلاع، حتى تكونت له أدواق وميول فنيّة، هي أثر الدراسات العلمية ونتيجتها"^(٣). إلا أنّ المستشرق وقع في التناقض حين عاد وذكر بأنّ "طبع الحَكم الهادئ ومزاجه العلمي لم يضرّ مملكته كثيراً؛ فقد كان ابن الخليفة العظيم حقاً حين كان يقود جيوشه لمحاربة نصارى ليون حتى إنّ أمراء نصارى الشمال ألقوا بزمام أمورهم إلى الحَكم، وقدم أحدهم إلى قرطبة يتوسّل إليه، ويرجوه في إعادته إلى عرشه"^(٤). إنّ قراءة الخبرين تؤكد أنّ الحكم شخصية جدليّة، فقد يكون المستشرق أراد أن يبين مدى شغفه بالثقافة حتى خيل إليه أنّ ذلك قد أبعد الحَكم عن الإمساك بزمام أمور الدولة السياسي، إلا أنّ المستشرق نفسه يعترف بعكس هذا حين تحدّث عن الوضع السياسي، إضافة إلى ما استشهدنا به من الأخبار التي تنتصر لشخصيته السياسية الحازمة المهيبة، ولا بُدّ من الاعتراف أنّ القوة السياسية تعكس لنا هوية الدولة، وتسري في عروق ثقافة الشعب ونمطيّة تفكيره، فكان لا بُدّ من هذه الوقفة العجلى حتى تتصّف خلافة الحَكم، فلا يشار إليها بالعلم دون حقيقة الوضع السياسي. وأما ظلال ذلك على الأدب بخاصة، فيظهر في الرسائل الديوانية، وكتب الفتح التي وصلتنا موضحة تلك القوى السياسية، إضافة إلى الرسائل التي حملتها الوفود والسفارات التي

(١) انظر أخباراً متفرقة في ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٣٥، ٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٤٤.

(٢) انظر بن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٤٢ - ٤٢.

(٣) لين بول ستانلي، قصة العرب في إسبانيا ص ١٣١.

(٤) المرجع نفسه ص ١٣٢.

- عجّت بها قرطبة سواءً أكانت سياسية بحتة تتضمّ العلاقات بين الجوار أم اقتصادية أم علمية. (١) ونستطيع تلخيص أثر الأوضاع العامة على الأدب في عهد الحكم بالآتي:
- وصول عدد من الرسائل المختلفة الموضوعات التي جاءت نتيجة لأوضاع سياسية واجتماعية واقتصادية متنوعة، ككتب الفتح وتنظيم الجباية وعلاقات الجوار وغيرها ممّا سنأتي على تفصيله لاحقاً.
 - تأليف بعض المصنّفات الأدبية كمصنّف طبقات النحويين، وكتب تطبيق الشعراء.
 - بروز الأثر الفني المشرقي في الكتابات النثرية، وعدّ النموذج المشرقي نموذجاً أعلى، ولعلّ في دخول بعض أمهات الكتب العربية التي أدخلها القالي والكرماني وغيرهما مثلاً بيننا على ذلك.
 - ظهور بعض الخطباء الذين ساعدت حرية الفكر والعدل، إضافة إلى ثقافتهم الموسوعية على تميّزهم.

- العوامل المؤثرة في حركة الأدب إبّان الحجابة العامرية

أ- الأوضاع السياسية

هل تقوى شخصية على تغيير مسرى تاريخ أمه، وهل نُنصف الحاجب المنصور إنْ نعتناه بالملك غير المتوجّج^(٢)، وهل تشكّل هذه الشخصية محوراً أثّر في الأدب والحركة الثقافية؟ وكيف لنا أن نستجلي حقيقة ما حدث وما آلت إليه الخلافة؟ إنّ الأصداء الأدبية والثقافية لهذه الحقبة بارزة في أكثر من مجال، فمن أدباء أندلسيين متميزين إلى شخصيات أدبية وافدة كانت لها بصماتها، وصولاً إلى تنوّع في الموضوعات الأدبية مكّنا من رسم صورة النثر لهذا العهد. وقبل إبراز هذه الآثار في الأدب، سنتعرض لشخصية المنصور بن أبي عامر الجدلية التي كان لها ما كان من أصداء مميزة في السياسة والثقافة والأدب.

إنّ القراءة الفاحصة في التاريخ المرواني الأندلسي عقب موت الخليفة الحكم تئبيء عن حدث غريب وتصيير فريد لمقاليد الحكم والخلافة؛ فالمويد هشام ولي العهد لم يبلغ أكثر من الثانية عشرة من العمر، وهل لطفل مثله تؤول السلطة! فكان من يُمن طالع الحاجب المنصور ابن أبي عامر أنّه قلّد رعاية المؤيد، وكان - كما تطالعنا المصادر - بحسن مودة مع أم الخليفة صُبْح، فجرت الحوادث على خير ما تمنى الحاجب وحملت له الأيام حسن الطالع.

(١) سيتم التفصيل بهذا في الفصل الثاني (باب السفارات).

(٢) انظر رأي الأمير شكيب أرسلان في أرسلان، شكيب، خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات دار مكتبة الحياة،

ترجم له الفتح بن خاقان في المطمح قائلاً: " فرَدُّ نابه على مَنْ تقدمه وصرفه واستخدمه، فإنَّه كان أمضاهم سنانا وأذكاهم جنانا ... فالَ أمره إلى ما آل، وأوهم العقول بذلك المآل؛ فإنَّه كان آية الله في سعده ... بَهَر برفعة القَدَر واستظهر بالأناة وسعة الصدر وفرَّ نحسه أمام تلك السُّعود، فقام بتدبير الخلافة وأُعد مَنْ كان له فيها إنافة، وساسَ الأمور أحسن سياسية... فانتنظمت له الممالك، واتَّضحت به المسالك، وانتشر الأمن في كل طريق ... ومَلَكَ الأندلس بضعاَ وعشرين حجة، لم تدحض لسعادتها حُجة وكانت أيامه أحمداَ أيام، وسهامُ بأسه أشدَّ سهام. غزا الروم شاتياً وصائفاً، وهو آخرُ سعد الأندلس، وغزواته فيها شائعة الأثر رائعة كالسيف ذي الأثر"^(١).

تتوالى أخبار المنصور باندھاش واضح مُبيِّنة مطالع السعد الملازمة له؛ فنقرأ في الحلة السیراء " أنه كانت للمنصور همة تُرمى بها المرامي، ويحدِّث نفسه بإدراك معالي الأمور، ويزيد في ذلك، حتى كان يُحدِّث مَنْ يختصُّ به بما يقع له مِنْ ذلك، فتمَّ له مراده، وكان أحدَ أعاجيب الدنيا في ترقّيه والنظر بتمنيّه: تصرّف أول أمره في الوكالة لصبح أم هشام، والنظر في أموالها وضياعها، والجَدَّ ينهض به، والأقدار تساعده إلى أن توفي الحَكَم. وقُدَّ هشامُ الخلافة وهو صغير ووالى غزو بلاد الروم عالي القدم (الحديث عن الحاجب المنصور) منصور العلم لا يُخفِّق له مَسْعَى، ولا يؤوب دون مغنم - كَرَّة بعد كرة - إلى أن صار صاحب التدبير"^(٢).

والملاحظ أن استنثار الحاجب المنصور بالحكْم لم يبعده عن إعلاء شأن الدولة ورعايتها؛ لتغدو شخصيته جدليةً تحتاج لتمحيص ونزَع ما قد لابسها مِنْ اختلاط وشوائب، ففي حين نجد لسان الدين بن الخطيب ينعتُه بأنه " أسعد أهل الأندلس مولداً وأشهرهم بأساً ونداً ... العظيمُ السياسة الشديداً الصلابة القوي المنّة... الذي صحبته ألطفُ الله الخفية في الأزمان، واطرَدَ له النصر العزيز في نحو سبع وخمسين من الغزوات"^(٣).

إلا أننا نطالع في كتاب أعمال الأعلام وفي غيره من المصادر الأندلسية ما يطعن بشخصية المنصور؛ بتفصيل القول في تدبير المكائد التي أطاحت بالوزير جعفر المصحفي وبقتل المغيرة شقيق الحَكَم، وبما حدِّثَ مِنْ قطع دابر الصقالبة والاستعاضة عنهم بالبربر، ومن ذلك ما يرويهِ ابن عذاري في نكبة المصحفي وتسلُّط المنصور عليه قائلاً: " واستبدَّ به دون أولئك الأمجاد، وانبرى إلى المصحفي بصدر كان قد أوغره، وجدَّ سامِ طالَ ما استنصره، فأباده ونكبته وسلَبَ جاهه وانتهبه... ودمرَ عليه ما كان حاط، وأحاط به مِنْ مكروهه ما أحاط، فبقي سنين

(١) انظر ابن خاقان، مطمح الأنفس ص ٣٨٨ - ٣٨٩.

(٢) انظر ابن الأبار، الحلة السیراء، ج ١، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٥٨.

في مهوى النكبة" (١). ونقرأ في مصنف الفتح بن خاقان فيما تعلّق بالخبر أنّ المنصور قد اقتص من المصحفي " فأخمله ونكبه وأرجله عما كان الدهر أركبه، وألهب جوارحه حزناً، ونهب له مدخراً ومختزناً ودّم عليه ما كان" (٢).

ويعزّز المقرّي الأخبار السابقة حول سياسة المنصور العامة حين بيّن كيف تخلّص من مجموعة من الوزراء، وأصحاب النفوذ ممّن قد عارضوه؛ فيذكر المقرّي أنّ الحاجب ابن أبي عامر "تجرّد لرؤساء الدولة ممن عانده وزاحمه، فمال عليهم مراتبهم وقتل بعضاً ببعض ... حتى استأصلهم وفرّق جموعهم، وأول ما بدأ بالصقالية الخصيان الخدم بالقصر، فحمل الحاجب المصحفيّ على نكبتهم، فنكبتهم وأخرجهم من القصر، وكانوا ثمانمائة أو يزيدون. ثمّ أصهر إلى غالب مولى الحكم ... واستعان به على المصحفي فنكبه، ومحا أثره من الدولة. ثمّ استعان على غالب بجعفر بن علي بن حمدون ... ثمّ قتل جعفرًا بممالة ابن عبد الودود ... ثمّ لما خلا الجو من أولياء الخلافة، والمرشّحين للرياسة رجع إلى الجند، فاستدعى أهل العدو من رجال زناته والبرابرة فرتبّ منهم جنداً ... فتغلّب على هشام وحجره، واستولى على الدولة ومأ الدنيا، وهو في جوف بيته من تعظيم الخلافة والخضوع لها وردّ الأمور إليها وترديد الغزو والجهاد، وقدم رجال البرابرة وزناته، وأخرّ رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتمّ له ما أراد من الاستقلال بالملك والاستبداد بالأمر ... وقعد على سرير الملك، وأمر أن يحيّا بتحية الملوك وتسمّى بالحاجب المنصور ونفدت الكتب والمخاطبات باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر باسمه عقب الدعاء للخليفة، ومحا رسم الخلافة بالجملة. ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر، وكتب اسمه في السكّة والطراز وقهر من تطاول من العلية فظفر من ذلك بما أراد، وردّ الغزو بنفسه إلى دار الحرب فغزا ستاً وخمسين غزوة في سائر أيام ملكه لم تنتكس له فيها راية، ولا قلّ له جيش وما هلكت له سرية ... وهلك المنصور - أعظم من كان ملكاً وأشدّ استيلاءً - سنة أربع وتسعين وثلاثمائة بمدينة سالم مُنصرفاً من بعض غزواته" (٣).

لقد آثرتُ نقل جُلّ الخبر السابق حتى نقف على حقيقة سياسة هذا الرجل، ذلك أنّ تثبيت دعائم الحكم لا يتمّ إلا بسياسة مُعيّنة ينشدها صاحب السلطان. وهذا كما يشير ابن خلدون "لا يتمّ إلا بالقيّم على أمور الحكم، وعزّ هذا القيم لا يكون إلا بالرجال" (٤) وما الحديث عن سياسة

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٥٦ .

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الأول ص ١٥٦ .

(٣) انظر المقرّي، نفع الطيب، ج ١، ص ٣٩٧ - ٣٩٨ .

(٤) انظر ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ)، مقدمة ابن خلدون (تحقيق علي عبد الواحد)، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٤. الفصل الثالث والأربعون ص ٢٨٦ - ٢٩٠ .

المنصور التي اقتضت التخلّص من بعض الرجالات داخل قصر الخلافة وخارجه إلا لبيان أمر سياسي اقتضاه ذلك الحُكم الذي تعترف فيه المصادر بعظمة ما كان ممّن دان وخضع؛ فغزواته مُجمَع على أخبارها، ناهيك عن اهتمامه بالعمران " لما أنّه صورة لحال الدولة والسلطان "(١). ويكفي أنْ نعلم أنّه قد أمر ببناء مدينة الزاهرة التي أفاضت بها المصادر القول (٢)، وحتى تُنصّف شخصية الحاجب فإننا نستعين بعبارة المقرّي الذي قال إنّ " له (أي المنصور) في الحزم والكيد والجد ما أفرد له ابن حيّان مُجلداً "(٣). فما كان يقوم به قد يدخل في باب السياسة الحازمة التي تحتاج لكيد يثبت دعائم الحُكم. وما وقفتُ عند هذه الشخصية إلا لاعترافي بانعكاس حال السياسة والدولة على الثقافة، أضف إلى ذلك أنّ مجموعة من مشاهير الناثرين ممّن يُعدّون في مجال الأدب والثقافة قد ارتبط اسمهم بابن أبي عامر، سواءً بأخبار ملازمة كما سنرى أم بالزمن المؤرّخ في عهد الحاجب المنصور (٤).

ب- الأوضاع الثقافية:

لقد عظم المنصور العلماء " فأعلى مراتبهم وقمع أهل البدع "(٥)، والعبارة الأخيرة التي جاءت على لسان المقرّي تؤكد ما ذهب إليه المصادر من أنّه تصدى لكتب الفلسفة، ولا يُذكر هذا الخبر من باب غبن العلماء أو علم الفلسفة، وإنّما يُذكر من باب التحبّب إلى العامة واستئلاف قلوبهم (٦). ويبدو أنّ هذا العمل كان من باب السياسة الظاهرة؛ إذ يؤكّد صاحب النفح أنّ " المنصور ظلّ يشجع التوفّر على هذه العلوم "(٧)، ويؤكد المستشرق "بالنثيا" هذا الرأي حين عرض لحرق كتب الفلسفة بقوله: " غير أنّنا لا نشك في أنّ المنصور فعل ذلك وهو راغم "(٨).

(١) ابن خلدون، مقدمة ابن خلدون ص ٢٨٧.

(٢) انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٧٥ - ٢٧٨. وانظر في المصدر نفسه ص ٢٧٧ ما نظمته صاعد البغدادي من شعر في الزاهرة، ومنه:

يا أيها الملك المنصور من يميني والمبني نسيباً غير الذي انتسباً
بغزوة في قلوب الشرك راتعة بين المنايا تتأغي السمر والقضباً
أما ترى العين تجري فوق ممرها زهواً فتجري على أحسائها الطرباً

- المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ١٥٣، ص ٥٧٨.

(٣) المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٠١.

(٤) سنمرّ أمثلة على ذلك في الفصل الثاني.

(٥) المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٩٦.

(٦) انظر صاعد الأندلسي، طبقات الأمم ص ٧٥.

(٧) المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٢٢١.

(٨) بالنثيا، تاريخ الفكر الأندلسي ص ٦٥.

ويؤكد صاحب الجذوة أنّ المنصور كان يُدني العلماء والأدباء بل يُفرط في تكريمهم، وكان له مجلس معروف خلال الأسبوع يجتمع فيه أهل العلوم ويتدارسون^(١)، ويضيف صاحب أعمال الأعلام بأنّ "الفقهاء والعلماء والكتّاب والشعراء والأطباء والمنجّمين لم يكونوا أوفر عدداً، ولا أسنى أرزاقاً منهم في أيامه"^(٢).

أمّا سيرة المنصور والأدب فلعلّ أبرز ما يمثّلها هو "دخول شيء من التنظيم إليها"^(٣)، إذ نظّم المنصور ديواناً للشعراء قيدت فيه أسماءهم، وقُدّرت أعطياتهم بحسب مراتبهم من الشعر وكانت تُخرَج إليهم الصّلات^(٤)، ولم يكن استنتاج د. إحسان عباس بعيداً عن الصواب حين عدّ ذلك حافزاً مهماً لتنافس الشعراء، إذ كان تقييد اسم الشاعر والحصول على الصّلة مرتبباً بالجودة^(٥).

أمّا ارتباط عهد الحجابة بالنثر فتؤكدّه مجموعة من مرويات الكتابة النثرية؛ فالجزيري^(٦) وابن درّاج مثلاً وهما من الأسماء اللامعة في نثر عصر الخلافة كانا كاتبين من كتّاب الرسائل عند المنصور، وقد تباريا في إظهار الجودة والحصول على قبول السلطة، ناهيك عمّا وصلنا منهما من النثر الخالص في قطع الوصف وغيره من الفنون النثرية^(٧).

لعلّ في كتاب تعنيف القواد على تقاعسهم عن الغزو مثلاً على إظهار حذاقة الجزيري في أدبه - الذي هو سلاحه في إظهار الولاء والطاعة للحاجب المنصور - فقد "أمر الحاجب المنصور كاتبه على الرسائل عبد الملك بن إدريس بإنشاء كلام انتسخه القواد ليقرؤوه على كافتهم فجاء فيه: "وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعادل.. وقاتلكم بالشرية، أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما ألفتكم، حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل... ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار، وحرّروا رقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم، ولم أعدم من الله تعالى عاجل نصر وحسن عقبي! فلا بدّ أن ينصر دينه بما يشاء"^(٨). ولنا أن نتخيل دور تلك

(١) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ٧٣.

(٢) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٨٤.

(٣) انظر رأي د. إحسان عباس في عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٦٧.

(٤) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ٢٣٩.

(٥) انظر عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٦٧.

(٦) الجزيري: أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري كاتب المنصور بن أبي عامر، وهو أديب شاعر كثير الشعر توفي بالمطبق في سخطة للمظفر بن أبي عامر سنة ٣٩٤ هـ . انظر ترجمته في ابن بشكوال: الصلة ص ٣٥٠ - ابن سعيد، رايات المبرزين وغايات المميزين ص ١٢٦ - المقرئ، نفع

الطيب، ج ١، ص ٣٨٤.

(٧) انظر ابن بسّام، الذخيرة م ١/ق ١، ص ٥٩ وما يليها، م ١/ق ٤، ص ٤٨.

(٨) انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٧٢.

الكتب الرسمية في القيام بالمهام الإعلامية السلطانية، فمن يقرأ الكتاب الأنف يقوى على الربط بين ذلك الفحوى وبين خبر استغناء المنصور عن إلزام الجهاد، لكثرة عدد الجيش حيث أسمع الخطباء الناس ذلك بعد أن قرئت كتب الفتح، فكان "من تطوع خيراً فهو خير، ومن خفَّ إليه فمبرورٌ ومأجور، ومن تناقل فمغذور"^(١).

أما وفادة صاعد البغدادي على الأندلس إبان عهد الحاجب ابن أبي عامر فظاهرة أدبية وثقافية تستحق الوقفة، فأخبار صاعد الثقافية والأدبية تعجَّ بها المصادر، وهي أخبارٌ تحمل نقيضين؛ ففي حين يُنظر لهذه الوفادة الشرقية بعين الإجلال والتكريم من دار السلطة، نجد المكائد والاختبارات تلاحق هذه الشخصية بدعوى أنها أكرمت أكثر ممَّا استحققت! أو ربَّما للشعور بغبن الشخصية الأندلسية مقابل الشرقية الوافدة؛ فكان من المشروع في نظرهم الانقصاص من هذا النموذج المزعوم! فماذا بقي من تراث هذه الشخصية، وما الحكم الذي يمكن أن ينطبع في الذهن عن صاعد؟

لقد دخل صاعد الأندلس سنة ٣٨٠هـ، وكانت مقاليد الحكم بيد الحاجب المنصور فاتَّصل به، وأعجب الحاجب به وأكرمه، وزاد في الإحسان إليه حتى وصل إلى مرتبة الوزارة. وكان المنصور يود أن يقتني به آثار أبي علي البغدادي الذي وفد من المشرق أيام الناصر^(٢). لم تتسنَّ المرتبة التي ضاهت الوزارة لصاعد إلا بعد مشقَّة؛ إذ كثرت حوله الوشائيات، وأغضب مجموعة من الأدباء هذا الإدناء الذي ناله صاعد من ابن أبي عامر، وتذكَّر المصادر أن هؤلاء قد استمرَّوا بتحريض الحاجب المنصور حتى قبل إجراء اختبار لصاعد يمتحنه وهو اختبار - كما يشير الباحث جواد علوش - يشبه اختبار القبول^(٣) في الجامعات، وقد اعتُمد فيه التقليل من شأنه ودَحض ثقافته، فكان صاعد يزعم أنه يعرف علوم العرب كلَّها، فاقترح بعض من كان في مجلس المنصور كابن العريف^(٤) وعاصم بن المحسن العاصمي^(٥) استدعاء صاعد وامتحانه،

(١) انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٦٨.

(٢) انظر حول دخول صاعد الأندلس في ابن بسّام، الذخيرة م ١/ق ٤، ص ٥٥ وما بعدها. - المقري، نفع الطيب، ج ٣، ص ٩٥ وما بعدها.

(٣) انظر علوش، جواد، (١٩٧٦)، صاعد البغدادي: سفير الثقافة الشرقية في الأندلس، مجلة كلية الآداب (٢٠): ص ٣٧.

(٤) ابن العريف: أبو القاسم حسين بن وليد، شاعر مقدّم وإمام في اللغة، كان كثير النفع في أشعاره، له مؤلفات في الأدب وكتاب في مسائل النحو. انظر ترجمته في الحميدي، جذوة المقتبس، ج ٥، ص ٣٠٠.

(٥) عاصم العاصمي: من كبار الأدباء وعلماهم، كان نحويًا مشهوراً وإماماً في العربية وحدث عنه أبو القاسم الإفريقي. انظر ترجمته في القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي (ت ٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباء النحاة (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠. ج ٣، ص ١٩٧.

ويبدو أنهم أفتعوا المنصور بضرورة ذلك، فقال: " أحبُّ أن يُمتحن" (١) وأرسل إليه ولم يكذ يوصل ويدخل المجلس، حتى رآه حافلاً بكلّ جليل من العلماء غاصّاً بأنداده من الأدباء ... وكأنّه أحسّ بما يدبرون، وشعر بما يكيدون فظهر عليه التأثر. ولمح ذلك المنصور فرجع محلّه وأدناه منه وبدأ يسأله عن بعض علماء بغداد ومنهم أبو سعيد السيرافي، فزعم أنّه لقيه وقرأ عليه كتاب سيبويه، فانبرى له العاصمي يسأله في إحدى مسائل هذا الكتاب، فلم يجب معتذراً بأنّ النحو ليس جُلّ بضاعته، فبادره الزبيدي قائلاً: فما تحسن أيّها الشيخ فقال صاعد: حفظ الغريب، فبادره بسؤال الأوزان فحاول التهرب من ذلك، وما كادت زمام الأمور تذهب من يديه حتى بادر صاعد بالقول: أمّا بضاعتي فحفظ الأشعار. وهنا تصدّى له ابن العريف ظانّاً أنّه سيكفّنه، لكنّ صاعداً تفوّق وشمخ بما أبداه من إجابات ماهرة وسرعة خاطرة عظيمة، فلم تجر في المجلس كلمة إلا أنشد عليها شعراً شاهداً، أو أتى بطرفة أو نادرة، حتى أعجب المنصور به أيّما إعجاب ودهش منه جميع الحاضرين، وقد أدركوا قيمته. ويذكر أنّ ابن العريف كاد يتوارى حياءً وخجلاً (٢).

ولعلّ الخبر الآنف الوارد في أكثر من مصدر أندلسي يقف بنا على حقيقة ما كان يشكّله صاعد اللغوي السفير المشرقي الذي وفد على الأندلس من ظاهرة، تتصل - كما مهّد سابقاً - بالقوميّة الأندلسية التي أخذت تزدد عند علماء أهل الأندلس وأدبائهم، حتى غدا العالم أو الأديب المشرقي من غير المرحب به! وقد يُخالفني بعض الدارسين في هذا التحليل، وأنّ ما جرى لا يتعدّى نيل الحظوة عند صاحب السلطان، وهذا هو الشأن الإنساني الذي يميل للحسد إن أدنى غيره إلى صاحب الجاه والسلطان، وقد نميل قليلاً مع هذا الرأي الذي لا يخرج عن طبع الناس ونيل الحظوة، لكننا نظن أنّ اتفاق أكثر من أديب ولغوي أندلسي على متابعة إجراء امتحانات لصاعد في حضرة المنصور قد ينتصر للرأي الأول، فنطالع في سيرة صاعد - أو لنقل في سفارته تلك - أنّ المنصور قد عرض عليه أن يؤلّف له كتاباً على غرار أمالي أبي علي القالي، فما كان من صاعد إلا أن انبرى لذلك بهمة طمّوح؛ ذكراً أنّه سيُملي كتاباً أجلاً وأعظم، وأنّه لن يورد فيه خبراً ممّا أورده القالي. فألّف كتاب " الفصوص " الذي استغرق خمسة أشهر فجمع فيه كلّ نادر غريب طريف من الأخبار والأشعار (٣).

ويبدو أنّ ذلك العمل قد أثار حفيظة ابن العريف، فأخذ هو ومجموعة من أدباء الأندلس ينتقدون كلّ ما يأتي به صاعد ويكذبونه، وبخاصة أنّ صاعداً قد اشترط على نفسه أنّه لن يأتي إلا بالغريب ممّا لا يحفظونه ولا يعرفونه. لكنّ ابن العريف ومجموعته استطاعوا أن يثبتوا

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٤، ص ١٨.

(٢) انظر المقرّي، نفع الطيب، ج ٣، ص ٩٦ - ٩٧.

(٣) انظر الققطي، إنباه الرواه، ج ٢، ص ٨٥.

للمنصور أنه لم يأتِ بذلك الغريب، حتى أمرَ المنصور بإغراق ذلك الكتاب في النهر فهلّل ابن العريف وارتجل شعراً:-

قد غاصَ في النهر كتابُ الفصوص وهـكذا كلُّ ثقيلٍ يغوص

فضحك المنصور ومَن حضر معه، فما كان من صاعدٍ إلا أن ذلّل البيت السابق بقوله: (١)

عادَ إلى معدنه إنَّما توجد في قعر البحار الفصوص

وعلى الرغم من تكثير الحظ لصاعد فيما حدث معه في كتاب الفصوص، إلا أن ابن بسّام انتصر لصاعد حين أورد الخبر بقوله: " ولم يكن عند ابن أبي عامر تحرير، ولا بصّر بالنقد مشهور، وإلا فليس يخلو الفصوص من غريبة مسموعة، ولا من رائعة بديعة" (٢). ويبدو أن تلك الحادثة لم تُقصِ صاعداً عن حضرة السُلطة، إذ تنقل المصادر ارتجال صاعد للشعر في كثير من المواقف (٣)، كما تنقل وقوفه على شرح الغريب في الشعر، ولذا فقد قيل عنه أنه " كان متقدماً في علم اللغة ومعرفة العويص، وكان أحضر الناس شاهداً، وأرواهم للكلمة الغريبة" (٤). وقد يُنصف هذه الشخصية التي شكّلت مادة خصبة لدور الحاجب في رعاية الأدب والثقافة - قد يُنصفها ما أثّرت به في التربة الأندلسية اللغوية عبر تلاميذ صاعد، وأبرزهم ابن سيده اللغوي صاحب المُحكم، وابن حيّان المؤرخ الذي ذُكر أنه قرأ على صاعد كتاب الفصوص في داره وأتمه سنة ٣٩٩هـ (٥). أمّا كتبه الأخرى غير الفصوص فقد أُشيد بها؛ وهي كتب أدبية ككتاب "الهجفجف" وكتاب "الحواس" وهذا الأخير ذكره صاحب المعجب بقوله: " وهو كتاب مليح جداً

(١) انظر ابن بسّام، الذخيرة م ١/ق ٤، ص ٥٧. - المقرّي، نفح الطيب، ج ٣، ص ٩٧.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٤، ص ٥٧.

(٣) ومن ذلك أن المنصور قد أمر بإعداد طبق كبير صنعت فيه سفائف من مختلف أنواع الزهور والريحان، وقد صنّعت على هيئة جوارٍ تحتها بركة ماء حصباءؤها من اللؤلؤ فما كاد يراه صاعد حتى قال على البديهة:-

أبا عامر هل غير جدواك واكف	وهل غير من عاداتك في الأرض خائف
يسوق إليك الدهر كل عجيبة	وأعجب ما يلقاه عندك واصف
ولمّا تناهى الحسن فيها تقابلت	عليها بأنواع الملاهي الوصائف
كمثل الظباء المستكينة كلاً	تظللها بالياسمين السفائف
وأعجب منها أنهن نواظر	إلى بركة ضمت إليها الطرائف

انظر المقرّي، نفح الطيب، ج ٣، ص ٩٨.

(٤) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٤، ص ٥٤.

(٥) انظر المقرّي، نفح الطيب، ج ٣، ص ٩٩.

انخرم أيام الفتن بالأندلس، وكان المنصور له من الشغف بهذا الكتاب حتى رتب له من يُخرجه أمامه كل ليلة^(١).

ويبقى صاعد اللغوي سفارة مشرقية دخلت الأندلس، فكان لها ما كان، وسواءً أكنّا من أنصار من كادوا له أم من أنصفوه كصاحب الذخيرة، فإننا لا نعبر بوابة الثقافة الأندلسية في الثلث الأخير من القرن الرابع دون الولوج ببيت صاعد الثقافي أدباً ولغة، وعلامة استفهام في قبول الأندلسي لعلماء المشرق وأدبائهم، ولعلنا نقف في هذا على عبارة ابن بسام التي تقول: " وكان صاعد كثيراً ما يمدح بلاد المشرق بمجلس المنصور، ويباهي بأخبارها "^(٢) ليقى هذا اللغوي ظاهرة مشرقية أثرت في نقل بعض تراث المشرق الأدبي إلى الأندلس بشكل طريف^(٣). ولا تكتمل العوامل التي ساهمت في تشكيل صورة الأدب في الأندلس في عهد الحجابة العامرية دون الولوج إلى أثر الطبيعة الخلابة، ولم أقصر الحديث في هذا العامل على عصر الحجابة إلا لبروز هذا الأثر جلياً وواضحاً في بزوغ فن نثري قائم بذاته هو فن رسائل الورود^(٤) (كما سندرس لاحقاً)؛ وشكّلت رسائل الجزيري في هذا الغرض أقدم النصوص التي وصلتنا عبر المصادر في هذا الغرض، ومن البديهي أنّ الطبيعة الجميلة لم تكن جميلة في قرطبة في عهد الحاجب المنصور فحسب، ولكنّ تشجيع الحاجب المنصور لمثل هذا النوع من الرسائل وارتياحه لها هو ما جعل ذلك الفن يزدهر بخلاف العصور التي سبقتة، ولا ننسى انشغال الخلفاء الذين سبقوه بالأمور السياسية التي قد لا تكون تركت لهم مجالاً للانشغال برسائل وصف الورود.

العوامل المؤثرة في الأدب في عهد الفتنة البربرية

أ- الأوضاع السياسية

ينظر بعض الدارسين لعصر الخلافة الأموية في الأندلس بعين الزهو وهم يتحدثون عن القرن الرابع الهجري، وعلى التحديد حتى عام ٣٩٩هـ، وهو العام الذي بدأ فيه ما عُرف بعهد الفتنة البربرية التي امتدت قرابة ربع قرن؛ إذ سيطرت فكرة الانقلابات السياسية والتحالفات العنصرية على الوضع السياسي في قرطبة، فأضحت الخلافة بين مدّ وجزر لبني أمية فمرة تبتعد لصالح البربر، ومرة تقترب إلى أن كان عام ٤٢٢هـ، فكان آخر عهد بني أمية بالخلافة

(١) انظر المراكشي، المعجب ص ٣٧.

(٢) القفطي، إنباه الرواه، ج ٢، ص ٧٨.

(٣) انظر دراسة حول صاعد في سفارته إلى الأندلس في علوش، صاعد البغدادي: سفير الثقافة المشرقية في الأندلس. ص ٣٧ - ٦٩.

(٤) سيفصل في هذا الفن وأسباب شيوعه وأشهر أعلامه في الفصل الثاني (باب رسائل الورود).

وكان هشام الملقَّب بالمعتدِّ بالله آخرِ ذكِرِ الأمويين في قرطبة، وقد أخرج مع نسائه بُدُلَّ وحسرة بعد أن قامت على الخليفة مجموعة من الجند^(١).

وأول ما يتبادر إلى الذهن سؤال مشروع عن صورة الأدب والثقافة وسط ذاك الحال من التشطي السياسي، والانهماك في الانقلابات وخلع الخلفاء والولاء. قد تكون الخلفية الثقافية التي كانت سائدة قبل بدء عهد الفتنة متينة، فلم تضعع بسهولة، وقد يكون من المنطقي أحياناً أن الأدب بوصفه يعكس حال الأمة يبقى الهاجس المسيطر للذكر وللإعلام وللإفصاح عما تودُّ الأمة أن تقول، أضف إلى ذلك ارتباط تنشئة أبناء الخلافة الأموية بقدر كبير من نيل الثقافة والأدب، مما جعل أكثر من خليفة ووالٍ في عهد الفتنة وتقويض العرش ممن يقرض الشعر أو يكتب النثر.

-
- (١) ترى بعض المصادر الأندلسية أن انتهاء عصر الحجابة العامرية التي كانت بيد المنصور وابنه قد آذنت بذهاب السعد عن بني أمية، فمنذ عام ٣٩٩هـ بدأ كل من البربر والحموديين بالطمع في حُكم قرطبة واستلاب بني أمية الحكم، فكان أن تعاقب عليها مجموعة من الخلفاء والقادة أبرزهم:
- محمد بن هشام المهدي قام على هشام المؤيد سنة ٣٩٩هـ.
 - سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين قام على سابقه سنة ٤٠٠هـ وكان ذلك بمساعدة البربر ويقال إنه عاث فساداً في قرطبة.
 - ولاية علي بن حمود "الناصر" تغلب على البربر وعلى سليمان السابق، لكن عبيده احتالوا عليه وقتلوه.
 - القاسم بن حمود "المأمون" وهو أخو علي السابق، وقد قام عليه ابن أخيه يحيى بن علي فجعله يدخل قرطبة دون قتال، بينما هرب القاسم إلى إشبيلية وبقي هناك إلى أن استحال البربر وزحف بهم إلى قرطبة سنة ٤١٣هـ حيث تغلب على ابن أخيه في الواقعة المعروفة بالجزيرة الخضراء.
 - ولاية يحيى بن علي "المعتلي" وقد اجتمع البربر على تقديمه على عمه القاسم سنة ٤١٤هـ وبقي ما بين قرطبة ومالقه حتى ٤١٧هـ.
 - ولاية عبد الرحمن بن هاشم "المستظهر" حيث بويع بالخلافة بعد انهزام البربر مع المعتلي السابق.
 - ولاية محمد بن عبد الرحمن المستكفي، وله ذكُرٌ قبيح في الأفعال والولاية، وقد دبر له السم القائد عبد الرحمن فمات سنة ٤١٧هـ.
 - ولاية هشام بن محمد المعتد بويع سنة ٤١٨هـ وبقي حتى ٤٢٢هـ حين خلع وهرب، وبه انتهى ذكر بني أمية في الأندلس.
- انظر حول الأحوال السياسية في عهد الفتنة في المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٤٨ - ٦٧.

ب- الأوضاع الثقافية:

إنَّ تحصُّصاً لحال الثقافة والأدب في عهد الفتنة يقدِّمُ تصوراً عاماً لذيل الخلافة الأموية في الأندلس، وكيف مهَّد ذلك لعهد الطوائف فيما بعد، والتفحص ينقسم إلى مدخلين: أحدهما بمنظار دار الخلافة المهترئة، والآخر بمنظار أبرز أدباء هذا العهد ممَّن تشمخ أعمالهم في ذاكرة الأدب الأندلسي إن لم يكن العربي.

ومن المدخل الأول نقرأ في أخبار سليمان بن الحکم - المتلقَّب بالمستعين بالله بداية، ثم الظافر بحول الله - ما يشير إلى أنه كان من القارضين^(١) للشعر المتذوقين للأدب، يذكره المراكشي في المعجب قائلاً: " وكان سليمان أديباً شاعراً "^(٢) أما ابن بسام فعده " ممَّن مُدَّت له في الأدب غاية كبا دونها أهل الآداب، ورُفِعَتْ له في الشعر راية ... غير أنَّ أيام الفتن أَلَوَتْ بذكره، وأيدي تلك الحرب طَوَّتْ بجملة شعره "^(٣). أمَّا عبد الرحمن بن هشام الملقَّب بالمستظهر فكان " في غاية الأدب والبلاغة والفهم. قال الوزير أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد: " كان المستظهر شاعراً يستعمل الصناعة فيجيد وكان متهماً في أشعاره ورسائله، حتى كتب أبياتاً ليعلى بن أبي زيد حين وقَد عليه ارتجالاً، فعَجِبَ أهلُ التمييز منه، أمَّا أنا فقد كنتُ بلوته، وكان ورود يعلى فجأة، ولم يبرح من محله حتى ارتجل الأبيات، وأنا والله أخاف أن يزلَّ فأجاد وزاد"^(٤). والناظر في الخبر الأنف يقف على شهادة نقدية يوردها الأديب المعروف ابن شهيد، وهي شهادة تؤكد ما كان لهذا الخليفة من شغف بالأدب، وتبدو وزارة ابن شهيد في خلافته دليلاً آخر على تلك الرعاية.

وقد ارتبط الأدب أحياناً بأبناء الخلفاء، فقلماً أغفل مصدر ذكْر ولادة بنت المستكفي، الشاعرة التي تشكل ظاهرة ثقافية في منتدياتها الأدبية، ذكَّرها صاحب الصلة بقوله " كانت تُتاضل الشعراء وتُساجل الأدباء وتفوق البرعاء"^(٥) أمَّا صاحب الذخيرة فيرى أنها " كانت في أهل زمانها واحدة أقرانها، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار المصّر، وفناؤها ملعباً لجياد

(١) أورد له المراكشي قصيدة نقلها ابن حزم ومطلعها:-

عجباً يهاب الليث حدَّ سناني وأهابُ لحظ فواتر الأجفان

ويذكر المراكشي أن هذه القصيدة إنما هي معارضة لأبيات عملها العباس بن الأحنف على لسان هارون الرشيد انظر المراكشي، المعجب ص ٥١ - ٥٢ . - ابن بسام، الذخيرة، ج ١، ص ٤٧.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٥١.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٤٦.

(٤) المراكشي، المعجب ص ٥٩.

(٥) ابن بشكوال، الصلة ص ١٥١.

النظم والنثر، يعيش أهل الأدب إلى ضوء غرّتها"^(١). ولم يبتعد ذكرها في النسخ عن ذلك، ومنه: "أمّا الأدب والشعر النادر وخفة الروح فلم تكن تقصّر عنه، وكان لها صنعة في الغناء، وكان لها مجلس يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، فيمرّ فيه من النادر وإنشاد الشعر كثير؛ لما اقتضاه عصرها من مثل ذلك"^(٢).

لقد أجمعت مصادر الترجمة على وجود مجلس أدبي لولادة؛ وهذا أمر لافت وظاهرة يُشاد بها في حال الأدب والثقافة، ومن المتوقع أنّ تلك المساجلات الأدبية كانت تقوّي ميدان الأدب؛ إذ يتبارى كلّ أديب لإظهار براعته في هذا الميدان، كما أنّ هذا المجلس الذي كانت تعقده شاعرة، يوميء إلى الحرية التي نالتها المرأة في ذلك العهد، إضافة إلى تميّزها في ميدان الأدب والثقافة.

أمّا المدخل الآخر لحال الأدب والثقافة فيتعلق بلُمع من الأدباء: الشعراء منهم والناثرين، ولعلّ أبرزهم ابن شهيد الوزير أبو عامر صاحب التوابع والزوابع^(٣) وابن حزم الفقيه الأندلسي^(٤) ويكفينا في أخبار الأخير وعلو ثقافته ومنزلته، ما ذكره بحقه المراكشي من "أنّ مبلغ تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والنحل وكتب الأدب والردّ على المخالفين نحو من أربعمائيه مجلّد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيب وافر من علو النحو واللغة، وقسم صالح من قرّض الشعر، وصناعة الخطابة"^(٥).

ويرد المراكشي الخبر السابق باعتراف صريح بتفرد تلك الشخصية الثقافية فيقول: "وإنّما أوردت هذه النبذة من أخبار هذا الرجل لأنه أشهر علماء الأندلس اليوم، وأكثرهم ذكراً في مجال الرؤساء وعلى ألسنة العلماء"^(٦). ولا يبتعد ابن بُرد الأكبر^(٧) وابن بُرد

(١) انظر ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٢٩.

(٢) المقرّي، نفع الطيب، ج ٤، ص ٢٠٨.

(٣) سيفصل بهذه الرسالة في الفصل الثاني (باب القصة الهزلية).

(٤) سيعرض لأبرز نثره الفني في الفصل الثاني.

(٥) المراكشي، المعجب ص ٥١.

(٦) المصدر نفسه ص ٥٣.

(٧) ابن بُرد الأكبر: أبو حفص بن برد، كان وزيراً من وزراء الكتّاب في الدولة العامرية لدى المظفر بن أبي عامر، وهو أديب معروف بجودة نثره، (ت ٤١٨هـ). انظر ترجمته في ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأدباء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (تحقيق إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣. ج ٢، ص ٢٠٢. - ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ١٤٠ - ١٤١.

الأصغر^(١) والجزيري عن دائرة اللمع الأدبية؛ إذ حفظت لهم المصادر قدراً وفيراً من أعمالهم تعزّز مرتبتهم وسمو إنتاجهم، وسنأتي على ذكر بعضها لاحقاً.

اكتمال المشهد الخيط الذي انتظم حبات العقد

قد يبرز سؤال مفصلي يتعلّق بتقسيم العوامل المؤثرة في النثر الفني بناءً على الحالة السياسية، ولماذا لم تُعرض للظاهرة نفسها في المراحل الزمنية المختلفة داخل العصر نفسه؟ وإجابتي في ذلك تتسجم مع مميّزات هذا العصر الذي سادت فيه بعض الظواهر على غيرها بحسب الحالة السياسية؛ ففيما كانت الانتصارات السياسية في عهد الناصر أمراً لافتاً أثّر في رسائل الفتح والخطب السياسية، كانت الحرية الفكرية هي مميزات عصر الحكم فاقترضى التفصيل فيها منمذجة لهذا العصر، وكان الدفاع عن عشق قرطبة الذي بدأت خيوط وهن عصر الفتنة تتنازع، ممّا جعل كتابات ابن شهيد وابن برد وابن حزم تمثل ظاهرة في انعكاس الحالة السياسية على الأدب، فجاء الوضع السياسي - في اعتقادي - خيطاً ينتظم بداخله حبات عقد النثر الذي وصلنا من عصر الخلافة الأموية.

(١) ابن بُرد الأصغر: ذكره ابن بسّام بقوله: "كان أبو حفص بن بُرد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفت فيها بسحره وأقام من أودها بناصع نظمه، وبارع نثره". انظر ترجمته في ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٨٦ - ٤٩٠.

الفصل الثاني

أغراض النثر الفني

"دراسة في المضامين"

المبحث الأول: - الرسالة

المبحث الثاني: - العهود والمواثيق وكتب السفارات

المبحث الثالث: - الخطبة

المبحث الرابع: المقالات الطويلة

المبحث الخامس: القصة الهزلية

المبحث السادس: النثر الوصفي

المبحث السابع: الوصايا

المبحث الثامن: النثر العلمي

المبحث التاسع: المأثورات

المبحث العاشر: التوقيعات

المبحث الحادي عشر: المناظرات

الفصل الثاني

أغراض النثر الفني

لم تخرج الأجناس الأدبية للنثر الفني لعصر الخلافة الأموية في معظمها عمّا عُرِف من الأجناس في النثر الأندلسيّ بعامة؛ فقد ازدهرت الرسائل بأنواعها، وعُرفت الخطب والتوقيعات وكُتِب الأمان والعهود، إضافةً للوصايا والنثر العلميّ والمقالات والقصص.

وقد ساهمت بعض العوامل في بروز أغراض فنيّة أكثر من غيرها، فعلى سبيل المثال ازدهرت كُتِب الفتح وكُتِب الولاء والطاعة في الرسائل الديوانية؛ لكونها أصداء للواقع السياسي الذي ساد، كما تميّزت رسائل وصف الورود نظراً لجمال الطبيعة في الأندلس بعامة، وفي قرطبة بخاصة^(١). ولا ننسى أنّ دراسة أغراض النثر لعصر الخلافة الأموية الأندلسية مرهونة بما وصلنا في بطون المصادر الأندلسية، ممّا جعل صورة بعض الفنون النثرية تتضح أكثر من غيرها. فما أبرز هذه الفنون؟ وما أشهر موضوعاتها؟

١ - الرسالة

إنّ المطالعة المتخصّصة لفنّ الرسائل في عهد الخلافة الأموية، تدفع إلى الخروج على التقسيم المتعارف عليه في هذا الفنّ، إذ يقف المعظم عند الرسالة الديوانية والإخوانية والأدبية. والتقسيم هذا - على منطقيته - يدخل أحياناً في عموميّة؛ فالرسالة الديوانية مثلاً التي تخرج عن دار السلطنة أو من يمثّلها تحوي موضوعات متعددة، قد يكون تخصيصها بكُتِب بشارة أو كُتِب تعنيف أو حضّ على فعل، يُجلى حقيقة خصائصها في ذلك العهد أكثر من مجرد تأطيرها بالرسالة الديوانية، وكذا الإخوانية أو الأدبية. والغريب في التقسيم السابق أنّه يحتكم إلى المرسل في النوعين الأولين، أي في الديوانية والإخوانية، فيما يقفز في النوع الثالث إلى خصيصة الغرض، فيصبح الموضوع الأدبي هو الذي يوطّرها، ولا يُعتقد أنّ الأسلوب الأدبي هو الذي أعطاه تلك التسمية، فكثيراً ما نجد سمات أدبية متميزة في الرسائل الديوانية، ولذا سنقف في هذا الباب عند فنّ الرسالة بناءً على تقسيم المحتوى، بدرجة قد تكون أوضح من مجرد الوقفة عند صيغة المرسل للرسالة.

(١) انظر حول متزهات قرطبة وأنهاها في المقرّي، نفع الطيب، ج ١، ص ٤٥٥ .

حدّ الرسالة

يحتاج حدّ الرسالة إلى ترسيم يوضّحه؛ فالباحث في المصادر الأندلسية يجد هذا المصطلح يتأرجح بين مسميات عديدة، فقد يرد باسم رسالة^(١)، وقد يُلمح باسم كتاب^(٢)، ولا نعدم أن نقرأ ذلك باسم سجل^(٣) أو صحيفة. إلا أنّ الغلبة في الاسم كانت للرسالة، ولذلك أنشئ الديوان الخاص بالمكاتبات باسم ديوان الرسائل^(٤). والرسالة - حسبما يقتضي الغرض منها - قد تكون مجرد فقرة أو فقرتين^(٥)، وقد تطول لتشمل مصنفاً كما في الرسائل الأدبية^(٦)، ممّا يجعل الدارس يقف ملياً عند ما يُدخله ضمن الرسالة وما يخرج منه ضمن المقاييس النقدية الحديثة في التصنيف والأجناس الأدبية. إلا أنّ استخدام مصطلح رسالة عند الأندلسيين بالتصريح يجعلنا نتعامل مع هذا المصطلح بإطاره العام لا الخاص، فنحدث عن بعض المصنّفات الأدبية ضمن باب الرسالة مثلاً.

وفي بيان حدّ الرسالة لا بُدّ من التنويه إلى أنّ الرسالة بما تحوي من إيصال خبر مُعين قد تستخدم لغة النثر ولغة الشعر، وقد شاع في الأندلس بعض المراسلات الشعرية التي يمكن تسميتها بالمحاورات الشعرية وأمثلة ذلك كثيرة، نستذكر منها ما نقله لنا المقرّي في مراسلة أدبية جرت بين أبي بكر الزبيدي والوزير جعفر المصحفي^(٧). إلا أنّ غلبة النثر على لغة

(١) انظر مثلاً ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١٢٣.

(٢) المصدر نفسه ص ٧٧، ص ٨٩، ٩٠.

(٣) المصدر نفسه ص ١١١، ص ١١٤.

(٤) انظر قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن زياد (ت ٣٣٧هـ)، الخراج وصناعة الكتابة (تحقيق محمد الزبيدي)، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١. ص ٣٧ - ٣٨.

(٥) انظر مثلاً ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٩٨.

(٦) مثل رسالة الشقندي في تفضيل الأندلس، ورسالة صفون بن إدريس. انظر المقرّي، نفع الطيب، ج ٣، ص ١٨٧ - ٢٢٢. ص ٥٥، ص ٦٣ - ٧٠.

(٧) فقد عاتبَ الوزير جعفر المصحفي أبا بكر الزبيدي حول كتاب قد كتب فيه (فاضن) بالطاء (أي كتبها فاضن) فكتب إليه أبو بكر:

قل للوزير السنّي مَحْتَدُهُ	لي ذمّة منك أنتَ حافظها
عناية بالعلوم مُعْجِزَةٌ	قد بهظ الأولينَ باهظها
إن لم تحافظ عصابةً نُسبت	إليكِ قدماً فمن يحافظها
لا تدعن حاجتي بمطرحة	فإن نفسي قد (فاظ فائظها)

فأجابه المصحفي:-

خفّض فواقا فأنت أوحدها	علماً ونقابها وحافظها
من ذا يساويك إن نطقتَ وقد	أقرّ بالعجز عنك جاحظها
وقد أتتني فديت شاعلةً	للنفس أن قلتَ فاظ فائظها

الرسالة هو الأوضح، ممّا حدا بالدارسين إلى إدراج فنّ الرسائل ضمن الفنون النثرية. ويبدو أنّ العلاقة بين الرسالة والشعر ممّا تنبّه له الأوائل في المشرق العربي وفي مغربه على حدّ سواء، فنجد ابن طباطبا^(١) قد جعل الشاعر في تسلسل نظمه للقصيدّة مقترّباً من كاتب الرسالة الذي يتدرج في إيصال ما يريد قائلاً: "ويسلك الشاعر منهاج أصحاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم في مكاتباتهم؛ فإنّ للشعر فصولاً كفصول الرسائل، فيحتاج إلى أنّ يصل كلامه على تصرّفه في فنونه صلة لطيفة، فيتخلّص من الغزل إلى المديح بأفضل تخلّص وأحسن مكانة، بلا انفصال للمعنى الثاني عمّا قبله، بل يكون متصلاً به، وممتزجاً معه"^(٢). أي أنّ هذا الاقتراب هو في الناحية الفنية الأسلوبية من حيث تسلسل الأفكار. وفي التقسيم العام للأدب إلى منظوم ومنثور فإنّ الرسائل تكون ضمن المنثور^(٣) في الأغلب.

أمّا اقتراب الرسالة من فنون نثرية أخرى كانت معروفة كالخطب مثلاً، فيلمس من تصفّح بعض المصادر التي عُيّنت بالأجناس الأدبية؛ فنقرأ في "الصناعتين" ما يفيد بأنّ الرسالة تقابل الخطبة وأنّ الفرق بينهما قليل، "إذ يتشابهان في تشاكل الألفاظ والفواصل والعذوبة والتحرّر من الأوزان والقوافي. إلا أنّ الخطبة تُلقى مشافهةً على الجمع من الناس، والرسالة

فأوضحها تفرّز بنادرة قد بهظ الأولين باهظها

فردّ عليه الزبيدي وضمّن شعره الشاهد على ذلك:

وباحتت عن فاضت وقبلي قالها

رجال لديهم في العلوم حظوظ

روى ذلك عن كيسان سهل وأنشدوا

مقال أبي الغياض وهو مغيظ

" وسميت غياظا ولست بغائظ

عدواً ولكن للصديق تغيظ

" فلا رحم الرحمن روحك حية

ولا هي في الأرواح حين تفيظ

- انظر المقرّي، نفع الطيب، ج ٤، ص ٦-٧.

(١) ابن طباطبا: محمد بن أحمد بن محمد، ولد في أصبهان، ولم يفارقها قط. أعقب كثيراً من العلماء والأدباء والمشاهير، وكان مذكوراً بالفطنة. من أشهر مصنّفاته عيار الشعر، تهذيب الطبع، الشعر والشعراء. انظر ترجمته في ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ)، كتاب عيار الشعر (تحقيق عبد العزيز المانع)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥. (مقدمة التحقيق) ص ١٠ - ٢٥.

- ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٦، ص ٢٨٤ - ٢٩٣.

(٢) ابن طباطبا، عيار الشعر ص ٩.

(٣) انظر ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ١١، ١٤.

تُحَبَّرُ ثُمَّ تُرْسَلُ، فيغدو من السهل تحويلُ الرسالة إلى خطبة أو العكس.^(١) ولم يَغِبْ هذا التشابه عن ناثري الأندلس، فكان تقييم ابن حزم للطريقة الفنيّة التي ابتدَعها ابن درّاج في الكتابة منسجماً مع هذا، فهو يقول: "وقد كان أحدثُ ابنُ درّاج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل."^(٢)

أولاً: الرسائل الديوانية

يُشكّل المضمون اللبنة الأساسية في اختلاف الفنيّة والأداء للرسالة؛ فحتى لو كانت الرسالة ديوانيّة فإنّ اللغة والأسلوب ستختلفان باختلاف ذلك المضمون، إضافةً إلى عوامل أخرى قد يكون المرسل إليه أبرزها، وبخاصة ونحن نتحدث عن عهد شمل مجاورة الأعاجم، فاقترضى ذلك تغيّرات في نمطيّة الرسالة وطريقة كتابتها. ومع هذا فإنّ الظروف السياسية العامة كان لها الدور الأكبر في تصنيف الرسائل، وقد ارتأيت تقسيمها إلى:

- أ- كُتُبُ البشارة والفتوحات ب- كُتُبُ الولاء والطاعة
ج- كُتُبُ البيانات السلطانيّة د- كُتُبُ التعنيف والتفريع

لقد اعتمدتُ التصنيف السابق بناءً على ما استقرّته من كُتُب ورسائل وصلتنا، حُفِظَ معظمها في "البيان المغرب" و"الذخيرة" و"المقتبس" و"فتح الطيب".

إنّ ما يأسف الباحث عليه هو ضياع قدر كبير من تلك الرسائل، ونستطيع أن نعزو ذلك إلى سببين: الأول عدم تدوينها في المصادر التي وصلتنا، فنقرأ في تلك المصادر إشارات كثيرة إلى كُتُب لم يُنقل نصّها، أو نُقل مضمونها فحسب، أو أعرض صاحب المصنّف عنها لشهرتها وشدة شيوعها بين الناس، ومن ذلك ما ينقله ابن عذاري في أخبار سنة ٣٠٦ هـ حول الانتصار في غزوة مُطونية: "وكان الفتح يوم الخميس لثلاث خلون من ربيع الأول يوم السبت، في معارك جليّة لم يكن أعظم منها صنعا، ولا أكثر من أعداء الله قتلاً وأسراً، وورد الكتاب بذلك على أمير المؤمنين الناصر يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول، فأكثر من شكر الله عز وجل على ما منّ به وفتح فيه، وقُرئ كتاب الفتح في الجوامع وكُتِبَ به إلى الأطراف"^(٣). ومثل هذا الخبر يمرّ بكثرة في المصادر الآنفة الذكر، ذلك أنّ القرن الرابع الهجري هو عهد

(١) انظر العسكري، أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت بعد ٣٩٥هـ)، كتاب الصناعتين: الكتابة والشعر (تحقيق مفيد قميحة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٤. ص ١٣٦.

(٢) ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ)، التقریب لحدّ المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهيّة (تحقيق أحمد المزيدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣. ص ٢٠٥.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٧٣.

الانتصارات الأندلسية، فلو وصلتنا كتب الانتصارات تلك لمألت مجلدات من هذا الفن الأدبي، ويبدو أنّ فرحة المصنّفين بنقل تلك الأخبار كانت تميل للجانب الشعري، فالاستشهادات الشعرية التي تمثل هذه المناسبات^(١) كثيرة. وقد لا يُلام أمثال هؤلاء المؤرخين أو مصنّفِي تاريخ الأدب، فمن المتعارف عليه أنّ حفظ الشعر أسهل من حفظ النثر^(٢). ولذا كان النقل النصّي لكتب الانتصارات النثرية قليلاً مقارنة بما نُقل من شعر. أمّا ورود الإشارة للمضمون فحسب فله أمثله أيضاً، ومن ذلك ما يذكره ابن حيان في المقتبس من مكاتبات جرّت بين الخليفة الناصر وقائده الأعلى الوزير غالب بن عبد الرحمن حول المعارك التي جرت بينه وبين المُحد حسن بن قنّون^(٣)، وكيف دارت بينهما معارك وأنّ القائد كان له الظهور والانتصار ممّا جدل له الخليفة الناصر، فجاوب ذلك الكتاب "بحمد المقام وشكر الفعل، وكيف أنّ أمير المؤمنين جادّ في محاربة الفاسق حسن."^(٤)

وأما إعراض الكاتب - مؤرخاً كان أم أديباً - عن إيراد نصّ مُعيّن لشهرته فقد حرّمنا من بعض تلك النصوص المتميزة، ومن البديهي أنّ المقصود بذلك هو النصوص بعامة، وليس الرسائل فقط. ويبدو أنّ منهج الكتابة آنذاك كان يميل لمثل هذا النوع من الاختصار، وبخاصة حين يؤرّخ الكاتب لسنوات عديدة قد تتجاوز القرون. ومن ذلك مثلاً أنّ ابن عذاري حين عرّج على فضائل الخليفة الناصر، وإطناب الأديباء في شكره، قال: "ولولا أنّ الناس مكتفون بما في أيديهم منها، لأعدنا هنا ذكرها أو ذكر بعضها، ولكنّ المذهب هنا الاقتصار والإيجاز والاختصار."^(٥)

وقد يُعلّل بعضهم ذلك بأنّ تلك المصنّفات كانت إلى التاريخ أقرب منها إلى تاريخ الأدب في الأغلب، وأنّ منهجية الاختصار قد غلبت عليها أحياناً حتى في الأخبار التاريخية التي تستوجب التفصيل، فنتابع في مُصنّف ابن عذاري حين عرض لذكر مسجد قرطبة الأعظم تعزيز

(١) انظر أمثلة على ذلك في ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٢٢٤، ٢٤٤، ٢٧٤.

(٢) فالعرب تقول: "لم يُحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره".

(٣) حسن بن قنّون: أحد الخارجين عن الدولة المروانية أيام الخليفة الحَكَم المستنصر، تزعم هذا الخروج في برّ العودة إلى أن تمكّن القائد غالب بن عبد الرحمن من القضاء عليه وإخضاعه عام ٣٦٣هـ. انظر ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١٥٠ - ١٥١.

(٤) انظر المصدر نفسه ص ١٢٤ - ١٢٥.

وانظر أمثلة أخرى على ورود المضمون دون النص في ابن حيان، المقتبس، ج٥، ص ١٥٦. المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١٠٢ - ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ١٧٧، ص ٢١٨ - ٢١٩ ص ٢٣٨، ص ٢٤١.

(٥) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٣٣٥.

تلك المنهجية في الكتابة قائلاً: " وهو من أعجب البنيان، وإذ قد وقع ذكر المسجد الجامع بقرطبة فالواجب أن نذكر من أحدثه، ومن تولى بناءه من ملوك بني أمية على سبيل الاختصار." (١)

وإذا ما بحثنا في العامل الثاني الذي حال دون وصول كثير من الرسائل إلينا، فقد يكون ممّا حُفظ في بطن الكتب التي لم تصلنا إلى الآن رغم العناية الكبيرة بنشر المخطوطات وتحقيقتها، فبعض تلك المخطوطات ما يزال مفقوداً، ومن ذلك - على سبيل الإشارة - أجزاء من كتاب المقتبس الذي يُعد موسوعة في التاريخ الأندلسي. فيذكر صاحب المقتبس في الجزء الخامس إشارة إلى الكتاب الذي تسمّى فيه الناصر بال خليفة. ففي أحوال سنة ٣١٦هـ - نطالع عنوان تسمية الناصر بأمر المؤمنين ويندرج تحته: "وفي هذه السنة استكمل الناصر لدين الله مرتبة الخلافة، واستتمّ ميسمها بتسميته بأمر المؤمنين، وأخذ رعيته بذلك في جميع ما يجري منه ذكره، وإنفاذ كتبه بها في أقطار مملكته وقطعه على استحقاقه لهذا الاسم ... وقد تقدّم ذكره لذلك ونظمه فيما مضى من هذا الكتاب." (٢)

وقد عبّ محقق هذا الجزء (شالميتا) على العبارة الأخيرة بقوله: " وفي هذا تلميح إلى القسم المفقود من هذا المخطوط الذي يحتوي على نصّ الخطاب الذي وجهه الخليفة إلى عمّاله" (٣). ويتوجب علينا ألا ننسى أن وصول أكثر من مصدر عن الحقبة نفسها، مكننا من الحصول على ما فقد من نصوص أحياناً، مثل كتاب تسمية الناصر بالخليفة الذي احتفظ لنا به ابن عذاري (٤) ولسان الدين بن الخطيب (٥)، ولا يغيب عن الذهن ما مرّ بقرطبة من أحداث سياسية أثرت على الحصيلة المادية للحركة العلمية، حين نهبت مكتبة الحكم التي كانت تضم النفيس الثمين (٦).

ونخلص ممّا سبق إلى أننا لا نستطيع دراسة رسائل هذه الحقبة إلا ممّا وصلنا، وأنّ الذي وصل أقلّ بكثير ممّا كتب، ولكنها مع هذه الضالة - مقارنة بما نتوقع وجوده فعلياً - ترسم لنا ملامح عامة لموضوعاتها وخصائصها الفنية.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٣٩.

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٤١.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، هامش ص ٢٤١.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٨ - ١٩٩.

(٥) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٠.

(٦) انظر حول نهب مكتبة الحكم وأسباب ذلك في المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٨٦.

أ- كُتِبَ البشارة والفتوحات "ببشتر نموذجاً"

قبل استعراض هذا النوع من الرسائل الديوانية يجدر الوقوف عند لفظة "الفتوحات" التي نقرأها بكثرة في المصادر الأندلسية، لنسأل هل حملت هذه اللفظة الدلالة الدينية التي تبين دخول الإسلام في غير البلاد الإسلامية وإخضاعها للحكم الإسلامي؟ والواقع الملموس لما نقرأه في المصادر الأندلسية يجعلنا نقف بحذر عند هذا المصطلح؛ لإننا نشاهدهم يستخدمون لفظة "الفتح" حين يتغلبون على الثوار من المسلمين الذين يطمعون في الحكم، وأن لفظة "فتح" إنما تعلقت بدلالة ما يفتحه الله عليهم من نصر، أكان على غير المسلمين أم على الثوار من المسلمين^(١). أما عن كُتِبَ البشارة والفتوحات التي سأعرض لها فستكون من باب الفتح الإسلامي بمفهومه المعروف لعهد الفتوحات.

كُتِبَ كُتِبَ البشارة والفتوحات لكونها صورة للأحوال السياسية التي سادت معظم عصر الخلافة، فالناظر في أخبار الخليفة الناصر الذي دام حكمه خمسين عاماً، ثم ابنه الحكم ثم حجابة ابن أبي عامر التي امتدت إلى قرابة نهاية القرن الرابع^(٢) - يعي أن لا غرابة في كثرة هذه الكُتِبَ التي وردت مباشرة بفتح مدينة أو معقل، ولعلّ النموذج الأوضح الذي وصلنا كاملاً كان حول فتح مدينة ببشتر^(٣).

يذكر ابن حيان خبر الفتح في حوادث سنة ٣١٥هـ، ويمكن تقسيم الخبر إلى ثلاثة مضامين؛ يختص الأول بإعلام عمال الناصر على الأقاليم المختلفة بفتح ببشتر، فيما يختص الثاني بكتاب بشارة ذهب إلى الأفاق مُعلنًا فتح قلعة ببشتر، وجاء الكتاب الثالث من الناصر إلى عماله بنواحي الأندلس يُعلمهم بهدم ببشتر. ومع أن ظاهر الكتاب الأخير قد يبدو غريباً عن عنوان كُتِبَ البشارة والفتوحات، لكنّ ربطه بأحداث الفتح وتسويغ ذلك الهدم - كما سنقرأ في هذا الكتاب - يجعله في صميم موضوع كُتِبَ البشارة والفتوحات.

جاء الكتاب الأول بالمضمون لا بالنص مُوضحاً أنّ الناصر قد استولى على حصن ببشتر، الذي كان معقلاً من معاقل عمر بن حفصون^(٤)، فينقل صاحب المقتبس ما نصّه: "وكان مضمون الكتاب النافذ عن الناصر لدين الله في دخوله لمدينة ببشتر أنه ضبط قصبته العليا فقط

(١) انظر السامرائي، عبد الحميد، تاريخ الجهاد الإسلامي في الأندلس، دار شموع الثقافة، ليبيا، ٢٠٠٣. ص ٣٣ - ٦٦.

(٢) راجع ما تمت الإشارة إليه من الأحوال السياسية والانتصارات في الفصل الأول.

(٣) راجع التعريف بها ص ٨.

(٤) راجع التعريف به في الفصل الأول ص ٦.

لنفسه، وأحکم تحصينها، بما أحدثه من البنیان فيها على تقديره^(١) " ثم يتابع ابن حيان ما يفيد بأن الناصر قد أمر بهدم هذا الحصن، وهدم الجامع الذي بُني على فسق عمر بن حفصون، فنقرأ في هذا المضمون: " وتفرّق رجاله على هدم حصونها وقصابها ودياراتها الخارجية عنها والمحيطه بها، ثم أمر بهدم المسجد الجامع الذي كان اتخذهُ اللعين عمر بن حفصون أو ثورته، خدعة لمن كان معه من فسقة المسلمين قبل تصميمه في اجتباء النصارى، إذ كان اللعين أسسه على غير تقوى من الله ورضوانه، وأنفق عليه من غنائم المسلمين وأسلابهم، فسوّى بالأرض وأحرق منبره الذي حُمِل عليه الدعاء للعين المرتدّ ونسله الخبيث."^(٢) ويشير مضمون الكتاب بعد ذلك كيف أصبحت يُبشتر بعد هذا التهديم للمعاقل والحصون، فيتابع ابن حيان الخبر قائلاً: " ثم أخرج القوادم في طوائف الرجال إلى جميع حصون كورة رية^(٣) وتقدم إليهم بتخريب جميعها، وحط أسوارها وهدم قصابها... وكان عدة ما هدموه من هذه الحصون المُسمّاة في هذا الكتاب ثلاثين حصناً."^(٤) ونستطيع التكهن بأن هذا التفصيل في المضمون قد أتى عقب الاطلاع على النصّ الأصلي لكتاب الفتح وكتاب الهدم. لكن أهمية هذا الخبر قد جعل ابن حيان يورد التفاصيل التاريخية خلال المضمون، وحتى يؤكد هذه الأهمية فإنه يعود بعد ذلك للنقل الحرفي لنصّ ذينك الكتابين، ولا يُعتقد أنّ كتب الفتح الأخرى تخرج في فنيّتها عن الأطر العامة لكتاب فتح بُبشتر مع الاحتفاظ بخصوصية هذا الحدث التاريخي^(٥) الذي قضى على معقل مهمّ من معاقل الإشراف والنفاق، والاحتفاظ كذلك بخصوصية الأسلوب الذي يتأثر بكاتب النصّ عادةً.

أمّا الكتاب الثاني الذي نُقل بالنص فكان الكتاب الذي ذهب إلى الأفاق مبشراً بفتح قلعة بُبشتر، وهو كتاب طويل نسبياً، وقد يكون المسوّغ لذلك إبراز أهمية ذاك الحدث، ولربّما كان هدفاً فنياً، إذ اعتنى فيه كاتبه وتأنق في صياغته؛ لأنّ الخليفة قد شرّفه بمثل ذلك الكتاب، ولم

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢١٩.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) كورة رية: كورة من كور الأندلس في قبلي قرطبة، نزلها جند الأردن من العرب وهي كثيرة الخيرات. انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس ص ٧٩.

(٤) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٢٠.

(٥) كان للأدب أصداء كبيرة فينقل ابن حيان أنه " قالت الشعراء في ذلك أشعاراً كثيرة حسنة، منها شعر أبي عثمان عبيد الله الأول عند ورود البشري بالفتح، والثاني عند دخول الناصر لدين الله بُبشتر، ومنها في ورود البشري.

أحقاً خضوع المعقل المتجبرِ وفتح أمين الله حصن بُبشتر

ومنها في دخول الناصر:

ألا هكذا فلينصر الله ناصره ويشكر بالنعمة العظيمة شاكره

انظر ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٢١.

تقف المصادر عند كاتب هذه الرسالة - على حدّ اطلاعي - ولكنني أرجح أنّ الكاتب هو ابن شهيد الجد^(١) الذي كان في الحقيبة نفسها يشغل منصب وزير الكتاب، وقد شهدت له كتب التراجم بجودة نظمه، وبالخطوة عند الخليفة الناصر.

ونستطيع تقسيم الكتاب بالنظر إلى أفكاره إلى أقسام عدة: أمّا الأول فقد عُني بالتحميد والشكر لله تعالى والصلاة على نبيه - صلوات الله عليه - على ما يسره الله على يد الخليفة من نصر عظيم، ومن ذلك: " الحمد لله الذي علا فقهر، ومَلَكَ فقدر، وأحَكَمَ ما دَبَّرَ وأعزَّ الإسلامَ ونصرَ، وأذلَّ الكفرَ ودمرَ، باعَثَ الرسلَ ومنزلَ الكتبِ، الذي اختصَّ محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالنبوة، وشرَّفه بالرسالة وجعله البشيرَ النذيرَ والسراجَ المنيرَ، وأوضحَ به اليقينَ ونهَجَ به الدينَ، وختَمَ به النبيينَ فصلى الله عليه وسلم، وقدسَ وعظَّمَ وشرفَ وكرمَ"^(٢). ويتابع الكتاب حمدَ الله على نعمة الإسلام مُعتصماً بالجهاد، وما أعدّه الله من خير جزاء للمجاهدين، ومن ذلك: " والحمد لله الذي جعلَ الإسلامَ نِجاةً مَنْ تمسَّكَ به، ومُؤدياً له إلى رحمته، وجعلَ الشركَ به خِزياً لمن تَقَدَّه، وسائقاً إلى عذابه ومُستوجباً عليه عقابه، وجعلَ جهادَ أهله من فرائضه العظمى، وجعلَ للمجاهدين لهم اليدَ العُليا، ووعدهم الزُلفى في الآخرة والأولى."^(٣)

ويأتي القسم الثاني من الكتاب مُنسجماً مع ما مُهدَّ إليه سابقاً، ومفصلاً بشكل أوضح ما حَدَّثَ من نفاق وممالقة، وكيف حلَّت قدرته تعالى في نصره الحق والإسلام، مُدعماً السياسة العامة التي دأب عليها الخليفة الناصر من غزوات تَبَتَّت الحُكم، وأعلت شأنَ الدولة، فنقرأ في هذا القسم: " ثمَّ إنَّا لم نزل مُدَّ شرفنا الله بخلافته، واختصنا بإمامة عباده نبتغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، وندأب في نصر أوليائه، ولا تَلَفَّتْنَا عن ذلك لَفْتة سامة^(٤)، ولا يُلْهِينا عنه تَمَلِّي دعة، حين امتلأت الأرض كفراً، وفاضت شركاً، وتوطد النفاق، واستعجل الشقاق ... فقد تَأَثَّلُوا^(٥) بكثرة العدد والعدة، واعتزوا بطول المهلة وتراخي المدة، فرفلوا بين الخليفة واتسعت بهم البسيطة. وابتعثنا الله لنتنهيهم عن الضلال ونحملهم على الطريقة، فلم نزل نبخعهم ونتحراهم واحداً بعد واحد... حتى أذلَّ الله عزتهم وسكن ثورتهم... وزلزل بهم وأخلى معاقلهم ... وبلغنا

(١) راجع التعريف به ص ١٦.

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٧.

(٤) سامة: مصدر سُم، بمعنى الملل والضجر. والمقصود بـ (لفتة سامة) أي لا يقودنا الملل أو الضجر إلى

الابتعاد عن نصر أولياء الله ومقاتلة أعدائه. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة سأم).

(٥) تَأَثَّلُوا: طلبوا المجد، والأثال بالفتح هو المجد. انظر المصدر نفسه (مادة أثل).

منه إلى أقصى حدود ما أحببناه، بفضل عون الله وتأييده لأمرنا... فالحمد لله المان الكريم، ذي الآلاء والفضل العظيم." (١)

ثم جاء القسم الثالث مُفصلاً عن حقيقة ما جرى في بيشتر، وقد أتى ذلك في إخبار طويل بُيِّن في أوله كيف أنها قاعدة الشرك والإفك، ووضح مدى منعة حصنها وصعوبة تقويضها، وهذا من حُسن نسج الكتاب؛ فالنصر على القوي المنيع هو النصر الذي يخبر عن عظيم فعال القائد. وقد عرَض هذا القسم إلى الآلية الحربية والفنية السياسية التي نُفذت، وذلك بإضعاف المعازل المجاورة لها وقطع الاتصال مع غيرها من الحصون والمعازل، وقطع الطريق على كل من حاول الوصول إليها. وبعبارة أخرى كأن تلك السياسة تتحدث عن زعزعة الوضع الداخلي بفقدان منعة الجوار، وهذه السياسة التي آلت - حسبما جاء في الكتاب - إلى استسلام مدينة بيشتر مع مناورات في الدخول في الصلح، لكن ذلك لم يُدعَ له، لما أبطن أولئك الممالقون من مكر الخديعة، ونطالع في نص الكتاب أن مدينة بيشتر " كانت قاعدة الشرك ودار الكفر والإفك، ومكان عز النصرانية وموتلها ... وبيضتها المنتجة من أقطارها وحرَمها.... ولا يرتقي إليها أمل أمل، فقد عمّت بضرها كل بلدة، ووصل شرها إلى كل كورة... وهي من شرف المكان وسماكة البنيان مع سمو الذروة وعلو الرفعة لا شبيهة لها، ولا نذ يقارنها بشرفة البنيان... وكان جدنا المجرد لها، ونظرنا المحيط بها الممهدان لكل ما مهدنا، الباسطان من المعازل لجميع ما بسطنا... سعياً في الفراغ لها والانفراد لمحاصرتها، وعملاً في إدخال النقض عليها، والإيهان لقوتها... سموً بالأمل إليها... حتى إذا خلت من حصونها المتصلة بها... وانقطعت قواها، وجفت جداولها، وانجذمت مرافقها... قصدنا إليها بأنفسنا وأقمناها بعزائمنا." (٢)

أما القسم الأخير فكان إعلماً بأمر تخريب مدينة بيشتر، وإعادتها جبلاً أُجرد، وتسويغ ذلك بأنه طمس معالم الكفر والطغيان. وينتهي الكتاب كما بدأ بالحمد والثناء عليه سبحانه على ما من به من عظيم نصره، ومن ذلك: " وأمرنا عند ذلك بتخريب مدينة بيشتر وخط أسوارها وإنزال أسوارها، وهدم كل قائم فيها من قصورها ودورها ومخازنها ومبانيها، وإعادتها جبلاً أُجرد، على ما كانت عليه لأول خلقها، وقديم أمرها محواً لمحلة الكفرة الظالمين، ونسفاً لقرارة المشركين المعتدين {فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ} (٣)... فاعلم ذلك، وقف عليه، واستشعر حمد الله. ومُرْ

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٢٨ - ٢٢٩.

(٣) سورة القلم الآية (٢٠).

بقراءة كتابنا هذا إليك على المسلمين قبلك، في جامع موضعك ليحمدوا الله - عزَّ وجهه - على عظيم ما اصطنعه إليهم، ووهبه لهم، وليحدثوا من شكره تعالى على ما درأ عنهم" (١).

يمثل هذا الكتاب نموذجاً لكُتب الفتح قد يعزَّ نظيره، لأنه تامُّ في موضوعه، وفي تدرج فنيته من التحميد إلى الشكر إلى عرضٍ لما جرى في أثناء الفتح وبعده، وبذا يُمكن عدّه نموذجاً لكُتب الفتح الأخرى التي تعددت الإشارة إليها في المصادر كما أُشير آنفاً.

وتبقى الخصوصية التي ارتبطت بمجريات الفتح هي المؤثرة في مضمون كتاب الفتح، وهي التي تفرض طول ذلك الكتاب أو قصره، مع عدم إغفال فنية منسئ الكتاب وأسلوبه.

وجاء الكتاب الثالث الذي عزَّز كتاب الفتح السابق إلى العمال على النواحي المختلفة بالأندلس معلناً هدم (ببشتر)، وهو كتاب يتسم بالطول النسبي كسابقه الذي اختصَّ بالفتح، ويبدو أنّ الأهمية السياسية لصدى الفتح هو ما حدا بدار الخلافة إلى إطلاع الشعب عمّا جرى بعد الفتح وتوضيح علّة الهدم. ويمكن تقسيم مضمون هذا الكتاب إلى أقسام عدّة؛ أمّا افتتاحه فلم يخرج عن حمد الله وشكره الذي قرن بالثناء عليه سبحانه، لما يسره على أيدي المسلمين من نصر مؤزر ومن ذلك: "أما بعد، فالحمد لله الذي قضى بالعز لمن أطاعه، وختم بالذل على من عصاه، وتولّى أمر من تولاه ونصره وكفاه، وتبرأ ممن عاداه وخذله وأخزاه، الذي لا يزال يؤيد الإسلام ويُسدّد من قام به." (٢)

وأعقب الافتتاح السابق الدخول في مضمون الكتاب، فتمّ التذكير بالنصر والغاية القصوى باستسلام ببشتر، وكيف أمر الناصر بتخريبها وتابع الإشراف على ذلك، وجاء هذا الإعلام بتسلسل منطقي، وبحسن تخلص وقصر عبارات مؤدّية للغرض لم تخل من الاقتباس من القرآن الكريم. فنقرأ في الكتاب "وأنا لما عظم صنع الله تعالى عندنا، وحسن بلاؤه لدينا، وأذلّ عدونا ومكّن سلطاننا... وملكنا معاقلهم... حتى استتم لنا ذلك بالقاعدة العظمى والمنزلة العليا والغاية القصوى - ببشتر - ... قصدنا إليها لنسر بها... واستقصاء ما كان أمرنا به من تخريبها وتدميرها... فأكثرنا حمد الله تعالى على ما يسر منها، وسهل من خطبها، وعلمنا أن لا حول ولا قوة إلا به اللطيف بما يشاء [وهو على كل شيء قدير] (٣). (٤)

وتابع الكتاب التفصيل في بعض الإجراءات الإدارية، التي شملت النواحي المحيطة ببشتر من قصاب وحصون خارجية. وكان التفصيل بهدم المسجد الذي كان عمر بن حفصون قد

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالمينا) ج ٥، ص ٢٣١.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٣٣.

(٣) سورة الملك الآية (١).

(٤) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالمينا) ج ٥، ص ٢٣٣.

أسسه، لا بُدَّ منه، يُقَطَّع دابر القيل والقال في هذا الأمر، ومن ذلك: " ثمَّ فرَّقنا رجالنا عُصَباً ووزَّعناهم نُوباً على هدم حصونها وقصابها مثل شنت أولاليه وشننت مريّة ... وأمرنا بهدم المسجد... لمن كان فيه من فسقة المسلمين ... إذ كان مسجداً أُسس على غير التقوى، وبوعده عن البرِّ والهدى، وابتئي من غنائم المسلمين وأنهاهم ، فألحقت قواعده ببواسقه^(١)، وصيّر قاعاً صفتفاً"^(٢).

وقد أُشير إلى هدم المسجد بكتاب فتح بيشتر الذي سبق كتاب الإعلام بالهدم، لكن صعوبة هذا العمل ودرء الألسن في القول فيه، اقتضت من الخليفة التفصيل بذلك في هذا الكتاب؛ ليكون الإعلام واضحاً، ويكون نقل الأخبار في ذلك على بيّنة، وبخاصة أن فتح بيشتر أسهم بتحسين الوجود السياسي والأمني للخلافة الإسلامية. وهذا وضع لا يحتمل أي بلبلّة من نوعها تتعلّق بأمر هدم مسجد من قبل الخليفة دون تفصيل دقيق بذلك. وإنما اقتضى الأمر التنويه حتى لا ينفى الهدف من هذا الكتاب، فكان الكتاب الخاص بذلك في محلّه.

أمّا بقية الإجراءات الإدارية الفنيّة عمّن تقلّد أمر بيشتر، وكيف أُشرف على إخلاء الساكنين فيها ممّن استسلم بحضور الخليفة وبإشرافه الفعليّ، فقد فصلّ فيه، ومن ذلك: " ثمَّ قلّدنا أمر بيشتر والكون فيها... الوزير سعيد بن المنذر القرشي لما عرفناه من كفايته فيما يتولاه، وضلاّته فيما يحمله... وأمرنا الوزير محمد بن عبدالله بن حدير مولانا حتى خرجوا عن آخرهم إلى بسيطهم الذي كانوا وأسلافهم فيه، نازلين على قديم الدهر، وخلت تلك الأجل المانعة منهم... ورجونا من الله تعالى على جميع ما باشرناه من ذلك، وكابدناه وقاسيناه وتجشّمناه الجزاء الجميل."^(٣)

وجاء ختام كتاب الإعلام بالهدم معلناً الجدلّ البالغ بإتمام هذه المهمة، ووجوب التبشير بذلك في جميع نواحي الأندلس، لتعمّ الفرحة وتكتمل بشارة الفتح الذي كان قد أنفذ فيه كتاب سابق، ونقرأ في الختام " فكانت سفرتنا هذه أيمن سفرة وأجمعها لكل خير، وأحسمها لكل ضرر وأجلبها لكل سرور... وأشدّها تمكيناً للصالح... ثمَّ قفلنا بعد إكمال جميع ذلك حامدين الله تعالى على ما أعان عليه ووفق له... فأمر بقراءة كتابنا هذا في المسجد الجامع في موضعك على

(١) بواسق: المرتفع في العلو، وهي صفة لعلو السحاب. وقُصد بعبارة (فألحقت قواعده ببواسقه) هدمتها رأساً على عقب. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة بسق).

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٣٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٣٤ - ٢٣٥.

أوليانا ورعينا قبلك، يبشروا به وليحمدوا الله تعالى على عظيم نعمته عندهم... وليشكروه تبارك وتعالى" (١).

ويُستشف من مطالعة كتابي الفتح السابقين، وحرص ابن حيان على نقلهما النصي أهمية ما كان من فتح بُبشتر، وتسويغ وصول النص في المصادر في حين أن كثيراً من كتب الفتح الأخرى أُشير إليها بالمضمون فحسب. أما الطول النسبي في هذين الكتابين فيعود إلى الأهمية ذاتها، وقد تكون الكتب الأخرى في معظمها أقل من ذلك، وهذه خصوصية تدعم اختيارهما نموذجاً لرسائل كتب الفتح.

ب- كتب الولاء والطاعة "كتب برّ العدو نموذجاً"

ارتبطت كثرة هذه الكتب والرسائل بالمجريات والأحداث السياسية التي سبقت خلافة الناصر، وما أعقب ذلك من خروج على الطاعة أحياناً، واستمرار ذلك بين مدّ وجزر، إلى أن سارت الأمور بشكلها الأفضل من الولاء والطاعة لدار الخلافة أيام حكم الناصر وابنه المستنصر. إلا أن الأمور عادت للبلبل بعد عهد المنصور بن أبي عامر، وبدء عهد الفتنة البربرية، ولا نمرّ بهذا الاختصار التاريخي إلا من باب الإشارة لأهمية كتب الولاء والطاعة التي زخرت بها مجموعة من المصادر الأندلسية. ويمكن تصنيف الفئة المرسلة لهذه الكتب إلى ضربين: ضرب يصدر من الجهة التي تُعلن الولاء والطاعة لدار الخلافة، وضرب من باب الإجابة على الكتب التي تحمل المضمون السابق، أو من باب تعزيز الولاء والطاعة بأمر إداري، وتعيين سلطاني. ومن المنطقي أن يكون الحديث في الضرب الثاني مختصاً بما يصدر عن دار الخلافة للأقاليم والأمصار المختلفة، ومن ذلك مجموعة من الكتب والمراسلات وُجّهت إلى أرض العدو إثر انشقاق حسن بن قنّون الحسني عن رأي الجماعة، والدعوة للمذهب الشيعي. ولم تخرج أخبار هذه الكتب عما ذكر بخصوص كتب الفتح، إذ تعرّضت المصادر إلى مضمونها تارة بالإشارة فحسب، وتارة بالنقل النصي.

فمن الضرب الأول ما نقله ابن حيان في ترك التعرّض لحسن بن قنّون ريثما يتمّ تعزيز القوات بقيادة جديدة لحربه؛ فنقرأ في المقتبس: "فتضمّن الجواب إليهم أنّ الرأي ترك الحركة إليه، والتعرّض لحربه حتى يلحق بهم الوزير الأعلى غالب بالقوة إن شاء الله". (٢) ونطالع في مصنف ابن حيان نصوصاً متعددة جاءت على شكل مراسلات بين الخليفة الحكم المستنصر

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٣٧.

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١٠٣.

والقائد غالب. ومنها إرسال الشاعر محمد بن حسين المعروف بالطبني^(١) ليستعين به القائد في شأنه، ومن ذلك: " إنَّ أمير المؤمنين عهد بتوجيه محمد بن حسين الطبني إليك على ما رغبت فيه، فقد وقع اختيارك منه على خيار وثقة في جميع أحواله، مع نفاذ دُربته وصدق ممارسته".^(٢) وتواصلًا مع الظروف السياسية التي أعقبت محاربة القائد غالب للخارج على الطاعة حسن بن قنُون، حضرت مجموعة كبيرة تمثل وجهاء البربر إلى قرطبة - حاضرة الخلافة- فاستقبلوا أيما استقبال وأمر لهم بالصلوات والكسي^(٣). كما أنفذ الخليفة المستنصر لكبيرهم من قبيلة كتامة أبي العيش بن أيوب سجلاً نافذاً بتزعمه للقبيلة، فُيَدَّ بخط الوزير جعفر بن عثمان.

ويمثل السجل السابق نموذجاً على كتب الطاعة والولاء، التامة نصّاً، الكبيرة نسبياً في تفصيلها ومضمونها، إضافة إلى أنه نموذج من كتابات الوزير صاحب المواريث جعفر بن عثمان الذي شهدت له كتب التراجم والأدب بالتفوق والبراعة. أمّا هذا الكتاب - أو السجل كما نعته صاحب المقتبس - فقد بدأ بإعلان تولية أبي العيش بن أيوب، مؤكداً أهمية أن يلتزم بالتقوى والصلاح لقومه؛ ومن ذلك: " كتاب من عبدالله الحكم المستنصر بالله أمير المؤمنين لأبي العيش بن أيوب، أنه ولّاه النظر في قبيلة إطانة مهران وأمره بتقوى الله العظيم، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون".^(٤) ثم يتابع الكتاب التفصيل في ضرورة أن يخلص الوالي في تولي أمور القبيلة على ما شرع الله في كتابه وحسب سنته، وتضمن الكتاب تفصيلاً في كيفية استيفاء الزكاة بحسب الزروع والمواشي. ومع أن ظاهر الكتاب وتفصيله قد يبدو دينياً صرفاً، إلا أن الصدى السياسي له واضح، فما جاء ذاك التفصيل إلا للعودة إلى الحكم السني الذي هو السياسة العامة لحكم دار الخلافة، وما الخروج الديني في المدعو حسن السابق إلا إضعاف للحكم في دار الخلافة القرطبية، ولذا جاء هذا الكتاب بفكر سياسي يؤكد الائتلاف الذي يحارب الخروج على الطائفة السنية. ومن ذلك: " وأمره أن يحتمل في أحكامه على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة محمد - صلى الله عليه وسلم - المرسل بهما.... ومباشرة أموره بنفسه وحملهم على واضح الديانة، ومناهجها المستقيمة، وما عقده منها الكتاب

(١) الطبني: هو أبو مضر زيادة الله، شاعر وأديب من قرطبة، كان لغوياً مشهوراً كثير الغرائب ومن مؤلفاته كتاب الحمام، ولد سنة ٣٣٦ وتوفي سنة ٤١٥هـ. انظر ترجمته في الحميدي، جذوة المقتبس، ج٦، ص ٣٤٣.

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١٠٨ - ١٠٩.

(٣) انظر تفصيلاً في مراسم الاستقبال في المصدر نفسه ص ١١٠ - ١١١.

(٤) المصدر نفسه ص ١١٢.

والسنة... وأمره أن يعرف للمؤلفة قلوبهم وأهل الطاعة السابقين لهم حقوقهم، ويقرب منازلهم، وأن يقمع أهل العدا والظلم.^(١)

والناظر فيما سبق يتيقن أن حدود البراعة في اللغة قد اصطدمت بحاجز المضمون الذي وُجّه لفئة كبيرة - هي من يسكن برّ العدو - وأنه تعلق بأمر يبدو ظاهره متعلقاً بالولاء والطاعة، إلا أن باطنه متعلق بتثبيت الطريقة في العبادة والعودة للمذهب السني، فلا غرو أن يبدو المصحفي حصيماً في اللغة التي تصل للأفهام بقدر العقول المتفاوتة، وألا يُعطي من درجة البلاغة التي قد تُغيّر الفكرة فلا تفهم إلا من الخاصة، فينتفي المراد من الكتاب.

إن سمة الوضوح وسلاسة اللغة التي اقتضاها المضمون تنطبق على كثير من كتب الولاء والطاعة التي وصلتنا إبان عهد الخلافة.^(٢) وحتى تستقيم صورة هذه الكتب وتكتمل، فلعله من المنصف الإشارة إلى الاتجاه العكسي لهذه الكتب التي قصدت دار الخلافة، وليكن النموذج من إنشاء المصحفي أيضاً، وإنما قصدنا ذلك لتبيان الفارق في الصياغة باختلاف الجهة المقصودة واختلاف المضمون، وكان الكتاب من ملوك صُنع برّ العدو وزعمائهم يعلنون فيه الولاء والطاعة للخليفة الحكم المستنصر عقب انهزام المدعو حسن بن قنون. والدارس للكتاب يُدرك تأنق الكاتب وعنايته في تخير العبارات الدالة، والموازنة الواضحة بين الجمل القصيرة التي عُني بها الوزير المصحفي، شاكراً الله على عظيم امتنانه بهذا النصر الذي كسر فيه شوكة الخارج على الطاعة وحزبه، ومن ذلك: " الحمد لله المحيط الذي لا يُحاط به، والظاهر الذي لا يظهر عليه، الواحد الذي لا يُكاثر، والقادر الذي لا يُقادر، مُقدّر الأقدار ومُصرف الأعمار الذي أنطق كل شيء خلقه برحمته، وألزمه الدليل على الافتقار إليه ... والحمد لله رب العالمين الذي اصطفى من عباده صفوة اختصهم بكرامته، وأعزهم بفضيلة نبوته."^(٣)

واللافت للنظر في استهلال الكتاب السابق غلبة التحميدات عليه، واستظهار دين الاسلام وعلو شأنه، من قيام الدعوة المحمدية إلى إنشاء الكتاب مع الاستدلال بآياته عز وجل، حتى إن طول هذه التحميدات يفوق ما جاء في كتب الفتح المستقلة. وقد يسوغ هذا أن الكتاب كان يحمل في طياته غرضين معاً: تبشيراً بغلبة واضحة لدار الخلافة على الخارج على الطاعة، وإذعاناً من زعماء برّ العدو بتجديد البيعة للخليفة الحكم؛ فجاء الكتاب متيناً في لغته التي تتناسب وعلو الحدث وشموخ هيئته، فما إن بدأ الحديث عن غلبة أهل السنة حتى تعددت الصفات والمناقب، التي تخيرها الوزير المصحفي ليُعطي من شأن ما كان، ومن ذلك: "والحمد لله

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١١٢، ١١٤.

(٢) انظر أمثلة على ذلك في ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٥٠.

- ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٣) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١٧٨ - ١٧٩.

الذي اصطفى من عترته وانتخب من دوحته خلائف في أمته، حملة لسنة، حفظة على شيعته، دعاة لخلقهم... حتى أورث الله تعالى مقامهم وارث شرف أنسابهم، وحائز كرم أحسابهم، والمهتدي بهديهم، والمتحمل على سننهم، والسائر سيرتهم، والرافع لمعالم مناقبهم أمير المؤمنين بجميل نظره... فأعمل ذلك جهده وصبره وكده، حتى عاد الدين غصناً على حاله في عهدهم^(١) ويبدو أن تجديد البيعة وإظهار الولاء والطاعة جاء مضمناً في هذا الخطاب الذي ما انفك يُبرز فضيلة الخليفة الذي أحكم العمل بالكتاب وبالسنن فبسط الله يده، ومكّن له في الأرض، ليكون الدعاء للخليفة الحكم هو ختام هذا الكتاب، الذي جاء ختامه متألفاً مع مقدمته التي عُنت بِقصر العبارة وموازنة الجملة، ومن ذلك: " فأيد الله تعالى جنده، ونصره وأعلاه، بمن كان قد جاهره بمعصيته، وأعلن مخالفته وتجانف عن طاعته وأخذ له بناصيته... حتى استوسقت^(٢) الطاعة في جميع بلاد المغرب، وقامت الدعوة بمنابر قواعده. "^(٣)

وإذا ما وازنا بين هذا الكتاب وسالفه ممّن وُجّه من دار الخلافة إلى برّ العدو، فإننا بلا شك نلاحظ فارقاً ملموساً بينهما في اللغة والأسلوب، مع أنّ الناسج للكتابين واحد. وهذا يؤكد أنّ خصوصية الكتاب الذي يُوجّه مضموناً ومُرسلاً إليه يتدخل في البنية العامة لما يُنسج، وأنّ الحديث عن سمات عامة لفن مُعيّن على إطلاق عموميته قد يخرج أحياناً عن الدقة النقدية، وأنّ ما يُقال عن خصائص الرسالة الديوانية في عصر الخلافة عند بعض الدارسين المحدثين^(٤) قد يحتاج إلى إعادة نظر تتعلّق بدقة التصنيف داخل الإطار العام عند الحديث عن فنّ الرسائل الديوانية.

ج- كتب البيانات السلطانية

لعلّ تخيرنا لهذا القسم من الكتب الرسمية قد نشأ من قناعة مفادها: أنّ بعض المخاطبات فيما يصدر عن ديوان الدولة لا يكون بقصد الإخبار أو إيصال المعلومة فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى مراسيم سلطانية أو أمر سلطاني ملزم، وهو ما يعادل الأمر الإداري النافذ الذي يتخذ وسيلة الإعلام المناسبة للتعريف به، وبذا يختلف كتاب الفتح والبشارة الذي يُقصد به بيان أحوال

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجّي) ص ١٨٠.

(٢) استوسقت: اجتمعت. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة وسق).

(٣) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجّي) ص ١٨١.

(٤) انظر مثلاً القيسي، فايز، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية، ١٩٨٦. ص ٥٣.

الدولة وقوتها، عن البلاغ الذي يحمل أمراً يُوجب الإذعان والإلزام، وقد يغدو اسم البيان السلطاني أكثر مواءمة لهذا النوع من الأوامر الإدارية مُوجبة التنفيذ.

أما النموذج الأول الذي سندرسه فهو كتابٌ تعود الأهمية فيه إلى الناحية السياسية بالدرجة الأولى، فقد أنفذه الناصر لتكون الدعوة له في المخاطبات بأمر المؤمنين أي بالخليفة. واتكأ على هذا الكتاب أضحى حُكم الناصر وذريته يعرف باسم الخلافة الأموية الأندلسية، وقد مرّ آنفاً ما يراه بعض المحدثين في هذه التسمية (أي الخلافة) من نتائج إيجابية على تثبيت دعائم الحُكم الأموي في الأندلس آنذاك.^(١)

إنّ أول ما يطالعنا في هذه الرسالة أنّها أنفذت إلى العمّال في الأمصار والكُور المختلفة، لتُقرأ في خطب الجمعة^(٢)، ممّا يؤكد الأهمية السابقة؛ فالمؤمّل من تلك الرسالة وصولها إلى أكبر عدد من أبناء الشعب، ليغدو الإعلام فيها عامّاً؛ ولذا اختيرت خطبة الجمعة منبراً إعلامياً واسع المدى لذلك. يأتي مضمون هذا الكتاب منسجماً مع هدفه الأصلي، فلا يلجأ ناظمه إلى إطالة التقديم، وإنما ينفذ إلى استحقاق الخليفة الناصر لهذا اللقب دون غيره، ذاكراً الأسباب الموجبة لعلوّ شأنه وحسن سياسته الثاقبة، نافذاً بعد ذلك إلى الأمر السلطاني بأن تكون المخاطبة بأمر المؤمنين، وأن تُنفذ المخاطبات بذلك من حينه، ولأهميّة هذا البيان السلطاني سنقف على نصّه كاملاً، فنطالع الخبر في مصنّف لسان الدين بن الخطيب بما نصّه: "وخاطب الناصر البلاد عندما أراحه الله من الغمّ القديم اللزيم المتعاقب، همّ ابن حفصون واستغلاق قلعة بُبشتر عليه، فعين المخاطبة بأمر المؤمنين، واللقب بناصر الدين بما نصّه: أما بعد، فأنا أحقّ من استوفى حقّه، وأجدد من استكمل حظّه، وليس من كرامة الله ما ألبسه للذي فضلنا^(٣) به، وأظهر أثرتنا فيه، ورفع سلطاننا إليه، ويسرّ على أيدينا إدراكه وسهّل بنا^(٤) وبدولتنا مرامه. وللذي أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلوّ أمرنا وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعاد من انحرافهم إلينا واستبشارهم بدولتنا، والحمد لله ولي النعمة والإنعام بما أنعم به، وأهل الفضل بما تفضّل علينا فيه. وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمر المؤمنين، وخروج الكتّاب عنّا وورودها كذلك؛ إذ كلّ مدعوّ بهذا الاسم غيرنا مُنتحلّ له، ودخيلٌ فيه ومُتسمّ بما لا يستحقّه. وعلمنا أنّ التماذي على

(١) راجع الفصل الأول ص ٧.

(٢) انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٨.

(٣) وردت العبارة بإضافة (الله) بعد (فضلنا) في ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٨.

(٤) سقطت لفظة (بنا) من نسخة البيان المغرب، انظر المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٩٨.

ترك الواجب لنا من ذلك حقّ ضيّعناه واسم ثابت أسقطناه، فأمر الخطيب بموضعك أن يقول به، وأجر مخاطباتك لنا عليه، إن شاء الله." (١)

يرتبط مضمون الكتاب السابق بالوضع السياسي ويبدو هذا واضحاً في مظانه الأولى، فقد وقف ابن عذاري في "البيان المغرب" عند هذا الوضع ضمن أحداث ٣١٦هـ، متعرضاً في البداية إلى مضمون هذا الكتاب، ومُتبعاً ذلك بنقل نصي له، مؤكداً أهمية تحول دار الحكم من الإمارة إلى الخلافة، والتبعات الإيجابية التي عُدّت عليها الآمال في ذلك، وبخاصة أن هذا الكتاب جاء عقب القضاء على ثورة بني حفصون التي امتدت أزيد من سبعين عاماً^(٢)، فنقرأ في البيان المغرب في أخبار سنة ٣١٦هـ ما نصّه: "وفي هذه السنة رأى الناصر أن تكون الدعوة له في مخاطباته، والمخاطبات له في جميع ما يجري ذكره فيه بأمر المؤمنين؛ لما استحقّه من هذا الاسم الذي هو له بالحقيقة، ولغيره بالانتحال والاستعارة، فهو أبرّ أمراء المؤمنين والهداة الفاضلين والأبرار المتقين، من كلّ منتخب في المشرق والمغرب، وقائم بالحق وسالك لسبيل الهدى والرشد." (٣) والموازن بين هذا المضمون والنص الحرفي للكتاب كما ضمّن أنفاً يقف على حقيقة أن ابن عذاري قد نقل المضمون بلغة أقلّ حدّة من الكتاب، مُظهراً الغاية من الكتاب ومفسراً ما جاء بالنص، ولولا الأهمية البالغة في ذاك الخبر لما كان هنالك داعٍ لإعقاب ذلك بالنقل النصّي، إلا أن صاحب البيان أكد أهمية ذلك لقطع الكلام في هذا الأمر حين قال: "ونفذت الكتب إلى العمّال فيه بما اجتلبنا نسخته، لما فيها من إيعاب القول، واستيفاء الحُجة، وظهور الحقيقة." (٤)

لقد وقف د. إحسان عباس عند هذا الكتاب واصفاً إيّاه بالطول^(٥)، وفي رأبي أن طول الكتاب مقارنة بموضوعه يجعله منطقيّاً، فلم يكن المقصود مجرد الحصول على لقب جديد، وإنما كان القصد يتجاوز ذلك إلى إظهار الهيبة السياسية التي احتاجت لتسويغ مقبول في هذا الكتاب، ولا يتجاوز الكتاب كما ورَدنا ما يعادل نصف صفحة مطبوعة - إن لم يكن أقلّ - فأين هو الطول الذي قد يوحي للمرء بوجود حشو وإضافات خارجة عن الموضوع!

(١) انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٠ - ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٨ - حمادة، محمد، الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا، ط ١، منشورات مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠. ص ١٦١.

(٢) انظر ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٠ - ٣٤.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ١٩٨.

(٤) المصدر نفسه.

(٥) انظر حول هذا الرأي عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ١٩٧.

وحتى تكتمل صورة هذا النوع من المخاطبات الرسمية النافذة، فمن الحريّ قوله إن هذا النوع يعترضنا في المخاطبات التي لها علاقة بالأمر الاقتصادي والأمر الإداري التنظيمية، كتعيين العمال على الولايات أو عزلهم. ناهيك عن الأمور السياسية التي أُشير لنموذج بارز فيها. ومن الأمثلة التي تطالعنا في السياسة المالية الكتاب الذي أنفذه الخليفة الحَكَم المستنصر عام ٣٦٤هـ متضمناً إسقاط سدس المغرم عن جميع رعايا الأندلس، ومن ذلك: " فإن أمير المؤمنين لم يزل منذ اصطفاه الله تعالى لخلافته، وارتضاه لحمل أمانته... ناظراً لجميع المسلمين... يرعاهم بعين عن مصالحهم غير نائمة، وجوانح على النصيحة لهم منطوية... وإن أمير المؤمنين لما تظاهرت آلاء الله تعالى عليه، وحسن بلائه عنده، رأى أن يجدد له الشكر ويمتري منه المزيد بإسقاط سدس جميع مغرم الحشود... تخفيفاً عن رعيته... وعهد أن يكون هذا الاسم المُسقط مكشوفاً لجميع الرعايا، ليبعد عن احتيال العمال.... ويستوي في معرفته العالم والجاهل...." (١).

وتبدو أهمية الكتاب السابق في استقراء أحوال الأندلس من الناحية الاقتصادية، ذلك أن إسقاط سدس المغرم أتى نتيجة رخاء عم البلاد، وعدل وإنصاف من القائمين على دار الحكم، وبذا نستطيع الحديث عن مثل هذه الكتب على أنها وثيقة متعددة الأغراض في فهم الحياة الأندلسية في مختلف شؤونها، إضافة إلى قيمتها الأدبية الفنية فيما تمثله من أغراض المكاتبات السلطانية.

ويأتي كتاب الخليفة هشام في تولي عبد الرحمن بن الحاجب المنصور ولاية العهد مثلاً آخر يوضح مضامين الكتب الرسمية النافذة، وهو من إنشاء أبي حفص بن بُرد (٢)، وتجدر الإشارة إلى الأهمية السياسية في هذا الكتاب الذي لم يولِّ عبد الرحمن الحجابة كأبيه، وإنما تجاوز ذلك إلى ولاية العهد، فلا يُستهجن بعد ذلك مدى أهمية هذا الكتاب، وما يمثله من وثيقة سياسية لا بُد أن تتبّع بمجريات كثيرة. ولهذا جاءت لغة الكتاب متناسبة مع رفعة المضمون، فقد بدأه ابن بُرد بصيغة رسمية سلطانية نافذة؛ لم تلجأ للمقدمات فنقرأ ما نصّه: " هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد الله عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة تامة بعد أن أمعن النظر، وأطال الاستخارة." (٣) ونتابع النص ببيان المسوغات التي أوجبت أن يختار الخليفة ولياً لعهد، فجاء هذا المضمون بعبارات تملؤها التقوى، وحسن سياسة الرعية، ومن ذلك: " واتقى حلول القدر بما يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يصرف، وخشي إن هجم محتوم ذلك عليه، ونزول مقدره به، ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه،

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٢) راجع التعريف به ص ٥٧ .

(٣) المقرئ، نفع الطيب، ج ١، ص ٤٢٤.

وملجأ تتعطف عليه، أن يكون يلقي ربّه تبارك وتعالى مُفْرِطاً ساهياً عن أداء الحق" (١) وكان ختام الكتاب مُفضياً إلى هدفه الأصلي وهو الكشف عن تولية عبد الرحمن ولاية العهد، بعد أن أبان استحقاقه لمثل هذه المهمة دون غيره، فنطالع ما نصّه: "وبعد أن قطع الأواصر، وأسقط الأقارب، فلم يجد أحداً أجدراً أن يولّيه عهده ويفوض إليه الخلافة بعده، لفضل نفسه وكرم وشرف مرتبته، وعلو منصبه مع ثقاه وعفافه ومعرفته وحزمه، من المأمون الغيب، الناصح الجيب أبي المطرف عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر وفقه الله." (٢)

ولم يفت ابن بُرد أن يُثني على هذا القرار برده إلى أصول عبد الرحمن القحطانية المشرفة، ممّا أعلى من شأن ولاية العهد في شخص عبد الرحمن المذكور، ومن ذلك: "مع أن أمير المؤمنين أيده الله بما طالع من مكنون العلم، ووعاه من مخزون الأثر، يرى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - قال: لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه. فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده فيه الآثار... خرج إليه من تدبير الأمور في حياته وفوض إليه الخلافة." (٣)

ويتميز الكتاب السابق بالتسلسل المنطقي في عرض الأفكار، وفي المراوحة بين أسلوبَي الإقناع والتأثير. ونستطيع القول إنّ البيانات الإدارية النافذة كانت في معظمها ذات طابع سياسي لم تتغير خلال حقبة تصل مائة عام تقريباً. (٤)

د- كتب التعنيف والتفريع

يأثف هذا النوع من الكتب الرسمية مع سابقه في عرض واقع الأحوال السياسية في عهد الخلافة، ومع أنّ الواقع الملموس لمثل هذه الكتب قليل، إلا أننا نتوقع أنّ مثل هذه الكتب كثير، ذلك أنّ منطقيّة الأحداث السياسية التي مرّت بها الأندلس في القرن الرابع الهجري اقتضت حدّة في التعامل مع القادة وعمّال الكور؛ فالغزو كثير، والمناطق المفتوحة اتّسعت، ممّا يُسوغ أن يكون الحزم هو الطريقة المثلى لاستتباب الأمن. إنّ مطالعة بعض النماذج في هذا الغرض قد يوضّح المضمون بشكل أوفى، وسوف نعرض لنموذجين: الأول صادر عن الخليفة الناصر في تفريع شديد لأحمد بن اسحق القرشي يصل درجة الهجاء كما سنلاحظ، والثاني كتاب

(١) المقرئ، نفع الطيب، ج١، ص ٤٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ٤٢٥.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص ٤٢٥.

(٤) انظر أمثلة أخرى على كتب بيانات إدارية في ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٧٧ - ٧٨،

ص ١٢٣، ١٣٢ - ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ١٩٨ - ١٩٩

تعنيف وجهه المنصور بن أبي عامر إلى قواده وجنوده ممن أبدوا نكوصاً عن الغزو، وهو من إنشاء الجزيري الكاتب المعروف، ولا ننسى أن عزو الرسائل إلى أصحابها ومنشئها يجعل الدارس في حلقة نقدية أوضح؛ إذ تدرس الرسالة من وجهتين: وجهة المضمون ضمن الحقبة المشار إليها، ووجهة السمات العامة لمنشئ الرسالة أي فنّيته في الكتابة، إلا أن هذا لا يمنع من أن المضمون أحياناً قد يغيّر في فنية كاتب الرسائل السلطانية، كما مرّ معنا في كتاب الوزير جعفر المصحفي. (١)

يأتي النموذج الأول الذي نطالعه في "أخبار مجموعة" موضعاً غضب الخليفة على القائد المدعوّ أحمد بن اسحق، فجاءت لغة الكتاب ساخطة ناقمة تنبئ بزوال مظاهر النعمة والرخاء التي ينعم بها، ومنها: "فإنّا كنّا نرى الاستحمام إليك استصلاحاً لك، فأبى الطبع الغريزيّ إلا ما استحکم منه فيك ... إلى أن استحوذ إليك، فالفقر يصلحك والغناء يطغيك." (٢) ثمّ يتابع منشئ الكتاب بيان السخط بهجاء مقذع، تعرّض للحسب الذي فيه حسه، وكيف أن الخليفة قد رفع من قدره وقدر عائلته، فلم يحفظ النعمة بل تجرّ وتكبر، فنتابع في الرسالة ما نصّه: "أوليس كان أبوك فارساً من فرسان ابن حجاج أحسهم حالاً عنده، وأنت يومئذ نخاس الحمير بإشبيلية فأقبلتم إلينا، فأويناكم ونصرناكم وشرقناكم، ومولناك واستوزرنا إليك، وقلدناك أعنة الخيل أجمع." (٣) ثمّ نفذت الرسالة إلى السبب الموجب للتقريع؛ وهو الاستهانة بتنفيذ أوامر الخليفة مع قلة المبالاة، فكان لا بدّ من التقريع المقذع، ومن ذلك: "وفوضنا إليك أمر ثغرنا الأعظم، فتهانوت بالتنفيذ وقلة المبالاة بنا، ثمّ مع هذا الترشيح للخلافة فبأي حسب أو أي نسب، وفيكم قال القائل:

أنتم خنار الخنار (٤) وليس خزّ كخيش
 إن كنتم من قريش تزوجوا في قريش
 أو كنتم قبّط مصر فذا التعاطي لأيش

(١) راجع ص ٧٣.

(٢) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم (تحقيق د. محمد عزب)، دار الفرجاني، القاهرة ١٩٩٤. ص ١٢٨.

(٣) المصدر نفسه ص ١٢٨.

(٤) الخنار: جمع خائر، وهو ضعيف القوى. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة خور).

الخنار: خنر الشيء خنوراً أي خشن وزالت رفته. انظر المصدر نفسه (مادة خنر).

أليست كانت أمك حمدونة الساحرة، وأبوك المجذوم، وجدك بواب حوثره بن عباس يقتل
الحوال في أسطوانة، ويخيط الحلفا على باب داره! فلعنك الله، ولعن من أنشينا في الاستخدام بك،
فيا مأبون ويا مجذوم، ويا ابن الكلب والكلبة أقبل صاغراً.^(١)

إن الناظر في الكتاب الأنف يعلم أن غضب الخليفة قد انصب على ذلك الوزير القائد،
وأن هذا الغضب قد نقله منشئ هذه الرسالة بقالب سيطر فيه المضمون على الفنيّة، فلم نلاحظ لغة
راقية أو تنميماً للكلام، وفيما عدا الاستشهاد بالشعر الذي هو أقرب إلى العامية في ألفاظه وجاء
مدعماً للهجاء، فلا أعتقد أن باستطاعتنا الحديث عن سمات مميزة لهذا الكتاب سوى بروز
عاطفة الغضب والسخط، وقد أجاد الكاتب في نقل مشاعر الخليفة الساخطة، وفي حدة استقدام
هذا الشخص لدار الخلافة صاغراً ذليلاً.

أما النموذج الثاني فيتشابه مع سابقه في المضمون، إلا أنه يتفوق عليه في الفنيّة. وليس
هذا من باب التحيز للجزيري منشئ الكتاب، ذلك أن اللغة والأسلوب في مضمون كالتقريع
يحتاج إلى أناة في الكتابة لا يقوى عليها إلا متمرسون أكفيا يستطيعون أن يجعلوا اللغة طيّعة
تقوي من فكرتهم، ولا يجعلون أفكارهم تتقاذفها عواطفهم، وتبرز أهمية هذا الطرح حين يكون
كتاب التقريع سلطانياً، فلا يغدو خاصاً - يهّم المرسل إليه، بل يصبح مع الزمن وثيقة متعددة
الأغراض، ومؤشراً دالاً على سياسة الحاكم في الأزمان وحالات الغضب.

جاء كتاب الحاجب المنصور بن أبي عامر توبيخاً صاخباً لجنوده كافة لتهاونهم في
الغزو، ونكوصهم عن ملاقات العدو تخوفاً منه، وحتى يستقيم فهم هذا المضمون فمن الحري
معرفته أن المنصور قد طلب إنشاء هذا الكتاب عقب انتصارات عظيمة على شأنه عظيم
النصارى^(٢)، فلا عجب أن يكون الكتاب بلغة القوي الذي يحمل عتاباً يكاد يصل التقريع، مع
الأخذ بعين الاعتبار أن حالة النصر وصفاء الذهن قد جعل الجزيري يتأنق ويتروى فيما يكتب،
ولم أعتز - على حدّ اطلاعي - على نص كامل للكتاب، وإنما على فصل منه، ومن ذلك:
" وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعافل والحصون، وتشتاقون ملاقاة الرجال
الْفُحول! فحين جاءكم شأنه بالأمنية، وقاتلكم بالشريطة، أنكرتم ما عرفتم، ونافرتم ما ألفتم،
حتى فررتم فرارَ اليعافير من آساد الغيل، وأجفَلتم إجمالَ الرئال عن المقتنصين، ولولا رجال
منكم دَحَضوا عنكم العار، وحرّروا رقابكم من الذلّ، لبرئت من جماعتكم، وشملت بالموجدة

(١) مؤلف مجهول، أخبار مجموعة ص ١٢٨ - ١٢٩.

(٢) انظر حول هذه الانتصارات في ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٧١ - ٧٢.

كافتكم، وخرجتُ للإمام والأمة عن عهدتكم، ونصحتُ المسلمين في الاستبدال بكم! ولم أعدم من الله تعالى عاجلَ نصرٍ وحُسنَ عقبي؛ فلا بُدَّ أنْ ينصُرَ دينه بما شاء" (١).

إنَّ الموازنة بين النموذجين السابقين توضحُ أنَّ النموذج الأول قد خرجت فيه المغالاة في الحدّة والغضب إلى الهجاء المُقدِّع الذي تعرض للأُنساب والشتيمة، دون مراعاة لهيبة ما يجب أن تكون عليه لغة الحاكم من طول الأناة، وكان يمكن لذلك الكتاب أن يكون أشدَّ اختصاراً مُعلناً ضرورة القدوم لدار الخلافة، ثم تكون المواجهة بما يراه الخليفة مناسباً. فيما كان النموذج الثاني على حدّته حافظاً لحدود الحياء العام، وإن لم يخلُ من التذكير بالجبن غير المسوّغ، وما ذلك إلا من باب شدّ العزيمة، والوقوف مع الذات في عدم النكوص والتخاذل، وقد يُضاف إلى ذلك أن الكتاب الأول وُجّه لشخص بعينه، فعوتب ذلك العتاب شديد اللهجة، وقد لا يكون في هذا مشكلة، ذلك أن المتلقي مهما كانت ردة فعله فهو فردٌ بعينه، أمّا النموذج الثاني فقد وُجّه للجند عامة، وهم ذخر أيّ دولة حتى وإن أصابهم الإرجاف لحظة ما؛ ولذا فإنّ الكتاب في خفاياه يشدّ من الأزر الذي يُبعد من يسمعه عن الجبن والنكوص، فالسامع له - وبخاصة بعد أن تحقق النصر للحاجب المنصور ولجيّشه - لا بُدَّ أنْ يشتدَّ عوداً، لأنّ الجندي في طَبْعِهِ يطرب لسماع النصر وحديث الشجعان والشجاعة بدلاً من الذلّ والإهانة، فقد نخمّن أنّ ذلك الكتاب إنّما كان هزة عنيفة استفاق من بعدها المتخاذل ومن جبن.

ويبقى استجلاء مضامين الرسالة الرسمية يربو على ما ذكرنا آنفاً، إنّما حصرنا بعض الأغراض العامة فيه ممّا قدرنا أنّها تستحق الوقفة لأخذ صورة عامة عن الرسالة الرسمية في عصر الخلافة، وقد حاولت أن ألج هذا الفن من زوايا مختلفة، متكئةً على الأهمية السياسية تارةً، وعلى عرّض الرسالة في عهود مختلفة تارةً أخرى، كما حاولت أن أتعرض لبعض كتّاب الرسائل المشهورين بانتقاء مضامين لكتّاب مختلفين قدر المستطاع، لتكون الصورة متنوعة تجلي ما كان عليه هذا الفن.

ثانياً: الرسائل الإخوانية

إنّ أولّ ما يطالع الدارس في هذ القسم من الرسائل، هو قلة ما وصلنا من هذه الرسائل مقارنة مع ما وصلنا من الرسائل الديوانية، التي كانت أحياناً محطّ أنظار كتّاب التاريخ أو تاريخ الأدب، ومقارنة أيضاً بما يُتوقّع من عدد حقيقي لهذه الرسالة، وبخاصة والدرس يطال القرن

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٧٢.

الرابع الهجري في الأندلس بعامه وقرطبة بخاصة، التي اشتهر أهلها بحظّ وافر من الأدب والثقافة كما بينا، فلا يُتوقع أن تكون الرسائل الإخوانية إلا صدىً لذلك الأدب فيعلو شأن نسجها ويتمّ التأنق في سبكها.

أمّا موضوعات هذا القسم من الرسائل، فالأصل أنّها كثيرة متنوعة ردها صاحب "صبح الأعشى" إلى أكثر من أحد عشر صنفاً، وأورد في كل قسم أصنافاً وأنواعاً^(١)، كما أورد صاحب الذخيرة أكثر من نوع منها، كالتعازي والهزل والتهنئة والاستعطاف^(٢) والعتاب وغيرها، إلا أنّنا في هذه الحقبة لم نقف منها على أنواع كثيرة، مع إيماننا القاطع بوجود بعض هذه الأنواع وبخاصة التعازي مثلاً، في حين أنّ المتصفح لكتاب الذخيرة - الذي حفظ لنا كثيراً من الأدب الأندلسي - يجد عناية كبيرة في نقل رسائل الإخوانيات في الأغراض شتى في عصر الطوائف وما بعد ذلك، ممّا يجعل الدارس يتساءل عن عدم الاعتناء بتدوين تلك الأغراض في زمن الخلافة الأموية، وهل تطوّر الذوق العام في الكتابة بعد عصر الخلافة حتى غدت الإخوانيات ممّا يشيع ويدون؟ أم أنّ هنالك أسباباً أخرى، قد يكون بعضها يتعلّق بوجود هذا الفن في عهد الخلافة - وهذا أقرب للمنطق - ولكن لم يتم العناية بتدوينه. وعلينا الاعتراف بأنّ رسائل الشكوى والاستعطاف أو العتاب قد غلبت على ما وصلنا من الرسائل الإخوانية، وحتى هذه الأنواع من الإخوانيات كانت ذات سمة رسمية أحياناً؛ إذ كانت استعطافاً أو شكوى لرفقة الحال أو جواباً على ما سبق، دار معظمها بين أحد الكتّاب وأحد رجالات السلطة المتنفذة. أمّا الرسائل الإخوانية بمفهومها الشخصي ممّا وصلنا في عصور أخرى، فأكثر تمثيلاً لمضامين الرسائل الإخوانية منها في عهد الخلافة.

لعلّ في نماذج الاستعطاف التي وصلتنا لثلاثين مميّزين ما يجلي الصورة عن هذا النوع من الرسائل الإخوانية، وستكون الوقفة بشكل خاص مع نماذج لصاعد البغدادي وابن درّاج وابن شهيد ليشكلوا أمثلة على فترات مختلفة من عهد الخلافة الأندلسية. أمّا رسائل صاعد البغدادي التي استعطف بها الخليفة سليمان فيبدو أنّها كثيرة لم أعثر منها إلا على رسالتين، إذ يشير صاحب الذخيرة إلى أنّ صاعداً كان قد اتّصل أول دخوله الأندلس بالوزير عبدالله بن مسلمة، فلما نكب استعطف الوزير أبا جعفر بن الدب ليشفع له عند الخليفة سليمان، "وخاطبه في ذلك بعدة رسائل، فكانت رقى لم تنفع ووسائل لم تنجع"^(٣) ويبدو أنّ صاعداً قام بصياغة هذه الرسائل من باب ردّ الجميل والعرفان، لتغدو هذه الرسائل وثيقة اجتماعية تؤكد العلاقة الإخوانية التي جعلت صاعداً ينجري لهذه المهمة الصعبة، وبخاصة حين يسخط الخليفة على شخص معيّن، كما

(١) انظر حول موضوعات الرسائل الإخوانية في القلقشندي، صبح الأعشى، ج ٩، ص ٤ وما بعدها.

(٢) انظر بعض الأمثلة في ابن بسام، الذخيرة، م ٢/٣، ص ١٩١، ٢٠٨، ٢١٨، ٣٠٦، ٣١٤.

(٣) المصدر نفسه، م ١/٤، ص ١٠.

نلمح من الخبر السابق كثرة تلك الرسائل، إلا أن عدداً كبيراً منها لم يصل، وحتى الرسالة الواحدة لم تصلنا كاملة، وإنما اقتضبت، ووصلنا بعضها، ومن ذلك: "لما جمع الله طوائف الفضل عليك وأذلّق^(١) بك الألسن، وأرهف فيك الخواطر، ورفرف عليك طير الآمال... لم أجد لابن مَسَلْمَةَ حين ضاق به الخناق، وانقطع به الرجاء، وكبا به الدهر ملجأً غيرك، فعطفك على واله نَبْهَهُ النَّحْسُ مِنْ سَنَةِ السَّعْدِ، وأيقظته الآفات من رَقْدَةِ الْغَفْلَةِ، ورشقتَه سَهَامُ الزَّمانِ بصنوف الامتحان".^(٢) والنص السابق يمتاز بجودة الصياغة، والفنية العالية اللتين أرادهما صاعد ليبين انكسار الوزير وتغير أحواله، طمعاً في أن يرقّ الخليفة لحاله. وزيادة في طلب الاستعطاف فإننا نطالع ما نصّه: "حتى لَقَّبَ الْمَنِيَّةَ أَمْنِيَّةً، وسمّى الموت فَوْتاً. ومن لم يكتب له الدهر سجلاً ولا عقْدَ له أماناً، ولا أشهدَ على نفسه ثِقَةً، فليكنْ منه على حَذَرٍ!.... وليعلم أن اصطناع المعروف يُكافئ المرء في سمّعه وبصره، ويلقاه في طريقه، ويحول بينه وبين محاربه، ويُجازيه في أهله وولده، ويصحبه في اغترابه عن بلده".^(٣) ونرى أن صاعداً قد قسم المضمون إلى فكرتين: نقلت الأولى رِقَّةَ حال الوزير، وما آل إليه زمانه من عثرات الدهر، وجاءت الثانية تعقد الأمل على الخليفة سليمان في أن يصفح ويتسامح، وأن ذلك الصّفْحُ ممّا يباركه الله. ومن نافلة القول إن عاطفة الحزن والأسى بدت جليّة في هذه الرسالة، ولكنها لم تؤت أكلها - كما يذكر صاحب الذخيرة - وقد يكون ذلك لعظم جُرم الوزير المستعطف له، ولو كانت الموازين بحسن الدفاع، فلا نعتقد أن رسالة صاعد تعود دون ثمر ناضج!

أمّا الرسالة الثانية فكانت في الموضوع نفسه وقد تقاسم النظم والنثر أسطرها، وسلك فيها صاعد أسلوباً مؤثراً حين اتكأ على النثر والنظم، ومن ذلك: "واذكرْ تعلق الآمال به، وتعلق أمه بك، وحاجة الرؤساء إليه وحاجته إليك، وحشدت لك القول والله تعالى خلق الدنيا بحرفين، وإن الكلمة لترقأ الدم، والرقيّة لتخرج الحية من مكنها"^(٤). لقد أعلى الكاتب من شأن الكلمة وتأثيرها على الخليفة يرقُّ لحال الوزير الذي يرغب صاعد في شكوى حاله. ولم يكتفِ صاعد بعبارات النثر، بل أرففها بالشعر على الكلام يلج قلب الخليفة، ومن ذلك: "فإن خبت من طلابك نثراً، قلت نظاماً:

بيديك بعد الله فك إساره و عليك في استنقاذه التعويلُ
فارحم أنين أبي بنات لم يصب لدموعهن على الخدود مثلُ

(١) أذلّق: ذلق بمعنى فصّح، ولساناً ذلق أي فصّيح بليغ. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة ذلق).

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٤، ص ١٠.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ٤، ص ١٠.

(٤) المصدر نفسه، م ١/ق ٤، ص ١٠.

فاجعله في يميني يديك فإتها سور تحوط المستجير وغيل^(١)

إنّ اشتغال رسالة الاستعطاف على النثر والشعر معاً سمة يسوغها أنّ الناظم للرسالة يُحسن فنّي النثر والشعر، إضافة إلى أنّ الكاتب عمَد للفنين معاً عن قصد حتى يكثف لغة الاستعطاف بأكثر من فن وطريقة. وتتضح محاولة صاعد في الاستعطاف مُسخرًا الحديث عن البنات تحديداً وبكائهن - لما هو متوارث في الثقافة العربية من أنّ البنات كسيرات الأجنحة، ضعيفات لا بدّ لهن من سنَد قوي مثل الأب.

أمّا النموذج الثاني في رسائل الاستعطاف فهو لابن درّاج، ويبدو أنّها كثيرة وطويلة، لكنّ الحظ قصر في إيصالها كلّها إلينا، وكانت نيّة الاختصار - عند ابن بسّام مثلاً - ممّا حرّمنا من بعض النصوص كاملة، إذ ينقل لنا جملة من نثره بقوله: "جملة من فصول اقتضبتها من كلامه الطويل فراراً من التطويل."^(٢) إلا أنّ ذلك لم يمنع من وصول عدد من تلك الرسائل بتصرف ابن بسّام. وإذا ما جئنا لرسائل ابن درّاج فإننا نجد بعضها قد قيّد منسوباً إلى المرسل إليه، فيما جاءت بعض هذه الرسائل مصدرّة بـ (يا سيدي) دون أنّ يتم الكشف عن المرسل إليه الفعلي، مع أنّ ظاهر الكلام يُوحى أنّها لصاحب تنفّذ وسلطة. ومن الأمثلة في النموذج الأول مُعلن المرسل إليه تلك الرسالة التي وجهها ابن درّاج إلى سليمان بن الحكم يستعطفه فيها، مُعتذراً إليه عن أي إساءة بدّرت منه، طالباً إيّاه الصفح، إنّ كان ليس لشخصه فلأطفاله الذين ينتظرونه، وذلك برقة لغة، مزاجاً ما بين النثر والشعر، علّ الكلام يُثمر، ومن ذلك: "حاشا لله أن أستشفّ الحسي قبل جمومه"^(٣) واستكره الدرّ قبل حفوله^(٤)، أو أتعامى عن سراج المعذرة، وأرغب عن أدب الله في نظرة إلى ميسرة، ولكن:

ماذا أقول لأفراخٍ بذي مرخ
ما أوضح العذر لي لو أنّهم عذروا
حمر الحواصل لا ماء ولا شجر^(٥)
وأجمل الصبر بي لو أنّهم صبروا

(١) انظر المقطوعة الشعرية كاملة في ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٤، ص ١١.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٦٢.

(٣) أستشفّ الحسي قبل جمومه: الحسي (السهل من الأرض يجتمع فيه القليل من الماء)، الجموم (الاجتماع والكثرة). والمقصود بالعبارة شرب الماء قبل أن يتجمع ويأخذ سبله الصحيحة. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة جم، مادة حسي).

(٤) استكره الدرّ قبل حفوله: الدرّ (اللبن)، الحفول (تجمع اللبن في ضرع الشاه، وعدم حلبها أياماً)، والمقصود بالعبارة أخذ زبدة الشيء دون المرور بتعبه وبمراحله المنطقية. انظر المصدر نفسه (مادة درر، مادة حفل).

(٥) البيت للحطيئة، انظر الحطيئة، جروال بن أوس (ت ٤٥هـ)، ديوان الحطيئة، ط ١ (شرح يوسف عيد)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢. ص ١٠١.

لكنهم صغروا عن أزمة كبرتُ فما اعتذاري عمّن عذره الصغُرُ

وقد قلبتُ لهم ظهر الأمور..... فما وجدتُ أحسنَ بدءاً ولا أحمدَ عوداً، ممّا أذن الله فيه لعباده الذين أمرهم أرضه.... وحيثُ ننتقلُ ففي كرمك، وأين نأمنُ ففي حرمك، وحيثُ لا توحشنا دعوتك... من مُلكك إلى مُلكك.^(١)

جاءت الرسالة الأنيقة مُستعطفة الخليفة بكلّ السبل، فكان الأسلوب الإنشائي ملامساً للعواطف: من دعاء إلى استفهام فتعجّب ، وجاء الأسلوب الخبري يردفُ الإنشائي؛ عسى العقل والعاطفة يشفعان لحال أديبنا. وقد حفظ لنا ابن بسّام فصلاً آخرَ من رسالة إلى الخليفة نفسه مؤكداً تارة أخرى حرصه أن يشفع له الخليفة ويرق، حتى يستطيع أن يكفّ في سعيه لأطفاله الذين يتشوقون لعطف والدهم وتحمل مسؤوليتهم، ومن ذلك: "ولعلّ مقلّب القلوب قد قلب قلبك الكريم للأطفال المشردّين، الذين دعوك مضطّرين أن تحلّ عنهم عقل النوى، وتكلّمهم إلى جبار السّماء، الذي أمر عباده أن ينتشروا في أرضه، وبيتغوا من فضله."^(٢) ولم تخرج هذه الرسالة في مضمونها عن سابقتها، وكان الأطفال هم وسيلة الترقّق التي اعتمدت، وهذا يتردّد في أكثر من رسالة.

والمطالع لسيرة ابن درّاج يقف على تغيّر أحواله بعد انتهاء عصر الحجابة وابتلاء قرطبة بعهد الفتنة، فكان ابن درّاج من المتضرّرين بعدما كان من أعلام الأندلس المعدودين^(٣)؛ ممّا أوجبه الاستعطاف والشكوى من ضيق عيشه وحاله. أمّا هذا النموذج لابن درّاج فلم يُفصح فيه عن اسم المرسل إليه، إذ يُفتتح بـ (يا سيدي)، وهي رسالة تغلب عليها الصور الأدبية والتشخيص، فيغدو الفقر غازياً صلفاً يثير الذعر، وينهب دون أن يعي، ومنها: "يا سيدي ومن أبقاه الله كوكب سعد في سماء مجد، وطائراً في أفناء أمنٍ مرجوٍ لدفع الأسواء، مؤملاً في اللأواء"^(٤) "٥". وبعد أن أشاد ابن درّاج بمن يرجوه لإزالة الضرر عن أحواله، بدأ يقصّ سيرته مع الفقر وكيف كان ميسور الحال قرير البال، ثم جاءت نوائب الدهر مكشّرة له عن أنيابها، فنطالع ما نصّه: "وكننتُ قد نشأتُ في معقل من العفا والوفر، محدّقاً بسور من الأمن والستر، حتى أرسل إلي سلطانُ الفقر رسولاً من نوب الدهر يريد استنزالي إليه، وخضوعي بين يديه،

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٦٣.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٦٣ - ٦٤.

(٣) ذكره الثعالبي صاحب اليتيمة بقوله: "كان بصّغ الأندلس كالمتمنبي بصّغ الشام" انظر حول ذلك في

الثعالبي، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، ج ٢، ص ١١٩.

(٤) اللأواء: الشدة وضيق العيش. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة لأي).

(٥) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٦٢.

فأبیتُ من ذلك عليه، فغزاني بكتائب من النوائب تسير تحت ألوية المصائب، تُبرق بسيوف الرزايا وتُشهر أسنّة المنايا... يَضربون طبول الذعر وسوء الحال، بأيدي طائشة لا تكلِّ وبصائر ثابتة لا تملّ." (١)

ونتابع مع ابن درّاج قصة فقره المؤلمة التي حاول مقاومتها، فكانت أكثر عُدّة منه بما نصّه: " فلم يرعني ذلك منهم أن تلقّيتهم بمنّ معي من جنود الصبر، فافتتح معقلي سلطانُ الفقر، وأخذني أسراً وطلب مني فداء لا أقوم به قسراً، فأوثقني في قيود الانقياد وشدّني في أغلال الأصفاد، ووكل بي الحيرة والتبدّل، وأمرهما ألا يطلقا سبيلي إلا بالفداء، فضاقت بذلك مذاهبي. حتى أتى منك رسول يسمى حُسن الثناء، فضمن لي عنك فديتي بين يدي أسرتي، وسيدي أولى من وفي بضمانه، وصدق قولُ رسوله على لسانه." (٢)

إنّ المنتبِع للرسالة السابقة يلمح جودة السبك وحسن الاعتناء بالأسلوب الذي كشف عن المضمون ببسر، ممّا يؤكد أنّ الرسائل الإخوانية التي لها علاقة بالشخصية والعاطفة الصادقة كالاستعطاف والشكوى تفتح قريحة الأديب، وتُعلي من أدبه، دون أن ننسى أنّها تكشف عنه في لحظة ضعف واستكانة.

وحتى تكون النماذج المسوقة في عهد الخلافة تمثّل العصر إلى حدّ ما، سنمر بنماذج من أدب ابن شهيد الذي برع في الرسائل الأدبية - كما سنلاحظ - أمّا النموذج الأول فكان في رسالة عتاب إلى أمير دانية (٣) مجاهد، ويبدو أنّ ابن شهيد كان هو والأمير مجاهد صديقين، لكنّ أحوال الأمير تبدّلت فما عاد يكتب لابن شهيد، ولا يسأل في أحواله. فجادت قريحة ابن شهيد برسالة عتاب، تُذكرُ بأيام الأخوة؛ إذ جمّع الأدب وحُسن المقال بينهما، وناب ذلك عن حُسن النسب، ومن ذلك: " كنا قبل أن ترمي بنا النوى مراميهما، وتلقي الخطوب علينا مراسيهما.... قد تخلينا عن الأنساب، وانتسبنا إلى الآداب، والدار إذ ذاك صقّب (٤) والملتقى كَثَبُ، فإذا شمخ مارن (٥) وثار به كمد ساكن، بعتب على زمن، وتقصير بإرادة عن سكن، تعاطينا كأسُ الشكوى،

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٦٢.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٦٢.

(٣) دانية: مدينة بشرقي الأندلس تقع على البحر، وكان لها قسبة منيعة وسور حصين بني بهندسة عالية، ومنها كان يخرج الأسطول إلى الغزو. انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس ص ٧٦.

(٤) صقّب: القرب، يقال صقبت دارهم أي دننت وقربت. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة صقّب).

(٥) شمخ مارن وثار به كمد ساكن: المارن هو الأنف، والكمد الحزن المكتوم. والمقصود بالعبارة تذكّر أيام الصحبة الزاهية وأن تلك الذكرة قد حركها حزنٌ مكتوم لانقطاع تلك الأيام. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة مرن، مادة كمد).

وتجاذبنا حبل البلوى. والزمان غرّ، وحوصلنا صُفر، نترنم ترنم الحَمام. ^(١) ثم يتابع ابن شهيد قصة الصحبة وكيف فرّق الزمان بينهما قائلاً: "ثم أَلقت الأيام علينا بكلّكل ^(٢) وأناخت من فوقنا ... فنثرتنا بكلّ فج عميق، وأفق سحيق نثر الدُرر. ^(٣) وتستمر رسالة ابن شهيد تمهّد إلى حُسن الصحبة التي كانت، وكيف جاء السعد للأمير مجاهد، فعلاً شأنه. ومن ذلك: "ونفحت عليك رياح السعد، وجاءتك المنى من تهامة ونجد، وامتطيت ظهر الجوزاء وكلما دعيت إلى النزال والعراك تترست بالثريا، وطعنت بالسماك، فرحمت منكب الدهر وقضيت أربك منه على قهر. ^(٤) ثم يخلص ابن شهيد إلى لبّ ما يبغى من العتاب على ما حصل من جفاء صاحبه، فنقرأ ما نصّه: "فكان أول حيّصتك عن الوفاء، وحيّدتك عن رعاية قديم الإخاء أن تركت المخاطبة، وأضربت عن المكاتبة، خشية أن يكون كلنا عليك، ورغبنا في ما لديك، وهيهات يأبى ذلك كرم محض، وهمة علياء ما لها خفض ^(٥) وتتوالى أدبيات العتاب عند ابن شهيد بفنيّة شدّ الحبل وإرخائه، فبعد أن ذكر ما يمكن أن يكون سبباً في القطيعة، عاد يلتمس العذر لأخيه بحُسن عبارة، ورقة عاطفة فنطالع في الرسالة: "ثم قلت: حمل أحسن الظن أجمل والقضاء بأكرم العهد أقبل، قد تشتغل الرؤساء وتتجاذب العظماء، وعينه مع ذلك راعية، وأذنه واعية، وإنما الوصل بالفؤاد لا بالمداد، والالتقاء بالحلوم لا بالجسوم. ^(٦)

ويُنهي ابن شهيد رسالته بإشارة واضحة إلى أن المُعرضين ربّما باعدوا بينه وبين أمير دانية، ويوضّح أديبنا موقفه وصحة معتقده في الصحبة وضرورة إبعاد سوء الظن عنه، بعبارات مسجوعة سجّع طبع لا تكلف، يشهد لهذا الرأي النقدي وضوح الفكرة وطواعية الألفاظ بين يديه ومن ذلك: "ولقيت إخواناً لقوك، فوالذي جعل الغدر من شعارهم، والحذر من دثارهم، ما أجرّوا في ذكرك فضلاً على أن يُجروا ذكري لك، وهم يعلمون أن مرّامي غير مرّامهم، ومغزاي سوى مغزاهم، ويوقنون أن أبعد آمالي في صديق إذا سما، وأرفع رغباتي لديه إذا طمى، انفراج بابيه وانتهاك حجابيه؛ يمتعني بإشراق وجهه، ويوردني غدیر بشره... ولا يقلل حظّي من إكرامه، ولا يهجر قسطي من لطيف اهتمامه، بعد أن يعدل القسطاس، ويُميز الذهب من النحاس. ^(٧) والدارس

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٢٨.

(٢) كلكل: الصدر من الشيء. والمقصود هنا ألقى الدهر بثقله أي مصائبه علينا وهمومه. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة كلل).

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٢٨.

(٤) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٢٨.

(٥) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٢٩.

(٦) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٢٩.

(٧) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٢٩.

لمضمون الرسالة السابقة يلحظ سيطرة الأنفة في سؤال المودة، والربط بين الذكريات الجميلة والواقع المنشود من الكرم والعطاء، مع التركيز على أن المنحة المعنوية هي جُل ما يرغب به الصديق. ومن اللطيف ذكره أن ابن شهيد ممن يتمتعون بهذا الحس الرقيق في تقدير الصحبة، فقد نقل لنا غير ذي مصدر قصصه الطريفة والمنفكّهة مع أصدقائه حتى وهو كبير السن.^(١)

أما النموذج الثاني فهو رسالة في النصيح والإرشاد، قيدها ابن شهيد إلى الوزير ابن عباس يحذره فيها من ابن فتح الذي لا يروم إلا شراً به، مؤكداً ثقته الكبيرة بالوزير ابن عباس في التبصر بالأمر وتمييز الغث من السمين فيما يصل إليه من التدليس، ومن ذلك: "وقلتُ أيستوقُ الجمل، ويتضح الكوكب، وتخف حصاة العلم، ويتضعع جبل العلم والعلم، ويكبو جواد الهمم، وتزل نعل الكرم، وتغلب الدنيا الدين، ويسطو الشك باليقين، ثم تذكرتُ علمي بك وقولي فيك:

غير أنني مع الوزير أبي القاسم حزب محض من الأحزاب
التقي النقي كهلاً وطفلاً فارس الجيش راهب المحراب

... فبحثتُ عمّن طرأ عليك من الأندال، وحلّ بساحتك من الأعلاج، فقبل لي: ابن فتح.^(٢) ولا يخفى على المطالع لما سبق لباقه ابن شهيد في نقل فكرته، إذ بدأها بأسلوب الاستفهام البلاغي الذي خرج للتعجب والاستنكار، حتى يؤكد ثقته المطلقة بالوزير، ومثلما أن الحقائق الثابتة في الكون لا تتبدل فكذلك ظن ابن شهيد بوزيره ابن عباس، إلا أن ابن شهيد يقلب الأمور في مجادلة لمعرفة تبدل الأحوال وانقلاب الأمور، فيدرك أنها من معرض حاقده هو ابن فتح، فنطالع في الرسالة ما نصّه: "فأنعمتُ البحث وأعملت لطائف الكشف حتى صحّ عندي أنه كدر صفوك عليّ، وغير شربك لدي، فقلت من هاهنا أتينا، وعن هذه النفوس اللئيمة رُمينا، وقصصي مع هذا العُج طویل."^(٣) وتستمر الرسالة تعرض لسوء ابن فتح ونذالته محذرة من بقاءه في دار السلطة، ومن ذلك: "فإنه الله في قبول هذا القرد والالتباس به... وإنني لأخاف على سعدك نحسه، وأحذر على يومك أمسه، أفقدته الله حسه وأورده الكنيف"^(٤) رمسه، فإنه لو جاور البحر لسده، ولو جاس أبا قبيس^(٥) لهده.^(١) وقد راوح ابن شهيد في الأسلوب، فاستخدم

(١) انظر حول ذلك في ابن بسام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ١٩٢، ٢٢٧. - المقرئ، نفع الطبيب، ج ٣، ص ٣٦١.

(٢) ابن بسام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢١٤.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢١٥.

(٤) الكنيف: الموضع السائر الذي يعاش به. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة كنف).

(٥) أبو قبيس: جبل بمكة. انظر المصدر نفسه (مادة قبيس). والمقصود بعبارتي لو جاور البحر لسده ولو جاس

أبا قبيس لهده أي أنه نذير شووم يحول كل شيء إلى خراب.

لغة تحذيريّة صريحة تارة وإيمائية تارة أخرى، وهذه المراوحة تأتلف مع فكرة الرسالة التي ترمي إلى التحذير والنصح، فنقرأ عند ابن شهيد: "وما أبعد أن تُمنّيَه نفسه الخبيثة الفتك بك، والوثوب عليك، فإنّ أمره أسخف، وصفاقة مُخه أشفّ من ألاّ يجري هذا المجرى، ولا يرمي هذا المرمى، وربّما ساعده القدر ... هذا حمزةُ قصعه وحشيّ ... وكسرى فتك به مرابزة" (٢). ويُنهى ابن شهيد رسالته بنصيحة لا تخلو من ثقافة الأديب، وحصافة من يخاطب عليه القوم، فنقرأ في خاتمة الرسالة ما نصّه: "ولولا أنّ الملوك لا تتهادى بالوضيع، ولا تعتمد في تحفها الرفيع، لرأيتُ أن تهديه إلى البليّنة ملكة البحر" (٣)، والقيّمة بالأمر لينصرف البارّد إلى عنصره، عسى أن يخرج البحرُ بعد حين في عنبره، فيكون أحرّ قليلاً وأهدى إلى ذلك سبيلاً، ولولا أن وصّف هذا الخبيث داخلٌ في معاتبة... لما ارتضيت سَوْقه، ولا غشيتَه في كلامي ... فإنّما يتعاتب الأكَفاء، ويتمازح الأخلَاء" (٤).

لا يقوى الباحث على المرور برسائل ابن شهيد دون الإشارة إلى الفنيّة العالية التي تميّز أدبه؛ فالتسلسل والتدرج واللغة الجزلة هي أدوات شفّافة في يراع ابن شهيد، فلا غرو أن نقف على تلك الخاتمة الأنفة الذكر التي تربط ختام الكلام بمبثدئه؛ فالبدائية كانت في استحالة تغيّر الحقائق أمام العظماء، والنهائية كانت بأنّ الخُبث لا مكان له وسط هذه العظمة، إذ حتى العتاب والمُزاح لا يكون إلا بين أكفّاء أخلَاء، فتغدو الجمل الخبرية مقصودة لدلالاتها الإيمائية لا لذاتها، وتصبح حتى السخرية منظومة بجودة كلام. وكلّ هذا تمشياً مع علوِّ مقام المخاطب ولباقة المخاطب.

ويمكن أن يخلص الدارس من النماذج المَسوقة في الرسائل الإخوانية إلى أنّ معظم ما حُفظ لنا منها في بطون المصادر كان لأثمة في الأدب والكتابة، ومع أنها عبّرت عن عواطف إنسانية وموضوعات ذات صلة بالحياة اليومية، كالعتاب والشكوى والنصح، إلا أنّ صلتها بالكاتب بقيت هي الأشيع والأكثر سيطرة، بحيث يمكن الحديث عن تلك الرسائل على أنها رسائل أدبية السبك والأسلوب إخوانية المضامين، وحتى الأخيرة هذه تبقى تحمل أكثر من علامة استفهام، فقد رأينا أنّ الاستعطاف كان يحمل تأوهاتَه إلى أمير أو سلطان أو صديق حميم يحمل مرتبة حكومية، لنعود إلى حلقة البداية التي اقتضت أن تكون الرسالة متّسمة باسمها الخاصة

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢١٨.

(٣) البليّنة (ملكة البحر): يضرب فيها المثل فيمن يمكث كثيراً بعيداً عن أهله فكأننا ملكة البحر اعتقلته. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة بلي).

(٤) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٢٥.

بحسب الحادثة والمرسل والمرسل إليه معاً، وإلا اتسعت الدائرة ممّا لا يمكننا معه تخصيص المضامين، وبيان مميزات الأسلوب.

ثالثاً: رسائل وصف الورود

تبدو الإشادة بحُسن الأندلس وجمال طبيعتها من المسلم به؛ فهي ممّا تغنى بها أهلها، وأعاد كرّته مجدداً الدارسون المحدثون، حتى إنّنا إنّ أحلنا لأي مرجع أندلسي لا نعدم هذه الإشادة، وهذا الوَع بوصف طبيعتها الخلابة. وما يهمننا في هذه الإشادة هو انعكاس ذلك على الأدب، ونخصّ بالذكر جمال الورود وروعة أثرها في أنفس الأدباء الأندلسيين، الذين انبروا ينظمون الشعر والنثر. ليأتي كتاب الحميري أبي الوليد الموسوم بـ"البديع في وصف الربيع"^(١) ياقوتة حفظت لنا هذه الظاهرة المميّزة. وإذا كانت الطبيعة جميلة تقتق قريحة الأدباء فمن المنصف الإشارة إلى خصوصية الطبيعة الأندلسية، وإضافة إلى جمال الطبيعة ساهم اختلاط الأجناس في خلق حسّ يمكن أن ندعوه بالحسّ الأندلسي المرهف، الذي ما جاء ردة فعل لمنظر طبيعي، وإنّما تجاوزه إلى مكنون داخلي، فتحوّل إلى غرض أدبي لو أردنا موازنته بما كان بالمشرق لرجحت كفة الأندلسي.

جاءت رسائل الورود بين الوصف والحوار تكشف عن أمنياتها المخبّأة في نفوس الأندلسيين، فماذا وصفت؟ وكيف حاورت؟ وهل استطاع النثر أن يدخل حلبة التغني بالورود ويُجاري الشعر في ذلك؟

إنّ تقليب مصنّف "البديع في وصف الربيع" مثلاً يكشف عن أنّ جياذ السبق في ذلك كان للشعر، إلا أنّنا لا نعدم بعض الرسائل النثرية لمجموعة من كبار النثرين جادت بها قريحتهم حتى وصلت رسالة عند أبي حفص بن بُرد أكثر من ثلاث عشرة صفحة! وقبل عرض بعض النماذج على هذه الرسائل نشير إلى أنّ معظم الرسائل التي وصلتنا في عهد الخلافة هي من عصر الحاجب المنصور وما تلاه؛ ولا نعتقد أنّ فنيّة زراعة الورود أضحت مختلفة عن سابقتها، لكنّ ذلك قد يعود لأسباب أخرى ربّما تعلق بعضها بطبيعة الحاكم الذي يروق لأمر معيّن كجمال الطبيعة أو شغفه بالأدب الذي له علاقة بذلك، فقد نقل عن الحاجب المنصور - مثلاً - أنه حين كان يمتحن الشعراء فإنّه يختبرهم بوصف الورود^(٢)، ويبقى التساؤل حول ذلك مفتوح الإجابة.

(١) أشار د. عبدالله عسيان محقق كتاب البديع في وصف الربيع إلى أنّ القطع النثرية التي حصرها في الكتاب أربع عشرة قطعة، معظمها من عصر ملوك الطوائف، انظر الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمد (ت ٤٤٤ هـ)، البديع في وصف الربيع (تحقيق عبدالله عسيان)، دار المدني، جدّة، ١٩٨٧. مقدمة التحقيق ص ٧٦.

(٢) مرّ معنا كيف امتحن صاعداً في ذلك، انظر ص ٥٢.

أما إدخال هذا الغرض الفني في الأدب الأندلسي غرضاً مستقلاً مع نهاية القرن الرابع وما تلاه فله مشروعيته.

تظل قضية الفصل في هذا الغرض النثري الفني تحتاج إلى تفصيل في القول، ففيما نجد أنّ الأغراض الشعرية قد قسمت بحسب أكبر يعتمد على الغرض المقصود كشعر المديح وشعر الوصف وشعر الهجاء الخ. إلا أنّ الأمور تصبح أكثر تعقيداً في أغراض النثر أحياناً، فالمتتبع لرسائل الورود يقع على قطع وصفية نثرية عالية البلاغة، بحيث يُصبح الوصف لا الإخبار هو الغرض المقصود، ولعلّ هذا الرأي يتأتى إلينا ونحن نعرض لنماذج من وصف الطبيعة، والورود على الأخص التي عُنيبت بتفصيل دقيق للنواوير وتباهيها، وإظهار حُسنها وتفوق كل واحدة على الأخرى.

ومن النماذج على ما سبق نموذجان لابن بُرد الأصغر؛ الأول منها في وصف الربيع في قرطبة والثاني في التباهي بين الورود والنواوير، وأما النموذج الأخير فهو للجزيري الذي أثار البنفسج على النرجس والبهار^(١)، فضمن تلك الآراء إلى الحاجب المنصور بن أبي عامر في نصّ نثري.^(٢)

يقترّب نموذج أبي حفص بن بُرد في وصف حُسن الربيع في قرطبة من لوحة إبداعية ألوانها الكلمات، تأنق فيها ابن بُرد فأكثر من الصور الفنية، وعلى الأخص الاستعارة. وقد أوردها الحميري بوصفين، فمرة نعتها بالرسالة ومرة نعتها بالقطعة النثرية^(٣). ومنها: "كيف شاهدت أنهارها، وقد درت عليها أخلاق النوار أفنتها"^(٤) وأنوارها، وقد سرت إليها خيالات الأنداد فأرقتها، وكيف تأملت الربيع وقد صاغ لمفارقها تيجاناً، وفتق لمعاصمها أرداناً^(٥)، فكأنما راسلت الأرض زهر النجوم."^(٦) والناظر فيما سبق يرى كيف أبدع ابن بُرد في وصف الأنهار التي أحيطت بالأزهار والأنوار وقد علاها الندى، وكيف رأى في متنزهات قرطبة ملكة قد علا رأسها تيجان الزهر، ولم يكتفِ ناثرنا بهذا الوصف، بل أرفه بوصف النهر الذي علاه ضوء

(١) البهار: نبات طيب الرائحة، أشار الحميري في "البيدع" إلى أنه هو نفسه النرجس، ونقل د. عبدالله عسيان محقق كتاب البيدع عن ابن البيطار أنّ البهار هو الأقحوان الأصفر، وأنّ العامة في الأندلس يعرفونه باسم خبز الغراب. انظر الحميري، البيدع ص ٩٩ (هامش ١).

(٢) سأعرض إلى بعض النماذج كما وردت في كتاب "البيدع" الذي اعتمد وصف نور أو أكثر في الترتيب، وليس حسب العصر للأديب أو زمن تصدير القطعة النثرية. انظر حول فنية ترتيب المادة الأدبية في الحميري، البيدع في وصف الربيع ص ٦.

(٣) انظر المصدر نفسه ص ٢٦.

(٤) أفنتها: انفلاق الصبح أو انفلاق الشمس بعد مطر. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة فتق).

(٥) أردان: جمع رَدَن وهو الثوب. انظر المصدر نفسه (مادة رَدَن).

(٦) الحميري، البيدع في وصف الربيع ص ٢٦.

الشمس، فأخذ يلمع ويتلألأ كأنه سيف مُشهر في وجه الشمس، فنقرأ ما نصّه: "وكيف عاينت
انشقاق تلك الأباطح عن نهرها السابح، كأنه فضة تحتها نار، فليس لها أبداً قرار، يلبس للريح
لأمة^(١) ويُسَلُّ على الشمس صمصامة." ^(٢)

أمّا النموذج الثاني فمن الإنصاف التآني في عرضه، ويعود ذلك للفنيّة العالية التي
انتهجها ابن بُرد في مفاضلة بين الورد، اختلق فيها ابن بُرد قصة محفل للورد، وتنقسم هذه
القطعة الفنيّة إلى مشاهد: أمّا الأول فاتصل بنمهيذ للمحفل المنشود في التقاء الأزاهير التي تتوق
للإنصاف والتفاضل، فيأخذ كلٌّ منها حقه في صفته، ويدخل مع ابن بُرد المشهد الأول للعرض،
ونقرأ ما نصّه: " ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه، وذوي الطُرف المعتمين بمُح معانيه - أن
صنوفاً من الرياحين وأجناساً من أنوار البساتين، جمَعها في بعض الأزمنة خاطرٌ خطر بنفوسها،
وهاجسٌ هجس في ضمائرهما، لم يكن لها بُد من التفاوض فيه والتحاور والتحاكم من أجله
والتناصف... فتخيرت من البلاد أطيبها بقعة." ^(٣) ثم يتابع هذا المشهد بمشهد آخر، يبدأ فيه كلٌّ
صنف بإظهار محاسنه، وميزة تفوقه وبراعته، فكلٌّ صنف ما يجعله يعلو ويتفرد، وهذا ما
صرّح به القائم بأمر الأزاهير، الذي شخصه ابن بُرد حكيماً نظر بشكل عقلائي لتلك الميزة
ولذاك التفرد، ورأها قد اجتمعت بشكل خاص في الورد أحمر اللون، ومن ذلك: "وقام قائمها
فقال: معشرَ الشجر وعامة الزهر، إن اللطيف الخبير الذي خلق المخلوقات وذراً البريات، باين
بين أشكالها وصفاتها، وباعد بين منحها وأعطياتها... فضل على بعض بعضاً، حتى اعتدل بعدله
الكل... وأن لكل واحد منّا جمالاً في صورته، ورقة في محاسنه واعتدالاً في قده، وعبقاً في
نسيمه... قد عطفت علينا الأعين، وثنت إلينا الأنفس... ووصلنا أسباب القلوب... وصيغ فينا
القريض ورُكبت على محاسننا الأعاريض، فطمع بنا العجبُ وازدهانا الكبر... وادّعينا الفضل
بأسره... ولم نعلم أن فينا من له المزية علينا، ومن هو أولى بالرياسة... وهو الورد... فهو
الأكرم حسباً والأشرف نسباً... والذي إن فقدت عينه لم يُفقد أثره... وهو أحمر، والحُمرة لون
الدم، والدم صديق الروح وصبغة الحياة" ^(٤). لا يخفى على دارس المشهد السابق مدى العقلائية
وقوة الحجة والإقناع التي حاول ابن بُرد توشيحها لبطل مشهده السابق، وكأننا في مشهد دراميّ،
والكلّ يطمح إلى جمع نقاط في التفاضل. ونتابع مسرحية ابن بُرد في الأزاهير - إن جاز لنا
التعبير - فيكشف لنا عن بقية ممثليه؛ وهم رؤساء النرجس الأصفر والبنفسج والبهار والخيري

(١) لأمة: سلاح الحرب وأطلقها البعض على السيف أو الرمح. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة لأم).

(٢) الحميري، البديع ص ٢٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٥٧ - ٥٨.

(٤) المصدر نفسه ص ٥٨ - ٥٩.

النَّمَام^(١) الذين اعترفوا جميعاً برئاسة الورد وأفضليته، ومن ذلك: " قال النرجس الأصفر: ... لقد كنت أُسرُّ من التعبد له والشغف به ... ما أنحل جسمي ... وقال البنفسج: على الخير سقطت، أنا والله المتعبد له، الداعي إليه المشغوف به كفا ... ثم قام البهار فقال:

ثم قالوا تحبها قلت بهراً عدد النجم والحصى والتراب

.... ثم قام الخيري النمام فقال: والذي أعطاه الفضل دوني، ومدّ له البيعة يميني، ما اجترأت قطّ إجلاًلاً له واستحياءً منه." (٢) وحتى تكتمل مشاهد الرياسة التي تمتاز بالفطنة والكياسة فإنّ هؤلاء الرؤساء للأزاهير يقترحون أن يبعثوا بكتاب إلى إخوانهم من الأزاهير في بقاع الأرض؛ ليأخذوا البيعة منهم للورد في القيادة. ويتخذ هذا الكتاب صيغة رسمية؛ إذ يبدأ بالبسملة، ثم بالإقرار بما تحالفت عليه صنوف الشجر والزهر. ولا يفوت ذلك العهد أن يأخذ بشهادة الحضور على صحة ما اتفقوا عليه، ونقرأ في نسخة الكتاب (الحلف) الذي تمّ إرساله للآفاق ما نصّه: " بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تحالفت عليه أصناف الشجر، وضروب الزهر وسميها وشتويها وربيعيها وقيظيها... عندما راجعت من بصائرهما، وألهمت من رشادها واعترفت بما سلف من هفواتها، وأعطت للورد قيادها، وملكته أمرها، وأخلصت له محبتها، وعرفت أنه أميرها المقدم بخصاله فيها... وبرئت من كل نور نازعته نفسه المباهاة له، والانتزاع^(٣) عليه في كل وطن، ومع كل زمن، فأية زهرة قصّ عليها لسان الأيام هذا الحلف فلترعف أن رشادها فيه ... ولتحمّد الله كثيراً على ما هداها إليه، واستتقذها من الضلال بتبصرته، ولتشهدّه على اعتقادها، والله شهيد على الجميع" (٤).

وقبل الوقوف على شهادة الأزاهير يستوقف الدارس العهد السابق الذي أخذ صفة الجديّة في التحالف، والاتفاق على القيادة الموحّدة، حتى أنّ الخاطر ليذهب بعيداً عن مجرد عهد بين أزاهير قد صيغ بعناية، ألا يمكن أن نسقط مضمون هذا الحلف على ما كان يرنو إليه الأندلسيون وهم يعانون ما يعانون في عهد الفتنة التي أفضت مضاجعهم! وهل يمكننا أن نعدّ ذلك تشوقاً أندلسياً داخلياً لقيادة موحّدة نافذة تتقدّمهم من التخبّط؟ وبخاصة حين نقرأ في العهد:

(١) الخيري النمام: نوع من الأزهار، عرفه محقق كتاب "البديع" نقلاً عن كتاب "الجامع لمفردات الأدوية والأغذية" بقوله: النمام صنفان: بستاني في رائحته شيء من رائحة مرزنجوس ويدبّ على الأرض، والآخر منه يرى ليس يدبّ في نباته بل هو قائم وله أغصان دقاق مملوءة ورقاً. انظر الحميري، البديع ص ١١٢ (هامش ٣).

(٢) المصدر نفسه ص ٦٠.

(٣) المصدر نفسه ص ٦١.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٢.

" ولتحمد الله كثيراً على ما هداها إليه وأستفدنا من الضلال ... ذلك أن الأدب لسانُ حال الأمة والمعبر عن هواجسها، ولم يغب يوماً التلميح والإيماء عن دائرته، وهذا مصنفٌ كليلٌ ودمنة - مثلاً - يشهد بذلك. وقد نضيف إلى ما سبق تلك اللفتة في أن يصل ذاك الحلف إلى البقاع والأصقاع، لتغدو الفكرة الداخلية المخبأة قابلة للتقليب وللتدبر، فهي فكرة تتشدد بحث الأندلسي عن أمان وسلام بقيادة موحدة يستظل الشعب بنعيمها. وإذا ما عدنا إلى شهادة الأزهير فإننا نجدها ختماً صريحاً بأحقية تزعم الورد وقد جاءت شعراً، ومن ذلك شهادة النرجس: (١)

شَهِدَ النرجسُ وَاللهُ يَرى صَحَّةَ النِّيَاتِ فِيهَا وَالمرَضُ (٢)
أَنَّ للوردِ عَلَيْهِ بَيْعَةٌ أَكَّدَتْ عَقْدًا فَمَا إِنَّ تَنْقِضُ

ولم يفت البنفسج والبهار الإدلاء بالشهادة (٣)، وكذلك الخيري النمام الذي قرص: (٤)

شَهِدَ الخيري بَرًّا صَادِقًا قَوْلَةً أَبْعَدَ عَنْهَا الدَّرْكَ
أَنَّ أَزْهَارَ الثَّرَى أَجْمَعَهَا أَعْبَدُ وَالوردُ فِيهَا مُلْكُ

وتبقى الكلمة الأخيرة في هذا الحلف تؤكد أنه أكثر من مجرد رسالة عابرة أو شغف بوردة حمراء، وأن فنية الاجتماع والاتفاق والانتهاه بقرار موحد يجعل المضمون درساً أدبياً أخلاقياً، لعله من المنصف نعته بالرسالة الإنسانية التي تتوق إلى الاعتراف بقيادة موحدة تحميها وتتصرها.

وإذا ما وصلنا إلى نموذج الجزيري (٥)، فإننا نصل إلى رسالة طريفة، ولطيف الرسالة في توقيتها، فقد أرسلها الجزيري إلى الحاجب المنصور صباح عيد الأضحى (٦) ولربما كان صباح الورود والأزاهير مما استطاب الجزيري إظهار تهنئة العيد به. ولا يغيب عن الذهن ولع الحاجب المنصور وشغفه بأدب الأزاهير. يقوم لب الرسالة على تفضيل الجزيري للبنفسج على كل من النرجس والبهار، وجاءت الرسالة على لسان البنفسج الذي طلب عدل المنصور والقضاء بميزان سوي، ولم يفت البنفسج أن يظهر محاسنه ويبرز مكامن أفضليته، بدأ كل ذلك نثراً ثم

(١) الحميري، البديع ص ٦٢.

(٢) المرض: كناية عن اللون الأصفر للنرجس.

(٣) انظر الحميري، البديع ص ٦٢.

(٤) المصدر نفسه ص ٦٢.

(٥) انظر نص الرسالة في اختلافات طفيفة في الحميري، البديع ص ٨٠ - ٨٢ - ابن بسام، الذخيرة، م ١/ق ٤،

ص ٤٨ - ٥٠.

(٦) انظر الحميري، البديع ص ٨٠.

أعقبه شعراً. ويمكن تقسيم الرسالة بناءً على ما سبق إلى أفكار، بدأت بالإشادة بالقاضي المنتظر إنصافه (أي الحاجب المنصور) ومن ذلك: "مَنَحَ اللهُ مولايَ صدقَ النظر، وعرفه جليّةَ الخبر، وأطالَ مُدته ووَصلَ سلامته وعزّته، إذا تراءفتِ الخصوم - أيّد اللهُ المنصور مولايَ - في مذاهبها، وتنافرت في مفاخرها فإليك مَفزَعُها. وأنت المُقنع في فصل القضية بينها لاستيلائك على المفاخر بأسرها"^(١). وإذا ما دققنا النظر فيما قرأنا في هذه التقدمة للرسالة، فإننا نجد أنّ هذه الرسالة وأمثالها - حين تُوجّه لعلية القوم فقد تكون رمزية أكثر مما تحمل تصريحاً جلياً، فليّما كان القصد التقرب من صاحب السلطة، أو الحديث عن المُعرضين الذين يحاولون التقليل من شأن مُنشئ الرسالة، دون أن ننسى إظهار البراعة الأدبية، كلّ هذا قد يبدو مشروعاً لنا في التفسير إذا فكرنا في هذه الرسائل بفكر أوسع من التصريح، أي بلغة التلميح التي يقتضيها الوضع السياسي أحياناً، وقد تكون الأسطر القليلة الماضية أوحى بذلك، فمن البداية هنالك إبراز لبعد النظر والتروي مما يفود إلى الإنصاف.

ونتابع مع الجزيري المفرد الثاني لرسالته الذي يدخل فيه لقلب مضمونه مبيّناً ما يراه في البهار والنجس، وكيف أنّ البنفسج يعلوهما بميزات حسان كثار. كلّ هذا على لسان البنفسج نفسه، فنطالع ما نصّه: "وقد ذهب البهار والنجس في وصف محاسنهما والفخر بمشابهتهما كلّ مذهب، وما منهما إلا ذو فضيلة، غير أنّ فضلي عليهما أوضح من الشمس التي تعلقنا... فإن كنا قد تشبّها في شعريهما المرتفعين إلى مولاي - أبقاه الله وأيده - ببعض ما في الأرض من جواهر الأرض ومصابيح السماء، وهي من الموات الصامت، فإني أتشبه بأحسن ما زين الله به الإنسان، وهو الحيوان الناطق من أدوات خلقه."^(٢) قد تكون هذه الفقرة في الرسالة مما يستوقف الدارس، فهي مُعزّزة للفكرة الأنفة في كون هذه الرسالة إيمائية لا تصريحية، فمع الإقرار بفضل الغير إلا أنّ الطبيعة الإنسانية تميل للتفرد، وإظهار القوة والغلبة التي عندها، وبخاصة إذا كانت هذه الغلبة حيّة مستمرة التجدد، فرأى الجزيري أنّ أدب غيره وإن بدا جميلاً وخالباً إلا أنّه كالموات من الأشياء يفقد بهجته سريعاً، أمّا الأدب الحيّ المتجدّد فإنه يزداد نضارة، وقد يعزّز هذه الرؤيا ما نقرأه في ثنايا الرسالة ومن ذلك:

"وكلاهما^(٣) لا يمتّعك إلا ريث ما يبدو للعيون، ويسلم من الذبول، ثم تستكره الأنوف شمّه وتستدفع الأكف ضمّه، فأين هذه الحال من الاستمتاع بي رطباً، وادّخاري في خزائن الملوك جافاً، وتفضيلي على السنة الحكماء،... وإن فخراً باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقِي، فلا غرو أنّ الوشيّ ضعيف، والهوى لطيف، والمِسك خفيف" وليس المجد يُدرك بالصراع كما

(١) الحميري، البديع ص ٨٠ - ٨١.

(٢) المصدر نفسه ص ٨١.

(٣) المقصود البهار والنجس.

قال حكيم الشعراء. (١) " ومن الواضح أنّ أدبنا ما يزال يُظهر براعته على لسان بنفسجته المختارة مُظهراً أنّه الأقوى والأكثر بقاءً وتميّزاً، حتى فيما يبدو ركنَ نقصٍ، كضعفِ ساقه، فقد عدّ ذلك مَكْمَنَ قُوَّةٍ، فهو لا يحتاجه لأكثرَ من مكان ارتكاز، وهو - كما بيّن - لا يحتاجه لإدراك المجد وهذه جملة محورية في النص تبين ما للعقل ولرجاحة الرأي وللأدب - إن ساغ لنا ذلك - من أهمية في إدراك ما فوق كيوان.

ويأتي ختام الرسالة بفكرة لطيفة يضرب البنفسج - لسان حال الجزيري - على وترها بإتقان؛ حين يبين أنّه قد حضر بنفسه يحمل قوافي الشعر في تفضيله، مُبيناً أنّ الحاضر مفضلٌ على الغائب، فنقرأ ما نصّه: " وقد أودعتُ - أيدُ الله المنصور - قوافي الشعر من وصف مُشابهي ما أودعاه من وصفٍ مشابهما، وحضرتُ بنفسِي لئلا أُغيب من حضرتهما؛ فقد يماً فضّلوا الحاضر وإن كان مفضولاً، ولهذا قالوا: " ألدُّ الطعام ما حضر لوقته " وأشعر الناس من أنت في شعره "، ولمولاي - أيده الله - أن يعدل باختياره الصحيح، ويفصل بحكمه العدل إن شاء الله وأقول (٢):

شهدتُ لنوار البنفسج ألسنٌ	من لونه الأحوى ومن إيناعه
لمُشابه الشعر الأثيث أعاره	قمرُ الجبين الصلّت يوم شعاعه
فحكاه غير مُخالف في لونه	لا في روائحه وطيب طباعه
ملكٌ جهلنا قبله سبيل العُلا	حتى وضحن بنهجه وشراعه

لعل لغة الإيماء التي أُشير إليها أضحت مقبولة في تفسير ما سبق، فما رأي الجزيري في الشعر إلا ما كان حاضراً وماثلاً أمام الأعين، وإذا ما ربطنا هذا الرأي بالأبيات الشعرية التي ضمّنت في نهاية الرسالة، ووجّهت تحديداً لمدح المنصور على لسان البنفسج، تعزّز لدينا أنّ الورود هي حبل الصلّة، وأنّ البنفسج هو لسان حال الشاعر يتودّد لملكه ويرغب بوصّله. وتبقى ظاهرة وصف الورود رسائل مبدعة انبرى لها غير ذي أدب يكشف بوساطتها أفكاره ومقدرته الأدبية. أمّا حول بدايات هذا الفن فإنّها تعود - كما رأى الباحث فايز القيسي - إلى الجزيري (٣)، وإن كنتُ اختلف قليلاً معه في إصدار حكم الريادة مُطلقاً، فلا أعتقد أنّ فنّاً كهذا يقوم دون مقدّمات سبقته، ولكن قد يكون نضج هذا الفن على يد شعراء طبقة الجزيري -

(١) الحميري، البديع ص ٨١.

(٢) انظر هذه الأبيات وأخرى في المصدر نفسه ص ٨٢.

(٣) انظر فايز القيسي، أدب الرسائل في الأندلس ص ٨٥.

إنّ جاز لنا التعبير - ذلك أنّه لم يصلنا نصوص في هذا الغرض - على حدّ اطلاعي - قبل الربع الأخير من القرن الرابع الهجري، ويُلحظ أنّ نُصْح هذا الفن قد ازداد مع بداية القرن الخامس الهجري وما تلاه، حتى أضحي غرضاً فنياً في الأدب الأندلسي بخاصة.

٢ - العهود والمواثيق وكتب السفارات

لم تفتأ الدول منذ القديم تُنظّم علاقاتها مع دول الجوار والدول الأخرى بمواثيق مكتوبة وسفارات، سواءً أكان القصد من ذلك تنظيمياً سياسياً أم اقتصادياً أم فكرياً أم غير ذلك^(١). ولم تخرج دولة الخلافة الأموية الأندلسية عن هذه الحاجة الملحة في ضرورة تنظيم علاقاتها مع الآخر، فهل وصلنا عددٌ من كتب السفارات والمواثيق يجعلنا نتمثّل هذا الفن الأدبي بوضوح، وما أبرز مضامينه؟

إنّ أول ما يطالع الدارس في هذا الفن أنّه صدىّ لأحوال الحياة - السياسية فيها على الأخصّ - فلا نستهن أن دولةً مثل دولة الخلافة الأموية الأندلسية المُحاطة بدول أخرى، تبحث عن آلية للسياسة الخارجية مع تلك الدول، وتجعل تلك السفارات والمراسلات التي تبحث القضايا المختلفة تقع في قائمة أولوياتها، وهذا ما يجعلنا نتنبأ بالعثور على نصوص للمعاهدات والسفارات المختلفة، لكنّ واقع مع وصلنا عبر المصادر الأندلسية المختلفة عكس ذلك، ومع هذا فلم أعرض عن إثبات المعاهدات فناً نثرياً على ضالة ما وجدت من نصوص، ذلك أنّ المعاهدات وما يتم خلال السفارات المختلفة بين دور السلطة إنّما يعكس الأحوال الفكرية والسياسية التي ما فتىء الأدبُ يشكّل صدى لها.

لعلّ من الأسئلة المشروعة التي تُطرح في هذا المجال ما الذي وصلنا من تلك المعاهدات؟ وما أبرز المضامين؟ وهل أتيح لهذه المعاهدات الدراسة الوافية في الدراسات الحديثة المتخصصة؟

لقد تصدّى غير دارس حديث للعلاقات السياسية بين الأندلس وإسبانيا، أو بين الأندلس ومن عاصرها من دول الجوار أو ممن له علاقات سياسية. وكان حظّ كبير من هذه الدراسات ذات الصبغة التاريخية قد وقف عند عهد الخلافة^(٢). وتكاد تتفق هذه الدراسات على وجود إشارات كثيرة تتعلق بسفارات ومعاهدات بين دولة الخلافة ودول أخرى، لكنها تفتقر إلى

(١) انظر حول أهمية المواثيق والعهود لتنظيم أمور الدولة في التابعي، محمد، السفارات في الإسلام، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨. ص ١٥ - ٢٨.

(٢) انظر بلباس، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية، م ٢، ج ٢، ص ١٢١ وما تلاها. - الحجى، العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة ص ٦٧ - ١٢٥. - عبد الحليم، العلاقات بين الأندلس وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف ص ١٦٣ - ٢٠٠.

نصوص الرسائل المضمّنة أو المعاهدات المُبرّمة، وتؤكد جولةً في أبرز مصادر هذه الحقبة ذلك؛ فنجد تلك الإشارات مبنوثة في المقتبس والبيان المغرب وأعمال الأعلام والعبر ونفح الطيب مثلاً، وحتى الذخيرة فلا تخلو من إشارات عابرة^(١). وأبرز ملامح هذه الإشارات أنّها اهتمت كثيراً بإظهار طقوس استقبال السفارة أو الوفادة، لكنها للأسف حرمتنا من النصوص الفعلية التي كانت تتمّ بوساطتها السفارات أو تبرم خلالها المعاهدات. وأول ما يلفت الانتباه هو بعض الإشارات السياسية التي ألمحت إلى أنّ قرطبة - وبخاصة في عهد خلافة الناصر - أضحت محطةً لوفود الملوك وسفرائهم من الأصقاع شتى، ومن ذلك ما نقله صاحب أعمال الأعلام عن أصداء هزيمة الخليفة الناصر في وقيعة (شانت مانكش) من بلاد الروم بعدما غشّ الخليفة جماعةً من العيون والمنافقين، إلا أنه اقتصر منهم وصَلب ثلاثمائة من الفرسان الذين لم يناصروه^(٢)، ثمّ نتابع بعد هذه الأخبار ما نصّه: "ومن لَدُنْ هذه الغزاة لم يباشِرِ الغزو بنفسه، وصنع الله له بعدها من الوقائع على ملوك النصارى واكتساح بلادهم، ما لم يصنعه لأحد ممّن قبله، وتوالت عليه بعد ذلك المنوح، وأدعنت الأعداء، وقدمت عليه رسلُ الملوك بالعدوة الغربية من زِناتة والأدرسة والقيروان... ووصل إليه رسولُ ملك القسطنطينة العظمى راغباً منه في إيفاع المؤالفة".^(٣)

والناظر فيما سبق يدرك عظم السفارات التي أمّت قرطبة طالبةً الإذعان من العرب والمسلمين والنصارى، وكلّهم من المتوقع أن يحملوا رسلهم نصوصاً تطلب المؤالفة - على حدّ تعبير ابن الخطيب -.

وتتوالى الإشارات السابقة التي تعزّز وصول سفارات أجنبية إلى قرطبة وأمّها إياها، ففي أخبار سنة ٣٣٤هـ ينقل لنا ابن عذاري: "وفيها وصل إلى قرطبة رُسلُ ملك الروم الأكبر قسطنطين بن ليون صاحب القسطنطينة العظمى بكتب من ملكهم إلى الناصر".^(٤) ويعتني ابن عذاري كثيراً بنقل تفاصيل تلك الوفادة، فنتابع ما نصّه: "فقعد الناصر على سرير المُلْك بقصر قرطبة لدخولهم عليه، ولمن تكامل بالباب من وفود البلاد، بعد أن أمرَ باستقبالهم بالعدد والأجناد، واستوى الناصر على سريره، وقعد على يمينه ابنه الحكم، وقعد الوزراء والحجّاب على منازلهم صفوفاً. فدخل الرُسل وقد قدّموا الهدايا بين أيديهم، وقد دُهِشوا لهول ما عينوه من جلاله المُلْك ووفود الجَمْع، فصُعِقوا بين يدي الخليفة، فأشار إليهم أن لا، فدفعوا إليه كتابَ مرسلهم قسطنطين.

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م١/ق٤، ص ٤٦، ٧٩.

(٢) انظر تفصيلاً حول ذلك في ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٦ - ٣٧.

(٣) المصدر نفسه ص ٣٧.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٣.

وكان الكتاب مصبوغاً بلون سمائي مكتوباً بالذهب. ^(١) إنَّ قراءة سريعة فيما وقف عنده ابن عذاري تبين مدى اعتناء دار الخلافة بإظهار الهيبة والعظمة التي تُوقَع الإرجاف في قلوب الأعداء أو حتى الزائرين، وهذا عامل مهمّ استدعى أن تتوالى السفارات التي تروم الإذعان والمؤالفة. ويقف الباحث مندهشاً لدقّة تفاصيل الجلوس وحتى شكل الكتاب ولونه ولون الخط فيه! فيما تزداد الدهشة في إعراض المصادر عن مواتنتنا بنصّ تلك الكتب، ومما يعزّز ذلك الاهتمام بدقّة التفاصيل التي كانت تغشى أية وفادة تصل قرطبة ما كان من وصفٍ لِقُدوم رُسل ^(٢) ملك الروم الأكبر صاحب القسطنطينية سنة ٣٣٨هـ. وهي المرة الثانية التي يُرسل فيها من يمثّله في قرطبة خاطباً ودّ قرطبة وخليفتها، محققاً عهد الأمان لقسطنطينية، فنقرأ ما نصّه: "وفي سنة ٣٣٨هـ كان قدوم رُسل ملك الروم الأكبر صاحب القسطنطينية على الناصر راغباً منه إيقاع المؤالفة، واتّصال المكاتبة، فتأهّب الناصر لورودهم عليه، وأمر بتلقّيهم في الجيش والعُدّة. وجلسَ لهم الناصر الجلوس المشهور الذي ما تهياً مثله لملك قبله في جلالة الشان وعزة السلطان ووصف ذلك يطول. ودفعوا كتاب ملكهم في رقّ مصبوغ سمائي مكتوب بالذهب، وكان على الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على الوجه الواحد منه صورة المسيح عليه السلام، وعلى الآخر صورة قسطنطين الملك، وصورة ولده." ^(٣)

ولا يغيب عن الدارس أن احتفاء المصادر بإظهار هيبة الخليفة الأندلسي في استقبال تلك الرسل قد وازاه احتفاء في إظهار الرونق الذي بدا عليها الكتاب المحمول بين يدي الرُسل، وأن ذلك الاحتفاء إنّما يُظهر قوة الخلافة الأندلسية التي تودّدت إليها ملوك الروم بما أُوتيت من فخامة، فلا يُعتقد أنّ العناية بوصف طابع الذهب أو صورة المسيح - عليه السلام - مقصودة لذاتها، وإنّما لإظهار الهيبة التي جعلت ملك الروم يُرسل بالذهب، ولكننا مرة أخرى نطلق تأوّه فُقدان النص الذي أحيط بتلك العناية الفائقة. ونستمرّ مع تلك المصادر التي تُنبئ عن قليلاً عن فحوى تلك المراسلات والسفارات فيما نقرأه في أخبار سنة ٣٤٥هـ. فنطالع خبراً حول سفير ملك جليقية أردون بن أدمير، فقد أبدى الأخير رغبة في الصلح، فما كان من الناصر إلا أن استشار ابنه وولي عهده الحکم الذي اشترط على الطاغية شروطاً انصرفت رسله بها ^(٤).

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٣.

(٢) ورد عند ابن الخطيب في أعمال الأعلام أنه رسول وليس مجموعة من الرسل انظر نص الخبر في ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٣٧.

(٣) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٢١٥.

(٤) انظر تفصيلاً للخبر في المصدر نفسه، ج٢، ص ٢٢١.

وغني عن الذكر أن عهود الأمان هذه لا بُدَّ أن يقوم بصياغتها وزير الدولة، وهو من خيرة ناثري عصر الخلافة وكتّابها. وإذا كانت النماذج السابقة متعلّقة بعهد الناصر فإنّ تلك السفارات استمرت أيضاً في عهد الحَكَم المستنصر، وظلّت المصادر تتعامل معها بالآلية نفسها؛ فينقل صاحب البيان المغرب في أخبار سنة ٣٥١هـ ما نصّه: " وفيها وصل قرطبة إرسال شأنجُه بن ردمير - منازع الطاغية أردون - ابن عمّه ملك الجلائقة، ومعهم عبد الرحمن بن جحّاف قاضي بَنَسِيَّة... فتوصلوا كلُّهم إلى المستنصر في ربيع الآخر، وأوصلوا كتاب شأنجُه ابن رُدمير بجواب ما خوطب فيه وبيعته التي عقدها على نفسه، وجميع أهل مملكته لأمير المؤمنين المستنصر بالله في خبر طويل" (١). ويتّضح لنا من العبارة الأخيرة أنّ مثل هذه البيعة وعهد الأمان كان مُفصَّلاً، وإلا ما طالّ فيه الخبر الذي أضحى وكأنّه في أخبار تلك المصادر من نافلة القول، ولذا لم يفتقروا عنده بالتفصيل.

وإذا كانت السفارات السابقة قد بدتُ سياسية الطابع، فإنّ ذلك لم يمنع من وجود سفارات أخرى بين دار الخلافة الأندلسية وغيرها من الممالك والبلدان، تعلّق بعضها بأمر ثقافية وأخرى بعلاقات اقتصادية، فقد مرّ بنا في الفصل الأول (٢) كيف وصل كتاب "دسقوريدس" في الطب إلى الخليفة الناصر هديةً باللغة اللاتينية من أرمانوس صاحب القسطنطينية، ولا بأس - فيما نرى - أن نقف مع هذا الخبر مرة أخرى في تبيان للسفارة الثقافية، وما يهمننا هنا ما تعلق بإرسال سفارة إلى صاحب القسطنطينية لطلب مترجمين، وبالعودة إلى ما ذكره ابن أبي أصيبعة فإننا نطالع ما نصّه: " فلما جاوب الناصر أرمانوس الملك، سأله أن يبعث إليه برجل يتكلّم بالإغريقي واللطيني، ليعلم له عبيداً يكونون مترجمين، فبعث أرمانوس الملك الناصر براهب كان يُسمى نقولا" (٣). إنّ الخبر السابق يؤكّد وجود تلك السفارة الثقافية، فعبارة "لما جاوب الناصر أرمانوس" تعزّز وجود مثل هذه السفارة التي ضربت المصادر مرة أخرى صفحاً عن ذكرها، لكنها لم تحرمنا من الإشارة إلى مظهر ثقافي مهمّ ساد ذلك العصر.

أمّا الإشارة التي نوّهت للسفارة الاقتصادية فكانت متعلّقة بخبرٍ توسّعت جامع قرطبة ضمن أخبار سنة ٣٥٤هـ إذ " شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع، وكان ملك الروم بعثَ بها إلى الخليفة الحَكَم، وكان الحَكَم قد كتّب له في ذلك، وأمره بتوجيه صانعها إليه، اقتداءً بما فعله الوليد بن عبد الملك في بنيان مسجد دمشق، فرجع وقد الحَكَم بالصانع، ومعه من الفسيفساء ثلاثمائة وعشرون قنطاراً بعث بها ملك الروم هدية." (٤)

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ٢٣٥.

(٢) انظر الفصل الأول ص ٢٧.

(٣) ابن أبي أصيبعة، عيون الأنباء ص ٤٥٤.

(٤) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٣٣٧.

لعلّ قراءة فاحصة للخبر السابق تجعل الدارس يخرج بحقيقة وجود سفارات كان الاقتصاد والمعاملة المالية جوهرها، فلا يُعتقد أنّ مثل هذا الخبر يتيمّ، وإنّما هو مثال من أمثلة ما كان يجري من معاملات اقتصادية على مستوى عالٍ بين دار الخلافة الأندلسية والممالك الأخرى. ومن المنطقي أن يستدعي ذلك وجود كتبٍ تحملها الوفادات والسفارات بين البلدين.

وقد أسعفني في هذه الدراسة - بعد بحث واستقصاء - نصٌّ أورده عبد الرحمن الحجي^(١)، هو ردّ جوابي من ملك الروم إلى الخليفة الحكم المستنصر، ويبدو أنّ هذا الرد جاء بعد سفارة أرسلها الحكم المستنصر تشدّد كتاباً للحكماء، ونقرأ في هذا الردّ الجوابي ما نصّه: "أما بعد فإنّي قرأتُ كتابك الكريم وفهمتُ ما وقفنتي عليه من جميع الكتب التي للحكماء وعنايتي بعلمهم، فقد أكثرتُ من ذلك ما أسأل الله للأمر أن يقضي له بجميع ذلك، وأن يُعينه ويبلّغه أرفع درجات الحكمة، وأن يجعله موضعاً لها ولكتب الحكماء، كما بلّغه أرفع الدرجات من الشرف، فقد كنتُ جمعتُ منها ما لا يحتاج إلى أكثر منه.

وأما سؤالك إياي أنّ أطرفك منها بما هو أهله، فلم يكن قد طلبها إلينا إلا مُستجمع الهمة والرغبة فيها، ومن كان بهذه الحالة - وإن صغر ذكره وجُهل أمره - فقد وجب علينا إسعافه بها، فكيف بأعظم الناس خطراً وأكملهم حكمة، بعد الخليفة، أطال الله بقاءه، وكيف يُضنّ عليه بما هو أهله، ولم يضعه الحكماء إلا لمثله." ^(٢)

لقد آثرتُ إيراد النص السابق كاملاً لأنّه من النصوص القليلة التي عثرتُ عليها في مجال الوفادات والسفارات، والناظر في هذا الخطاب يقف بداية على أنّ ناظم هذا النص هو عربي مقيم في دار الروم - إذا سلّمنا بأنّ هذا نص عربي بطبعه كما وجد في المخطوط - وأمّا إذا سلّمنا بأنّ هذا النص مُترجم، فلنا أن نتصور تصرّف الترجمة في النص الأصلي، وفي كلتا الحالتين يبقى النص السابق نموذجاً على نصٍّ تمّ عبر وفادة وسفارة، ويظهر النص السابق خالياً من المقدمات الطويلة؛ إذ بدأ نص الكتاب بالردّ الجوابي، وإن كان لم يخلُ من بعض الجمل الدعائية التي قامت بدور التلطّف في الخطاب، ثمّ جاءت الإشادة بالحكم المستنصر اعترافاً جلياً على لسان ملك الروم وضحت عالميّة الثقافة التي عُهدت في قرطبة برعاية المستنصر. وأمّا غلبة الأسلوب الإنشائي على فنيّة الكتاب، فقد أضافت للمضمون المتعلّق بعلو شأن الحكم الثقافي بُعداً إيجابياً يجعل هذه الوثيقة دليلاً على انفتاح الحياة الفكرية في قرطبة، واعتراف الممالك

(١) أشار عبد الرحمن الحجي أنّه وجد هذا النص مخطوطاً في المكتبة الوطنية بمديريد، وأنّه قد استرشد إليه من

باحث انجليزي هو S.M.Stern . انظر الحجي، العلاقات الدبلوماسية ص ١٢٣.

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٤.

الأخرى كمملكة الروم بعظم هذا الدور، كما تعزّز مثل هذه الوثيقة اعتراف الأمة الإسلامية في قرطبة بالآخر وجوداً فكرياً وحضارياً.

وإذا ما أدخلنا عهود الأمان ضمن فن المواثيق ممّا كان يدور في السفارات المختلفة، فإننا نعثر على بعض نصوص لهذه العهود، ويبدو للباحث أنها كثرت، حتى تحوّلت بعض نصوصها لديباجة جاهزة، ويعزّز هذا الرأي ما نطالعه في مصنف الذخيرة ضمن أعمال ابن بُرد الأصغر، إذ ضمّن ابن بسّام بعض ذلك تحت عنوان " فصول له تتخرط في سلّك الأمان"^(١) وأوّل ما يلفت فيها الانتباه أنها لم توجّه لشخص أو مملكة أو شعب بعينه، إلا أننا نستطيع بتفحص دقيق لتلك العهود أن نصنّفها إلى صنفين وفقاً لمن يشملها العهد، وهما:

- عهد أمان لشعب مسلم ومن ذلك: " إن أفضل ما تتاجى المسلمون به، ووجهوا بصائرهم إليه، وصحّحوا نيّاتهم فيه ولم يلوهم لاوٍ عنه، ولا لفنهم لافتّ دونه، ما قرّب من رضى الله وأبعد من سخطه، وعمل فيه بأمره، واحتسب فيه خلافة رسوله في أمته من الإصلاح بين المتحاربين، وتحذيرهم ممّا في سفك الدماء وتأريث نار الشحناء ... وإيقاظ عيون الحروب من فساد الدين ووهن اليقين، وذهاب الرجال ونفاد الأموال واجتياح النعم... قال تعالى^(٢): [وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله]."^(٣)

ويبدو الاقتباس الأخير من القرآن الكريم موضعاً أنّ العهد السابق موجّه لأمة مسلمة، والناظر في مضمون هذا العهد يجد تركيزاً على أهمية حقن الدماء، وما لذلك من ثمرات إيجابية تحدّد من استنزاف الرجال والأموال.

- نصّ عام في خطر الحرب وضرورة السلم: ونقرأ في هذا الفصل تقرّيباً واضحاً للحرب وويلاتها، ودعوة واضحة للسلم والأمن وطلباً مستعجلاً للتفكير في مضار الفتنة والحرب، ومع أنّ الحكم بالزمن الفعليّ لهذا النص غير قاطع، إلا أنّ قرّبه من عهد الفتنة البربرية قد يُستشف، ممّا يجعلنا ندخل هذا النص في باب التشوق للأمان والسلم، فالنص في داخله عهد أمان لمنفذه وللمتفكر فيه، ونقرأ في هذا العهد ما نصّه: " أمّا بعد فقد أنّ أن توقظوا سواهي العقول، وأن

(١) انظر ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٩٧ وما بعدها.

(٢) سورة الحجرات الآية (٩).

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٩٧.

تُريحوا عواذب الأحلام فتسلّوا السخائم^(١) وتُغمدوا الصوارم، وتُعيدوا السّهام في كنانها، وتُقفوا الأسنّة في مراكزها، وتُسلموا الخيول في مرائبها، وتعلموا أنّ الله القادر عليكم، والآخذ بنواصيك، له غضّبات أقلّها استتصالُ آثار النعم عليكم، وسطواتٌ أبرزها تحكّم أيدي البلاء فيكم..... فلا العظة تسمعون، ولا على أنفسكم ترعون.^(٢)

إنّ اللهجة الحادة التي اقتربت من التقرّيع والزجر قد تجعل رسالة الأمان السابقة غريبة، إلا أنّ الحرب بما تجرّه من فتنةٍ أكولة حارقةٍ تحتاج لصدّ قوي قد لا تكون السلاسة وهدوء اللغة ممّا يناسبها، وبخاصة إذا كنّا نتحدث عن عهد الفتنة الذي كان يُسمّى على حرب ويصبح على أخرى، ولعلنا لا نجافي الصواب إن قطعنا بأنّ أمثال الكتاب السابق يحمل شرطاً إنسانياً قائماً على وقف فوري لفتنة هدامة، فلا مجال لرقّة لغة، وإنّما يأتي الطلب الحادّ بضرورة وقف الحرب إعلاناً صاخباً بضرورة فتح الأكفّ لزمن يسوده الأمن بدلاً من اجترار دائرة الحرب.

ونقرأ في فصول الأمان التي نسجها ابن برد نصّاً عامّاً الصيغة قابلاً للحيازة لمن يرغب به، وهو نصٌّ في أخذ البيعة والموالاة فنراه يبدأ بـ "بايع الإمام عبدالله فلان..."^(٣) وتوكّد العبارة السابقة أنّ مثل هذا العهد من المبايعة إنّما هو قالب جاهز يمكن ملؤه بحسب الحاجة. أمّا بقية عهد الموالاة هذا فنقرأ منه ما نصّه: "بانشرّاح صدر وطيب نفس، ونصّاحة جيب وسلامة غيب، بيعّة رضى واختيار لا بيعّة إكراه وإجبار، على السمع والطاعة والمؤازرة والنصرة والوفاء والنصيحة في السر والعلانية والجهر والنية، والعمل على موالاة من والاه، ومعاداة من عاداه من بعيد وقريب وغريب"^(٤). ولا نجد فيما سبق فنيّة عالية في الصياغة إذ يبدو هذا مطروقاً مستهلكاً، وقد نعلل ذلك بأنّه ممّا شاع بين الناس في صدكّ الموثيق وأخذ البيعة من حلف معيّن، لكننا نلمح الفنيّة تعلو وتزداد بلهجة حادة إذا ما فكّر صاحب البيعة أنّ يحنث بذلك، فعندها تحلّ عليه اللعنة ولا تُبرئ من ذلك، إلا أعمال شاقّة مُجهدة في العبادات وغيرها، وقصد كل ذلك أخذ البيعة بشروط قوية وعهد متين، ومن ذلك: "ومتى خلعت رِبْقَةً^(٥) بختّر^(٦) أو غدر، أو

(١) السخائم: - جمع سخيمة، وهي الحقد والضغينة. والمقصود بعبارة (تسلوا السخائم) أي تذهبوا الأحقاد. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة سخم).

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٩٨.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٤٩٨.

(٤) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٤٩٨.

(٥) رِبْقَة: العهد، وفي الأصل هي عروة في حبل تجعل في عنق البهيمة أو يدها لتمسك بإحكام. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة ربق).

(٦) ختّر: الخديعة وقيل هو أسوأ أنواع الغدر وأقبحه. انظر المصدر نفسه (مادة ختّر).

طويتَ كَشْحاً على نكت أو حنث، فعليك المشي إلى بيت الله الحرام ببطحاء مكة من مستقرك ثلاثين حجة نذراً واجباً، لا يقبل الله تعالى إلا الوفاء به. وكلُّ زوجة لك مهيرة أو تتكحها إلى ثلاثين سنة فطالق تحتك، وكلُّ أمة أو عبد لك أو تملكه فأحرار لوجه الله العظيم... والله بجميع ما انعقد عليك في هذه البيعة شهيد. (١)

ويُتضح من النص السابق أنّ الصرامة في وجوب التنفيذ قد أملت شروطها على اللغة وعلى المضمون، وأنّ إمكانية استخدام تلك العهود في أغراض عدّة قابل للتنفيذ، لكننا لا ننسى أنّ مثل هذه القوالب الجاهزة قد تُفقد النص الفنيّ روحه الخاصة، إذا ما قارنا ذلك بنص أو عهد أو ميثاق نُفِّذ في مناسبة خاصة بلهجة خصّته بإشارة مُقنّنة وليست عامّة.

وتبقى خلاصة القول في العهود والمواثيق أنّها فنّ نثري لا يمكن تجاهله، وأنّه انتهج خطأً معيناً يجعلنا نخصّه بدرس مستقل عن بعض الفنون النثرية كالرسالة مثلاً، وعوداً على بدء فإنّ كل ما يتم بين فريقين في سياسة أو موقف أو فكر، ثم يوثق هو فن معاهدة بعمومية أبعده من مجرد إملاء شروط معينة في أمر سياسي، كما هو متعارف عليه الآن غالباً فيما يُعرف بمعاهدات الصلح.

٣- الخطبة

إنّ تميّز العرب في هذا الفن يجعل السؤال مشروعاً حول وضعه في الأندلس في عهد الخلافة الأندلسية ذلك أنّ "الخطب من مستودعات سرّ البلاغة ومجامع الحكّم، بها تفاخرت العرب في مشاهدهم، وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام وبها يُخاطب الخاصّ والعام" (٢)، ويبدو أنّ اقتراب فنّ الخطابة من فنّ الرسائل قد جعل التشاكل بينهما بائناً في كثير من المصادر التي تحدّثت عن الفنون الكتابية (٣). وهذا التشاكل يأتي من "جهة الألفاظ والفواصل؛ فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل، والفرق بينهما أنّ الخطبة يشافه بها بخلاف الرسائل والرسالة تجعل خطبة، والخطبة تجعل رسالة في أيسر كلفة." (٤)

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٩٩.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٥٣.

(٣) انظر العسكري، الصناعتين، ج ١، ص ١٣٦ - القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٥٣ - ٢٥٥.

(٤) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٥٤.

وعناية العرب بهذا الفن جعلته أحياناً محطّ تفاضل كبير بينه وبين بقية أنواع النثر، إذ يذكر صاحب صبح الأعشى " أنه كان للعرب بالخطب والنثر غاية الاعتناء حتى قال صاحب الريحان والريعان^(١): إن ما تكلمت به العرب من أهل المدر والوبر من جيد المنثور ومزدوج الكلام أكثر مما تكلمت به من الموزون. إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره ولا ضاع من الموزون عشره، لأن الخطيب إنما كان يخطب في المقام الذي يقوم به... فإذا انقضى المقام حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، بخلاف الشعر فإنه لا يضيع منه بيت واحد." ^(٢)

ولا نقصد هنا التتظير لفن الخطبة بقدر ما نقصد الولوج لبعض المحددات العامة التي تنطبق على فن الخطبة في عصر الخلافة وغيرها، ومن ذلك أن النقاد ومؤرخي الأدب يُعلون من شأن فن الخطبة، حتى إنهم يتحدثون عنه على كفة مقابلة لأنواع النثر بعامة؛ فحين الحديث عن جيد المنثور تم إحضار الخطب مثلاً على ذلك. وأما المحدد الثاني فهو في ضياع كم كبير من الخطب، وهذا أمر عام يتعلّق بصعوبة حفظ المنثور إذا ما قورن بالموزون.

وإذا ما انتقلنا للمحدّد الثالث فنراه في اقتراب الخطبة من الرسالة مع فارق أن الأولى مشافهة والثانية مكتوبة، ولا يُعتدّ أن جولتنا في فن الخطبة في عصر الخلافة الأندلسية ستتجاوز هذه المحددات. فأول ما يطالعنا هو عدم وصول كم كبير من الخطب^(٣)، فالإشارات تتوالى حول أن الخطباء قد أكثروا من خطبهم في مناسبات عديدة، ومن ذلك إشارة صاحب المقتبس مثلاً في أخبار ٣٦١هـ في ذكر عيد الأضحى وما رافقه من احتفالات ومهنئين، أظهرت هيبة دار الخلافة في تنظيم تلك الاحتفالات، فنراه يقول: " واستوى قعود المستنصر بالله على السرير للتهنئة على العادة بالمجلس الشرقي على الرياض أتم استواء... ثم اطرّد بالوصول إلى من حضر من أفناء الناس، فتقدمت في أوائلهم رجالات قريش، ثم الموالي ثم الحكام وقضاة الكور، ثم الفقهاء وأهل الشورى وغيرهم... وظلت الخطباء والشعراء خلال ذلك

(١) صاحب هذا الكتاب هو الأديب أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن خيرة المواعيني من أهل قرطبة، لكنّه سكن إشبيلية، ومن آثاره الوشاح المفصل، (ت ٥٧٠هـ). واسم الكتاب كاملاً "ريحان الألباب وريحان الشباب في مراتب الآداب". وهو كتاب جمع فيه مؤلفه الفنون التي يستمدّها من عتي بالمنثور والموزون، وجاء الكتاب بعد دراسة كتاب الجاحظ "البيان والتبيين". انظر حول الكتاب وترجمة ابن خيرة في ياقوت الحموي، معجم الأدباء، ج ٧، ص ١٢١.

(٢) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٢٥٤.

(٣) يُعزّز هذا الرأي بعض الباحثين المحدّثين الذين عرض لهم الباحث منجد بهجت، انظر بهجت، منجد، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار الكتب للنشر، الموصل، ١٩٨٨. ص ١٠٩.

ترتجل وتُتشد. (١) وترشد العبارة الأخيرة في النص المقتبس السابق كيف كانت الخطابة تقابل الشعر، وكأنها في تأثيرها وقوة حضورها نداً للشعر.

وأما أن الخطبة تقترب من فن الرسائل فقد يقع الاعتراض في هذا على نوع من الخطب دون بقية، وأقصد بذلك المرتجلة، فإذا كانت مكتوبة فقد يكون اقترابها واضحاً، وأما إذا تمت ارتجالاً فإن الخطيب يفقد فرصة التنقيح والتجويد التي قد تُتاح لكاتب الرسالة غالباً. ولنا في أفضل الكتاب والناثرين مثالاً على ذلك، ويكفي في ذلك خبر ابن درّاج والجزيري حين استدعاهما الحاجب المنصور لإنشاء كتب الفتح فطلب ابن درّاج أن يُمهّل في ذلك (٢). وتعدّ إمكانية القطع في خطبة بعينها إن كانت مكتوبة منقحة، أم مرتجلة من الأمور الصعبة، إلا إذا أسعفنا في ذلك رواية الخبر.

أ- الخطبة السياسية:

تعدّ خطبة البلوطي من الأمثلة المشهورة على الخطب السياسية المرتجلة التي تستدعي منّا الوقوف، فهي من الخطب المهمة التي وصلتنا كاملة النص مع أنها طويلة نسبياً، ويعود الاعتناء في نقلها إلى أهمية مناسبتها. وقيل الخوض في مضمون هذه الخطبة فلا بأس أن أبين أن الخطبة السياسية هي الإطار العام المهيمن على خطب هذا العهد، وحجتي في هذا - كما سيتضح لاحقاً - أن الخطبة الدينية وهي المنافس الثاني للخطبة السياسية، إنما كانت تتأثر بشكل أو بآخر بالوضع السياسي، ويُلَمَح ذلك بوضوح من قراءة الخبر في مصدره سواء بالتمهيد لهذه الخطبة أم من خلال إشارات داخل الخطبة نفسها كما سنرى. وإذا ما طالعنا خطبة البلوطي في مظانها الأولى، فإننا نقف على مناسبتها؛ وهي مناسبة طريفة جلبت الحظ للمنذر بن سعيد البلوطي حتى يتصل بالخليفة الناصر، فنطالع في مصنف "الفتح بن خاقان" في ترجمته للبلوطي ما نصّه: "وذكر أن أول سببه في التعلق بالناصر لدين الله ومعرفته به وزلفاه، أن الناصر لما احتفل لدخول ملك الروم صاحب القسطنطينة بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره وانبهر أمره، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه بذكر جلاله مقعده، ووصف ما تهيأ له من توطد الخلافة ورمي الملوك بآمالها، وتقدم إلى الأمير الحكم ابنه بإعداد من يقوم لذلك من الخطباء،

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٩٣ - ٩٤.

وانظر أمثلة أخرى على إشارات لكثرة الخطابة في مناسبة معينة في ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٣١، ٦٠. - ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٣٣٨، ٢٤٧، ٢٤٨. - المقرّي، نفع الطيب، ج ٣، ص ٨٥.

(٢) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ١٠٤.

ويقدّمه أمام نشيد الشعراء، فتقدّم الحکم إلى^(١) أبي علي البغدادي ضيف الخلافة وأمير الكلام وبحر اللغة أن يُقام، فقام - رحمه الله - وأثنى على الله، وصلى على النبي - صلى الله عليه وسلم - ثم انقطع وبُهِت، فما وصل إلا قطع، ووقف ساكتاً متفكراً، وتشوّف لا ناسياً ولا مُتذكراً، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد قام من ذاته بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبي علي البغدادي بكلام عجيب، ونادى من الإحسان في ذلك المقام كلّ مجيب.^(٢) لقد آثرت نقل النص المتعلق بالمناسبة كاملاً على طوله حتى نتبين تفرّد هذه الخطبة، فالمقام مقام الخليفة الناصر العظيم، والضيف هو ملك الروم، والقائم بأعمال المراسم هو ولي عهد الخلافة الحکم المستنصر، والمراسم تبدو مُعدّة بتنظيم كبير؛ فهو الاحتفال الذي اشتهر ذكره وأبهر شأنه، لكنّ ما ليس في الحُسبان هو الذي حدث ومن تهيأ للخطابة قد أُرتج^(٣) عليه، ولا بُدّ لهذا المقام الصعب من رأب للصدع، فانبرى - كما هو واضح في الخبر - البلوطي لتلك المهمة الصعبة، ومجرّد انبرائه لذلك ليس هو الحدّث المهم، لكنّ الأهم هو ما ارتجله دون تكليف ودون سابق علم على ما يبدو، فما الذي جادت به قريحة الخطيب؟

نتابع مع الفتح بن خاقان نص خطبة البلوطي الذي وصل من حيث قطع البغدادي قائلاً:
 "أما بعد، فإن لكلّ حادثة مقاماً، ولكلّ مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قمتُ في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليّ بأسماعكم، وأفتوا عليّ بأفئدتكم. معاشر الملأ إن من الحق أن يُقال للمُحَقِّ صدقت، وللمبطل كذبت، وإنّ الجليل تعالى في سمائه وتقدّس بصفاته وأسمائه، أمرَ كليمة موسى - صلى الله على نبينا وعليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين - أن يُذكر قومه بنعم الله عزّ وجلّ عندهم."^(٤)

جاءت افتتاحية البلوطي السابقة تحمل حُسن الافتتاح وسرعة الدخول إلى المبتغى والمراد، وقد استشعرنا معها الهيبة والعظمة التي أعطها كلام البلوطي للضيف عظيم الروم، ثمّ

(١) هنالك اختلاف في المصادر حول أوليّة الكلام إذ يذكر الفتح بن خاقان في المطمح أنّ الحکم قد طلب من الفقيه محمد بن عبد البر القرطبي إعداد خطبة في هذا المقام لكنه بُهِت ولم يهتد إلى لفظة، بل غشي عليه وسقط على الأرض، فطلب من أبي علي القالي رأب الصدع. انظر حول هذا الاختلاف في:

- النباهي، أبو الحسن علي بن عبدالله المالقي (ت بعد ٧٩٢هـ) المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفُتيا (تحقيق مريم طويل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥. ص ٦٦.

- المقرّي، نفع الطيب، ج ١، ص ٣٦٨.

- المقرّي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث، الرباط، ١٩٧٨. ج ٢، ص ٢٧٣.

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٣٩ - ٢٤٠.

(٣) أُرتج: استغلق القول عليه. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة رتج).

(٤) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤١.

كان تخيير البدء بموضوع شكر القوم للنعم مما انتقي بعناية، أما استحضار موقف سيدنا موسى - عليه السلام - فلا نظنه إلا من باب التوسعة في الفكر الديني، فهو يتحدث أمام نصراني، فكان من الموفق الاستشهاد بذلك الموقف شدةً للانتباه، وتقريباً للفكر بين الأديان، ليرز السؤال حول مغزى فكرة الخطيب في ضرورة شكر النعم. إن متابعة الخطبة يكشف لنا اللثام عن ذلك المغزى، فالبلوطي أراد الإشادة بحسن خلافة الناصر، وكشف أعماله الجليلة أمام عظيم الروم، وفي هذا إحقاق للحق، وإجلاء لحقائق مكشوفة، ومن زاوية أخرى تحمل تلك الحقائق وقّعها على عظيم الروم، فتبقى دار الخلافة الإسلامية عالية الشأن مهيبة في نظر الروم، ومن ذلك: "وأنا أذكركم بنعم الله تعالى عليكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي أمنت سربكم، ورفعت خوفكم. وكنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقوّاكم، ومستذلّين فنصركم. ولأه الله عليكم وأسند إليه إمامتكم أيام ضربت الفتنة سردقها على الآفاق، وأحاطت بكم تشعل النفاق حتى صرتم في مثل حدقة البعير، مع ضيق الحال ونكد العيش والتغيير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء... ناشدتم الله يا معشر الملأ؛ ألم تكن الدماء مسفوكة فأمنها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمرها؟ وثور المسلمون مهتزمة فحماها ونصرها؟ فاذكروا الآء الله عليكم بخلافته."^(١) ولا يزال المتابع لخطبة البلوطي يجد أن البنية المسيطرة على المضمون في إظهار هيبة الخلافة هي استتباب الأمن، ومن المجمع عليه ما للأمن من دور في رفع شأن الدولة السياسي والعسكري، وهو ما ألهم البلوطي لذكره، فكان في دائرة الحدّث الصائبة، فلقد جاء التدرج في عرض الأفكار بقصر العبارات، اتكأ على الأسلوب الإنشائي تارة وعلى الخبري تارة أخرى، وكانت تلك ميزة عامة ميّزت هذه الخطبة وجعلت اللغة مطواعة في طرح الأفكار عند البلوطي.

وتواصل مع نصّ الخطبة فلا غرو أن نجد خطيبنا يتحدث عن نتائج الأمن السابقة، وأن يصل ذلك بما أنعمه الله على قرطبة حاضرة الخلافة؛ إذ أضحت مقصداً لعظماء الوفود من الممالك والأصقاع، وعلى الأخص وفود الروم الذين هم ضيوف الخليفة الناصر والمستمعون للبلوطي، فنطالع في الخطبة ما نصّه: "وصرتم يداً على عدوكم بطوية خالصة، وبصيرة ثابتة وافرة، فقد فتح الله عليكم أبواب البركات، وتواترت عليكم أسباب الفتوحات، وصارت وفود الروم وافدة عليكم، وآمال الأقيسين والأذنين إليكم، يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق، لأخذ حبل بينه وبينكم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً."^(٢)

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ٢٤١ - ٢٤٢.

(٢) المصدر نفسه، القسم الثاني ص ٢٤٢.

ويتوالى البلوطي في عرض أفكاره بتدرج، فيجعل القسم الثالث والأخير من خطبته طلباً منطقياً في ضرورة تعزيز الثقة والولاء للخليفة، ولم تفت الأنفة والعزة البلوطي حين كرر الحديث عن إحاطة دار الخلافة بالأعداء والمشركين، وأن تكاتف المسلمين والتفافهم حول خليفهم الناصر الأعظم هو الذي سيرهب عدوهم، ولا ننسى أنه بذلك يخاطب الروم أيضاً، وجاء هذا الخطاب بذوق رفيع؛ فلم يخصهم بالإساءة، لأنهم ضيوف الخليفة، لكنه في الوقت نفسه بين لهم بكياسة واضحة ماذا تعني دولة الخليفة الناصر! ومن ذلك ما نصّه: " فاحمدوا الله أيها الناس على آلائه، وسلّوه المزيد من نعمائه، فقد أصبحتم بيمن خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد أحسن الناس حالاً، وأنعمهم بالآ، وأعزهم قراراً وأمنعهم داراً، وأكثرهم جمعاً وأجملهم صنعاً. لا تهاجرون...، وأنتم بحمد الله على أعدائكم ظاهرون، فاستعينوا على صلاح أحوالكم بالمناصحة لإمامكم، والتزام الطاعة لخليفتم وابن عم نبيكم - صلى الله عليه وسلم - فإن من نزح يده في الطاعة، وسعى في فرقة الجماعة ومرق من الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة.... وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين وصنوف الملحدين والساعين في شق عصاكم" (١). ثم جاء إنشاء البلوطي لعدد من الأبيات الشعرية وصلاً مكثف التأثير لمن سمعه، مُمتدحاً الخليفة الناصر، مُعرجاً بالأفواج والأمم التي امت دار الخلافة، ومن ذلك:

مقال كحدّ السيف وسطّ المحافل	فرقت به ما بين حق وباطل
ترى الناس أفواجاً يؤمّون داره	وكلهم ما بين راضٍ وآمل
وفود ملوك الروم وسطّ فنائه	مخافة بأس أو رجاء لنائل (٢)

ولم يأت البلوطي بجديد حين أنهى خطبته بأبيات شعرية، فهذا ممّا يدخل في باب تعدّد الأساليب والفنون في تثبيت الفكرة (٣). ولكنّ جديد البلوطي كان في ارتجال تلك المقطوعة التي جاءت حسن ختام لخير بدء، فبهر العليج قبل العرب بما كان من هذا الرجل الذي بادر في عظيم صنع، حتى قالوا عنه: " هذا والله كبش الدولة". (٤) أمّا بقية من حضروا وسمّعوا فقد خرجوا " يتحدّثون عن حسن مقامه، وثبات جنانه (٥) وبلاغة لسانه". (٦) وأمّا الخليفة الناصر " فكان أشدّهم

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ٢٤٣ - ٢٤٤.

(٢) المصدر نفسه، القسم الثاني ص ٢٤٤، وانظر في الصفحة نفسها بقية الأبيات وعددها ثمانية.

(٣) انظر حول ذلك في الشوابكة، نوال، فن الخطابة في الأندلس، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية، ١٩٩٩. ص ١٢١ - ١٢٢.

(٤) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٥.

(٥) الجنان: القلب وسمي بذلك لاستتاره في الصدر. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة جنن).

(٦) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٥.

تعجباً منه".^(١) ونستمع إلى حوار الخليفة مع وليّ عهده حول البلوطي كما جاء في المطمح، فنقرأ ما نصّه: "وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفته، فسأله عنه، فقال الحكم: هذا منذر ابن سعيد البلوطي، فقال: والله لقد أحسن ما أنشأ، ولئن أبقاني الله تعالى لأرفعن من ذكره. فضع يدك يا حكم عليه واستخلصه، وذكرني بشأنه، فما للصنعة مذهب عنه. فلما ابتنى الناصر الجامع بالزهراء وآه الصلاة فيه والخطبة"^(٢).

ويبدو جلياً لنا من الخبر السابق الأثر البين لتلك الخطبة على نفس الخليفة ووليّ عهده، ومدى أثرها على حياة البلوطي نفسه، وقد يظن ظانّ بأن تلك الرعاية والإعجاب بالبلوطي الذي حمل له وظيفة سلطانية قد جعلت تودّده لدار الخلافة مطلباً، لكننا سنجد نفساً أبيّة، صارخة في قول الحق في خطبة تالية ضمن الخطب الدينية، إذ كانت الخطبة السابقة مثلاً على الخطب السياسية التي أظهرت مضموناً سياسياً واضحاً تجلّى في إظهار قوة دولة الخلافة، وإبراز ذلك لدول الجوار وممالكهم.

ب- الخطبة الدينية:

لعلّ السؤال الأبرز الذي قد يدور في خلدنا عند البدء بهذا العنوان هو ما المشرّع لنا في نعت خطبة ما بالخطبة الدينية؟ أهو المكان الذي تقام فيه فتتخذ الصفة من الحلول بالمسجد مثلاً، أم من الموضوع الذي يغلب عليها حتى وإن باعدت الخطبة أركان المسجد؟ وأظنّ أنّ كلا الأمرين وارد فيما نعرفه من مفهوم الخطبة الدينية، وإن كنت أضيف بعداً آخر - وأنا أتحدّث عن الخطب الدينية لعهد الخلافة الأموية - أراه في البعد السياسي، فلم أعثر - على حدّ اطلاعي - على خطبة دينية اعتني بنقلها دون أن ترتبط بحدّث سياسي، أو لنقل بدار الخلافة حتى وإن بدا مضمونها دينياً صرفاً، ومن ذلك ما يروى عن ابن المشاط^(٣) الذي كان خطيباً زمن الناصر، فجرت له حادثة في واحدة من خطبه أخذت تنقل على أنها من فضائله، فيذكر صاحب "ترتيب المدارك" في معرض ترجمته لابن المشاط ما نصّه: "ومن فضائله المشهورة أنّ الناصر أخذته الجمعة يوماً بقرطبة أيام تولّي ابن المشاط الخطبة - وكان مطيلاً لها - فلما خرج الناصر للصلاة دعا وزيره أبا عثمان بن إدريس، وأوصى إليه أن يذكر ابن المشاط في تخفيف الخطبة ففعل، وأطف له القول، وقال له: إنّ الناصر يجد صداعاً في رأسه هو الذي

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٥.

(٢) المصدر نفسه، القسم الثاني ص ٢٤٥.

(٣) ابن المشاط: أبو عمر أحمد بن مطرف، كان زاهداً وورعاً معنياً بالآثار والسُنن، ولي الصلاة في قرطبة، (ت ٣٥٢هـ). انظر ترجمته في ابن الفرضي، تاريخ علماء الأندلس، ج ١، ص ٩٨ - القاضي عياض،

ترتيب المدارك (تحقيق أحمد بكير)، ج ٣، ص ٤٢٩ - ٤٣٢.

أمسكه عن الحركة إلى الزهراء، ورأى أنه في حَرَجٍ عن التخلّف عن الجمعة، فهو يريد عونه عليها بالتخفيف عنه، والرّفُقُ به. فقال له: سمعتُ قولك، والله الموقّق لما يُزلّف منه، فلمّا انقضى الآذان، وخرج الناصر إلى مصلاه جانب المنبر قام ابن المشاط للخطبة. (١) إنّ التمهيد السابق للخطبة يوضّح ارتباطها بأمر سياسي، فالخليفة قد طلبَ التّقصير في الخطبة، وابن المشاط - كما بدا ظاهراً - قد قبِلَ هذا الإيعاز ممّا يعني أنّ الخطبة بغض النظر عن موضوعها ستخضع للتوجيه السياسي في طولها، لكنّ المنتبِع للخبر يُفاجأ بعكس ذلك، فبعد أن أخذ ابن المشاط مكانه من المنبر " ترسل في منطقة، واحتقل في افتتاحه وتحميده والصلاة والسلام على رسوله، ثم أخذ في الوعظ على عباد الله، وروى في الحديث أنه يُختبَر يوم القيامة أنعم الناس في الدنيا، وأشدّهم بلاءً، فيغمس المنتعم في نهر من أنهار جهنم، ثم يُخرج فيقال: هل رأيتَ خيراً قطّ؟ ويؤتى بالمبتلى فيغمس في نهر من أنهار الجنة، ثم يُخرج فيقال: هل رأيتَ بؤساً قطّ؟ فيقول: لا، ما رأيتَ بؤساً قطّ (٢). وحسّد أمثال هذا وأطال، وزاد فبكى وأبكى الناس، حتى قام في الجامع شبه المأتم من البكاء والشهيق. (٣)

والدارس لما سبق يقف عند زاويتين: الأولى أنّ نصّ خطبة ابن المشاط لم يصلنا بالنصّ وإنما بالمضمون، وهذه من زاوية أدبية خسارة لدارس الأدب في هذه الحقبّة. إلا أنّ الزاوية الأخرى للخبر السابق تُطلّعون على أهمية فن الخطبة - وعلى الأخصّ الدينية منها - في عصر الخلافة، ذلك أنّ قدرة الأديب وفنّيته العالية هي التي أدّت قطعاً إلى تلك الحالة من التفاعل مع الخطيب، وفي هذا تأكيد لدور الخطبة الدينية الذي يتجلّى في صفاء الروح، واستشعار عظمة الخالق وخشية عذابه، وكأنّ ما حدث مع ابن المشاط هو تطبيق لما يُعرف أدبيّاً بنظريّة التطهير (٤)، أمّا حول تأثير تلك الإطالة في الخطبة على الخليفة الناصر فيمكن إدراكه في متابعة الخبر السابق، فيذكر القاضي عياض عن ابن إدريس وزير الناصر ما نصّه: " وأبلسّت وامتلاتُ غيظاً، فلا أدري أكثر ما قال، وخفتُ أنّ يظنّ الناصر أنّي لم أؤدّ الرسالة. فلمّا تمت الصلاة ودخل الناصر إلى مكانه، وأذن للوزراء، فدخلوا وأنا معهم. فدعا بصاحب الصلاة، استربتُ، فلمّا وقعت عينه عليه بشّ له. ورفع منزلته فسرّي عني، فأقعده الناصر، وأقبل يُثني عليه ويكبر مشهده، وأنّه ما شهد قط مثله، وأنّه يرجو بركته لما أدركه من الخشوع والبكاء والندم، وأنّه

(١) القاضي عياض، ترتيب المدارك (تحقيق أحمد بكير) ج ٣، ص ٤٣١ - ٤٣٢.

(٢) انظر الحديث في النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت. ع ٤، ص ٢١٦٢.

(٣) القاضي عياض، ترتيب المدارك (تحقيق أحمد بكير) ج ٣، ص ٤٣٢.

(٤) انظر حول نظرية التطهير في إبراهيم، السيد، نظرية القارىء، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ١٩٧٧.

متقرب إلى الله بألف دينار من طيب ماله، شكراً لحضور هذا المشهد، وأنه يُرسل بها إلى ابن المشاط يجعلها حيث رأى من سبيل الخير وانصرف"^(١). ولا يمكن للدارس حين يتابع الخبر السابق إلا أن يثمن دور الخطيب ابن المشاط في قيامه بدور المُعالج النفسي الذي اعتمد قوة التأثير، فكان المتلقي هو مُبتغاه، وهذا يُعيدنا إلى الفرق بين الرسالة والخطبة، فالخطبة رسالة آنية الاستجابة. ولا يقوى الدرس الأدبي والفكري لتلك الحقبة إلا أن يُعلي من شأن العلماء العظماء الذين لم تكن السياسة عندهم مُجرد أمر يتلقونه ثم ينفذونه، بل كان منهنج فكر مستقل يقدره العالم أمثال الخطيب ابن المشاط، كما يعزّز الخبر السابق مرة أخرى ذلك الإجلال للعلماء وإنزالهم منازلهم حتى لو بدا الظاهر أو ما يقومون به غير المطلوب منهم.

وعطفاً على هذا الموقف تُسعدنا خطبة أخرى للبلوطي، يُمكن إدراجها أيضاً ضمن الخطب الدينية السياسية، ولكنها أيضاً للأسف - لم تصلنا بالنص الحرفي وإنما بالمضمون، وأما مناسبتها فتحتوي من الجرأة ما تحوي! إذ قام البلوطي بدور الناصح الجريء، وهي وظيفة الخطيب الأساسية، وأحد أبرز سماته - أي أن يكون جريئاً في قول الحق - فنقرأ في المَطْمَح ذلك الخبر مفصلاً على ما هو نحوه: "كان الخليفة الناصر كفاً بعمارة الأرض وإقامة معالمها، وانبساط مياهها، واستجلابها من أبعد بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه... فأفضى به الانحراف في ذلك إلى ابتناء مدينة الزهراء، البناء الشائع ذكره... فانهمك في ذلك حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذ، فأراد القاضي منذر بن سعيد وجه الله في أن يعظه ويقرعه في التائب، ويغض منه بما يتناوله من الموعظة، بفصل الخطابة والتذكير بالإجابة."^(٢)

والبائن للدارس مما سبق أن البلوطي هذه المرة لم يكن كخطبته السابقة مُرتجلاً، وإنما كان متحضراً قاصداً إلى العظة بالدرجة الأولى، وتمثل ألفاظاً من مثل التائب والتفريع إشارات واضحة إلى أن الخطبة ستكون شديدة اللهجة؛ فهي خطبة وُجّهت لرأس الحكم والدولة، أما مضمون الخطبة فنتابعه في المَطْمَح بما نصّه: "ابتدأ أول خطبته بقوله تعالى [أتبنون بكل ريع آية تعبثون * وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون * وإذا بطشتم بطشتم جبارين * فاتقوا الله وأطيعون * واتقوا الذي أمركم بما تعلمون * أمركم بأنعام وبين * وجنات وعيون * إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم]"^(٣) ووصل ذلك بكلام جزل وقول فصل، جاش به صدره وقذف به على لسان بحره، وأفضى في ذلك إلى ذم المشيد، والاستغراق في زخرفته، والإسراف في

(١) القاضي عياض، ترتيب المدارك (تحقيق أحمد بكير) ج ٣، ص ٤٣٢.

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

(٣) سورة الشعراء الآيات (١٢٨ - ١٣٥).

الإِنْفَاقِ عَلَيْهِ، فَجَرَى فِي ذَلِكَ طَلْفًا وَتَلَا فِيهِ قَوْلَهُ تَعَالَى: [أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَظِيمٌ حَكِيمٌ]^(١). وَأَتَى بِمَا شَاكَلَ الْمَعْنَى مِنَ التَّخْوِيفِ بِالمَوْتِ، وَالتَّحْذِيرِ مِنْهُ وَالدَّعَاءِ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي الزَّهْدِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الْفَانِيَةِ. وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ اتِّبَاعِ الشَّهَوَاتِ، وَتَلَا مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ مَا يُوَافِقُهُ، وَجَلَبَ مِنَ الْأَحَادِيثِ وَالْأَثَرِ مَا شَاكَلَهُ حَتَّى بَكَى النَّاسَ، وَخَشَعُوا وَضَحُّوا وَتَضَرَّعُوا وَأَعْلَنُوا الدَّعَاءَ إِلَى اللَّهِ. " (٢)

لَقَدْ بَدَتْ مِضَامِينَ الْخُطْبَةِ السَّابِقَةَ وَاضِحَةً، وَإِنْ خَلَّتْ مِنْ نَصِّ حَرْفِيٍّ. وَهِيَ مِضَامِينَ مَنْسُجَةٌ مَعَ مَا جَاءَ فِي مَنَاسِبَتِهَا؛ فَالآيَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ الْمُقْتَبَسَةُ مَوْجِهَةٌ مُخْتَارَةٌ بِعِنَايَةٍ، وَأَمَّا صِرَاحَةُ الْبَلُوطِيِّ فِي ذَمِّ الْمَشِيدِ، وَوَصَلَ ذَلِكَ بِالتَّخْوِيفِ مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ فَهُوَ الْفِكْرَةُ الْأَبْرَزُ لِمِضْمُونِ خُطْبَتِهِ الَّتِي يَتَوَقَّعُ جِزَالَتَهَا وَقُوَّةُ تَأْتِيرِهَا، وَإِذَا مَا اسْتَحْضَرَ الدَّارِسُ خُطْبَةَ الْبَلُوطِيِّ الَّتِي نُقِلَتْ بَلِغَتُهُ فِي احْتِفَالِ عَظِيمِ الرُّومِ، فَلَمَّا أَنْ نَتَخِيلُ مَدَى قُوَّةِ اللُّغَةِ وَسَعَةِ التَّأْتِيرِ الَّتِي قَدْ تَكُونُ خُطْبَةُ الْبَلُوطِيِّ هَذِهِ اتَّسَمَتْ بِهِ.

وَيَبْقَى الدَّرْسُ فِي الْخُطْبَةِ السَّابِقَةِ نَاقِصًا وَحَائِرًا إِذَا لَمْ يُبَيِّنْ مَا تَبِعَ تِلْكَ الْخُطْبَةَ مِنْ أَصْدَاءٍ، فَذَلِكَ يَرِبُّهَا بِالْوَاقِعِ الْفِكْرِيِّ الَّذِي سَمَّا بِفِنِ الْخُطَابَةِ فِي حَضْرَةِ الْخَلِيفَةِ وَارْتَقَى بِهِ، وَمَا أَقُولُ بِذَلِكَ مِنْ بَابِ الْإِنْشَاءِ وَالتَّظْيِيرِ، إِلَّا أَنَّ مَا يَرُوى فِي أَصْدَاءِ الْخُطْبَةِ يَعَزِّزُ ذَلِكَ الرَّأْيَ، فَيُرُوى صَاحِبِ الْمَطْمَحِ مَا نَصَّه: "فَعَلِمَ الْخَلِيفَةُ أَنَّهُ هُوَ الْمَقْصُودُ بِهِ، ... فَاسْتَجَدَى وَبَكَى، وَنَدِمَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُ مِنْ فَرَطِهِ، وَاسْتَعَانَ بِاللَّهِ مِنْ سَخَطِهِ، وَاسْتَعَصَمَ بِرَحْمَتِهِ، إِلَّا أَنَّهُ وَجَدَ عَلَى مَنْذَرِ بْنِ سَعِيدٍ لَغْلَظَ مَا قَرَّعَهُ بِهِ، فَشَكَا ذَلِكَ إِلَى وَلَدِهِ الْحَكَمِ بَعْدَ انْصِرَافِهِ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَقَدْ تَعَمَّدَنِي مَنْذَرُ بِخُطْبَتِهِ، وَأَسْرَفَ فِي تَرْوِيْعِي، وَأَفْرَطَ فِي تَقْرِيْعِي، وَلَمْ يُحَسِّنِ السِّيَاسَةَ فِي وَعَظِي وَصِيَانَتِي عَنِ تَوْبِيْخِهِ، وَاسْتِشْطَاطِ غِيْظًا عَلَيْهِ، وَأَقْسَمَ أَنْ لَا يَصْلِي خَلْفَهُ الْجُمُعَةَ أَبَدًا، فَقَالَ لَهُ الْحَكَمُ: وَمَا الَّذِي يَمْنَعُكَ مِنْ عَزْلِ مَنْذَرِ بْنِ سَعِيدٍ وَالاسْتِبْدَالِ مِنْهُ بِغَيْرِهِ، فَزَجَرَهُ وَانْتَهَرَهُ وَقَالَ لَهُ: أَمَثَلُ مَنْذَرِ بْنِ سَعِيدٍ فِي فَضْلِهِ وَوَرَعِهِ وَعِلْمِهِ وَحِلْمِهِ - لَا أُمَّ لَكَ يُعْزَلُ فِي إِرْضَاءِ نَفْسِ نَاكِبَةٍ عَنِ الرَّشْدِ سَالِكَةٍ غَيْرِ الْقَصْدِ! هَذَا مَا لَا يَكُونُ. وَإِنِّي لِأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ أَجْعَلَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ شَفِيعًا فِي صَلَاةِ الْجُمُعَةِ مِثْلَ مَنْذَرِ بْنِ سَعِيدٍ، وَلَكِنَّهُ وَقَدَّ نَفْسِي وَكَادَ أَنْ يَذْهَبَهَا، وَاللَّهُ لَوَدِدْتُ أَنِّي

(١) سورة التوبة الآيات (١٠٩ - ١١٠).

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٦ - ٢٤٧.

أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا، فما أظننا نتعاض منه أبداً" (١).

يأتي الحوار السابق الذي دار بين الخليفة وابنه مؤكداً أمرين مهمين: أولهما فكري، يؤكد ذلك الهامش من سعة الفكر والاهتمام بالعدل الذي جعل الخليفة الناصر يتراجع أنياً عن غضبه تجاه البلوطي، وهو في الوقت نفسه يؤكد جرأة العلماء حتى في حضرة الخليفة حين يكون الأمر في الحق، فلا نظنّ البلوطي أراد التأنيب للتقليل من هيبة الخليفة، وإنما أراد له الاستمرار في الفرائض والشرائع بما يهذب نفس الخليفة، ويُعطي من عدالته تجاه الرعية. وأمّا الأمر الثاني فيمكن في أن ذلك التقييم الذي جرى لتلك الخطبة، وإنّ انصبّ على المضمون لكنه أعلى من شأن الخطيب أدبياً، إذ لولا قوة حجته وبيانه لما تمسك الخليفة به رغم المضايقة الشخصية له.

ويتداعى السؤال هنا هل يمكننا الجزم بأن قوة السياسة دافع قوي لرعاية الأدباء، وقد ينفي أحدهم ذلك بما شهدناه من ضعف سياسي وازدهار أدبي كعهد ملوك الطوائف مثلاً، لكنني إن وقفت عند حدود سؤالي بنأني فأبني أرى أنّ خطبة كالسابقة لو غولي في ردّ الفعل عليها، كمعاقبة الخطيب أو نفيه لكانت عاملاً من عوامل تمّلق المضامين عند من يليه من الخطباء، ممّا يقلل من قوة آلية العرض والفن الأدبي بعامّة. فبالقدر الذي يؤمن فيه الأديب بمبدأ يتسلّح بأشدّ الأدوات الفنيّة للدفاع عنه.

وإذا ما أردنا استيفاء موضوع الخطب الدينية، فمن المهم ولوج خطبة ابن بقي (٢) نموذجاً يُعزّز ما تمتع به ابن بقي من بلاغة " فلقد كان بليغاً في خطابته، مطبوعاً في إيراده، طويل القلم واللسان، باذاً لأفاضل زمانه." (٣)، ويبدو أنّ ابن بقي قد ابتدع تصرفاً في الخطبة؛ كان عبارة عن سكتة صوتية جرّت فيما بعد مجرى العادة في الخطب الدينية في الأندلس، فنقرأ في مصنف "ترتيب المدارك" ما نصّه: " ومن فصول كلامه المُستحسن في خطبه، أنّه استبحر يوماً في الدعاء، فلما وصل إلى قوله "وأخلصوا لله دعاءكم" سكّت على أثره ملياً. إلى أنّ قدر أنّ الناس دعوا بدعائه، ثمّ قال: اللهم وقد دعاك هذا النفر من عبادك، الساعون لثوابك المجتمعون بفنائك، فزاعاً من عقابك وطمعاً في ثوابك، ورجاءً في ثنائك، وقبلهم من الذنوب ما قد أحاط به علمك،

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٧ - ٢٤٨.

(٢) ابن بقي: أحمد بن بقي بن مخلد، كان زاهداً وفاضلاً، ولي تفريق الصدقات والصلاة ثم قضاء الجماعة سنة ٣١٤هـ. انظر ترجمته في الخشني: قضاة قرطبة، ص ١٦٣ - ١٧١. - القاضي عياض، أبو الفضل

عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (تحقيق محمد

بن شريفة)، ج ٥، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، الرباط، ١٩٦٥. ص ٢٠١ - ٢١٠.

(٣) القاضي عياض، ترتيب المدارك (تحقيق محمد بن شريفة)، ج ٥، ص ٢٠١.

وأحصاه حفظك، فَعُدَّ عليهم في موقفهم هذا برحمة تُوجب لهم بها جنّتك، وتُجيرهم بها من عذابك، آمين يا أرحم الراحمين، إنَّك على كلِّ شيء قدير. وامتنل كثير من الخطباء سيرته في هذه السكّنة في آخر الخطبة... أثناء الدعاء إلى يومنا هذا في بلاد الأندلس. (١)

ولنا في قراءة الخبر السابق اطلاع على نموذج ديني للخطب يمكن الوقوف عنده، فتلك السكّنة جاءت من تروٍّ وحسن تدبير، فقد أتمَّ الخطيب خطبته على لسان مستمعيه، ويبدو أن هذا التروّي يحكمه طبع ابن بقي الذي نقف عليه في مصادر الترجمة؛ ومن ذلك شهادة ولي العهد الحكم المستنصر فيه، فيما نقله عنه القاضي عياض الذي يقول: "سمعتُ ولي العهد الحكم يذكره، فذَكَرَ من وصف رجاحته، وتَمَام أدواته وفرط تواضعه، ما لا شيء فوقه، وكانت أخلاقه من أخلاق أبيه في المداراة والإغضاء والصفح". (٢) ويمكن أن نعزو ذلك التمهّل والأناة في خطبته إلى أنه كان قاضياً (٣) يُجبل النظر جيداً في الأمور، ممّا انعكس على أدائه في خطبته، وممّا جعله قدوة لخطباء الأندلس فيما بعد كما هو بائن بشهادة ابن أندلسي، ومن المسلم به مدى قوة التأثير في فن الخطابة - تحديداً - على متلقيه، فالخطيب يتحين المناسبة التي تساعده على إيصال فكرته بتأثير كبير. فحتّى الجنائز حيث لا يُتوقَّع غير الدعاء للميت واستحضار هيبة الموت، إلا أن وجود جمع غفير من الناس قد يكون مدعاة لبثّ التأثير، ومن ذلك ما نقرأه في المقتبس في أخبار سنة ٣٦٤هـ بخصوص حصن غرماج (٤) فيما نصّه: "وتوفّر الاهتمام على أهل حصن غرماج والإشفاق عليهم، وأعلن الناس به في مساجدهم ومحافلهم، حتى لقد قام رجل من صالحى المسلمين، خامل الذكر في جنازة الزاهد المعروف بالحضرمي (٥) إثر دفنه بمقبرة قريش، وكانت مشهودةً بطبقات الناس إثر دفن الميت، فنادى رافعاً صوته للناس فقال: "عباد الله أخلصوا الله دعاءكم، وارفعوا إليه أصواتكم بالنداء، والابتهاال في حقّ دماء إخوانكم المؤمنين، وأوليائكم المسلمين أهل حصن غرماج، الذين قد أحاط بهم جمع المشركين، وأخذوا بمخنقهم، واستطالوا عليهم بكثرتهم، اللهم أهلك الكفرة وما ابتدعوا، وأوهن كيدهم وما جمعوا، اللهم فرق ملأهم بعزّتك، وبدّد شملهم بعظمتك، وأيّد المسلمين عليهم بقدرتك وانصرهم نصراً عزيزاً،

(١) القاضي عياض، ترتيب المدارك (تحقيق محمد بن شريفة)، ج ٥، ص ٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٠١.

(٣) انظر بعض أخباره في القضاء في المصدر نفسه، ج ٥، ص ٢٠٠ - ٢١٠.

(٤) حصن غرماج: - احدى الحصون الأندلسية في مدينة سالم. انظر ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢،

ص ٣٧.

(٥) أشار عبد الرحمن الحجي محقق كتاب "المقتبس" أنه في نسخة أخرى وجد ضبط هذا الزاهد "بالحصرفي"

ممّا جعله لا يبيت في تعيين هذا الزاهد، انظر ابن حيان، المقتبس، (تحقيق الحجي) ص ٢٢٩ (هامش ١).

وافتح لهم فتحةً مبيناً، فأمن الحاضرون وأجهشوا بالبكاء، وعجلوا بالضراعة والدعاء والابتهاال والنداء. فلم تُبْطئ عنهم الإجابة والقبول من رب العزة تعالى" (١).

والخطبة السابقة كما يُستشف منها مُفعمّة بالمشاعر الحزينة، وهي توحى مرةً أخرى بأثر البعد السياسي على الخطبة الدينية، حتى يمكن القول إنها خطبة مُسيّسة نابعها الغيرة الدينية على المسلمين. أمّا من الناحية الفنيّة فلا نستغرب بساطة اللغة، فالخطيب هو إنسان خامل الذكر لكنّه غيور على مصلحة الأمة الإسلاميّة، فهاجت مشاعره وارتجل ما سبق، وقد أدّت تلك البساطة إلى وضوح في الفكرة المنشودة. وما الاهتمام في نقل النصّ السابق إلا من باب ردة الفعل تجاه حصن غرماج وأهله، وهذا ما يُستغرب أحياناً في الدراسة؛ إذ يُعتنى بنقل نصّ لشخص مغمور، ويُحجّم عن نقل نصوص لمشهورين متميزين كما رأينا سابقاً، ولعلّ لذلك ما يسوّغه، فبعض المصادر التي أرخت لأدبنا الأندلسية بعامة، إنّما كانت تاريخية الطابع، تُؤثر ما يخدم خبرها التاريخي من الأدب، دون أن ينصبّ اهتمامها على الخبر الأدبي لذاته. (٢)

٤ - المقالات الطويلة: (رسالتا ابن حزم : تفضيل الأندلس وطوق الحمامة)

إنّ وسم بعض الباحثين لفنّ أدبي بأنّه فنّ مقالّي، واعتماد ذلك على أنّه فنّ حديث قد يخلو من الدقة أحياناً، إذ نقلّب معظم التعميمات التي تحاول تعريف هذا الفنّ، فلا تخرج في معظمها عن أنّه نظرة ذاتيّة أو رأي ذاتي في قضية موضوعية عامة، وارتأيت أن يكون النموذج لهذا الفن من عهد الخلافة مقاليتين لابن حزم: الأولى في تفضيل الأندلس، والثانية طوق الحمامة في الألفة والألاف.

أولاً: رسالة تفضيل الأندلس

تمثّل هذه المقالة رأي ابن حزم في تميّز الأندلس وتفردّها، ولعلّ أول الاعتراض قد يأتي من عدّها مقالة، لكونها عُرُفت ضمن فنّ الرسائل، وتكون الإجابة عن ذلك من وجهتين: الأولى فيما عرضنا إليه آنفاً في هذا الفصل (٣) من التوسّع في استخدام لفظة رسالة، حتى اختلطت الأمور في هذا الفن - وأعني الرسالة - وغدت حتى المصنّفات الأدبية الكبيرة، أو

(١) ابن حيان، المقتبس، (تحقيق الحجي) ص ٢٢٩.

(٢) انظر مثلاً في عهد الخلافة انصباب بعض الكتب على الأخبار التاريخية وإدراج الأدب من باب تعزيز الخبر التاريخي مثل المقتبس والبيان المغرب.

(٣) راجع ص ٦٠.

المقالات المطوّلة لا تعدو كونها رسائل، وهذا - في ظنيّ - من باب السّعة التي تفقد خصوصية الفن الأدبي، إلا أنّ هذا الرأي لم يمنع من استخدام مصطلح الرسالة الأدبية حتى في الكتابات الحديثة، ممّا أوقع بعضهم في التناقض، ومن ذلك ما جاء على لسان فوزي عيسى في كتابه "الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي" إذ جعل تلك الرسائل في باب المناظرات^(١)، مع العلم بأنّ المناظرة فنّ قائم بذاته غير فنّ الرسالة، وأظن أنّ هذا الخلط ربّما جاء من سعة المصطلح. وأمّا الوجهة الثانية فهي من داخل مقالة ابن حزم نفسها، إذ اهتمّ ابن حزم بإظهار وجهة نظره أكثر مما اهتمّ بمراسلة، أو بمذكرة شخص مُعيّن، مع تحفّظي الشخصي على قصة السائل وسبب كتابة المقالات الأندلسية أو المصنّفات بعامة، ذلك أنّ تكرارها في كثير من بدايات المصنّفات أو ما عُرف آنذاك بالرسائل، يجعل التشكيك بصدق تلك الحوادث عالياً، وكأنّها غدت مجرد بداية دارجة لبّدء تلك المقالات، ولذلك نرى أنّ ما كتبه ابن حزم في تفضيل الأندلس، وأي كتابة تُشاكل ذلك هي من باب "المقال المطول" الذي يعرض لوجهة النظر في قضية معيّنة من زوايا مختلفة.

تعود أهميّة مقالة ابن حزم إلى أنّها فتحت المجال لمقالات بعدها في عصور لاحقة اشتركت جميعها في مضمون الأفضلية الأندلسية^(٢)، وبمعنى آخر استطاعت أن تُشكّل تقوّد الشخصية الأندلسية في مقابل النموذج المشرقي الأعلى، ونقرأ مثل هذا التقوّد في الشخصية الأندلسية فيما نقله المقرّي عن ابن غالب صاحب مصنّف "فرحة الأنفس" الذي يذكر "أنّ الأندلسيين هندیون في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبّهم فيها، وضبطهم لها وروايتهم، بغداديون في ظروفهم ونظافتهم، ورقة أخلاقهم ونباهتهم... ونفوذ خواطرهم، يونانيون في استنباطهم للحياة ومعاناتهم لضروب الغراسات..."^(٣). وعزا المقرّي إلى ابن غالب أنّه ممّن وقف كثيراً عند تميّز الخطّ الأندلسي بعد أن كان الخطّ المشرقيّ هو السائد^(٤)، ويعزّز المقرّي رأي ابن غالب السابق من نقولات عدّة لابن سعيد والحجاري^(٥)، كلّها تؤكّد هذا التقوّد. وما يهمنا في هذا المجال أنّ ابن حزم كان من السّابقين لهذا المضمون الذي شكّل فيه الدفاع عن الشخصية الأندلسية بالحجّة وبالبيان نهجاً يُحتذى.

-
- (١) انظر عيسى، فوزي، الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، القاهرة، ٢٠٠٢ ص ١٤٢.
 (٢) ومن أمثلة تلك الرسائل (رسالة الشقندي ورسالة صفوان ابن إدريس) انظر المقرّي، نفع الطيب، ج٣، ص ١٨٧ - ٢٢٢، ج ٣، ص ٦٣ وما بعدها.
 (٣) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥١.
 (٤) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥١.
 (٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٥٢ - ١٥٥.

أمّا المقالة نفسها فيمكن فتح مغالقتها بمفاتيح عدّة، أمّا الأول فهو في الداعي لها والمحرّك لِقلم ابن حزم، وأظنّ أنّ تلك القصة المسوقة في استفسار ابن الربيب القيرواني هي - كما بيّنتُ آنفاً - قد تكون من باب التشويق أكثر منها محرّكاً فعلياً للكتابة، ناهيك عن أنّه إذا سلّمنا بصحّة تلك الرسالة محرّكاً ودافعاً للكتابة، فإنّ في نقل خبرها ما يثير الشبهة، فلقد وُجّهت لشخص غير معروف الذكر، ولم يبادر ابن حزم بالردّ إلا بعد وفاة ذلك الشخص.^(١)

ويأتي مفتاحها الثاني فيما عرّض له ابن حزم في تفضيل بلده الأندلس، ولا يُقصد بهذا التفصيل في مضامين هذا المقال لمعرفة اليقينة بشهرة هذه المقالة، وكثرة التعرّض لها بالشرح وبالدرس، وإنّما سيولج إلى أثر الشخصية الأندلسية في توضيح الرأي الذاتي لابن حزم، إذ يبدو جلياً الأناة في عرض الفكرة، فلقد سيطرت العقلانية على ما عرض ابن حزم. ولنا مثال فيما بدأ به حول حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - في أم حرام^(٢) التي دعا لها الرسول في أنّ تكون مع الغزاة التي تقطع البحر فحصل لها ذلك^(٣)، وقد أوّل ابن حزم ذلك على أنّها جزيرة قبرص التي تمّ الانطلاق منها للأندلس.

وأما حين انتقل ابن حزم لعرض مآثر الأندلسيين ومصنّفاتهم، فقد حكّمته مرة أخرى تلك الطبيعة الأندلسية في شخصيته، حيثُ الافتخار بما لديه بما قلّ عند الآخرين، دون أن يغبن الآخرين حقّهم، ومن ذلك: " وهذه بغداد حاضرة الدنيا، ومعدن كلّ فضيلة، والمحلّة التي سبق أهلها إلى حمل أولوية المعارف، والتدقيق في تصريف العلوم، ورقة الأخلاق والنباهة والذكاء، وحده الأفكار ونفاذ الخواطر، وهذه البصرة وهي عين المغمور في كلّ ما ذكرنا، وما أعلم في أخبار بغداد تأليفاً غير كتاب أحمد بن أبي طاهر، وأمّا سائر التواريخ التي ألفها أهلها فلم يخصوا بلدتهم بها دون سائر البلاد." ^(٤)

(١) راجع قصة رسالة ابن الربيب القيرواني في:

- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) رسائل ابن حزم (تحقيق إحسان عباس)، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ١٩٨١. ج ٢، ص ١٧١ - ١٧٢. - ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ١٣٧ - ١٣٩. - المقرّي، نفح الطيب، ج ٣، ص ١٥٦.

(٢) أم حرام: هي أم حرام بنت ملحان، خالة أنس بن مالك، وإحدى الصحابيات، اتفق العلماء على أنّها كانت محرّماً للنبي صلى الله عليه وسلم وأنّها كانت إحدى خالاته من الرضاعة. انظر ترجمتها في العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ)، الإصابة في تمييز الصحابة (تحقيق علي البجاوي)، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ. ج ٨، ص ١٨٩.

(٣) انظر الحديث في النيسابوري، صحيح مسلم، ج ٣، ص ١٥١٨، وقد ورد الحديث عند المقرّي، نفح الطيب، ج ٣، ص ١٦١.

(٤) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٢، ص ١٦٥.

وتتكامل الشخصية الأندلسية المتفرّدة عند ابن حزم في المفتاح الثالث للنص في اعتراف جليّ بأنّ النفس البشرية بطبعها تتوق للبعيد الغريب الذي تبجله، وترهد في القريب المعروف، وفي ذلك ما يعزّز تلك النظرة الأندلسية المتأنيّة للأمور؛ ولذا رأينا ابن حزم يعرض لهذه الفكرة بسلاسة ومنطقية، مؤظفاً المثل التراثي وكلام الكتاب المقدّس في الإنجيل مروراً بما لقيه سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - من أهل قریش وهم أهل الحلم والعقول، ومن ذلك قول ابن حزم: "وأما جهتنا فالحكّم في ذلك ما جرى به المثل السائر (أزهد الناس في عالم أهله) وقرأت في الإنجيل أنّ عيسى - عليه السلام - قال: (لا يفقد النبي حرّمته إلا في بلده) وقد تيقنا ذلك بما لقي النبي - صلى الله عليه وسلم - من قریش، وهم أوفر الناس أحلاماً وأصحهم عقولاً، وأشدّهم تنبّهاً مع ما خصّوا به من سكناهم أفضل البقاع، وتغذيتهم بأكرم المياه، حتى خصّ الله تعالى الأوس والخزرج بالفضيلة التي أبانهم بها عن جميع الناس، والله يؤتني فضله من يشاء، ولا سيما أندلسنا فإنّها خصّت من حسد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم، واستقلالهم كثير ما يأتي، واستهجانهم حسناته، وتنبّعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد.....".^(١)

إنّ نظرة في مضمون فكرة ابن حزم الأخيرة توضّح ما أراد الكاتب قوله، وذلك يعود لخصوصيّة العلم والعلماء بالأندلس، فمن يقرأ أنفاً يستدلّ على أنّ الحسد بائن ظاهر لأيّ عالم مهما كان شأنه كبيراً، وهذا مدعاة للسؤال فيما اختصّ به الأندلس عن باقي الأمصار حتى تكون هذه طباع أهله في ملاحقة العالم، والانتباه لكلّ ما يقول. ولعلّ واحدة من الإجابات قد تكون في الشعب المختلط الأجناس المتعدّد الثقافات، الذي يتتبع العلماء ويقف عند كلّ ما يكتبون.

وقد يكون ابن حزم قد عنى بما كتب أكثر من الظاهر، فقد يؤوّل كلامه على فكرة أنّ درجات إتيان العلم والعلماء صعبة ثقيلة، فالجميع بالمرصاد، ومع ذلك فإنّ ابن حزم سيخلص من كلّ الوضع السابق الذي تحوكة البيئة الأندلسية للعلماء ومصنّفاتهم، بفكرة ثابتة هي كثرة المصنّفات وتمييزها، وبعبارة أخرى كأنه يقول: فلا تظننّ أنّ ذاك الحسد والتتبع للعلماء والإطباق على أعمالهم، قد منع أهل أندلس من التصنيف والتمييز، وكأنّه أيضاً يقول: لو كان هذا الذي يتمّ لأهل الأندلس في غير هذا البلد لثبّطت الهمم وقصر العطاء، ولكننا مرة أخرى نستشف من ابن حزم هذا الدفاع المرير عن علماء الأندلس بتحدّيه لتلك الظروف، ومن ذلك ما يذكره ابن حزم

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/٢، ص ١٦٦ - ١٦٧.

قائلاً: " وعلى ذلك فقد جُمع ما ظنَّه الظانُّ غيرَ مجموع، وألفت عندنا تآليف في غاية الحُسن لنا خَطَرَ السبق في بعضها فمنها كتاب الهداية... "(١).

وقد تابع ابن حزم بعد ذلك ذكر عدد كبير في مختلف العلوم من المصنَّفات. ولطيف ما ذكره ابن حزم في عرض تلك المصنَّفات أنه لا يدخُل ضمن مجرد تعداد لمصنَّفات، أو تأريخ لأصحابها، أو ردة فعل لعصبيَّة ثقافية، ولئن سُئلت فكيف السبيل إلى ذلك الاستنتاج؟ استعنت بما كان في كلام ابن حزم نفسه، وفي شخصيَّته التي تُعدُّ مثلاً على شخصية العالم الأندلسي في عهد الخلافة الأموية؛ فلم يخرج ابن حزم عن عصره، بل لقد شُهد له بالتفوق وبالعلو^(٢) على كثير من أقرانه. أمَّا عن كلام ابن حزم نفسه الذي يُبعد عنه العصبيَّة الثقافيَّة فهو متوزَّع في ثنايا مقالته، ويكفيها أنه لم يغيب الأمم الأخرى أعمالها فكان يوازن أحياناً بين مصنَّف أندلسي وآخر في بلد آخر، فيقيمه على أسس واحدة، كذكره لمصنَّفات الأخبار بما نصَّه "ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم وكتباتهم وذلك كثير جداً، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها على نحو ما بدأ به ابن أبي طاهر في أخبار بغداد، وذكر منازل صحابة أبي جعفر المنصور بها، وتواريخ متفرقة رأيت منها أخبار عمر بن حفصون القائم بريَّة ووقائعه وسيره وحروبه"^(٣). ولو كانت العصبيَّة الثقافيَّة هي ما تحكَّم طَبَعه، لتحاشى التعرُّض لمصنَّفات أخرى^(٤) واكتفى بالتآليف الأندلسية.

كما يطالعنا ابن حزم في هذا المقال بما يؤكِّد خصوصيَّة أن ما كتبه كان من باب النظرة الذاتية، وإيصال الفكرة المخبَّأة التي نظَّنها تتجاوز عرض مجموعة من المصنَّفات إلى إعطاء فكرة عن طبيعة العالم الأندلسي المستقلِّ في الفكر والشخصية، والتميّز الذي يشهد له الآخرون، فلا غرو أن نطالع خبيراً رواه ابن الفرضي^(٥) يذكر فيه ابن حزم ما نصَّه: " وههنا قصة لا ينبغي أن تخلو رسالتنا منها؛ وهي أن أبا الوليد عبدالله بن محمد بن عبدالله المعروف بابن الفرضي حدَّثني: أن أبا الجيش مجاهداً صاحب الجزائر ودانية، وجَّه إلى أبي غالب أيام

(١) ابن بسَّام، الذخيرة، م ١/ق ٢، ص ١٦٧.

(٢) انظر المراكشي، المعجب ص ٥٣ - المقرِّي، نفع الطيب، ج ٢، ص ٧٨.

(٣) المقرِّي، نفع الطيب، ج ٣، ص ١٧٣.

(٤) انظر أمثلة أخرى على موازنة الكتب الأندلسية بغيرها في المصدر نفسه، ج ٣، ص ١٧٢ - ١٧٧ - ١٧٨.

(٥) ابن الفرضي: أبو الوليد عبدالله بن محمد، محدِّث وفقه وشاعر ومؤرِّخ، ولد في قرطبة سنة ٣٥١ وتوفي

٤٠٣ هـ، مصنَّفات منها: تاريخ علماء الأندلس، أخبار شعراء الأندلس. انظر ترجمته في ابن خلكان،

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ج ٢، ص ١٠٥ - عيد، يوسف، معجم الحضارة الأندلسية، ط ١، دار

الفكر العربي، بيروت، ٢٠٠٠. ص ٢٠.

غلبته على مرسية^(١) - وأبو غالب ساكن بها - ألفَ دينار أندلسية على أن يزيد في ترجمة الكتاب المذكور مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد - فردَّ الدنانير، وأبى ذلك، ولم يفتح في هذا ألبتة وقال: والله لو بذل لي الدنيا على ذلك ما فعلت ولا استجزت، لأنني لم أجمعه له خاصة بل لكل طالب، فاعجب لهمة هذا الرئيس وعلوها، واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها.^(٢) ومن الأمثلة الأخرى التي تبرهن على أن مقالة ابن حزم إنما قدّمت صورة الأندلسي المتكاملة الشخصية، أنه لم يُعرض عن ذكر بعض العلماء ومصنّفاتهم، حتى وإن خالفهم في المذهب، وكان التعبير عن تلك المخالفة بعبارات بائنة، تتسجم والموقف العلمي الذي ينبذ العصبية الثقافية، والذي يتطلّع للأخّر دوماً بتقبُّل، ممّا يشي بفكر الانفتاح على الآخرين، ومن ذلك ما ذكره ابن حزم في تفوق البلاغة على يدي ابن شهيد وابن مسرة^(٣) فيما نصّه: "ولنا من البلغاء أحمد بن عبد الملك بن شهيد صديقنا وصاحبنا، وهو حيٌّ بعد لم يبلغ سن الاكتهال، وله من التصرف في وجوه البلاغة وشعابها مقدارٌ يكاد ينطق فيه بلسان مركّب من لساني عمرو وسهل^(٤)، ومحمد بن عبدالله بن مسرة في طريقه التي سلك فيها، وإن كنا لا نرضى مذهبه في جماعة يكثر تعدادهم."^(٥)

أمّا حديث ابن حزم عن الشعراء الأندلسيين فكان بألية خاصة، اعتمدت الموازنة وأظهرت البراعة والتفوق في أداة العرض، فلم يكن الحديث عن الشعراء مجردّ تعداد لهم أو لأغراضهم، وإنما سيقوا مع فحول شعراء العرب. ولنا أن نتساءل عن تأخير القول في الشعراء إلى نهاية المقالة، وكأنّ ذلك كان من باب بقاء الأثر الكبير في ذهن المتلقي، فالقارىء بطبعه يقف عند آخر ما يقرأ ويتأثر به. لنقف مع ابن حزم عند ما خصّ الشعراء به بما نصّه: "ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا أحمد بن محمد بن درّاج القسطلّي لما تأخّر عن شأو بشّار بن بُرد، وحبيب والمتنبي، فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان المصحفي^(٦) وأحمد بن عبد الملك بن

(١) مرسية: مدينة بالأندلس، بناها الأمير عبد الرحمن بن الحكم، اتخذت داراً للعمّال وقراراً للقوات، تقع على نهر كبير، وقد اشتهر سكانها بصناعة البسط الفاخرة. انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس ص ١٨١ - ١٨٢.

(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ٢، ص ١٨٢ - المقري، نفع الطيب، ج ٣، ص ١٧٢.

(٣) راجع التعريف به ص ٢٩.

(٤) يقصد بهما عمرو بن بحر الجاحظ وسهل بن هارون.

(٥) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ٢، ص ١٨٨ - المقري، نفع الطيب، ج ٣، ص ١٧٨.

(٦) راجع التعريف به ص ١٦.

مروان^(١) وأغلب بن شعيب ومحمد بن شخيص^(٢) وأحمد بن فرج^(٣)... وكل هؤلاء فحلُّ يُهاب جانبه، وحصان ممسوح الغرّة." ^(٤)

ويبقى أن نذكر أن ابن حزم استطاع أن يجمع بين ثنائي التواضع والثقة بالشخصية العلميّة الأندلسيّة، دون أن يتناسى الموضوعية، وهذا الحكم يسهّل الوصول إليه من إشارات عدّة داخل المقال، ومن اعتراف نصيِّ بقلم ابن حزم جعل مداده نبض كلِّ عالم أندلسي، فنقرأ ما مفاده: "ولنا فيما تحقّقنا به تأليفُ جمّة، منها ما قد تمّ، ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد قضى منه صدرٌ، ويعين الله تعالى على باقية، لم نقصد به مباحاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنسميها. والمراد بها ربّنا جلّ وجهه، وهو ولي العون فيها، والمليّ بالمجازاة عليها، وما كان الله تعالى فسيبدو... وبلدنا هذا - على بعده من ينبوع العلم، ونأيه من محلّة العلماء - فقد ذكرنا من تأليف أهله ما إن طلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر وديار ربيعة واليمن والشام، أعوز وجود ذلك على قرب المسافة في هذه البلاد من العراق، التي هي دار هجرة الفهم وذويه ومُراد المعارف وأربابها." ^(٥)

لقد شكّلت مقالة ابن حزم في تفضيل الأندلس نموذجاً للمقالة المحتكمة للمنطق والعقلانية في طرح وجهة النظر الخاصة، وهي من وجهة نظري ليست في تفضيل الأندلس، وإنما في الانتصار للأندلس بالحجة والبيان؛ فالتفضيل في بعض وجوهه يعني أن البقية أدنى، وما أراد ابن حزم ذلك في مقالته، وإنما أراد وضع بلاده ضمن مسارها الذي تستحقه، فجاءت مواده المعروضة داخل النص أكثر من مجرد نقولات وتعداد، أضف إلى ذلك تلك القيمة العلميّة العالية لهذه المقالة التي حفظت لنا جلاً من التصانيف؛ بعضها وصلنا وبعضها لم يصل، فاستطعنا أخذ فكرة عن الحياة الفكرية والثقافية، وليس أدلّ على ذلك من أن يكون الشاهد من أهلها.

ثانياً: طوق الحمامة

أمّا النموذج الثاني لابن حزم أيضاً فكان في طوق الحمامة، وقد ساورتني الحيرة في الوقوف عند النموذج لأكثر من سبب، إذ تعرّضت هذه المقالة الأدبية المطوّلة إلى كثير من الشرح والدرس من الدارسين العرب وغير العرب على حدّ سواء؛ فقد وقف د. إحسان عباس

(١) يقصد به الأديب المعروف بالجزيري.

(٢) يقصد به الأديب المعروف بالرمادي.

(٣) يقصد به أحمد بن فرج المعروف بالجواني.

(٤) المقرّي، نفح الطيب، ج٣، ص ١٧٨.

(٥) المصدر نفسه، ج٣، ص ١٧٧.

أحد محققي طوق الحمامة عند أكثر من اثنتي عشرة دراسة^(١) شملت اللغتين العربية والأجنبية، كما تعرّض طوق الحمامة نفسه لأكثر من تحقيق^(٢)، إلا أن ثراء هذا النص بالكثير مما يستحق الوقفة والدرس جعلني أقف عليه عند سؤال - أظنه مفصلياً - وأنا أتحدّث في فن المقالة المطوّلة التي تعرّض لوجهة نظر ذاتية في أمر ما، وهذا السؤال متعلّق بالمضمون أي بالرأي الذاتي لابن حزم، فالكتاب في دراساته المتعددة يُدرّس على أنه آراء ونصائح وتنظير في العشق، وهنا يبرز السؤال إن شغل الفقيه الأندلسي بالعشق بين الأشخاص، أو بين المحبين وأراد بيان مسوّغات ذلك وطرقه وإحساسه، أم إن الفكرة أوسع من هذا وأشمل؟! لم يكن حسم السؤال السابق والخروج بإجابة شافية أمراً سهلاً المنال، إلا أنني سأحاول الوقوف عند بعض زوايا النص التي قد تأتلف معاً لتتشكّل تصوّراً معقولاً، قد يُغني السؤال السابق بإجابة ما.

أ- طوق الحمامة ودواعي التأليف

طوق الحمامة في الألفة والألاف، عنوان ما قام به ابن حزم وقدمه في ثلاثين باباً حول العشق، وإذا كان بعض الدارسين قد أدخل هذا العمل في فنّ الرسالة الأدبية^(٣)، فلنا أن نتساءل هل كان ابن حزم يقصد تقديم عمل أدبي على هيئة رسالة؟ ولعلّ هذا التساؤل مرتبط أصلاً بدواعي التأليف التي تبدو كما يذكرها ابن حزم أنها جاءت تسليّة لصديق، إذ نقرأ في تصدير الطوق على لسان ابن حزم ما نصّه: " فإنّ كتابك وردني من مدينة المريّة^(٤) إلى مسكني بحضرة شاطبة^(٥) تذكر من حُسن حالك ما سرّني ... ثمّ لم ألبث أن أطلع على شخصك، وقصدتني بنفسك، على بُعد الشقة وتنائي الديار ... وفي دون هذا ما سلّى المشتاق ونسى الذاكر

(١) انظر حول تلك الدراسات في ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦هـ) رسائل ابن حزم (تحقيق إحسان عباس)، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ١٩٨٠. ج ١، ص ٢١ - ٢٢، - آري، راشال، (١٩٨٨) ابن حزم والحب العذري، مجلة دراسات أندلسية (١): ٤٠ - ٦١.

(٢) انظر ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ٢٠، فقد عرض د. إحسان عباس في مقدّمة تحقيقه لَطوق الحمامة لأكثر من ١٠ طبعات للنص بتحقيقات مختلفة.

(٣) انظر مثلاً فوزي عيسى، الرسالة الأدبية ص ٣٥ - ٥٢.

(٤) المريّة: مدينة أندلسية محدّثة، بناها الناصر لدين الله سنة ٣٤٤هـ، وهي منتجع حسن، اشتهرت بصناعة الحرير والديباج. انظر الحميري، صفة جزيرة الأندلس ص ١٨٣ - ١٨٤.

(٥) شاطبة: مدينة في شرقي الأندلس تقع شرقي قرطبة، وكان الكاغد الجيد يعمل فيها وينقل الى سائر البلاد، اشتهرت بمجموعة كبيرة من العلماء. انظر ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢. ج ٣، ص ٣٠٩ - ٣١٠.

إلا مَنْ تمسك بحبل الوفاء مثلك... وكلفنتي أعزك الله أن أصنّف لك رسالة في صفة الحبِّ ومعانيه وأسبابه وأعراضه، وما يقع فيه ولّه على سبيل الحقيقة لا متزايدياً ولا متفناً، لكنْ مُورداً لما يحضرني على وجهه وبحسب وقوعه، حيث انتهى حِفظي وسعة باعي فيما أذكره، فبدرتُ إلى مرغوبك، ولولا الإيجابُ لك لما تكلفته، فهذا من العفو. والأولى بنا مع قصر أعمارنا ألاّ نصرّفها إلا فيما نرجو به رُحْب المنقلب، وحُسن المآب غداً." (١)

إنّ الوقوف عند داعي التّأليف السابق يُثير أكثر من تسأول؛ يتّصل الأول بقصة السائل التي تتكرّر في المصنّفات الأندلسية - كما أُشير آنفاً في مقالة تفضيل الأندلس - فهذه القصة تُثير الشكوك حول النية المقصودة من هذا المصنّف، ولا أعتقد أنّ التشكيك بهذه القصة يطعن بشخصية ابن حزم كما ظنّ د. عباس حين قال: "وأنا أُصدّق ابن حزم فيما يقول، لأنّه منزّه عن تعمد الكذب، حتى وإن كان غيره يتّخذ مثل هذه التعلّة مدخلاً للتأليف." (٢) إنّني أستغرب ما ذهب إليه د. عباس في ربط قصة السائل بخلق ابن حزم، ذلك أنّ د. عباس نفسه يعترف بأنّ هذا المدخل كان متداولاً سائغاً في زمن ابن حزم، وإذا سلّمنا بأنّ هذا العمل هو عمل أدبي، فإنّني أعتقد أنّ من حقّ ابن حزم اجتراح آليّة البدء بالطريقة المشوقة التي يراها دون أن يُعدّ ذلك من باب الكذب، أضف إلى ذلك أنّ ابن حزم ذكر لنا مكاناً لتلك الشخصية، لكنّه لم يُسمّها بالذكر الصريح ممّا قد يغذيّ التصور بأنّ هذه الشخصية من خيال ابن حزم، وإن لم تكن كذلك فقد يكون لها وجود، ولكن من الغريب أنّ تكون الحافز الحقيقي لكتابة مصنّف كبير في العشق، اعترف ابن حزم نفسه كما مرّ في التصدير بأنّ دخول مثل هذا الأمر يحمل مزالِق عديدة، ولعلّ عدم الخوض بها أفضل. لنستخلص ممّا سبق أنّ دواعي التّأليف كانت أكثر من قصة صديق يسأل عن العشق وأحواله، وأننا بالعودة إلى سيرة ابن حزم الفقيه (٣)، نُميل الكفة التي تقول بأنّ هنالك حافزاً قوياً لأنّ يكتب ابن حزم مصنفاً في العشق يدعوه بطوق الحمامة. فماذا عن التسمية؟ وهل يمكن أن تشكّل حلقة أخرى في إجابة السؤال المحوريّ الذي طُرِح آنفاً.

(١) انظر ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ٨٤ - ٨٦.

(٢) انظر المصدر نفسه، ج ١، ص ٤١.

(٣) انظر حول سيرة ابن حزم وتميّزه في المصنّفات الدينية الفقهية في المقرّي، نفح الطيب، ج ٢،

ب- طوق الحمامة في الألفة والألاف " العنوان وفلسفة المحتوى وزمن الكتابة"

إذا كان مصنف ابن حزم خاصاً بالحب ومعانيه وأسبابه وأعراضه - كما بين لنا ابن حزم في قصة رسالة السائل له عن ذلك - فهل أدى العنوان الذي اختاره ابن حزم الموضوع حقاً؟ وما علاقة الفحوى بطوق الحمامة؟ وهل الألفة هي ذاتها الحب؟!

وقف د. إحسان عباس عند هذه التسمية وعارض ما ذهب إليه الثعالبي من أن " طوق الحمامة يُضرب مثلاً لما يلزم ولا يبرح ويقيم ويستديم." (١) أي أنه رفض معنى الدوام الذي يلزم الحب، ورأى د. عباس أن طوق الحمامة هنا كناية عن استلهام الجمال الذي هو مثار الحب، وأن هذا الجمال قد جاء من طوق مُتقَرِّد، وزينة مُنحت للحمام بدعاء نوح حين أرسلها لتستكشف المدى الذي سترسو عنده سفينته. (٢) وبعبارة أخرى يمكننا القول بأن د. عباس رأى أن طوق الحمامة مرتبط بالجمال والتميز.

إن تفسير د. عباس - على طرافته - قد يجعلنا نطرح داخل النص نفسه السؤال عن العلاقة بين جمال الحب وتميزه، وإن كان ابن حزم قد كشف عنها؟ وإذا سلّمنا بهذا الأمر فكيف لنا أن نفسّر أن ثلث النص تقريباً كان حول علامات الحب (٣)؟! لا بل كيف لنا أن نفسّر وقوف ابن حزم عند قصص كثيرة بيّنت كيفية الوقوع في العشق من نظرة واحدة أو بالمطاوله أو بصفة دون غيرها أو بالتعرض بالقول (٤) أو غيره. إن الدارس لما سبق لا يلمس أن العلاقة بين الجمال والحب هي المقصودة لذاتها في الأغلب، وإذا كان الأمر على ما بيّنا فيبقى سؤال الطوق مشروعاً، ولعلي أرى قاسماً مشتركاً بين ما رأى الثعالبي وما ساق د. عباس حول أسطورة الطوق الذي أعطيته الحمامة من نوح، فقد تكون الديمومة هنا في توالي وتشابه ما يحدث للعاشق على مرّ الأزمنة، وأن الأمثلة التي سيقت كانت تؤكد هذه الديمومة فيما يعتور العاشق في صفته وفي مرضه، ووُشاته إلى غير ذلك مما تعرّض إليه ابن حزم. وإذا سلّمنا بتلك الديمومة يصبح طوق الحمامة هو المكلف بهذا الاستكشاف الذي قاد إلى حقيقة تلك الديمومة في تشابه ما يحدث، لأن الصفات المتعلقة بالعشق تتعلق بطبيعة إنسانية متشابهة من حيث العاطفة والغريزة عند الإنسان، وما البحث عن تفسير للاسم إلا من باب محاولة تفسير المضمون الذي يُعتقد أن

(١) الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ-)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب (تحقيق أبو الفضل إبراهيم) دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥. ص ٤٦٥.

(٢) انظر شرحاً أكثر تفصيلاً أورده د. إحسان عباس حول "طوق الحمامة ودعاء نوح" في ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ٣٧.

(٣) جعل ابن حزم عشرة الأبواب الأولى من أصل ثلاثين باباً في علامات الحب.

(٤) انظر أمثلة على تلك القصص المختلفة المقاصد في ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ١٢١، ص ١٢٧ ص ١٣٠.

ابن حزم قد خصّه بالعشق الإنساني الذي يحمل رسالة أندلسية خاصة في زمن الفتنة، ذلك الزمن الذي سُلِبَ معنى الحب والألفة.

وإذا كان الافتراض السابق مُجرّد وُلّه بتفسير نظرية الحبّ من فقيه أندلسي، فإنّ الوقوف عند الشقّ الثاني لتنتمه عنوان المصنّف قد يساعد في فهم هذا الافتراض؛ فالألفة والألاف أعمّ وأشمل من الحب، فنقرأ في المفهوم اللغوي للألفة أنها مصدر "ألف" وهو من اللزوم، وأنّ الألاف جمع "الإلف" وهو الذي يُؤلف ويُؤنس إليه ويأتي من طول مُلازمة^(١)، واعتماداً على هذا المفهوم اللغوي نقف عند العنوان من تصوّرين: الأول أنّ ابن حزم قد رأى فعلاً أنّه تجاوز الحديث عن الحب فحسب كما كان قد أشار في قصة السائل حين قال: " وكلفنتي أنْ أصنّف لك رسالة في الحب".^(٢) فلم يعد من المناسب أنْ ينعث تلك الرسالة بالحبّ فقط. وأمّا المنظور الثاني فيأتي من حُسن تخيّر لفظ الألاف الذي ينسجم مع ما ذهب إليه الثعالبي من عدّ طوق الحمامة مثلاً للاستدامة وطول المكوث، وقد يصبح الافتراض الذي ذهبنا إليه مُفتعاً إلى حدّ ما، فهذا المصنّف يُقرُّ مؤلّفه منذ البداية بأنّه في ديمومة ما يُصاب به العاشق، وفي نصائح مُستدامة في تحمّل أعراضه، وفي تشابه مُستدام ممّا يحلّ بالإلف على مدى الأزمنة، ليزداد بذلك الولّه في مشروعية افتراض أنّ طوق الحمامة كان درساً في ضرورة الألفة بين الناس أجمع في المجتمع الأندلسي الذي شرذمته ظروف الفتنة السياسية، وإذا ما جازت لي هذه التصورات التي استقيتها من العنوان ودواعي التّأليف، فإنّني أعذيها بتصور ثالث يتعلّق بسؤال زمن الكتابة.

تبدو قضية حسَم زمن الكتابة من القضايا التي أرقّت بعض الدراسين، فلم يحسم ابن حزم هذه القضية بنفسه، لكنّ بعض الإشارات داخل طوق الحمامة تشير إلى زمن تقريبي لهذه الكتابة، ولست منشغلة حقيقةً في هذا البحث بالتأصيل الزمني لها، وما يهمني الوقت التقريبي لها، وهو أمر قد قدره د. إحسان عباس من الإشارات التي وردت في المصنّف، وبأنّه قد كان بين عامي ٤١٧هـ - ٤١٨هـ أو على أكثر تقدير قد تمّ قبل عام ٤٢٠هـ^(٣)، وهذا التاريخ هو ما يعينني في حلّ لغز طوق الحمامة، واهتمام ابن حزم بكتابة مصنّفه في الألفة والألاف. فالأعوام التي كتب فيها ابن حزم هي ضمن ما عرف بعهد الفتنة التي عانت فيها قرطبة - لا بل الأندلس قاطبة - الفتن والحروب، وكانت أسرة ابن حزم نفسه ممّن قاست ويلات كثيرة بسبب تلك الفتن؛ فقد تعرضت أسرته للاعتقال والمصادرة في الأموال، حتى إنّ جند البرابرة قد

(١) انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة ألف).

(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ٨٦.

(٣) انظر الإشارات التي قادت د. إحسان عباس إلى الحسم الزمني في تاريخ تأليف طوق الحمامة في المصدر

احتلت منازل أهله.^(١) ولم يكن مجيء الحموديين بأحسن حالاً على أسرة ابن حزم، إلى أن لاحت الفرصة بعودة المستظهر عام ٤١٧هـ الذي قرّب ابن حزم وابن شهيد، ولكن نجمه أقل على عجل، فلم تدم هذه الخلافة أكثر من سبعة وأربعين يوماً^(٢) ليعود الشقاء على ابن حزم وأسرته. وإذا ما نظرنا إلى الأحوال والظروف السياسية والنفسية التي كانت مُحيطَة بظروف كتابة نص الطوق، أصبح من الممكن التكهن بالحافز الحقيقي الذي قاد ابن حزم للانشغال بهذا المصنّف، لتكتمل حلقات السؤال الذي بثناه بداية الحديث عن الطوق، فهل يجوز لنا بعد هذه الوقفات أن نخمن أن هذا الكتاب كان في ضرورة الألفة الإنسانية بشمول معانيها في زمن كانت الأندلس أحوج ما تكون لنبد الشقاق والخلاف، وقراءة موروثها في الود والاستئناس به، وديمومة ذلك بما يعيد قرطبة والأندلس إلى سالف عهدهما من نبد الخلاف.

قد لا نستطيع الجزم بما ذهبنا إليه من تأويلات وتفسيرات، ولكنها تبقى مجرد آراء خاصة ضمن نظرات في العنوان والزمن ودواعي التأليف، ونعتمد بأنها نظرات تستحق وقفة وتأملاً في هذا المصنّف الذي شغل الكثيرين.

٥- فن القصة الهزلية " التوايح والزوايح نموذجاً "

ضمن بوابات الفنون النثرية نقف عند بوابة القصة ونسأل بعمق: هل عرفت الأندلس في عهد الخلافة الأموية فن القصة، وهل وصلنا من النماذج ما يمكن التمثيل به على مثل هذا الفن؟ إن وقوف الدارس على النموذج يجعل أطر التنظير أكثر قابلية للفهم والشرح، وقد ارتأيت أن تكون قصة التوايح والزوايح هي النموذج التطبيقي على فن القصة، وعلى الأخص القصة الهزلية، وغني عن الذكر ما حازته هذه القصة فيما عرفت به باسم الرسالة الهزلية أو شجرة الفاكهة، من دراسات^(٣)، وليس القصد من هذه الدراسة اجترار ما كتب والوقوف عند ما ذكر، وإنما القصد هو عرض هذا الفن ضمن الفنون النثرية في قراءة للمضمون، تعكس بيئة الأندلس الخالصة في شخصية الكتاب زمن عهد الخلافة، وعلى الأخص في عهد الفتنة البربرية، وهو الزمن الأقرب لكتابة هذه القصة.

(١) انظر حول ابن حزم وما عانته أسرته في عهد الفتنة البربرية في ياقوت الحموي، معجم الأديباء، ج١٢، ص ٢٣٧. - القاضي صاعد الأندلسي، طبقات الأمم ص ٧٦.

(٢) انظر حول ذلك في ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج٧، ص ٣٣٣ - ٣٣٤.

(٣) انظر ريدان، سليم (١٩٩٧)، في التعامل مع التوايح والزوايح لابن شهيد. مجلة دراسات أندلسية (١٨):

٥ - ٢٦. - بكّار، توفيق (١٩٩٥)، جدلية المماثلة والمقابلة في رسالة التوايح والزوايح. مجلة دراسات

أندلسية (١٣): ٥ - ١٩. - عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٣٠٣ - ٣١١.

- بلا، شارل، ابن شهيد الأندلسي: حياته وأثاره، جمعية عمال المطابع الوطنية، عمان، ١٩٦٥. ص ١٩٦.

وأول ما يُطالِعنا في هذه القصة هو عدّها من باب الرسائل والبَدء بقصة السائل^(١). والرأي في هذه المسألة لا يخرج عمّا ضمّن سابقاً في عدّ رسالة تفضيل الأندلس مقالة لا رسالة، وعدّ رسالة التوابع قصة هزلية، ويبدو أنّ استفزاز قريحة الكاتب بقصة السائل هي من سمات البَدء في بعض فنون ذلك العهد، وإذا ما أردنا أن نقف عند مفتاح البداية، فيكون في عدّ تلك القصة قصة هزلية، وهل شكّلت تلك القصة هزلاً بالمفهوم اللغوي للفظه هزل^(٢)؟ ذلك أنّ الهزل لغة عكس الجدّ، وأرى أنّ الهزل هنا قد يكون أتى بمعنيين: الأول أنّ يكون قريباً من المعنى اللغوي ذلك أنّ ابن شهيد استعان بشخصيّة التابع^(٣) لبناء قصته، وهو بهذا البناء الفني قد خرج عن الجديّة المعتادة في تحميل شخص حقيقي دور البطل في القصة، أمّا الوجهة الثانية لمعنى الهزل فقد تكون بمعنى الخيال، وقد يؤيّد الوجهة الأخيرة أنّنا لا نلمس هزلاً بالمفهوم اللغوي داخل ثنايا القصة، بل على العكس من ذلك سيطرت شخصية ابن شهيد الرصينة إلى حدّ ما على شخصية البطل، وقد يغدّي التصرّ الثاني لمفهوم الهزل شيوع هذا المعنى في علم الأدب، فأضحينا نسمع بالرسالة الهزليّة لابن زيدون^(٤) مثلاً. ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن ننفي المعنى الأول للهزل نفيّاً تامّاً؛ لما نطالعه في تصدير ابن بسّام لهذه القصة، فقد عنوانها "بفصول من رسالة سماها التوابع والزوابع، وإن صدرت عنه مصدر هزل فتشتمل على بدائع وروائع"^(٥)، ويبدو أنّ الاستئناف الذي جاء في عبارة "وإن صدرت ... هزل" يجعل المعنى اللغوي هو المقصود، ويعزّز هذا التصرّ أنّه أتبعها بعبارة "فتشتمل على بدائع وروائع" وكأنّه أراد القول بأنّه مع هزليتها، وعدم جدّيتها، فقد احتوت على لطائف بديعة، ولا أظنّه أراد معنى الخيال إذ لا تعارض ولا غرابة بأن يكون موضوع ما خيالياً غير واقعي، ويحوي غريباً فكرة ونادرة لغة، بل على العكس هذا هو المتوقع منه. وعلى كلّ يبدو أنّ القطع بمعنى هزليّ هنا غير محسوم تماماً، وقد يحوي المعنيين معاً: الخيالي وعدم الجديّة على النحو الذي بيّنا فيه المعنى المقصود آنفاً.

(١) انظر حول قصة أبي بكر بن حزم وما سأله لابن شهيد حول تفتح قريحته في ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٤٦.

(٢) الهزل: نقيض الجد. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة هزل).

(٣) التابع: هو جنّي يحبّ الإنسان ويتبعه حيث ذهب. انظر المصدر نفسه (مادة تبع).

(٤) الرسالة الهزليّة: رسالة كتبها ابن زيدون على لسان ولادة بنت المستكفي عشيقه ابن زيدون، وقد بناها على

السخرية من الوزير ابن عبدوس منافس ابن زيدون وغريمه في عشق ولادة. انظر دراسة حول هذه الرسالة

في عيسى، الرسالة الأدبية ص ٦١ - ٨٥.

(٥) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٤٥.

- قراءة في المضمون "جدلية الواقع والخيال"

تنتال أسئلة عدة في مضمون التوابع والزوابع جعل تناولها من قبل الدارسين المُحدثين يتعدّد في روافده وزواياه، فمنهم من درس الروافد^(١) وحاول الدفاع عن تفرّد أندلسيّ سبق المشاركة، ومنهم من درس المماثلة والمقابلة^(٢) مُحاولاً توظيف الفكر البنيوي للتوصّل إلى القصد المراد في منطق الخبر وكيفية روايته. أمّا شارل بلا - وهو من الدارسين الغربيين الذين بادروا بدراسة ابن شهيد - فقد وقف عند فصول المضمون منوّهاً بمشكلة زمن كتابة التوابع والزوابع مُغلباً أنّها قد كُتبت قبل رسالة الغفران، وأنّه والمعريّ قد تواردا الخواطر. وأرى هنا أنّ بقاء الدرس عند حدود السرقة الأدبية والأصالة والابتكار في فنّ معين قد يعطلّ أحياناً الدرس النقدي عن فائدته المرجوة في دراسة النص الأدبي نفسه، ولكن لا بأس إن تمّت المقابلة من باب استخلاص السمات، والتناسل والتأثر المشرقيّ أو المغربيّ، وليس من باب تعطيل تميّز النص الأدبي بدعوى السرقة. وبعيداً عن هذه المعركة النقدية فإنّ القارئ لكلّ من التوابع والزوابع ورسالة الغفران يلمس خيطاً مشتركاً كان في الرحلة الخياليّة مع فارق القصد وآلية السرد. أمّا هذه المحاولة في قراءة المضمون، فتتعدى تلك الموازنات إلى قراءة في النصّ ذاته تكشف عن هوية القصة الهزليّة في النموذج المقترح (التوابع والزوابع).

التوابع والزوابع قصة خياليّة معروفة قام بها تابع ابن شهيد زهير بن نمير إلى عالم الجن، وعلى الأخص توابع وزوابع أشهر الشعراء والخطباء، وكانت تلك الرحلة ميداناً خصباً لإظهار براعة ابن شهيد الشعريّة وقريحته النثريّة؛ إذ أجازته كبار شعراء العرب وخطبائهم، أمّا داخل القصة نفسها فيمكن قراءة المضمون بالولوج إلى بعض الرؤى التي تُستشف من داخل النصّ وأبرزها:

أ- الاتجاهات النقدية

إذا كان "نورثرب فراي" في كتابه تشريح النقد^(٣) قد وقف عند مناقشة هل النقد علم أم فن، فمن المنصف أن نعلم بأنّ هذا النقاش ما خلا من مُدوناتنا النقديّة القديمة، وقد يستهجن القارئ بحث هذا الأمر في غمرة الحديث عن قصة ابن شهيد الهزليّة، لكنّ هذا الاستهجان يزول سريعاً إذا ما استعرضنا بعض ما كان لابن شهيد من اتجاهات نقدية مُضمّنة داخل تلك

(١) انظر ريدان، في التعامل مع التوابع والزوابع وتعدّد روافدها ص ٥ - ٢٧.

(٢) انظر بكار، جدلية المماثلة والمقابلة في رسالة التوابع والزوابع ص ٥ - ١٩.

(٣) انظر فراي، نورثرب، تشريح النقد (ترجمة محمد عصفور)، منشورات الجامعة الأردنية، عمان، ١٩٩١.

القصة ليضيفَ بذلك حلقة مهمة في حلقات تاريخ النقد العربي، ومن ثمّ العالمي، وإذا ما تركنا عالم التنظير إلى التطبيق، فأول ما يطالعنا من اتجاه نقدي عند ابن شهيد هو تدخلُ الحسّ الداخلي للناقد في الحُكم، إضافةً إلى تأثر الناقد بحُكم أهل عصره على فنّ معين، ممّا يجعل حديّة العلم تَقَلُّ عن الفن في النقد، ونقرأ ذلك في بداية القصة حين أطلّ زهير بن نمير وحمل ابن شهيد إلى عالم الجن وبادره بالسؤال: "حللت أرض الجن فبمن تريد أن تبدأ؟" (١) فأجابه ابن شهيد: "الخطباء أولى بالتقديم لكنني إلى الشعر أتوق" (٢). وهو بهذه الإجابة قد قدّم حُكمًا نقدياً إذ أعلى من مرتبة الخطابة، ولم يخرج عن الحُكم النقدي في الذوق العربي الذي يُعلي من شأن الخطابة، ربّما لسرعة التأثير والاستجابة، ولعدم التقيد بالوزن وبالقفافية في طرح الفكرة (٣). إلا أنّ هذا الحُكم النقدي الذي يُستشف من التقديم، لم يمنع من ظهور النزعة الذاتية حين ذكّر بأنّه يتوق إلى الشعر أكثر.

وتبدأ بعد ذلك الآراء النقدية بالظهور بطريقة أكثر وضوحاً؛ فحين دَخَلَ ميدان الشعر لمسنًا حُرمة من الاتجاهات النقدية؛ منها أنّ ابن شهيد قد أعلى من مرتبة الخمریات وعدّه غرضاً شعرياً يلامس المشاعر، فبعد أن وصل إلى (دير حنة) واستنشد تابع أبي نواس الشعر علّق بعبارة: "فكذتُ والله أخرج من جلدي طرباً" (٤) وهذا الحُكم في إعلاء مرتبة شعر الخمر عند أبي نواس وإن بدا ذاتياً ذوقياً، إلا أنّه يحمل حُكمًا فنيًا بعلوّ مرتبة الشعر الذي استمع إليه، ولا ننسى أنّ هذا الحكم لا بُدّ أنّه متأثر بقائله من جهتين: فابن شهيد هو ابن البيئة الأندلسية التي رام خليفتهم قطع شجر الكرمة حتى يخفف الخمر فأعيتته الحيلة في ذلك (٥)، ومن الجهة المقابلة فابن شهيد نفسه ممّن أُولع بالخمر، وله من الشعر في ذلك العديد (٦)، فيكون بذلك الرأي النقدي قد انتصر مرة أخرى لنزعة الذاتية، وغلب مقولة أنّ النقد فنّ لا علم، ويعضد الرأي السابق إعلاء آخر لغرض الرثاء في الشعر، وقد يقف الدارس عند هذا الأمر بغرابة أتت من تصميم ابن شهيد على الإتيان بقصيدة رثاء (٧) بعد شعره في الخمر، وقد تتبادر الغرابة للذهن في الجمع بين الخمر الذي هو فنّ المُتعة الدنيوية والرثاء وهو غرض متعلّق بالموت، لكنّ تلك الغرابة قد تبدأ بالتقلّص إذا ما مازجنا بين الغرضين بنظرة مُختلفة، فلماذا لا يكون الرثاء هو غرض الحزن

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٤٨.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٤٨.

(٣) راجع ما ذُكر عن تميّز الخطابة في النثر ص ١٠٤ .

(٤) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦١.

(٥) انظر حول ذلك في ابن الأبار، الحلة السيرة، ج ١، ص ٢٠٣.

(٦) انظر حول شعره وبعض قصصه في الخمر في ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦١ - ٢٦٢.

(٧) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٦٣.

على فقدان مُتعة الحياة التي يراها ابن شهيد في الخمر، فيغدو غرض الرثاء ليس بعيداً عن غرض الخمر، وقد تزداد الحاجة إلى تفسير ما يقصده ابن شهيد في إعلاء شأن غرض الرثاء وإبرازه حتى فيما يبدو في غير موضعه، فالمتابع لحوار ابن شهيد وأبي نواس يلمس إصرار أبي نواس على استفزاز قريحة ابن شهيد في الرثاء بأكثر من مقطوعة^(١). ونستمر مع إشارات ابن شهيد النقدية ونلج بوابة الحداثة، ولا غرابة في ذلك؛ فالزمن يعود إلى بداية القرن الخامس الهجري، وإبداء الرأي النقدي في الحداثة كان من موضوعات الساعة آنذاك؛ فهل أبدى ابن شهيد وجهة نظره في هذه القضية صراحة؟

لعلّ تشكيل صورة واضحة حول ذلك ليس سهلاً، إلا أنّ تحليل بعض الإشارات والنظرات النقدية قد يُسعفنا؛ ومن ذلك ما جرى من حوار مع تابع أبي تمام، وغني عن الذكر ما يمثله أبو تمام في ثورة التجديد فيما عُرفت بثورة الحداثة. وأول ما يلفت الانتباه في ذاك الحوار واللقاء تلك الطريقة الساخرة التي عرّضَ فيها عتّاب بن حبياء تابع أبي تمام رأيه في الشعر، فحين سأله تابع ابن شهيد عما أسكنه قعر عين الماء أجاب: "حيائي من التحسن باسم الشعر، وأنا لا أحسنه"^(٢)، وواضح من الإجابة السابقة ما أراده ابن شهيد من معارضة الناس لمنهج الحداثة في الشعر، وجليّ أيضاً أنّ ابن شهيد لم يشأ أبداً الإقلال من شأن شعر أبي تمام المُحدَث، وينجلي الرأي النقدي بطريقة أشدّ بياناً حين يُعقّب على الإجابة السابقة بـ "فصحتُ: ويَلِي منه كلام مُحدَث وربّ الكعبة، واستنشدني فلم أنشده إجلالاً"^(٣).

والملاحظ أنّ ابن شهيد بهذه الإجابة قد حسّم الأمر في التجديد والحداثة إلى حدّ ما، فإضافة إلى استغرابه واندھاشه الكبيرين ممّا سمع تأتي لفظة "الإجلال" تؤكد ما يمثله شعر أبي تمام من علو مرتبة، إلا أنّ انتصار ابن شهيد لقضية الحداثة - فيما يلمس من الحوار السابق ومن لقائه أيضاً بأبي نواس - لا يعني أنّ ابن شهيد قد ثار على القديم أو رفضه، وإنما كان ينظر بعين الرضا والإنصاف إلى قضية القديم والحديث. ولنا أنّ نستجلي ذلك من مواقف عدّة أبرزها:

- كانت بداية الرحلة في طرّق أبواب امرئ القيس وطرّفة، ونعت الأول بالسيد والأخير بالزعيم^(٤) اعترافاً نقدياً صريحاً بتفوقهما، وهما من الأقدمين، أمّا السؤال لم غصّ ابن شهيد الطرف عن بقية شعراء المعلّقات، وهل كان الانتقاء في حدّ ذاته حكماً نقدياً على إجادة هذين الشعارين عمّن سواهم - فهو سؤال مشروع يبحث عن إجابة.

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦٣.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٥٣.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٥٣.

(٤) انظر المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٤٩ - ٢٥٠.

- جاء اللقاء بين صاحبي عبد الحميد والجاحظ مدعاة لبسط القول في قضيتين: الأولى تتعلّق بنظرة ابن شهيد للسجع، والثانية في رأي ابن شهيد بالكتاب الأندلسيين؛ فقد عقّب صاحب عبد الحميد على كلام ابن شهيد النثري الخطابي قائلاً: "إنك لخطيب وحائك للكلام مجيد، لولا أنك مُعزى بالسجع، فكلامك نظم لا نثر"^(١). والناظر في الحكم السابق يستشف أنّ السجع إذا ما أصبح مدراراً كان نقطة خلاف بين القديم والحديث آنذاك، إلا أنّ ابن شهيد قد استثمر القضية الخلافية لإظهار البراعة والتفوق الشخصي من جهة، وإطلاق حكم عام على أهل زمانه من الكتاب من جهة أخرى. لقد فصل ابن شهيد في قضية السجع، وبيّن موقفه منه فنيّة أسلوبية عُرفت في زمانه، وكان ردّه يحمل هجوماً على فرسان الكلام في بلده، ومن ذلك: "ليس هذا أعزك الله مني جهلاً بأمر السجع، وما في المماثلة والمقابلة من فضل، وبالحرّي أن أحركهم بالازدواج، ولو فرشتُ للكلام فيهم طولاً"^(٢)، وتحركت فيهم حركة مُشولم^(٣) لكان أرفع لي عندهم، وأولج في نفوسهم، فقال أهدأ على تلك المناظر، وكبر تلك المحابر، وكمال تلك الطيالس^(٤)! قلت: نعم، إنها لحاء الشجر، وليس ثمّ ثمر ولا عبق. قال لي: صدقت، إنني أراك قد ماتلت معي، قلت: كما سمعت، قال: فكيف كلامهم بينهم، قلت: ليس لسببويه فيه عمل، ولا للفرايدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنّما لكنة^(٥) أعجمية يؤدّون بها المعاني تأديّة المجوس والنبط، فصاح إنّ الله..... ذهب العرب وكلامها، ارْمهم يا هذا بسجع الكهان، فعسى أن ينفك عندهم، ويطيّر لك ذكراً فيهم، وما أراك مع ذلك إلا ثقيل الوطأة عليهم."^(٦)

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦٩.

(٢) الطولق: لم أعر لهذه المفردة على معنى - فيما استطعت البحث عنه - إلا أنّ سالم البديري (أحد محققي الذخيرة) رجّح أنها قد تكون بمعنى المطول. أما بطرس البستاني (محقق رسالة الزوابع والتوابع) فقد رجّح أنّ تكون بمعنى نبات معيّن من الأزاهير. ولم يُشر المحققان إلى مصادرهما في ذلك. انظر - ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن أبي مروان (ت ٤٢٦هـ)، رسالة التوابع والزوابع (تحقيق بطرس البستاني)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧. ص ١٠٥ - ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتري (ت ٥٤٣هـ)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (تحقيق سالم البديري)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨. ج ١، ص ١٦٥.

(٣) مُشولم: لم أعر لهذه المفردة على معنى، وقد رجّح بطرس البستاني أنّ تكون بمعنى مُعَد مثل كلمة مشولين. انظر ابن شهيد، رسالة التوابع والزوابع ص ١٠٥.

(٤) الطيالس: جمع طيلس وطيلسان، وهو ضرب من الأكيسة، ولفظة فارسية معرّبة. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة طلس).

(٥) لكنة: بفتح اللام وضمها وتعني عجمة وعي في اللسان. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة لکن).

(٦) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

يتبين لنا ممّا سبق أنّ ابن شهيد يميل للسجع لا رغبة فيه، وإنّما رغبة بمجاراة ذوق عصره، وهذه نقطة نقدية مهمة؛ فلقد أراد ابن شهيد أن يُبرز تفوقه، لكنّه في الوقت نفسه أبدى وجهة نظر مغايرة في السجع، وقد تكون هذه النقطة على ابن شهيد لا معه، فعلى الأديب أن يتفوق في أسلوبه لقناعته به، وليس لقناعة ذوق العصر فحسب. ومع ذلك فلا ننسى أن هذه القضية لم تزل قضية خلافية في تاريخ النقد تُبحث أحياناً تحت مظلة أحد المنهجين: البنيوي الذي يرفض العامل الخارجي في التحليل للنص الأدبي، والتاريخي الذي يستعين بأدوات عصر الكاتب في محاكمة نصّه. وعلى كلٍّ فقد نستنتج أنّ ابن شهيد أحسّ باتّساع القضية النقدية التي طرحها في حوار الجاحظ وابن الحميد، فكان لزاماً عليه أن يأتي بشيء من نثره يُؤكّد أنّه غير مغرّى بالسجع الذي يقود إلى التعمية أحياناً، وأنّ قصر الجملة والمماثلة وحسن الصورة هي أدواته في النثر، فقدّم فصولاً من رسالته في الحلواء،^(١) وأشار إلى رسالته في وصف النار والبرد^(٢)، وهو في هذه النماذج إنّما بيّن تفوقه على نظرائه في زمانه، وعلى من كان يعيب عليه أدبه، ولا يخفى على دارس النص السابق الحدّة الواضحة والهجوم اللاذع على أبناء الأندلس الذين استهزأ ابن شهيد بلغتهم، فما هي إلا لُكنة أعجمية - كما وصفها - فهل للدارس أن يرى في ذلك حكماً مطلقاً على لغة الأندلس في ذلك الزمن؟

- لعلّ السؤال الأخير الذي أفضى إليه الموقف السابق يصلح لتقديم نموذج آخر على الدرس النقدي الذي قدّمه ابن شهيد، فهل أراد ابن شهيد أن يُقرّم المستوى اللغوي والأدبي لأهل الأندلس، وبخاصة أنّه قد اختط لنفسه مجاراة جهابذة الشعر والكتابة في المشرق، وقد يُصاغ السؤال بطريقة أخرى فنقول: هل كان النموذج المشرقي الأعلى هو طموح ابن شهيد؟ وكأنّه أراد أن يقول إنني أندلسي المولد مَشْرَقِيّ الأدب. وتبدو لهذه الأسئلة مشروعيتها إذا ما علمنا ما يشكّله النموذج المشرقي من تمثال خالد لأهل الأندلس، ممّا تردّد صداه كثيراً في الدراسات الحديثة^(٣). ويمكن إضافة قراءة تحييد شياطين الشعراء والناثرين الأندلسيين إلى ما سبق، وكأنّ ابن شهيد لا يرى في النموذج الأندلسي - باستثناء نفسه - ما يصل إلى النموذج الأدبي المشرقي، ومن هنا كان مع تشوّقه الكبير للافتخار بأدبه، حريصاً بشدة على أن يأخذ إجازة كبار الشعراء والناثرين المشاركة. ويبدو أنّ التميّز المشرقيّ في نمطية الكتابة وفنيّتها قد شغل لب قصة التوابع والزوابع، وقد جاءت تلك الشهادة التي كان يتمناها ابن شهيد في أدبه صراحة في

(١) انظر ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٧٠.

(٢) انظر المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٧٠.

(٣) انظر حول ذلك آراء "بيير كاكيا" في مقالته "الأدب الأندلسي" في الجبوسي، الحضارة العربية الإسلامية،

عبارة شيطان أبي نواس، الذي أعجب بشعر ابن شهيد فبادره بالقول: "الله أنت، وإن كان طبعك مخترعاً منك" (١).

ب- قراءة في جدران القصة " التشويق ، تنامي الحدث ، الدلالات "

تألفت القصة داخل ثنايا أغراض النثر الفني إن استطاعت أن تشكل عناصر بنائها بوضوح، ولم يكن الاتكاء على نموذج التوابع والزوابع إلا محاولةً للقطع بأن تلك الفنية هي فنية قصة لا مجرد رسالة أدبية باتساع معناها كمصنّف أدبي غير واضح المعالم في انتسابه إلى فنّ أدبي بعينه، وحتى تتوضّح قراءة الفنية - ولا يقصد هنا الأسلوب بقدر ما يقصد إلى الفنية الخاصة بحسّم هذا العمل الفني داخل إطار القصة الهزلية على أنه نوع أدبي - ستكون هذه المحاولة مُستعينة بالتشويق وتوضيح الدلالات وبيان رمزيّتها، مروراً بتنامي الحدث وآلية ذلك.

أولاً: التشويق

لعلّ بعض الدارسين يرى في عنصر التشويق سمة فنية قد تبتعد عن دراسة المضمون، لكنني أعتقد أنّ التشويق كان عنصراً فاعلاً لتحقيق فنية القصة الهزلية عند ابن شهيد، بمعنى أنه كان أداة فاعلة لحبك جدران القصة ممّا أدخلها في نصابها الصحيح من فنون النثر الفني، أمّا أولى إطلاقات التشويق فكانت في الفكرة نفسها، أي في المضمون الذي ابتدعه ابن شهيد، فالقارئ يتشوّق إلى دخول عالم الجنّ والخيال، أمّا إذا تركنا فكرة القصة وكنا مع التوابع والزوابع داخل عالمهم الخاص، فإننا نلمح التشويق في العديد من المواقف، ومن ذلك:

- جاء عارض الصدفة والإقحام صفة قوية للعامل الزمني، ففيما يتخيل القارئ بأن الترتيب الزمني يسيطر على أجواء القصة حين كان زهير بن نمير وابن شهيد يقصدان أبا تمام، ظهر فجأة دون طلب مسبق تابع قيس بن الخطيم (٢)، فنقرأ مع ابن شهيد ما نصّه: " فقال لي زهير: إلى من تتوق نفسك بعد من الجاهليين، قلت: كفاني ما رأيت، اصرف وجه قصدنا إلى صاحب أبي تمام، فركضنا ذات اليمين حيناً، ويشتدّ في أثرنا فارس كأنه الأسد، على فرس كأنها العقاب وهو في عدوه يُنشد:

طعنت ابن عبد القيس طعنة ثائر لها نفذ لولا الشعاع أضاعها

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦٢.

(٢) قيس بن الخطيم: أبو يزيد شاعر الأوس في الجاهلية، له في وقعة بُعثت التي كانت بين الأوس والخزرج أشعار كثيرة مشهورة. انظر ترجمته في الزركلي، خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٥.

فاستربتُ منه فقال لي زهير: لا عليك، هذا أبو الخطار صاحب قيس بن الخطيم.^(١) وحتى يؤكد كاتبنا ما أراده من فنيّة التلاعب بالزمن في صياغة الحدث أشار إلى أنّ ذلك المرور بابن الخطيم محض صدفة، وأنّ تأكيد عامل الصدفة الزمنيّة إنّما كان القصد منه تثبيت معنى الحدث المنشود، ألا وهو المرور بابن الخطيم، وتعزيز إعجاب ابن شهيد به وعده من المتميزين، فلا غرابة بعد ذلك أنّ نقرأ في التوابع ما نصّه: " واستبى لبي من إنشاده البيت ، وازددتُ خوفاً لجرأته، وأنا لم نعرّج عليه، فصرف إليه زهير وجه الأدهم، وقال: حيّاك الله أبا الخطار، فقال: وهكذا يُحاد عن أبي الخطار ولا يُخطَر عليه."^(٢)

- جاء عامل المفاجأة قوياً حين رسم ابن شهيد صورة غريبة لتابع البحترى، فمع أنّ المعلوم عن البحترى سلاسته وغلبة الطبع على شعره، إلا أنّ ابن شهيد قد صور البحترى بمنظورين يُصاب متأملهما بالدهشة والاستغراب؛ ففي حين أعطى لقب أبي الطبع على شخصية تابع البحترى، جعل هذه الشخصية - حين بدأ معها الحوار - مُحندة الطبع غريبة الأطوار، وكأنّ لحظة الاندهاش التي تتولّد عند المتلقّي تجعله على صلة مُحكّمة مع الشخصية المقصودة، فنقرأ عند ابن شهيد في لقائه بتابع البحترى ما نصّه: " فركضنا ساعةً، وجزنا في ركضنا بقصر عظيم، فُدّامه ناورد^(٣) يتطارد فيه فرسان، فقلتُ: لمن هذا القصر يا زهير؟ قال: لطوق بن مالك، وأبو الطبع صاحب البحترى في ذلك الناورد، فهل لك أنّ تراه؟ فقلتُ: ألف هَل، إنّه لمن أساتيدي وقد كنتُ أنسيته، فصاح: يا أبا الطبع، فخرج إلينا فتىً على فرس أشعل، وبیده قنّاة، فقال له زهير: إنك مؤتمن، فقال: لا، صاحبك أشمخ ما دنا من ذلك لولا أنّه ينقصه، قلتُ أبا الطبع على رسلك إنّ الرجال لا تكال بالقُفزان^(٤)." ^(٥) وغنيّ عن الذكر أنّ تابع الشاعر إنّما يشير إلى شخصيّة الشاعر نفسه، لكن ابن شهيد آثر المغالاة هنا في رسم صورة البطل من باب إدخال الحسّ الذاتي في تصوير شخصية البطل، فالقصة لا تقوم على تسجيل لوقائع معروفة محدّدة قبلاً، وإلا اقتربت من حكاية متبدّلة، وقد يكون ابن شهيد لا يريد الإجازة إلا من الشعراء الأشاوسه، ولذا ألفيناه يعكس هذا الإعجاب بشعر هؤلاء على شخصيّات توابعهم الذين يفجّرون قرائحهم.

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٥٢.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٥٢.

(٣) نورد: لفظة فارسية الأصل، ومعناها الميدان أو الملعب للخيل والبهلوان. انظر معجم دوزي نقل عن ابن شهيد، رسالة التوابع (تحقيق البستاني) ص ١٠٥.

(٤) القُفزان: مفردهما قفّيز، وهو مكيال معروف عند أهل العراق بثمانية مكايك. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة قفز).

(٥) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٥٧.

ثانياً: تنامي الحدث

قد يرى بعض الدارسين أنّ قصة التوابع والزوابع ما هي إلا حكاية مكشوفة البداية والنهاية، وأنها مجرد طلب لإجازة ابن شهيد وإظهار براعته، وقد يكون هذا الحكم مجحفاً يحتاج إلى تروٍّ وتزوّد بمنظار نقدي دقيق، ويأتي الدفاع ههنا من دخول عالم النص من زاوية الحدث وتناميّه، فالقصة تزداد فنيّتها، بل وتحقق أركانها إذا استطاعت أحداثها أن تتنامى بشبكة عنقودية من الأحداث، وداخل عالم نص التوابع والزوابع فإنّ تلك الشبكة تتعاضد في أحداث منها:

- قدّمت القصة في صفحاتها الأولى عرضاً للمكان والزمان في عالم الجن والتوابع، وكان كاتبنا حريصاً على دقّة الوصف التي جعلت شخصيات أبطاله تدور في المكان والزمان راسمةً أبعاد الشخصية ودلالاتها، ودعنا نتخذ من المرور بأبي نواس مثلاً على ذلك يُمثّل للقارىء فنيّة رسم الإطار المكاني والزمني في عالم الدراما وإضافة البعد الثالث، إذ نقرأ ما نصّه: " حتى انتهينا إلى أصل جبل دير حنة، فشقّ سمعي قرعُ النواقيس، فصحتُ من؟ منازل أبي نواس وربّ الكعبة..."^(١)

وإذا ما حللنا المشهد السابق فإننا نجد أنّ المكان قد أخذ خصوصية من تداخل عنصري الحركة والسّمع، وهي أدوات فنيّة جعلت أديبنا يمهد لمشهد تالٍ أكثر دقّة، وقد يُعترض على ما سبق بأنّه لا غرابة في أن يصل ابن شهيد إلى مكان يُسمح فيه بالخمير مثل الدير، وأنّ تأكيد سمع النواقيس ما كان إلا من باب تأكيد وصوله لذلك الدير، ونأخذ الإجابة على ما سبق من ابن شهيد نفسه الذي علا بفنيّة التوسّع في رسم الإطار الوصفي للشخصية، ومن ذلك: " وأقبلتُ نحونا الرهابين مشدّدة الزنانير، قد قبضتُ على العكاكيز، بيضَ الحواجب واللّحي، إذا نظروا إلى المرء استحيا، مكثرين للتسييح، عليهم هديّ المسيح، فقالوا: أهلاً بك يا زهير من زائر، وبصاحبك أبي عامر."^(٢)

لقد اهتّم المشهد السابق بدقّة تفاصيل الهيئة والصورة، وكان القصد منها إظهار الروحانية العالية والهيبة الدينية لرهبان الدير، وهذا عنصر بنائيّ انتقي بعناية في النص، ليتمّ بعد ذلك لقاء أبي نواس في حالة مغايرة تماماً لما سبق، فتتولّد بذلك لحظة الاندهاش الدراميّة في متابعة القصة ومجرياتها، فلم يكن قصد ابن شهيد على ذلك مجرد وصف مكان للخمر، وإنما هو في بناء حدثيّ متنامٍ يقود الاختلاف فيه إلى ائتلاف نصّيّ عام، فلا غرابة بعد ذلك من الاعتناء

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م/١ ق/١، ص ٢٥٩.

(٢) المصدر نفسه، م/١ ق/١، ص ٢٥٩.

بدقة وصف صورة أبي نواس حين وصله، إذ ينقل لنا ابن شهيد ما نصّه: " ونزلنا وجاؤوا بنا إلى بيت قد اصطف دنانه، وعكفت غزلانه، وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة، قد افترش أضغاث زهر، واتكأ على زق خمر، وبيده طرجهارة^(١)، وحواليه صبية كأظب تعطو إلى عرارة^(٢)"^(٣). إن الاهتمام برسّم ملامح ما يدور في فلك الشخصية من مكان وشخصيات ثانوية عمق الحدث باتجاه العقدة التي تصل إلى إمكانية أن يُجاز ابن شهيد من هؤلاء الأدباء، ليبقى السؤال حائراً هل كانت فنيّة ابن شهيد في لغته، أم في براعة الوصف أم في الفكرة، ولعلّ القطع بأحدها يعطل فنيّة نقد القصة بموضوعيّة.

- يستطيع الدارس أن يلمح تنوعاً في عرض المضمون قاد إلى تنام في الحدث، فابن شهيد قد مرّ بالشعراء واحداً تلو الآخر بانتقاء خاص، لكنّه حين قصد إجازة الخطباء وصلّمهم مجتمعين، وقد نستطيع قراءة هذا التنوع من منظورين: الأول يتعلّق بفنيّة عرض المضمون الذي لا يسير في خط شعاعي، وإنما ضمن منحنيات تبقي المتلقي يقظاً متابعاً، والثاني يتعلّق بما وراء الحدث نفسه، فالخطابة فنّ يستدعي التجمهر، وقد يكون ابن شهيد قد عنى ذلك لبيان قوة حُجته في الخطابة بإجازة جماعية من مشاهير الخطباء، وعطفاً على بداية القصة فقد يكون لذلك ما يسوّغه فكاتبنا قد أعلى من مرتبة الخطباء^(٤)؛ ولذا تكون إجازتهم له مجتمعين منسجمة مع بداية الحدث، ولا سيما أن ابن شهيد قد تفنّن في جمّعهم فجعل ذلك لقصّد خاص يتعلّق بالقضاء في تخاصم بين كلام الجن، فنقرأ في القصة ما نصّه: " قال لي زهير من تريد بعده؟ فقلت: ملّ بي إلى الخطباء، فقد قضيت وطراً من الشعراء، فركضنا حيناً طاعنين في مطلع الشمس، ولقينا فارساً أسراً إلى زهير، وانزع عنا، فقال لي زهير: جمعت لك خطباء الجن بمرج دهمان، وبيننا وبينهم فرسخان، فقد كُفيت العناء إليهم على انفرادهم، قلت: لمّ ذاك؟ قال: للفرق بين كلامين اختلف فيه فتیان الجن"^(٥).

ولا يقوى الدارس أن يمرّ بالعبارة الأخيرة دون أن يطرق غرائبيّة النص^(٦)، فمع أن الرسالة تقوم على فكرة الجن منذ البداية، إلا أنّ تلك الفكرة لا تبدو غريبة عن الموروث

(١) طرجهارة: شبه كأس يشرب به. ذكره ابن منظور في اللسان وهو يعرض لمادة (سمل).

(٢) عرارة: نبت طيب الرائحة، قيل هو النرجس البري. انظر المصدر نفسه (مادة عر).

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٥٩.

(٤) انظر المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٤٨.

(٥) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٦٧.

(٦) انظر حول مصطلح "الغرائبية والعجائبية" في شعلان، سناء، السرد الغرائبيّ والعجائبيّ في الرواية والقصة القصيرة في الأردن، عمان، وزارة الثقافة، ٢٠٠٤. ص ١٧ - ٣٨.

العربي، الذي آمن بتوابع الشعراء والخطباء، ولكن الموقف الأخير الذي مررنا به في نص ابن شهيد اختلف من حيث الموروث والمعروف، إذ كان في الفرق بين كلام الجن أنفسهم، فما عاد الحديث عن علاقة الجنّي (التابع) بالأديب، وإنما غدا عالم الجن عالماً خاصاً من الأدب يُحاكم فيه الإنسي (مُمثلاً بتابعه كما رأينا في تابعي الجاحظ وعبد الحميد) الجنّي. وهذا معناه أن ابن شهيد قد اتكأ على الغرابة في البناء الحدّثي لقصته.

ثالثاً: الدلالات والفن الكاريكاتوري

لقد ساهمت الدلالة والإيحاء في رسم مشاهد بنايئة متكاملة للتوابع والزوابع مع الاعتراف باختلاف درجة الوضوح في تلك الدلالات والإيحاءات؛ ففي حين كانت الدلالة إلى تابع شاعر أو خطيب مُعيّن تُعطي تصوّراً قريباً إلى حدّ ما عن الشخصية المقصودة التي تجعل المتلقي ينتبأ بها ببسر - جاءت بعض الإيحاءات متشابكة الدلالة بحاجة إلى قراءة داخلية في خبايا العبارة أو الصورة حتى تتكشف؛ ومن النموذج الأول ما نقرأه حين مرّ زهير وابن شهيد في المتنبي وأبي نواس والجاحظ، ومن ذلك: " فأحسن الردّ ناظراً من مُقلة شوساء، قد ملئت تيهياً وعجباً." (١) فمن يقرأ العبارة السابقة ينتبأ بأن المقصود هو أبو الطيب، وهذا آت من العتوّ والاعتداد بالنفس، وأما حين نقرأ " وفي فرجته شيخ طويل الوجه والسبلة، قد افترش أضغاث زهر، واتكأ على زقّ خمر." (٢) فما أظن الخاطر يحيد عن أبي نواس.

وتستمر الدلالات الموحية حين نقرأ في حاضرة تجمّع الخطباء عبارة " والكلّ منهم ناظر إلى شيخ أصلع جاحظ العين " (٣) فلا اجتهاد في أنّ المقصود هو الجاحظ. وعلينا أن نعترف بأنّ تلك الإيحاءات على بساطتها أحياناً، وعدم عمقها كانت مفتاحاً جيداً في الكشف عن الشخصية المقصودة، فليس من صالح النص أن يتوه بالقارىء في الشخصية المقصودة المتوجّه إليها، لأنّ ذلك قد يعطلّ جزءاً من زمن القصة، ومن المعروف أنّ مثل هذا الفصل الزمني أحياناً قد يؤدي لقطع في تسلسل الحدّث الأصلي، وفي الجهة المقابلة فقد عمد ابن شهيد إلى الرمز غير المكشوف داخل النصّ، ولا نظنه أراد بذلك قطعاً زمنياً للأحداث، إنّما أعطى لنفسه قدرّاً من الحرية في التصرف بتلك الشخصية أو بذاك الحدث، ومن ذلك استعارة ألقاب الحيوانات للتعريض بمن عاداه، وهو هدف مقصودٌ للتقليل من شأنهم، والغضّ من قدرهم، ومنها استعارة شكل الزرافة والناقة المتورّمة الأنف لأعدائه الذين أكنّوا له الحسد، وقد يكون للوقوف مع دلالة

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦٥.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٥٩.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٦٧.

الناقة المتورمة الأنف التي صبغها ابن شهيد بأنف الناقة^(١) ما يفسر تلك الدلالة، فلقد قصد بها ابن شهيد أبا القاسم الإفليلي^(٢)، وتبدو معركة ابن شهيد في تلك الدلالة معركة اتجاهات ومذاهب.

وغريبُ تلك المعركة بين أديبنا ابن شهيد واللغوي النحوي أبي القاسم الإفليلي هو ما نقرأه داخل الرسالة، ففي حين يؤكد ابن شهيد أن لأبي القاسم منزلةً في نفسه بقوله: "وأما أبو القاسم الإفليلي فمكانه من نفسي مكين، وحبه بفؤادي دخیل، على أنه حامل علي ومنتسب إليّ"^(٣) فإنه يُصرّ على تسميته بأنف الناقة، إشارة إلى أنه يحشر نفسه فيما لا يعنيه، ولا تبقى تلك الدلالة مُبهمّة بل تصبح أكثر تفسيراً في الحوار الجريء الذي حاول كل منهما أن يظهر أدوات بيانه وقوة حجته، حتى إذا ما وصف الإفليلي نفسه بأنه صاحب البيان أجابه ابن شهيد بقوله: "إنما أنت كمغنّ وسط، لا يحسن فيطرب، ولا يُسيء فيلهي. قال: لقد علّمنيه المؤدبون، قلت: ليس هو من شأنهم، إنّما هو من تعليم الله تعالى، حيث قال: [الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ]"^(٤) [٥]. وابن شهيد قد وصل بذلك إلى مربط الفرس؛ فكان قصده الغض من قدر المؤدبين اللغويين والنحويين الذين كانوا يعمدون أحياناً إلى سقطّة شاعر أو أديب لتكون درسهم اليومي ولوكة لسانهم الدائبة، ولم يكتفِ ابن شهيد بهذا الموقف ليؤكد وصف المؤدبين بأنف الناقة، وإنّما عاد لهذا الحكم في نهاية قصته حين مرّ بجمع من حُمُر الجن وبغالهم، وقد اختلفوا حول قطعنين من الشعر الفكاهي، فبادر ابن شهيد بالقول: "والله إنّ للروث رائحة كريهة، وقد كان أنف الناقة أجدر أن يحكم في الشعر"^(٦). ولم تزل تلك العلاقة مع المؤدبين تورق ابن شهيد، فجاءت نهاية قصته أقرب إلى درسٍ كثيراً ما تاق ابن شهيد لقوله ألا وهو ضرورة سعة الاطلاع والمعارف والثقافة، وأنّ النحو واللغة وحدهما لا يخلقان أديباً، فيقول ابن شهيد: "يا أمّ خفيف، بالذي جعل غذاءك ماء، وحشاً رأسك هواء ألا أيّما أفضل الأدب أم العقل، قالت: بل العقل، قلت: فهل تعرفين في الخلائق أحق من إوزة... قالت: لا، قلت: فاطلبي

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م/١/ق ١، ص ٢٧٣.

(٢) أبو القاسم الإفليلي: إبراهيم بن الإفليلي، نقل صاحب المغرب عن ابن حيان أنه بذّ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان والضبط لغريب اللغة، له كتاب في شعر المتنبي، لحقته تهمة في دينه في أيام هشام فسجن في المطبق. انظر ترجمته في ابن بسّام، الذخيرة، م/١/ق ١، ص ٢٧٠، - ابن سعيد، المغرب، ج ١، ص ٣٧.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م/١/ق ١، ص ٢٧٣.

(٤) سورة الرحمن الآيات (١ - ٤).

(٥) انظر حول ذلك في ابن بسّام، الذخيرة، م/١/ق ١، ص ٢٧٤.

(٦) المصدر نفسه، م/١/ق ١، ص ٣٠١.

عقل التجربة، إذ لا سبيل لك إلى عقل الطبيعة، فإذا أحرزت منه وبُوت منه بحظّ، فحينئذ ناظري في الأدب." (١)

واستجماعاً لدلالات ابن شهيد يمكن التنبؤ أنّ لقاء ابن شهيد بالحمير والبغال والإوز، لم يأت من فراغ أو مجرد هزل، وإنما كان له دلالاته المعروفة عن تحمل الحمير للثقل الكبير وعن طيش الإوزة، وما كان ذلك إلا لرسائل أراها ابن شهيد فناً كاريكاتورياً يحمل سفارته في النقد والأدب واللغة، ونخص بالذكر نغمته على المؤدبين والنحويين. وهكذا تغدو إحياءات ابن شهيد معابر رمزية تصل بين الأحداث والمواقف بفنية عالية، ولعلّ هذا يؤكد أنّ قصة التوابع والزوابع تتعدى الهزل بمفهومه اللغوي الضيق، وأظنها تتعدى الخيال أيضاً، فليست سوى تعبير عن واقع فكري حملت شكل القصة الأدبية، ولا يتعارض ذلك مع الطرافة والغرابة في انتقاء ذاك الأسلوب في العرض، وقد يكون هذا ما جعل دراساً حديثاً يعدها بداية لفن المقامة^(٢)، وإن كنت أعارضه فيما ذهب إليه، فالمقامة فنٌّ لم يكن الخيال غايته ومقصده، ويبدو أنّ الخطأ قد أتى من النقد الموجّه وراء كل من المقامة والقصة الهزلية، ويبقى كل منهما فناً قائماً بذاته.

٦ - النثر الوصفي

لا يستطيع الدارس لأغراض النثر الفني في عهد الخلافة أن يغض النظر عن بعض الفصول النثرية القصيرة التي امتازت بأدبية عالية، وكان ما وصلنا منها لكبار الناثرين أمثال ابن بُرد الأصغر وابن شهيد، وقد ارتأيت أن أضمنها تحت باب النثر الوصفي لأنها ليست رسالة أو خطبة أو قصة، وإنما قطع نثرية امتازت بإظهار الحداقة في وصف شيء بعينه. وقبل الخوض في أمثلة تطبيقية دالة، يجدر التنويه إلى أنّ مثل هذا التوجّه في الوصف النثري يعكس غرضاً شاعراً وانتشر، حتى نجد أنّ كلاً من صاحب اليتيمة والذخيرة قد أفرد جزءاً من مصنفيهما لهذا الغرض. وهذا الفن متوزع بين غرضين؛ اختصّ بعضه بأمر مادي كوصف الحيوانات والقلم والمداد والنار والحطب، واختصّ الآخر بوصف أمر معنوي كالإخاء والاستئزارة.

تعددت نصوص وصف الحيوانات التي وصلتنا، ومنها في وصف الحشرات نصٌّ في صفة برغوث لابن شهيد يقول فيه: "أسود زنجي، وحشي ليس بوان ولا زميل، وكأنه جزء لا يتجزأ من ليل أو شونيزة"^(٣)، أو ثبتها غريزة، أو نقطة مداد أو سويداء قلب. شرُّه عبّ، ومشيّه

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٣٠٢.

(٢) انظر الجبوسي، الحضارة العربية، ج ١، ص ٤٦٧.

(٣) شونيزة: الحبة السوداء، وهي لفظة فارسية الأصل. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة شنز).

وثب، يكمن نهاره ويسير ليلته، يدارك بطعن مؤلم، ويستحل دم كل كافر ومسلم... يتكفن بأرفع الثياب، ويهتك كل حجاب، ولا يحفل ببواب، يرد مناهل العيش العذبة، ويصل إلى الأحراج الرطبة، ولا يمنع منه أمير، ولا ينفع فيه غيرة غيور، وهو أحقر حقير، شره مبنوث، وعهده منكوث. وكذلك كل برغوث، كفى بهذا نقصاناً للإنسان، ودلالة على قدرة الرحمن".^(١)

يَحر المرء في القطعة السابقة في أن يعدها مجرد وصف لمخلوق وضع في حجمه، مؤذ في أفعاله أضعاف هذا الحجم، أم يعدها خاطرة تخبيء فكرة وراها، فقراءة الخاتمة في القطعة السابقة يشي بأن الكشف عن سر الإعجاز كان وراء الوصف، ولا يبتعد هذا عما يعرف حديثاً بفن الخاطرة الذي يُعنى بنقل ما يتحرك داخل المرء لدى مشاهدة أمر مألوف. فيغدو النص السابق خاطرة انتابت ابن شهيد لدى رؤية ذاك البرغوث، فأراد العظة، ولكن على طريقة التفكير والتبنيه عند الأدباء. ويؤيد هذا الرأي قطعة أخرى في صفة بعوضة يذكرها ابن شهيد بقوله: "مالكة لا حس لها سواها، تحقرها عين من رآها، تمشي إليه بنديها وتضرب بحبوحه داره بطلبها، تؤذيه بإقبالها، وتعرفه بإراقة مالها، فتعجز كفه وترغم أنفه، وتضرج خده، وتفري لحمه وجلده، زجرتها تسليمها، ورُمحها خرطومها، تذلل صعبك إن كنت ذا قوة وعزم، وتسفك دمك وإن كنت ذا حلقة وعسكر... تعجز القوي وهي بعوضة ليرينا الله عجائب قدرته وضعفنا عن أضعف خليقته"^(٢). والدارس لما سبق يلحظ دقة الوصف في صورة المحارب القوي الذي يخوض غمار الحرب دون أدنى خوف فيصول ويجول، وتبدو نية الفعل والإرادة هي المسيطرة على أجواء الوصف النثري السابق، لتثبت حقيقة أهمية الفعل والحدث على الخليقة والأصل.

ويتوالى وصف الحيوانات عند ابن شهيد، والنموذج الآتي لثعلب استقر قريحه أديبنا فصاغ ما نصّه: "أدهى من عمرو، وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر، كثير الوقائع في المسلمين مغري بإقامة دم المؤمنين، إذا رأى الفرصة انتهزها، وإن طلبته الكماة أعجزها، وهو مع ذلك بقراط في إدامه، وجالينوس في اعتدال طعامه"^(٣).

يبدو أن تخير ابن شهيد للحيوانات التي وصفها لم يأت دون مدارسه وحكمة، فقد كان يبغى إظهار مصادر قوة الحيوان ليعتبر الإنسان بهذا ويتعظ، فلا يظن نفسه يملك الكون بقوته، وقد يعزز هذا الرأي ما مرّ في تحليل التوابع والزوابع والوقفه عند عالم الحيوان والجن، وتأكيد

(١) الثعالبي، بيتمة الدهر، ج ٢، ص ٥٤، وانظر النص أيضاً في ابن بسام، الذخيرة، م ١/ ق ١، ص ٢٧٥.

(٢) الثعالبي، البيتمة، ج ٢، ص ٥٤.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ٥٤.

ابن شهيد ضرورة التوسع في الثقافة، والدربة في كل شيء لتزداد قوة المرء أنى كان، وأيان طلب وسعى.

ولم يكتفِ ابن شهيد بوصف الحيوانات، بل وصف بعض الأمور المادية كالحطب والنار والبرد، فحين مرّ بجمع الخطباء في التوابع والزوابع أشار إليها بقوله: "وسألني أن أقرأ عليهما من رسائلي، فقرأت رسالتي في صفة البرد والنار والحطب فاستحسنها." (١) أمّا الطعام والشراب فكان له حظّه في قطع الوصف عند ابن شهيد، ويبدو أن أشهرها ما تعلق بوصف الحلواء، وهي قطعة طويلة نسبياً صاغ فيها كاتبنا وصفاً ظريفاً لصديق شره انقضّ على الحلواء وملاً معدته، ولا ندري هل يقدم ابن شهيد قصة حقيقية أم ذلك مجرد وسيلة في عرض فكرته، وعلى كلٍّ، فما يهمننا هو الوصف ذاته، فقد بدأت القطعة بوصف تأثير رؤية الصديق للحلواء، ومن ذلك: "خرجت في لمة من الأصحاب، وثبتت من الأتراب، فيهم فقيه ذو لقم، ولم أعرف به وغريم بطن ... رأى الحلوى فاستخفه الشره، واضطرب به الوله، فدار في ثيابه، وأسأل من لعابه، حتى وقف بالأكداس وخالط غمار الناس .. ورأى الخبيص (٢) فقال: بأبي هذا الغالي الرخيص، هذا جليدٌ سماء الرحمة تمخضت به، فأبرزت منه زبد النعمة، يجرح باللحظ، ويذوب من اللفظ." (٣)

ثم يتابع ابن شهيد ما انتاب ذلك الرجل حين رأى أنواعاً أخرى من الحلوى، ومن ذلك: "قال: غض من غض، ما أطيب خلوة الحبيب لولا حضرة الرقيب! ولمح القبيطاء فصاح بأبي نقرة الفضة البيضاء..... أبنار طُبخت أم بنور؟! فإذا رآها كقطع البلور، وبلوز عجنّت أم بجوز ... ومشى إليها، وقد عدل صاحبها أرتال نحاسه، وعلق قسطاسه من أم راسه، فقال: رطل بدرهمين، وانتهشها بالنايين، فصاح القارعة ما القارعة ... هيه ويل للمرء من فيه." (٤)

تفوح روح الفكاهة والظرافة في الشخصية الأندلسية من ابن شهيد في وصف ذلك الشره المحب للحلواء، ويبدو للدارس أن تلك الروح الفكاهة والتندر ممّا كان الأندلسيون يتوقنون لسماعه، وإلا ما انتقاها ابن شهيد ليعرضها بضاعة ثمينة حين عرض لجودة نثره، ومثل هذه الروح الفكاهة لمسناها عند ابن شهيد حتى في حضرة الخلفاء والملوك. وتتمة لوصف الحلواء بتلك الروح المنتدرة التي تعرض الفكرة بأسلوب ساخر، فإننا نقرأ ما نصّه: "ورأى الزلابية فقال: ويل لأممها الزانية، بأحشائي نسجت أم من صفاق قلبي ألفت، فإنني أجد مكانها من نفسي مكينا، وحبل هواها على كبدي متينا، فمن أين وصلت كف طابخها إلى باطني فافتطعها من

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٧٠.

(٢) الخبيص: نوع من الحلوى. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة خبص).

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٧٠.

(٤) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٧٠ - ٢٧١.

دواجني؟ والعزير الغفار لأطلبنّها بالثأر، ومشى إليها فتلمّظ له لسان الميزان، فأجفل يصيح: الثعبان الثعبان. (١) وظلّ ابن شهيد يخرج من وصف أثر نوع من الحلوى على الرجل إلى نوع آخر، حتى وصل إلى نهاية ما انتهت إليه حال الرجل قائلاً: "فأمرت الحلواني ابتياع أرتال منها تجمع أنواعها التي أنطقته، وتحتوي على ضروبها التي أضرعته، وجاء بها وسرنا إلى مكان خال طيب كوصف المهلبي:

خان تطيب لباعي النسك خلوته وفيه ستر على الفتاك إن فتكوا

فصبّها رطبة الوقوع، كراديس كقطع الجذوع، فجعل يقطع ويبلع ويدحو فاه ويدفع، وعيناه تبصان كأنهما جمرتان... وأنا أقول له: على رسلك أبا فلان؛ البطنة تذهب الفطنة، فلما التقم جملة جماهيرها، وأتى على مآخبرها، ووصل خورنقها بسديرها تجشأ، فهبت منه ريح عقيم أيقنا لها بالعذاب الأليم. (٢)

لعله من المنصف الوقوف عند قطعة ابن شهيد في وصف الحلواء على أنها قطعة وصفية في الفن الساخر؛ أجاد فيها ابن شهيد في نقل الحدّ وتأثيره على المتلقّي بعرض دراميّ جعل القارئ يكسر حاجز الإطار الخارجي للنصّ إلى عمق النصّ والتفاعل معه.

وإذا كان ابن شهيد قد قدّم لنا نموذجاً في نثر وصفيّ متميز، فإن ابن بُرد الأصغر قد قدّم لنا نموذجاً آخر في هذا النثر يتميّز بقصر العبارة والإيجاز، حتى إنّ القارئ لهذا النثر قد يصنّفه ضمن مقولات ومأثورات في الحكم، فلنا في فصل له في وصف القلم والمداد والكتاب مثال تطبيقي، ومن ذلك: "الكتاب من حلية الملائكة كالغواص، واللفظ كالجوهر والقرطاس كالسلك - الدواة كالقلب والقلم كالخاطر والصحيفة كاللسان - العقل أب والعلم أم والفكر ابن والقلم خادم، ما أعجب شأن القلم يشرب ظلمة ويلفظ نوراً - قد يكون قلم الكاتب أمضى من سنان المحارب - القلم سهم تنفذ به المقاتل، وشفرة تطبق بها المفاصل - لولا القلم ما عبّنت كتائب ولا سُرّيت مقانِب (٣) ولا انتضبت سيوف ولا ازْدُلّفت صفوف... قاتل الله القلم كيف يفّل السنان وهو يُكسر بالأسنان. (٤)

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٧١.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

(٣) مقانِب: جمع مقنّب، وهي جماعة الخيل والفرسان وتطلق على أصحاب الحرب. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة قنّب).

(٤) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٩٦.

تمتثل العبارات السابقة التي عُنيت بوصف خاص للقلم والمداد عصارة تجربة، ولذا كانت إلى القول المأثور والحكمة المستخلصة أقرب منها إلى أي غرض آخر، وما وضعها في النثر الوصفي إلا لأن معناها المقصود لم يتأت إلا بالوصف، ويبدو أن هذا الفن قد شاع في النثر بعد أن كان محتكراً في الشعر. وأما وصف ابن بُرد للاستزارة فجاء نصحاً بلغة أديب، ووصفاً كشف عن دقة في التصوير والتشخيص، ونقرأ منه: " الزيارة في الليل أخفى وبالزائر والمزور أجفى، وقد سدل حجابيه ووقع غرابه، وتبرقت نجومه بغيومه، وتلّفت كواكبه بسحابه، فاهتك إلينا ستره وخضّ نحونا بحرّه، ولك الأمان من عين واش تراك، وشخص رقيب يلقاك، البدر صنوك، فإن طلعت معه علي ذعر الخاققان والشمس... فإن رأيت أن تخفّ إلى مجلس قد نسخت فيه الرياحين بالدواوين والمجامر بالمحابر.... وتنازع المدام بتنازع الكلام، واستماع الأوتار باستماع الأخبار، وسجع البلابل بسجع الرسائل كان أشدّ لذهنك، وأصقل لفكرك وآنس لخطرك، وأطيب لنفسك وأفرج لهمك وأرشد لرأيك." (١)

توحي القطعة السابقة للقارئ أنه يقرأ في بطاقة دعوة ازدانت بلغة أدبية، وهي دعوة من نوع خاص؛ إذ دعت إلى الاستزارة ليلاً بما يحمل ذلك في ثناياه من إيجابيات تعبّر عن وجهة نظر أديبنا في الاستزارة ليلاً، فهو يراها أستر، وقد تكون تلك الاستزارة خاصة بموضوع معين كالعشق مثلاً، ويمكن التنبؤ بذلك من حديثه عن الواشي والرقيب لتعدو القطعة الوصفية السابقة خاطرة ذاتية.

ونقرأ من نثر ابن بُرد قطعة وصفية أخرى تحمل عصارة تجربة، فتتهادى بين القول المأثور والخاطرة، وقد سطرها ابن بُرد في الإخاء، فوصّفه بصفات زينته وجمّلته، ومن ذلك: " بيننا خصائص ودادة كأنها وشائج ولادة، جلى من مطلبى ما أظلم علي، وأشعل من همتي ما خمد لدي، أمضى لساني وبلّ ريقى، وأشاد باسمي وأعلى قدرى، لا والحجر اليماني والسبع المثاني لا جعلت سواه قصدي، ولا استكفيت غيره عظم أمري، ناصرى إذا تكاثرت الخطوب علي، وحجيرى إذا أثنخت الأيام جانبي، هو ذخري المعدّ وركني الأشدّ وسلاحي الأحدّ،، يُحسن عشرة الجار، ويُسيء عشرة الدرهم والدينار" (٢). وحتى يثبت ابن بُرد فكرته السابقة في تصوير الإخاء، وهيامه في الأخوة الصادقة، ينفذ إلى قطعة نثرية في ذم عدو الإخاء والصحبة الخالصة، ومن ذلك: " أحاديث وعده لا تعود بنفع، ولا هي من غرب ولا نبع، مطحلب الوجه مهراق ماء الحياء مظلم الخلق، ... كبد الزمان عليه قاسية، ونعم الله له ناسية، شرُّ بقعة لغرس المودة وبذر الإخاء، قصير الوفاء للإخوان، عونٌ عليهم مع الزمان، هو كدر

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م/١/ق ١، ص ٥٠٢ - ٥٠٣.

(٢) المصدر نفسه، م/١/ق ١، ص ٥٠٤.

الدنيا وسَمَّ الحياة^(١). ويبدو أن النثر الوصفي حين يتعلّق بالأمر المعنويّة كالصدّاقة والاستزارة فإنّه يتحوّل إلى فنّ تجربة يتجاوز الذاتيّة المطلقة؛ لتغدو تلك القطع والأقوال والعبارات أقوالاً مأثورة يمكن ترديدها على الألسن، ويساعد في ذلك قصر تلك العبارات، وورود السجع فيها غالباً ممّا يسهّل حفظها وتداولها. ويظلّ فنّ النثر الوصفي غرضاً فنيّاً كان له حضوره الخاص في نثر عصر الخلافة الأموية.

٧- الوصايا

تأتي خصوصيّة هذا الفن من ارتباطه بأمرين ملازمين: هما المناسبة والموصى إليه، وبهذا يتحدّد نوع الوصية وأسلوبها، ولعلّ من المسلمّ به أن هذا الفن قد ارتبط بشكل كبير بالأوقات التي يُحسّ المرء فيها بدنوّ أجله، ومع أن هذا الفن قد تعددت أغراضه وتشعبت أفانيه، فأضحينا نتحدث عن الوصية الأدبية والوصية الاجتماعية والوصية الإدارية وغيرها، إلا أن ارتباط الوصية - بغض النظر عن فنيّتها باللحظات العصبية وأشدّها دنوّ الأجل - هو ما يميّز نوعها الأدبي، ولذلك علاقة بالأصل اللغوي الذي لا يخرج عن الإيصال والامتنال لأمر معين^(٢)، وهذا هو المقصود من الوصية، ذلك أن للمتلقّي أهمية يضعها صانع الوصية نُصب عينيه.

لم أستطع العثور - على حدّ اطلاعي - على نصوص كثيرة تُغني هذا الفن في عهد الخلافة، ولكنني سأعرض لنموذجين؛ الأول من باب الوصية الأدبية الشخصية، والثاني من باب الوصية الأدبية الاجتماعية. ويجتمع النموذجان في القرب الزمنيّ ويفترقان في الصياغة، وهذا طبيعيّ مألوف إذا ما عرفنا أن النموذج الأول قد صدر عن سياسي حانت منيته فرغب في نقل تجربته إلى ما يراه في مستقبل ابنه، ولم يكن ذلك إلا الحاجب المنصور بن أبي عامر، وأمّا النموذج الثاني فهو مجموعة مُستخلصة من الوصايا الاجتماعية للأديب الفقيه المعروف ابن حزم.

تأتي الوصية الأولى على لسان الحاجب المنصور بن أبي عامر، وظروف هذه الوصية قاسية كما يصفها لنا صاحب النسخ حين عرّض في ترجمة المنصور لوفاته قائلاً: "ثمّ خرج المنصور لآخر غزواته، وقد مرض المرض الذي مات فيه، وواصل شنّ الغارات وقويت عليه العلة، فاتخذ له سرير خشب، ووطيء عليه ما يقعد عليه، وجعلت عليه ستارة، وكان يُحمل على

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٥٠٥.

(٢) يُقال وصت الأرض: أي اتصل بعضها ببعض، والوصية ما أوصيت به، وسُميت وصية لآتصالها بأمر الميت. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة وصي).

أعناق الرجال والعساكر تحفّ به، وكان هجر الأطباء في تلك العلة لاختلافهم فيها، وأيقنَ بالموت، وكان يقول: إنَّ زماني يشتمل على عشرين ألف مرتزق، وما أصبح فيهم أسوأ حالة مني.. واشتغل ذهنه بأمر قرطبة وهو في مدينة سالم، فلما أيقن بالوفاة أوصى ابنه عبد الملك وجماعته وخلا بولده، وكان يكرّر وصاته، وكلّما أراد أن ينصرف يردّه، وعبد الملك يبكي وهو يُنكر عليه بكاءه، ويقول: هذا من أول العجز".^(١)

لقد أثرت نقل الخبر السابق لتكون الأمور في نصابها؛ فالظروف التي تحيط بالوصية ظروف عصيبة، وهي صادرة عن رجل حربي سياسي سادعي أنه يمكن وصفه بالرجل الأسطورة - كما مرّ معنا من سيرته - ومع أن صاحب النصح قد أشار لظروف تلك الوصية إلا أنه لم يعتنِ بنقلها النصي، وقد أسعفنا صاحب الذخيرة بنقل هذه الوصية التي لفظ فيها الحاجب المنصور عصاره فكره وتجربته لفلذة كبده وحلم مستقبله، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، فماذا عسانا نحصد من تلك الوصية، وهل علّت بفتنتها حتى ندخلها ضمن الفنون النثرية لذاك العهد؟ وقبل البدء في عرض مضمون الوصية علينا الاعتراف بوجود تخوّف من النسبة الحقيقية لتلك الوصية، ذلك أنّ الظروف الصحية الصعبة التي كانت تحيط بابن أبي عامر - كما أكّدها كلٌّ من ابن بسّام والمقري - قد لا تتيح الفرصة للحاجب بتلك الوصية التي امتازت بعقلانية الموضوعات وبالطول النسبي، ولنا أن نسأل هل طلب ابن أبي عامر من أحدهم أن يسجّل ما يذكر فلم يتم التفصيل في ذلك، فغاية ما نقرأ أنها لابن أبي عامر، وأن ابن بسّام ينقل هذه الوصية على لسان ابن حيان الذي سمعها من والده، وإذا ما طالعنا مضمون تلك الوصية فإننا نقف على مجموعة من المضامين، أبرزها:

- علو درجة النصيح التي قدّمها ذو دربة وخبرة في الحياة لابنه عبد الملك، ومن ذلك ما نصّه: "يا بني لست تجد أنصح لك مني فلا تعدّين مشورتني، قد جرّدت لك رأيي ورويتني على حين اجتماع من ذهني، فاجعلها مثلاً بين يديك".^(٢)
- عرض خلاصة تجربة الحياة السياسية والحربية التي سطرّت اسم ابن أبي عامر، وأنّ تلك الخلاصة هي ثمرة حان قطافها على طبق من ذهب من قبل ابنه عبد الملك، ونقرأ في الوصية ما نصّه: "قد وطّأت لك مهاد الدولة، وعدلت لك طبقات أوليائها، وغيّرت لك بين دحل المملكة وخرجها، واستكبرت لك من أطعمتها وعددها، وخلفت جباية تزيد على ما ينبوك لجيشك ونفقتك".^(٣) إن سيطرة الإيجاز على العبارات السابقة يتوافق مع خلاصة

(١) المقري، نصح الطبيب، ج٣، ص ٩٤.

وانظر تفصيلاً أكبر لظروف وفاة المنصور في ابن بسّام، الذخيرة، م١/ق٤، ص ٧٣ - ٧٥.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م١/ق٤، ص ٧٦.

(٣) المصدر نفسه، م١/ق٤، ص ٧٦.

عرّض الخبرة التي تتطلب التكتيف، وفي الوقت ذاته فإنّ الضعف الصحي الذي عانى منه الحاجب لم ينعكس على النص؛ إذ بدا النص قوياً متماسكاً قد صيغ بعناية.

- إطلاق جملة من النصائح المتعلقة بالحكم والإدارة، مما يجعل القارئ أمام نصّ يتجاوز النصح الشخصي الفردي، وكأنّ الحاجب يصكّ ميثاق الدولة وإدارة دستورها، واضعاً كلّ ذلك في يد خليفته المرتقب - وأقصد بذلك ابنه عبد الملك - ونتابع هذه المعاني فيما نصّه: " فلا تطلق يدك في الإنفاق، ولا تقبض لظلمة العمال فيختل أمرك سريعاً، فكلّ سرف راجع إلى اختلال لا محالة، فاقصد في أمرك جاهداً، واستثبت فيما يرفع أهل السعاية إليك والرعيّة." (١)

لقد ركّز النص على أمرين هما - كما بيّن ابن خلدون في مقدمته - أساساً مُحكم لقيام الحضارة (٢)، وهما العدل وحسن سياسة المال. ومن الناحية الفنيّة يُدرك الدارس لهذه الوصيّة أنّها لا تلتمس السجّع في عباراتها، وأنّها استعاضت عنه بالموازنة والمقابلة، ولذلك ما يسوّغه، فمع أنّ ذوق ذلك العصر قد أغرم بالسجّع في نثره (٣)، إلا أنّ خلوّ الوصيّة منه تُسوّغه الظروف التي قيلت فيه، ذلك أنّ السجّع يحتاج لتأنّق وطول دُرْبَة عليه، ولم يكن ابن أبي عامر أديباً في طبعه رغم ميله للأدب وارتياحه لجانبه، كما أنّ ظروف قوله لتلك الوصيّة وقد حانت منيّته لا تتناسب مع عناية في السجّع قد يلجأ إليها أديب في موقف مختلف عن هذا الذي كان عليه الحاجب المنصور.

- تقديم نصيحة خاصة بالخليفة وكيفية التعامل معه، وهذه النصيحة تستحق الوقفة، ففي الوقت الذي تعرّضت فيه بعض المصادر لشخصيّة المنصور وحجابته بطريقة أوضحت أنّه قد عزل الخليفة، وتصرف بالأمر فأساء إلى الأمانة التي أعطيت له وانفرد بالتدبير (٤)، نجد هذه الوصيّة تُتّصف بشخصية الحاجب؛ إذ تؤكد أنّ العدل سمته، وأنّه مهتم برضا صاحب الدولة الخليفة هشام، ونقرأ في الوصيّة ما نصّه: " وصاحب القصر قد علمت مذهبها، وأنّه لا يأتيك من قبله شيء تكرهه، والآفة ممن يتولاه ويلتمس الوثوب باسمه، فلا تتمّ عن هذه الطائفة جملة، ولا ترفع عنها سوء ظنّ وتُهمة، وعاجل بها من خفته على أقلّ بادرة مع قيامك بأسباب صاحب القصر على أتمّ وجه؛ فليس لك ولا لأصحابك شيء يقيكم الحنث في يمين البيعة... وأمّا

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٤، ص ٧٦.

(٢) انظر ابن خلدون، المقدمة ص ٢٨٦ - ٢٨٧.

(٣) راجع رأي ابن شهيد في ذلك في ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.

(٤) انظر حول ذلك في المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٣٩٧.

الانفراد بالتدبير دونه... فإنّي أرجو أنّي وإياك في سعة ما تمسّكنا بالكتاب والسنة." (١) يؤكّد النصّ السابق أنّ الحاجب المنصور كان حريصاً على إيصال فكرة الموالاتة للخليفة من قبل ابنه عبد الملك، وأنّ شدة الحرص تلك جعلته يحذّر ابنه من أي طائفة تحاول الدسّ على الخليفة، من أجل التمرّد أو التفكير في قلب نظام الحكم. وتظهر النزعة الدينية جليّة تثبت أنّ التمسك بالشرعية الإسلامية هو أساس دعائم الحكم المتين لحجابه ابنه.

- بثّ النصح الشخصي تجاه الأخوة والأهل، بما يكفل إقامة الأمور لصالح ابنه الموصى إليه عبد الملك، وهو أمر له ضرورته ومسوغاته، فأول من يعضد قوة القائد أهله وعشيرته، فإن لم يضمنهم آلت الأمور إلى فوضى ومأساة في الثأر والدم، فلا عجب أن يؤكّد المنصور تلك النصيحة ويقف عندها، فهو صاحب التجربة المتميزة في الحزم والقيادة. ونتابع مع الحاجب وصيته بما نصّه: " وأخوك عبد الرحمن قد صيرتُ إليه في حياتي ما رجوتُ أنّي قد خرجتُ له فيه عن حقّه من ميراثي، وأجرته عن ولاية الثغر لئلا يجد العدو مساعاً بينكما في خلاف وصيتي، فيسرع ذلك في نقض أمري، ويجلب الفاقة على دولتي، وقد كفيبتك الحيرة فيه فأكفه الحيف منك، وكذلك سائر أهلك فيما صنعتَ فيهم بحسب ما قدرتُ به خلاصتي من مال الله الذي في يدي. وخلافتك بعدي أجدى عليهم ممّا صرفته، فلا تُضيع أمر جمعهم، وأحظهم بعيني فإنك أبوهم بعدي... وألحف إنائهم جناحك، جبر الله جماعتهم" (٢). جاء النص السابق واضح اللغة قوياً في طرح الحجة والبرهان، فقصد الوصاية السابقة إقناع الابن بضرورة التنبّه لأحوال الأهل لئلا يقع الشقاق الذي يشي بالفاقة، كما كان للجانب الذاتي الإنساني حضوره في نهاية النص السابق من الوصية حين أوصاه خيراً بالأهل والبنات، فعلت عاطفة الأبوة على عاطفة القائد، وهذا شيء طبيعي يسيطر في تلك المواقف الإنسانية، فمهما علا شأن المنصب، إلا أنّ المرء يبقى عند دنوّ الأجل بشراً يعزّ عليه فراق الأحبة، ويتمنى الإنصاف لأهله من بعده.

- اختتام الوصية بحسّ القائد، فبعد أن أكّد الحاجب ضرورة طي جناح الأهل وتحمل مسؤوليتهم، رسم سياسة تسلّم الحجابة من الأب لابنه، وكيفية وصول هذا المطلب إلى قرطبة حاضرة الخلافة، وأنّه إن خيف الرفض وعدم الترحاب، فعلى ابنه وأهله أن يحتموا في الأطراف، ومن ذلك ما نصّه: " فإنّ انقادت الأمور بالحصرة فهذا وجه العمل وسبيل السيرة...

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ٤، ص ٧٦.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٧٧.

فإن قاومتَ مَنْ توثَّبَ عليك منهم، فلا تذهبُ عن الحزمِ فيهم، وإن خفتَ الضعفَ فانتبذْ بخاصتك
وغلمانك إلى بعض الأطراف التي حصنتها لك، واختبرِ غَدَكَ إن أنكرتَ يومك." (١)

تُظهر القراءة السابقة في مضمون وصية الحاجب المنصور أنها وصاية في الإدارة
والمُلك؛ فهي في عموميتها رسمية الطابع، جادة الأفكار وأقرب إلى العقل منها إلى العاطفة، مع
أن اقتراب المنية قد يُوهم بأن العاطفة الجياشة تسيطر على نص الوصية، إلا أننا قرأنا بياناً
رسمياً في سياسة حازمة مدروسة نُقلت بإحكام عبر مضامين تستحق الوقفة وأخذ العظة.
ونستطيع إجمال القول في الوصية السابقة بأنها نص أدبي قدّم الأفكار بقصر عبارة وتكثيف
مضامين، فجاء خطاب العقل أكثر من خطاب العاطفة، فحقّق بذلك المراد، فالمطلوب وصية
انتقال حُكم يتطلّع إلى سلّبه الكثيرون، ويبدو أن هذه الوصية كان لها التأثير الإيجابي الكبير، فقد
سار عبد الملك على خطاها " فراقته أيامه، وأحبه الناس سرّاً وعلانية، وانصبّ الإقبال والتأييد
عليه انصباباً لم يُسمع بمثله." (٢)

أما النموذج الثاني للوصية فهو ما قدّمه ابن حزم من وصايا للعاشقين في مصنفه
المعروف بطوق الحمامة^(٣)، ويمكن تقسيم تلك الوصايا الاجتماعية إلى محاور، نقرأ في
مضامينها جملة من آراء النصّح أبرزها:

- إهمال الحب غير الحقيقي؛ ومن ذلك ما ذكره ابن حزم في باب من أحبّ في النوم، بعد أن
روى قصة عن صديق هامّ في عشق جارية لا يعرفها، وإنما رآها في نومه. فعذله ابن حزم
ونصحه بالإفلاع عن هذا الهيام بقوله: " إنك فيل^(٤) الرأي مُصاب البصيرة، إذ تحبّ من لم تره
قطّ، ولا خلق ولا هو في الدنيا، ولو عشقت صورة من صور الحمام لكنت عندي أعذر، فما
زلت به حتى سلا وما كاد"^(٥). وتبدو الوصية بلهجة الواعظ أكثر منها بلهجة الواصف للحدث،
وقد يكون لذلك ما يسوّغه، فغاية ابن حزم في هذه النصيحة ضرب الأمثلة التي تؤكد وجهته فيما
يذهب إليه في فنون العشق، ألا وهو ضرورة عشق صورة مرئية لا ذهنية خالصة.

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٧٧.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٧٨.

(٣) استقيتُ فكرة الوصية الاجتماعية عند ابن حزم من الباحث حذيفة عزام في أطروحته للماجستير. انظر

عزام، حذيفة، أدب الوصايا في الأندلس، رسالة جامعية، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٧. ص ٣٥.

(٤) فيل: ضعيف. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة فيل).

(٥) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ١١٥ - ١١٦.

- تقديم النصح الخاص بالمراسلة ببيان وقّعها على النفس واستلطافها، إلا أنّ المراسلة بالكتب قد تكون سبباً للفضيحة، فيوصي ابن حزم في ذلك ما نصّه: " وللكتب آفات، ولقد رأيت أهل هذا الشأن يبادرون لقطع الكتب، ولحلّها في الماء وبمحو أثرها. فربّ فضيحة كانت بسبب كتاب، وينبغي أن يكون شكل الكتاب ألطف الأشكال، وجنسه أملح الأجناس، ولعمري إنّ الكتاب للسان في بعض الأحيان"^(١). ولا نستغرب وضوح لغة أديبنا ابن حزم، فإنّما يخاطب عموماً لا خصوصاً، وهذا ما يجعلنا نعدّها وصيّة اجتماعية؛ إذ يعرض لما يدور في مجتمعه مستخدماً قلمه ولسان حاله.

- عرض مواصفات السفير الذي يحقق الغاية المنشودة، وتأكيد حسن الوصاية فيمن يقدم هذه الخدمة، فنقرأ في باب السفير ما نصّه: " ويقع في الحب بعد هذا - بعد حلول الثقة وتمام الاستئناس إرسال السفير، ويجب تخيره وارتياحه واستجادته... فهو دليل عقل المرء، وبيده حياته وموته وسرّه وفضيحته، بعد الله تعالى، فينبغي أن يكون الرسول ذا هيئة، حاذقاً يكتفي بالإشارة ويقرطس^(٢) عن الغائب، ويحسن من ذات نفسه، ويضع من عقله ما أغفله باعثه، ويؤدي إلى إرسال كلّ ما يشاهد على وجهه، كاتماً للأسرار، حافظاً للعهد قنوعاً ناصحاً. ومن تعدّى هذه الصفات كان ضرره على باعثه بمقدار ما نقصه منها."^(٣) والوصيّة السابقة تتم عن حسن اجتماعي تمتّع به ابن حزم، جعله يستخلص سمات السفير، ويدعو مستخدمه إلى ضرورة التثبت من مراعاتها فيمن يستخدم من سفارة بينه وبين إلفه. وجاء تأكيد الصفات المستحبة في الشخصية المفترضة للسفير بالطباق تارة، وبالترادف وبالموازنة تارة أخرى، حتى يصل ابن حزم إلى رسم إطار للموصى إليه يبيّن مواصفاته جيداً.

- التحذير من الوشاة ودمهم، وإطلاق الكلام في ذلك على سجيته؛ فقد أطال ابن حزم في تقرير الوشاة، واستأنس بأحاديث الحكماء وأقوال الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقتبساً من قوله تعالى، ومفصلاً في الهمز واللمز والنفاق والتدليس، حتى إنّ القارئ ليظن أنه في درس ديني وينسى ما له علاقة بأصل الإلف والألاف، وكانت تلك الإطالة في العرض - في هذا الباب تحديداً - مقصودة لذاتها، عرضت وجهة ابن حزم في الوشاة والتحذير منهم بكل ما أوتي من وسيلة وقوة، ومن ذلك: " وما في جميع الناس شرٌّ من الوشاة، وهم النمامون. وإنّ النميمة لطبع يدل على نتن الأصل ورداءة الفرع وفساد الطبع... والنميمة فرع من فروع الكذب، وإنّي لأسامح في إخاء كل ذي عيب وإن كان عظيماً، وأكل أمره إلى خالقه - عزّ وجل - وأخذ ما

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ١٣٩.

(٢) يقرطس: يصيب المرمى والمطلب. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة قرطس).

(٣) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ١٤١.

ظهر من أخلاقه حاشا من أعلمه يكذب،... وقد قال بعض الحكماء: آخ من شئت واجتنب ثلاثة: الأحمق فإنه يريد أن ينفكك فيضرك، والمول فإنه أوثق ما تكون به لطول الصحبة وتأكدتها يخذلك، والكذاب فإنه يجني عليك آمن ما كنت فيه من حيث لا تشعر. وحُدث عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - " حُسْنُ الْعَهْدِ مِنَ الْإِيمَانِ"^(١) وعنه عليه السلام " لا يُؤْمِنُ الرَّجُلُ بِالْإِيمَانِ كُلَّهُ حَتَّى يَدَعَ الْكُذْبَ فِي الْمَزَاحِ"^(٢) ... والله - عزَّ وجلَّ - يقول: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ]^(٣) ... فالكذب أصل كل فاحشة وجامع كل سوء"^(٤). لقد فصل ابن حزم في التحذير من الكذب، ولا يُعتقد أن تلك الإطالة والتنوع في أساليب عرض هذه الفكرة إلا من باب النظرة الذاتية التي تعكس شخصية ابن حزم الفقيه الأندلسي في قضية الكذب تحديداً، وجاء عكسها على شخصية الواشي التي تتصف وتمتاز بالكذب، لتكون القالب الذي يُطلق فيه الأديب الفقيه ذمه الكبير للكذب، وقد يُحس المرء خلسة أن المقصود في ذلك قد يكون الخيانة وليس الكذب بتجريده، وقد يتبادر إلينا هذا الحس من أن زمن كتابة طوق الحمامة هو زمن الفتنة التي شاعت فيها الخيانة، وما الواشي إلا كاذب خائن، ولنا أن نخمن أن ابن حزم قد ذم ما شاهده من خيانة في ذلك العهد على إطلاقه.

٨- النشر العلمي " آراء في النقد الأدبي نموذجاً "

قد تنتسب النظرات فيما يمكن أن ينضوي تحت فن النشر العلمي، وهذا التشعب له مسوغاته؛ فالنشر العلمي منتسب قد يدخل في قضايا متعددة ونماذج كثيرة، وحتى لا أخرج عن إطار هذه الأطروحة في عنوانها العام فإنني سأقصر الدراسة على ما كان له علاقة بالأدب في الموضوع وفي لغة العرض. وسنقدم بعض الآراء في النقد الأدبي نموذجاً تطبيقياً يوضح هذا الغرض.

(١) انظر البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ)، التاريخ الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت. ١٩٨٦. ج ١، ص ٣١٥.

(٢) انظر ابن حنبل، أبو عبدالله أحمد بن محمد (ت ٢٤١هـ)، مسند الإمام أحمد، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣. ج ٢، ص ٣٥٢.

(٣) سورة الصف الآيتان (٣ - ٤).

(٤) انظر ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ١٧٣ - ١٧٥.

ويبقى سؤال هل النقد علم أم فن سؤالاً نقدياً محورياً تعرّض له غير ذي دارس غربي وعربي^(١)، ولم يكن القطع بأحدهما من السهولة واليسر، وعلاقة السؤال السابق بنموذج النثر العلمي كبيرة، فالآراء النقدية التي جاءت على لسان ابن شهيد عبّرت عن التوجّهات النقدية عند النقاد الأندلسيين في صياغة الرأي العلمي في ذلك العهد.

جاءت آراء ابن شهيد وتنظيره فيما يخصّ البيان والإبداع تجلي حقيقة ما يؤمن به من أنّ تعليم النحو وحفظ الشعر والغريب لا يخلق أديباً، وتلك إشارة واضحة إلى ضرورة أن يكون لدى هذا الشخص طبع وموهبة في الأصل، وفي هذا يقول ابن شهيد: " وإصابة البيان لا يقوم بها حفظ كثير الغريب واستيفاء مسائل النحو، وإنما يقوم بها الطبع مع وزنه من هذين؛ النحو والغريب. ومقدار طبع الإنسان إنّما يكون على مقدار تركيب نفسه مع جسمه، فمن كانت نفسه في أصل تركيبه مستولية على جسمه كان مطبوعاً روحانياً، يُطلع صور الكلام والمعاني في أجمل هيئاتها... ومن كان جسمه مستولياً على نفسه من أصل تركيبه، والغالب على حسّه كان ما يطلع من تلك الصور ناقصاً عن الدرجة الأولى في الكمال والتّمَام." (٢)

قدّم ابن شهيد وجهة نظره في إصابة البيان بنزعة فلسفية واضحة، فقد انصبّ الحديث على ما يُعرف بالمادة والروح. ومال ابن شهيد إلى الروح التي تتمتع بالموهبة، وإن لم يُخف ضرورة شحذ ذلك بالنحو وبغريب الشعر وباللغة، وكأنّه بلسان أستاذ النقد يؤكد أنّ البيان لا يعلم إن خلا من بذرة الأدب الموجودة أصلاً في النفس خفية مستترة كما الروح. وجاءت عبارات ابن شهيد واضحة التراكيب على غير ما عهد عنه من غريب اللغة، ويبدو أنّ ذلك اقتضاه الموضوع الذي اتّسم بالتنظير المغفّف بحسّ فلسفي لقضية نقدية.

وتعزيزاً لصعوبة تعليم البيان، استشهد ابن شهيد بكلام الجاحظ ثمّ عقّب عليه، ومن ذلك: " وقولُ الجاحظ: "إذا أكثرنا من يعلم صبياننا النحو والغريب قنع منا بعشرين درهماً في رأس كل شهر، ولو أكثرنا من يعلمهم البيان لما قنع منا بألف دينار"، ولم يقل هذا إلا وقد أُلّف كتاب البيان، ولو كشف فيه عن وجه التعليم، وصور كيفية التدريج لأرى كيف وضع الكلام وتزيين البيان، وكيف التوصل إلى حُسْن الابتداء، وتوصيل اللفظ بعد الانتهاء، وأبدى لهم عن تدبير المقاطع والمطالع؛ فإنّها معادن الصنعة ومواضع مفاتيح الطريقة، ولكنه استمسك بفائدته، وضنّ بما عنده غيراً على العلم، وشحّ بثمرة الفهم، وعرف أنّ النفع كثير والشاكر قليل، فلم يفد

(١) انظر حول هذه القضية في - فراي: تشريح النقد ص ٣ - ٣٦. - السمرة، محمود، في النقد الأدبي، الدار

المتحدة، بيروت، ١٩٧٤. ص ٨١ - ٨٢.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م١/ق١، ص ٢٣١.

بما أوضح من أمر البيان غير أهله، ومن كَرَعَ من حوضه... وأما أن يخرج مبتدئاً أو يعلم جاهلاً فلا ألبتة. (١)

ولنا مع رأي ابن شهيد السابق وقفة، ذلك أن ابن شهيد قد استأنس بكلام الجاحظ ليؤكد صعوبة تعليم البيان، إلا أن وقفته عند كتاب "البيان والتبيين" تُثير الشكوك، فهل أراد ابن شهيد أن ينتقد الجاحظ في كتابه المذكور، وأنه لم يحقق الغاية منه على الرغم من نبوغ الجاحظ وتمكُّنه من هذا العلم؟ وهذا قد يُستشف من قوله "ضنّ بما عنده" - أم أن ابن شهيد قد أيد الجاحظ فيما ذهب إليه بأن أمر البيان لا يعود بالفائدة إلا على أهله ومن أتقنه. وإذا سلّمنا بالرأي الأخير فإننا ندرك أن ابن شهيد ما زال متيقناً من أن البيان يُصقل ولا يُعلم، وأن من يطلبه عليه بطول العناء، وإذا ما أطللنا على رأي ابن شهيد السابق من نافذة أخرى فقد نتساءل: هل تعمّد ابن شهيد أن ينتقد كتاب "البيان والتبيين" أم كان المرور بالكتاب من باب الاستشهاد بالرأي في قضية مطروحة، وتواصلًا مع تلك الإطلالة نقول: لعل ابن شهيد تعمّد المرور بالنموذج المشرقي لينتقده، فكيف هو البيان والتبيين ولم يحقق المراد منه! وعلينا الاعتراف أن النمذجة المشرقية قد أخذت هداها في الأندلس باتجاهين: اتّجاه يرى في المشرق الكمال، واتّجاه مغاير ينتقص ما هو مشرقي موجود، مُعلِّماً ما هو بالأندلس. ويبقى من الإنصاف القول بأن القطع بما أراده ابن شهيد ليس من السهل البتّ فيه.

- تنبّه ابن شهيد إلى قضية الذوق العام للعصر، وبيّن أثره على البيان. وهذه قضية نقدية كبيرة، فما زال النقدُ يسأل بقوة هل يكتب الأديب بلسان حاله أم يكتب بلسان عصره؟ ولا أقصد هنا الموضوع وإنما أقصد آلية الطرح والأسلوب. ويبدو أن ابن شهيد قد بتّ في هذه القضية حين أقرّ أن لكل عصر طريقة في البيان متأثرة بالبيئة من جهة، وبفرسان الكلام من جهة أخرى. وفي ذلك يقول ابن شهيد: "وكما أن لكل مقام مقالاً، فكذلك لكل عصر بيان، ولكل دهر كلام، ولكل طائفة من الأمم المتعاقبة نوع من الخطابة، وضرب من البلاغة لا يوافقها غيره، ولا تهشّ لسواه. وكما أن للدنيا دولا فكذلك للكلام نقل وتغاير في العادة، ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم... ثم دار الزمان دوراناً فكانت إحالة أخرى إلى طريقة إبراهيم بن العباس (٢) ومحمد

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٣٢.

(٢) إبراهيم بن العباس: هو إبراهيم بن العباس الصولي، ويكنى بأبي إسحاق، كان هو وأخوه عبد الله من وجوه كتاب الدولة العباسية، تنقل في أعمال جلييلة، وهو صديق لابن الزيات. له شعر حسن ومن مصنفاته كتاب الدولة وكتاب العطر (ت ٢٤٣هـ). انظر ترجمته في الحموي، معجم الأدباء، ج ١، ص ١٦١ - ١٨٦.

ابن الزييات^(١) وابني وهب ونظرأهم، فرقت الطباع وخفّ قلّ النفوس، ثمّ دار الزمان فاعتري أهله باللطائف صلّف وبرقة الكلام، فكانت إحالةً أخرى إلى طريقة البديع...، وكذلك الشعراء انتقلوا عن العادة في الصنعة بانتقال الزمان، وطلب كلّ ذي عصر ما يجوز فيه، وتهش^(٢) له قلوب أهله... فكلّ شعر لا يكون اليوم تجنيساً، أو ما يشبهه تمجّه الأذان، والتوسّط في الأمر عدل، ولذلك فضل أهل البصرة صريع الغواني^(٣) على أبي تمام؛ لأنه لبس ديباجة المحدثين على لأمة العرب^(٤)، فتركّب له من الحُسن بينهما ما تركّب^(٥).

يغدو واضحاً لنا ما قصده ابن شهيد في تغيير طريقة الكتابة من زمن لآخر، أكان ذلك في الشعر أم في النثر، ويرى ابن شهيد ذلك في رقة الطبع وتهذيب النفوس ودَرْجِه على أسماع الناس حتى يألفوه، وبعبارة أخرى يعزو ابن شهيد قبول التغيير في الذوق العام للذي يُستحسن من الأدب إلى عاملين: الأوّل يتعلّق بأثر البيئة التي تُغيّر في فنيّة الكلام والأسلوب، والثاني يتعلّق بالإلف الزمني لأسلوب الكتابة، فيستهجن الناس ما لم يألفوه، فيما يستقبلون الدارج حتى وإن بدا متكلفاً. ويبدو ذلك بيناً من تعلّق زمن أدبنا بالتجنيس على ما يحتاج ذلك من تكلف في الكتابة وإرهاق في التلقّي. وإذا ما درسنا النثر العلمي - حتى ما تعلّق منه بالأدب كآراء ابن شهيد السابقة - فإننا نلاحظ ابتعاده عن العناية بالتجنيس، ممّا يؤكد أنّ قصد الوضوح كان مطلباً في إيصال تلك الأفكار النقدية، لكنّ أدبنا ابن شهيد يغرف من بحر التجنيس حين يأمن اللبس في أفكاره فيجعلنا بذلك نتراجع عن التعميم السابق في لغة النثر العلمي، فإنّ احتملت تلك اللغة البيان والاستعارة تفنّن الأديب في لغته، وأمّا إذا خيف اللبس وضاعت مرّامي الكلام كان الابتعاد عن البيان والبديع مطلباً. ومن أمثلة نثر ابن شهيد الذي تحلّى بجمال العبارة، ولبس حُلّ الاستعارة حديثه عن طبقات البيان؛ ويبدو مسوّغ الأداة المستخدمة من عنوانها ومضمونها، فكأنّ ابن شهيد قدّم نموذجاً تطبيقياً لطبقات البيان بلغته الخاصة، ومن ذلك: "وأهل صناعة الكلام متباينون في

(١) محمد بن الزييات: أبو جعفر محمد، كان وزيراً للمعتصم مقرّباً منه، كان أديباً بليغاً وعالماً بال نحو واللغة.

انظر ترجمته في ابن النديم، الفهرست ص ٢٢ - ابن خلكان، وفيات الأعيان، ج ٣، ص ٤٨ - ٥٠.

(٢) تهش: ترتاح. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة هش).

(٣) صريع الغواني: مسلم ابن الوليد، شاعر مُفلق، وهو أول من طلب البديع وأكثر منه، لُقّب بصريع الغواني

لبيت الشعر الآتي: **هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين النجل**

(ت ٢٠٨هـ). انظر حول مصادر ترجمته في ترزي، فؤاد، مسلم بن الوليد، صريع الغواني، دار الكتاب،

بيروت، ١٩٦١. ص ٧ - ١١.

(٤) لأمة العرب: اللأمة هي السلاح الحصين، وقصد بلأمة العرب بلاغتهم القوية التي يتسلحون بها. انظر ابن

منظور، لسان العرب (مادة لأم).

(٥) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٣٧ - ٢٣٨.

المنزلة، متفاضلون في شرف المرتبة على مقدار إحسانهم وتصرفهم، فمنهم الذي ينظم الأوصاف ويخترع المعاني ويحرز جيد اللفظ، إلا أنه يصعب عليه الكلام... ومنهم الكارع في بحر الغزارة، القادح بشعاع البراعة، الذي يمرّ مرّ السيل في اندفاعه، والشؤبوب في انصبابه، لا يشكو الفشل ولا يكِل على طول العمل. إذا ازدحمت في الكلام عليه المطالب، وعلقت بحواشي فكره المآرب، وحُشرت عليه الصعائب والغرائب، استقلّ بها كاهله، واضطلع بثقلها غاربه، وأعارها من نظره لمحة، ومن فكره قدحة، ثم رمى بها عن جانبيه. قد رويت بمائها وليست بشعاع بهائها، وبقي كاللقوة^(١) في المرقب، سام نظره، قد ضمّ جناحيه، ووقف على مخله لا تتاح له جراحة إلا اقتصتها، ولا تتازله طائرة إلا اختطفها، جرأته كسفرته... فذلك الألسن يوم حرب الكلام لا تخطيء ضربته... ومنهم من يتجافى الكلام ويروغ عن المقال، فإذا مُني به أخذَ بأطراف المحاسن... وجلّ ما عنده تفيقٌ وحيلة، وبذلك يصاحب الأيام ويجاري أبناء الزمان... ومن خرج عن هذه الطبقات الثلاث لم يستحق اسم البيان.^(٢)

يمكن النظر إلى رأي ابن شهيد السابق في علم صناعة الكلام من منظورين؛ الأول يتعلّق برأيه النقدي في تطبيق (أي جعلهم طبقات) علماء صناعة الكلام والبيان، وفي هذا تفصيل لرأيه السابق فيمن يدخل علم البيان ومن يخرج. ومع أن الطبع - أي السليقة - شيء أساسي في هذا العلم، إلا أنه يتفاوت على نحو معين، وقد طبقه ابن شهيد في طبقات ثلاث، جعل أعلاها الذي لا تكِل له قريحة مهما ازدحمت عليه الأفكار، إلا أنه في الوقت نفسه لم يُخرج الطبقتين الأخريين من علم البيان، وإن قصرت في المفاضلة، وأمّا المنظور الثاني للأراء النقدية السابقة فهو الرؤية التطبيقية لنظرية ابن شهيد في تطبيق علم البيان؛ فعندما أعلى في الطبقة التي تحدت عنها بتميز، أعلى في الوقت نفسه من العرض اللغوي البياني الشخصي له، فجاءت عباراته مُردحةً بالتشخيص والاستعارات، وكأنه يقول بلسان حاله: هذا نموذج تطبيقي على علو البيان، ويبدو أن الشهادة في تميز نثر ابن شهيد جاءتنا على لسان ابن حيّان حين قال: "والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نثره ونظمه في بديعته ورويته، فيقود الكلام كما يريد من غير اقتناء للكتب، ولا اعتناء بالطلب... فإنه لم يوجد له - رحمه الله - فيما بلغني بعد موته كتاب يستعين به على صناعته، ويشحذ من طبعه، إلا ما قدر له، فزاد ذلك في عجائبه وإعجاز بدائع." ^(٣)

ومع أن النثر العلمي، وعلى الأخص في النقد الأدبي لا يتطلّب ضرورة أن يكون الناقد أدبياً، إلا أن ابن شهيد قدّم لنا نموذجاً مزدوج الصورة عن التأليف النقدي؛ ففيما جاءت بعض

(١) اللقوة: بفتح اللام وكسرها، ومعناها العقاب السريعة الاختطاف. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة لقو).

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، ج ١، ص ٢٣٩.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ ق ١، ص ١٩٢.

نصوصه مُنصَّبة على الفكرة بأيسر اللفظ، وبالبعد عن فنون التجنيس، جاءت نصوصه الأخرى على قدر عالٍ من البيان، لتؤكد أنه أديب وناقد في آنٍ.

٩- المأثورات " الشكر والتحميدات نموذجاً "

إنّ تميّز المأثورات بالعبارة المكثفة الموجزة، ودرجتها على ألسنة الناس وتقبلها إنّما يأتي من عناية بهذا المأثور من ناحيتين: أولاهما الموضوع الذي يحتاجه الناس لمواقف عدّة متكرّرة، فيحبّذون عبارة حكيم أو أديب صيغت بعناية، وثانيتها فنية العبارة التي تجعلها سائغة دارجة على ألسن الكلام^(١)، وقد قدّم لنا ابن بُرد الأصغر مثلاً متفرّداً في مأثورات خاصة بالشكر والتحميدات أجبرت ابن بسّام على وضع فصل خاصّ بها في الذخيرة. ويمكن للدارس أن يستنتج أنّ مثل هذه المأثورات قد درجت عند أكثر من كاتب وناثر، إلا أنني سأقصر نموذجي على ابن بُرد، لكثرة ما وصلنا من شواهد له في هذا الفن الأدبي. ولا نعلم هل كان القصد من كتابة هذه المأثورات تقديم قوالب جاهزة ليستخدمها الناس، أم هي ممّا راقت لأديبنا فكتبها دون أن يضع المستخدم من بعده في أولويته، وبمعنى آخر هل كان هذا الفن فناً وظيفياً قدّم للناس بعبارة أديب، ذلك أنّ الناس تحتاج للحمْد والشكر كثيراً في معاملاتها وأقوالها وخطاباتها، أم كان هذا الفن نثرًا خالصاً أثر فيما بعد عن ابن بُرد مثلاً؟ ولما كانت القصيدة والبتّ بها صعبة هنا، فإننا سنعتني بالفنّ نفسه من حيث هو كلام أدبيّ في موضوعي الحمْد والشكر.

أمّا فصل الحمْد فقد كان كُله حمداً للخالق عزّ وجلّ، واختلفت عبارات الحمْد في صيغها وإن انتهت إلى حمْد الخالق، وذلك بحسب المناسبة التي قيلت فيها، فجاء بعضها أليق لافتتاح الكلام وبعضها الآخر لاخنتامه، ومن ذلك: " الحمْد لله الذي علا وقهرَ وبطنَ وظهرَ، وبحكمته قدر وأمرَ، وبعذله قدّم وأخرَ."^(٢) وإذا كان حمْد الله واجباً في كلِّ الظروف والأحوال، إلا أنّه يمكن التكهن بأنّ العبارات السابقة قد جاءت في مناسبة غلبت عليها القوة. ونقرأ أيضاً عند ابن بُرد ما نصّه: " الحمد لله جالي الكُرب السّود، وفتاح المُبهم المسدود، الذي أقال العتّرات وأدال من الحسرات وانتاش^(٣) من البأساء، وأعقبَ بالنعماء، وأراح من جهد البلاء."^(٤) تبدو العبارات السابقة في موقف إزالة غمّ وكربة، وجاءت فنية الطباق والمقابلة في المعاني أدوات فنية

(١) انظر حول المأثورات في المشرق في صالح، محمود، فنون النثر في الأدب العباسي، ط٢، دار جريير، عمان، ٢٠٠٦. فصل المنشآت الوصفية.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م١/ق١، ٤٩١.

(٣) انتاش: دفع ونحى. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة نتش).

(٤) ابن بسّام، الذخيرة، م١/ق١، ٤٩٢.

ساعدت الكاتب على تكثيف العبارة وإظهار جوهر فكرة الحمد. ولما كان الضدّ يُظهر حُسنة الضدّ، غدا التركيز على صفات الخالق في الأحوال شتى مطلباً للكاتب، لتقليب عبارات الحمد في كلّ الوجوه، فنتابع عند ابن بُرد ما نصّه: "الحمدُ لله وإنْ عَثُرَتِ الجُدود^(١) وهوتِ السعود، المرجوُّ للإدالة والمدعوُّ في الإقالة، والقادرُ على تعجيل الانتصار، والآخذُ للإسلام بمنيم الثار... وما أتيت البصائر من تعليل، ولا الأعداد من تقليل ولا القلوب من خور ولا السواعد من قصر، ولا السيوف من كهم^(٢) ولا الرماح من جزم، ولا الجياد من لؤم أعراق ولا الصفوف من سوء اتساق، ولكنّ النصر تعذّر، والوقت المقذور حضر، ولم يكن لتمضي سيوف لم يرد الله مضاءها، ولا لتبقى نفوس لم يرد الله بقاءها، وفي قوله تعالى أحسن التأسّي وأجمل التعزي [إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله، وتلك الأيام نداولها بين الناس]^(٣) [٤].

يقدم النصّ السابق نموذجاً على مآثورات حمد الله في المصائب، ومع أنّ النصّ وصلنا مقطوعاً عن مناسبته، إلا أنّه من السهولة التكهّن أنّه جاء من باب التأسّي عقب هزيمة أمت بالمسلمين، ولا ندري إن كان ذلك النصّ كاملاً أم له علاقة برسالة أو بخطبة معينة، وعلينا الاعتراف بأنّ ظروف الهزيمة، وإدبار الدهر هي ظروف متكرّرة تمرّ بالأمم جماعات وأفراداً، وما المآثورات السابقة إلا تعبير عن هموم إنسانية، تدعو المواقف المتشابهة إلى تداولها واستخدامها. وبالعودة للنص السابق فإننا نجد الاقتباس من القرآن الكريم سمة عزّرت فكرة الحمد في كلّ الظروف والأحوال، وأمّا التزام السجع إلى حدّ ما فمما يُسهّل حفظ مثل هذه المآثورات، مع التحفظ على أنّ تلك الأقوال كانت في الأساس تُكتب لتُحفظ أو لتتداول.

وأما النصّ الأخير فهو في حمد الخالق على نعمة الأمن والانتصار على أعداء المسلمين، وزوال الفتنة وهدوء النفس، ونقرأ عند ابن بُرد: "الحمدُ لله مؤلّف الآراء، وجامع الأهواء على ما أغمد من سيف الفتنة، وأطفأ من نار الإحنة... وأصلح الفاسد وألّف الشارد، ونشر الأمن وأحيا الحق، وجمع الشمل ووصل الحبّل، ورجع الكلمة إلى أجمل نظام، وأنعم على المسلمين أتمّ إنعام... والحمد لله الذي صير أعداءنا في أعدائنا، وأضادنا من أعضادنا، والسيوف المسلولة علينا مسلولة دوننا، والجيوش المجهزة إلينا مجهزة عنا حمد من لا يستغرب له صنعا ولا يرى من آياته بدعاً، ولا يطيق لنعمه عدّاً، ولا يحدُّ لآلائه حدّاً."^(٥)

(١) الجُدود: الحظوظ جمع جدّ، وهو البخت والحظّ. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة جدد).

(٢) كهم: الكلّ بحيث لا يعود السيف قاطعاً. انظر المصدر نفسه (مادة كهم).

(٣) سورة آل عمران آية (١٤٠).

(٤) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ٤٩٣.

(٥) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٤٩٤.

يقدم النص السابق نموذجاً على حمد الله بعد أن حقق النصر والأمن. وتؤكد بعض الإشارات ارتباط النص السابق بمناسبة بعينها، إلا أن عمومية ذكر النصر تجعل هذا النص قابلاً للتداول في أي مناسبة مشابهة؛ فنقف مثلاً عند الإشارة للفتنة، ونربطه بما عرف زمن ابن بُرد بالفتنة البربرية التي جرت ويلات وويلات، ليغدو النص السابق - على هذا التخريج - وثيقة سياسية اجتماعية تؤكد اشتياق أهل الأندلس في ذلك الزمان إلى الأمن والطمأنينة، وحاجتهم الملحة لمن يعبر عن هذا الهاجس. أما فنية النص فخدمتها تلك الصور البيانية التي جعلت الفتنة سيفاً أغمد، والحمد ناراً أخدمت، وتوالت تلك الصور المعززة لفكرة حمد الخالق على نعمة الأمن، ليأتي الترادف في نهاية النص مؤكداً قدرة الكاتب على توليد المعاني وتثبيت الأفكار.

أما الموضوع الثاني الذي طرّقه ابن بُرد فكان في شكر النعم، ويطل الحسّ الديني والإنساني من بين ثنايا عبارات الكاتب، ومن ذلك: "إنّ للنعم عيوناً إذا كُحلن بالشكر أرين المنعم عليه السبيل التي يأتي المزيد منها، وتنحدر المواد عليها والمناهج التي تُقضي بها إلى دار إقامتها وتبلغها مأمناً ملقى عصاها."^(١) يمكن قراءة القطعة النثرية السابقة من منظور الصور الفنية المتداخلة، فالنثر يجعل النعم عادة حسنة، ويجعل كحل عيونها هو الشكر، الذي يُقضي بدوره بها إلى تخير حُسن المقام وخطّ عصا التنقل والترحال؛ وكأننا في مشهد درامي لتلك الحسنة، وما قام به الشكر من وظائف فنية عادت على المشهد السابق بالحسن الأخاذ، ومثل هذا التصوير على بساطته كبير الأثر في نفس المتلقي.

ونقرأ أمثلة أخرى على شكر النعم، وما يعود على قائله من فوائد، وهي تختلف في فنياتها عما سبق؛ إذ تعتمد الإيجاز الشديد فنقترب بذلك من حكم قصيرة، ومن ذلك: "الشكر حُرْم للمنة وأمان بيد النعمة - إذا أُقل بابُ النعمة فالشكر مفتاحها - الشكر عودة على العارفة وتميمة في جيد النعمة - من شكر النعمة التحف بها، ومن كفرها عُرّي منها - الشكر بيد النعمة أمان وعلى وجه العارفة صوان - مهر النعمة الشكر وطلاقها الكفر."^(٢)

تتشارك العبارات السابقة في بيان أثر الشكر على النعم، وكلها دعوات بيّنة للحث على ضرورة شكر النعمة، وعدم جحدها. وما تنوع العبارات السابقة وقصرها في هذا الموضوع، إلا لعرض خبرة واضحة في شكر النعمة الذي لا يختلف اثنان في ضرورته، ولكنّ التفنن في إبراز أهميته يؤكد ما كان لابن بُرد من تفرّد في التعبير والصيغة، فكلّ العبارات قد تزيّنت بحلى البيان والتصوير.

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٩٤.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٤٩٥.

١٠ - التوقيعات

إن ارتباط هذا الفن بالصبغة الرسمية، قد يفسر لنا جملة من الأمور المتعلقة به فيما وصلنا من توقيعات في عهد الخلافة، فقد وقف صاحب "صبح الأعشى" عند مفهوم التوقيع والتعيين حين مرّ بفصل ديوان الإنشاء وحقيقته وشروط مستخدميه ومهامهم بما نصّه: " أمّا التوقيع فهو الكتابة على الرقّاع والقصص، بما يعتمده الكاتب من أمر الولايات والمكاتبات في الأمور المتعلقة بالمملكة، والتحدّث في المظالم، وهو أمر جليل ومنصب حفيظ؛ إذ هو سبيل الإطلاق والمنع والوصل والقطع والولاية والعزل إلى غير ذلك من الأمور المهمّات والمتعلّقات السنّية. واعلم أنّ التوقيع كان يتولاه في ابتداء الأمر الخلفاء، فكان الخليفة هو الذي يوقع في الأمور السلطانيّة وفصل المظالم وغيرها." (١)

إنّ التعريف السابق يكشف عن الفرق الجوهرية بين الكتاب الرسمي أو الرسالة الرسميّة والتوقيع، فالتوقيع لا يكون إلا ردّاً جوابياً؛ أي لا بُدّ له من كتاب استفساري أو طلبّي، كما أنّ التوقيع - حسبما نفهم من التعريف السابق - يتطلب أن يتمّ على الرقعة أو القصاصه نفسها التي وصل بها الكتاب، ونقرأ أحياناً في بعض التوقيعات إشارة واضحة لهذا حين يرّد خبر التوقيع بعبارة "وقع على ظهره." (٢) وعلى هذا يصبح فنّ التوقيع فناً مستقلاً عن فنّ الرسائل من حيث المضمون الذي يفرضه، والآلية التي يُكتَب بها. ويهمننا من التعريف السابق ارتباط التوقيع برأس الهرم في السلطة، وهذه سمة عُرِف بها التوقيع في بداياته واستمرت إلى زمن مُعيّن، ولم يخرج عهد الخلافة الأموية الأندلسية عن هذا في مجمله، فكثير من التوقيعات التي وصلتنا كانت موقّعة من الخليفة أو من يعادل سلطة الخليفة مثل توقيعات الحاجب المنصور بن أبي عامر. ويفصلّ التعريف السابق مضامين التوقيعات والأمور التي استوجبها، ولا تخرج في حدودها العامة عن الأمور التنظيمية والإدارية ممّا تعلق بتنظيمات الدولة، أو البتّ في حقوق الناس ومظالمهم، فهل خرجت مضامين التوقيعات في عهد الخلافة الأموية عن ذلك الإطار، وإلى أي حدّ استطاعت التوقيعات التي وصلتنا أن تحدّد لنا معالم ذلك الفنّ النثري؟

قبل الخوض في جملة التوقيعات ومضامينها نشير إلى أنّ فنّ التوقيعات يقابله في عصرنا ما يُعرف في المعاملات الرسمية بالشرح على الكتاب، وقد غدا هذا الفن في أيامنا الراهنة وظيفياً أكثر منه بلاغياً فنياً، وأصبحت الدائرة الرسمية هي المؤكّلة بهذا الأمر من باب البتّ في مظلمة أو شكوى أو حتى أمر إداري أو فنيّ. ونستطيع القول إنّ المضمون بقي متشابهاً إلى حدّ ما، لكنّ الفنيّة البلاغية فيه قد تراجعت، ومن الإنصاف القول إنّ هذا الأمر لا

(١) الفلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ١٤٥ - ١٤٦.

(٢) انظر مثلاً على ذلك في توقيع للحكم المستنصر في ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٦٩ - ٧٠.

ينطبق على فنّ التوقيعات، وإنّما يتبع معظم الفنون التي غدّت وظيفية بحتة مثل فنون الكُتب الرسميّة التي تحمل نهجاً معيناً، ولم أّف عند ما سبق إلا لبيان حاجة أطراف الدولة وسكانها إلى نوع من التنظيم والمراسلات بهذا الشأن، وأنّ هذا الأمر مَطْلَب إنسانيّ في ضوء وجود دولة منظمّة على مرّ العصور، وأنّه متى حَمَل صبغة بلاغيّة، وجودة في التعبير وفنّ القول، أمكن إدخاله في الفنون النثريّة الفنيّة وإلا خرج منها، ومنّ الجدير ذكره أنّ ما وصلنا من توقيعات يستحقّ أن يُدخَلَ ضمن الفنون النثريّة في عهد الخلافة الأموية.

يُعدّ ما وصلنا من التوقيعات مقارنة بالإشارات إلى هذا قليل، إلا أنّها على قلتها أعطتنا تصوّراً معقولاً عن التوقيعات التي كانت في العهد الأندلسي قاطبة، إذ يشير كل من د. صلاح جرّار ود. محمد دروبي في مصنّفهما " التوقيعات الأندلسية " إلى أنّ نصف ما استطاعا الوصول إليه من توقيعات يعود إلى العهد الأموي إبان عهدي الإمارة والخلافة^(١)، وأنّ الخليفة الناصر وحده له خمسة توقيعات^(٢)، وهذا العدد من نماذج التوقيعات يشكّل ثاني أكبر عدد أمكّن الوصول إليه. وقد عزا المصنّفان كثرة ما وصلنا من العهد الأموي الأندلسي من توقيعات إلى مجموعة من العوامل، أبرزها النهضة الشاملة التي عمّت معظم مظاهر الحياة، وارتباط التوقيعات بإحكام المسائل التنظيمية الإدارية، وهذا ممّا عُنيت به دولة بني أمية، إضافة إلى منافسة العباسيين وتقليدهم ومحاولة التفوق عليهم في فنونهم المختلفة، ومنّ بينها التوقيعات^(٣).

ومع أنّ المنطقية قد غلبت على العوامل السابقة التي حاولت تفسير ظاهرة وصول هذا الكم من التوقيعات، إلا أنّ قضية العدد قضية قد لا تحمّل معها التفوق لبني أمية، ذلك أنّ العدد يمثّل ما أمكّن وصوله عبر المصادر، وقد يكشف الزمن لنا عن مصنّف واحد يحمل ما يفوق ذلك بكثير، وتوقّعي هذا ألتمسه من كلام المصنّفين السابقين اللذين أشارا في الكتاب نفسه إلى أنّ عصر بني الأحمر قد حمل اهتماماً كبيراً بالتوقيعات، وأنّ توقيعات كثيرة كانت لهم إلا أنّ ما وصلنا قليل. وقد عزا المصنّفان بعض أسباب ذلك إلى ضياع كثير من المصادر جرّاء الفتن التي نشبت في غرناطة في القرن التاسع الهجري، أو جرّاء الحريق الذي أضرمه الإسبان بالمخطوطات العربية عند استيلائهم على غرناطة^(٤). ولكنّ هذا لا يمنع من أنّ وصول النموذج النصّي يعطي في العادة تصوّراً أوضح عن الفن الأدبي، وأعتقد أنّ المصنّفين كانا يقصدان هذا

(١) انظر جرّار، صلاح، الدروبي، محمد، التوقيعات الأندلسية، منشورات جامعة آل البيت، ٢٠٠٠. ص ٣٧.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨.

(٣) انظر تفصيلاً حول هذه الآراء في المرجع نفسه ص ٣٧ - ٣٩.

(٤) انظر المرجع نفسه ص ٤٧.

الأمر أكثر من الإشادة بتميّز فنّ التوقيع في العهد الأموي، فلا يمكننا البتّ بتميّز فنّ في عصر ما بالنظر إلى ما وصلنا من عدد النصوص فحسب، ولكننا في الوقت نفسه لا نقوى على التعرف إلى المميّزات الفنيّة والخصائص العامة للمضمون إلا ممّا وصلنا من نماذج نصيّة.

أمّا مضامين فنّ التوقيعات في عصر الخلافة الأموية فكانت متنوعة، بيّنت بعضها الأحوال السياسية والإدارية التي كانت موجودة؛ ومنها توقيعات للخليفة الناصر تعكس ما كان بينه وبين بعض المتمرّدين على الطاعة، ومن ذلك ما ينقله ابن حيّان: "عندما ثار مطرف بن منذر التحبيبي في قلعة أيوب مُستعيناً بالمشركين، أرسل له الخليفة الناصر كتاباً يطلب منه التبرؤ من النصارى، ووقع في الكتاب الذي أنفذه بذلك أسطراً بخطّه يؤكّد له بما بذله من نفسه، ويبسط له أن يتوثّق منه في إتمامه. وحُفظ عن مطرف أنه قال لمن حضره عند وقوفه على كتاب الناصر: أقطع يميني عن شمالي؟ فوقع عبد الرحمن الناصر على ظهر الكتاب المردود: "كان جواب مطرف بن منذر عند قراءته لهذا الكتاب بما بُذل له، وسئل من أمر الشرك فيه أن قال لمن حضره: أقطع يميني بشمالي، فجعل المرتدّ الشّرك والخلعان يمينه، والإسلام والسلطان شماله، فبعداً وسحقاً لمثله، أولى له ثمّ أولى، لقد ضلّ سعيه، وخسر خسراناً ميبيناً." (١)

يحمل خبر التوقيع السابق إشارتين تستحقان الوقوف؛ الأولى أن هذا التوقيع يُخبرنا عن رسالة أو كتاب سلطانيّ نلمس منه أن كاتب الخليفة ووزيره قد يكون أنشأه، وأن الخليفة من شدّة حرصه على نفاذ ما فيه شرح بنفسه عليه. وفي هذا اختلاف عما كان يشيع عن فنّ التوقيع من أنه في العادة يكون ردّاً جوابياً، ومعنى ذلك أن لهذا التوقيع طابعاً خاصاً. وأمّا الإشارة الثانية فيمكن استخلاصها ممّا وقّعه الخليفة بعدما حضر رسوله - على الأغلب - الذي أخبره برده فعل مطرف بن منذر بعبارة "أقطع يميني عن شمالي"، فالتوقيع السابق حمل سمة اتّخاذ الموقف على الجملة، وإشهار ذلك الموقف من قبل الخليفة، وإلا لاكتفى الخليفة بقول ذلك كلاماً لا كتابة، وما قيام الخليفة بتفسير عبارة "أقطع يميني عن شمالي" - على وضوحها في السياق الأنف - إلا من باب تأكيد استياء الخليفة لما بدر من مطرف، ومع هذا فالمنطق الأدبي يستدعي أن يكون التوقيع في عبارات الدعاء الأخيرة فحسب. أمّا التوقيع نفسه فجاء مختصراً لم يزد على ردة فعل لعبارة مطرف المستقرّة. ولم يُثبت لنا ابن حيّان التوقيع الذي أرسل مع كتاب الخليفة إلى مطرف، لكنّ الإشارة واضحة إلى أنه كان طويلاً نسبياً، فقد أشار ابن حيّان إلى ذلك بعبارة "وقع له... أسطراً". وإذا ما سلّمنا أن التوقعين كانا في الموضوع ذاته رأينا أن الطول النسبيّ

(١) ابن حيّان، المقتبس (تحقيق الحجي) ج ٥، ص ٣٩٦.

قد غلب على نموذج التوقيع الذي أرسل أولاً، ومسوّغ ذلك قد يكون في أنّ مخاطبة العدو الداخلي ممّن يخرج على الطاعة تحتاج لإطالة نسبياً تقي شر الفتنة ما أمكن^(١).

ولم تتعدّ النماذج الأخرى للخليفة الناصر في عرضها العام ما سبق، وإنّ اختلفت في الطول النسبي والفنية^(٢)، ولعلّ أكثرها إيجازاً جاء من باب الترفع عن فحش القول فيما وصل عن أمير أفريقية معدّ بن إسماعيل الشيعي الذي تطاول في السبّ وفحش القول، فما كان من الخليفة الناصر إلا أن وقع "يا هذا، عرفتنا فسببتنا، وجهناك نحن فأمسكنا عنك"^(٣). ومضمون التوقيع السابق يشير إلى الحنكة السياسية التي تمتع بها الخليفة الناصر، وانعكست على أدائه السياسي؛ فما ترفعه عن الدخول في الترهات إلا من باب سموّ الخلق الذي يليق بخليفة تشغل أحوال البلاد فكره بدلاً من الدخول في الشتم والقذف. والموقف السابق احتاج من الخليفة ذاك الإيجاز الذي حمل أناة واضحة في تحمل الشتم، والاكتماء بالترفع عن الجاهلين، وإن كان بعض الدارسين يرى في التوقيع السابق ردّاً قاسياً يفوق الشتم. إنّ ارتفاع درجة التكتيف في التوقيع السابق ينم عن تميّز الخليفة الناصر في هذا الفن، وقد تنبّه بعض الدارسين إلى ورود هذا التوقيع في أكثر من مصدر أندلسي منسوباً لأكثر من خليفة وشخصية، وفُسّر ذلك على أنه ليس من باب الخُط في المصادر، ولكن من باب شيوع هذا التوقيع وتداوله في المواقف المشابهة؛ وما ذاك إلا لبلاغة هذا التوقيع^(٤) وتميّزه.

أمّا نموذجاً الحكم المستنصر في فنّ التوقيع فقد حفظهما لنا ابن حيان، جاء الأول في موضوع إنساني تعلّق بمرض وزيره جعفر المصحفي الذي أرسل له كتاباً يوصيه خيراً بأهله، فوقع الخليفة مخاطباً ومجاوباً بخطّ يده على ظهر كتابه: "قرأنا كتابك بما ذكرت من اشتداد حالك ووقع بأسك وارتفاع رجائك، فعظم علينا ذلك، وكثر غمنا به، وأشفقنا منه، ونرجو أن يأتي الله بخير ويعقب بعافية، فإن كان ما لا بُدّ من كونه قريباً أو بعيداً أو تخطّانا، فكلّ ما سألت ورغبت في نفسك وأهلك ومن نتخلف، فعلى أفضل الذي رغبت وأردته وأملته ورجوته، فما أعلم رزية أعظم من رزيتك لدينا، لما بلوناه من شكرك، ومجهود حرمتك ومحمود صحبتك.

(١) انظر جرّار والدروبي، التوقيعات الأندلسية ص ٦٢.

(٢) انظر توقيعات الخليفة الناصر الأخرى مُخرّجة في المرجع نفسه ص ١٢٣ - ١٢٤.

(٣) ابن سماك، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء (مجهول تاريخ الوفاة)، الزهراء المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، ط ١ (تحقيق محمود مكي)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤. ص ١٤١، وانظر المقرّي، نوح الطيب ج ٣ ص ٥٥٨ مع اختلاف في القصة المروية إذ ذكر المقرّي التوقيع بكتاب منسوب إلى العبيدي ملك مصر، وأمّا نص التوقيع فجاء في اختلاف طفيف وكان نصّه: "أما بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجيناك والسلام".

(٤) انظر في هذا الرأي جرّار والدروبي، التوقيعات الأندلسية، ص ٩٢ - ٩٣.

وإنّا لم يردّ علينا من قبلك وناحيته قطّ ما أغمنا، ولا ما أنكرنا، ولا سوء ثناء قطّ بشيء ظاهرًا ولا باطنًا، فإنّ تكن المصيبة فإنّا لله وإنّا إليه راجعون، وإنّ تكن العافية فالحمد لله ربّ العالمين على جديد أفضاله، وجميل بلائه، وعلى كلّ أحواله. والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته." (١)

يحمل التوقيع السابق - في ظني - رسالة شخصية أكثر ممّا يمثل سمة التوقيع، ولو عدنا إلى تعريف القلقشندي للتوقيع، لوجدنا النص السابق يبتعد قليلاً عن المضامين المعتادة في أمور الدولة والمظالم، إلّا إذا تجاوزنا ذلك إلى قضية المنح والوصل، وعددنا ذلك من باب الوصل المعنوي. ومع هذا فنعتقد أنّ التوقيع السابق أقرب في سماته العامة إلى الرسالة الإخوانية منه إلى التوقيع، وقد يغدّي هذا التصور الطول النسبي الذي جاء عليه إضافة إلى المضمون. ومع ذلك فلا نستطيع إخراجنا من باب التوقيعات؛ ذلك أنّ الحكم قد وقّع على الكتاب نفسه بخطّ يده، وهذا شرط أساسي لدخوله في باب التوقيعات. ويقدّم التوقيع السابق لنا دراسة نفسية في علاقة أصحاب السلطة بموظفيهم التي بدت على أفضل حال في زمن الحكم، حتى إنّ الوزير الصحفي يوصيه خيراً بأهله، وفي هذا تأكيدٌ لأثر علاقة السلطة بموظفيها، وظلال ذلك على الأدب والنصوص النثرية خاصة.

ونضيف إلى ما سبق توقيعين آخرين، يمثّل أحدهما الحاجب المنصور الذي يمكن عدّه الرجل الأول في الدولة أيام خلافة هشام، ويختصّ الآخر بالقاضي البلوطي الذي مثّل أيضاً ظاهرة متقرّدة في البلاغة المرتجلة على الأخصّ، فلننظر في أحد توقيعاته كيف جاء، وهل قدّم نموذجاً فريداً؟

شغفت كتب المصادر الأندلسية بنقل توقيعين ظريفيين للحاجب المنصور، ويبدو أنّ ظرف التوقيع والقصة المتعلقة بهما هي التي دعت لذلك، وإلا فلا نتوقع أنّ المنصور لم يوقع إلّا على ما وصلنا، ولعلّ هذا أيضاً يقدّم تفسيراً عاماً أحياناً فيما يُنقل أو يُثبت عن ملك أو خليفة وأعني بذلك تفرّد قصة بعينها وجعلها سائغة على الألسن^(٢). ومن ذلك أنّه "عُرض على المنصور بن أبي عامر اسم أحد خدامه في جملة من طال سجنه، وكان شديد الحقد عليه، فوضع على اسمه بأن: "لا سبيل إلى إطلاقه حتى يلحق بأمه الهاوية". وعرف الرجل بتوقيعه، فاغتم وأجهد نفسه في الدعاء والمناجاة، فأرق المنصور بن أبي عامر على إثر ذلك، واستدعى النوم فلم يقدر عليه، وكان يأتيه عند تهويمه آت كرية الشخص، عنيف الأخذ يأمره بإطلاق الرجل، ويتوعده على حبسه، فاستدفع شأنه مراراً، إلى أنّ علم أنّه نذير من ربّه، فانقاد لأمره، ودعا بالدواة في مرقدة، فكتب بإطلاقه، وقال في كتابه: "هذا طليق الله على رُغم أنف ابن أبي

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ٦٩ - ٧٠.

(٢) انظر حول قصة التاجر الذي أضاع ماله والتوقيع الذي صدر بشأنه من قبل الخليفة الناصر في ابن سعيد،

عامر" (١). والتوقيعان السابقان يمثلان جانباً من شخصية ابن أبي عامر التي اتّسمت بالحدة والحزم في اتخاذ القرار، إضافة إلى أنّ الإيجاز يؤكد فنيّة التوقيع العالية التي بدا عليها، ولما كان التوقيع هو ردة فعل على ما يُقرأ في رُقعة معينة، فإنّ إثبات وجهة النظر أو ردة الفعل تعلق في قيمتها البلاغية إذا حملت تكثيفاً للعبارة تتم عن سرعة بديهية، وأما إن احتاج إلى تأنق وروية في الكتابة أضحى إلى فنون أخرى أقرب كالرسالة مثلاً.

وغني عن القول إنّ القصة الأنفة التي حملت توقيعين لابن أبي عامر قصة فريدة تحمل الظرف والانسحاق للقدر من شخصية صلبة كالحاجب المنصور مما جعلها قصة متداولة. أمّا شدة الإيجاز، وتكثيف التوقيع فنقرأه عند القاضي البلوطي، وقضية ارتباط التوقيعات بالقضاة أمرٌ لافت؛ ومسوّغ ذلك بآئن فيما حمّله لنا تعريف التوقيع المتعلق بقضاء حوائج الناس ومظالمهم، وما من مكان تُرفَع إليه المظالم أكثر من دُور القضاء، وإذا ما عدنا إلى نموذج البلوطي فإننا نطالع ما نصّه: "إنّ بعض أهل المجانة والظرف كتبوا إلى القاضي منذر بن سعيد البلوطي

قلّ لقاضي الجماعة البلوطي ما ترى في خريدة كالخُوط

ناكها للشواب قوم ظراف هل ترى سيدي بذا من سُقوط

فوق لهم في كتابهم: "لا" مفردة. فقال له من حضر: ما هذا؟ فقال أردتُ لا أرى ذلك، فقالوا: لا يفهم عنك إلا غيره، فقال: كلُّ يجاوب على مُعتقده" (٢). والتوقيع السابق الذي حمّل كلمة واحدة هي كلمة "لا" حظي على استحسان، وكشّف عن روح الظرف والتندر لدى القاضي البلوطي، إضافة إلى فطنته في صياغة توقيع الردّ، ويبدو أنّ هذا ينسجم وشخصيته التي نقرأها في مصادر الترجمة، ومن ذلك ما ذكره الحميري: "كان - رحمه الله - على مئانة دينه وجزالة في أحكامه، حسن الخلق كثير الدعابة" (٣). فوصول التوقيع إلى لفظة واحدة يحتاج إلى مهارة في حسن اختيار هذه اللفظة وجزالة معينة. أمّا بعض التوقيعات الطويلة نسبياً فقد ارتبطت بالمناسبة التي اقتضت التفصيل، ولكن في موقف الدعابة والظرف، فلم يحتمل التوقيع أكثر ممّا سبق.

وتبقى الكلمة الأخيرة في التوقيعات رهاناً على سرعة البديهة والموقف الذي يتطلب الردّ العاجل. وإذا كانت التوقيعات الأندلسية في هذا العهد تقليداً لما كان في المشرق، فإنّه من الإنصاف الإشادة بتفوق هذا الفن فنيّة وأداءً، ولا ضير في الاتّباع إذا كان يلائم البيئة الجديدة.

(١) ابن سمالك، الزهرات المنثورة ص ٨٤ - ٨٥.

(٢) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٥٠.

(٣) الحميري، صفة جزيرة الأندلس ص ١٤١.

١١ - المناظرات

يقوم هذا الفن على إظهار براعة التميّز أمام الآخر، فيما يستخدم الآخر كل أدواته لإظهار تميّزه. ويستأنس هذا الفن بالحجة وبالأية، وهذا يتطلب فنيّة عالية في ابتداع المعاني، وفي سياق الحجة وفي دحض المقابل. ولم أعر - على حدّ اطلاعي - إلا على مناظرة ابن بُرد الأصغر في المفاخرة بين السيف والقلم، ولهذا ستكون هي النموذج على فن المناظرات، وقد أرّخ ابن بُرد بهذه المناظرة لفنّ شاع فيما بعد في الأندلس^(١)، وأمّا حول ريادته في هذا الفن، وعلى الأخص في موضوعي السيف والقلم، فيطالعنا صاحب المطمح بما نصّه: " وأبو حفص هذا بديع الإحسان، بليغ القلم واللسان، مليح الكتابة فصيح الخطابة، وله رسالة السيف والقلم، وهو أول من قال بالفرق بينهما."^(٢)، وأمّا المناظرة نفسها فيمكن قراءتها من داخل النص نفسه فماذا عسانا نقرأ؟

السيف والقلم بين الخصام والعناق

تلوح مصادر القوة في الدنيا من ثانياً متعدّدة، وهذه الفكرة التقطها ابن بُرد الأصغر مجرباً مفاخرة بين مصدرين من مصادر القوة هما السيف والقلم. ويمكن مطالعة هذه المناظرة من مشاهد ثلاثة؛ أمّا الأول فكان في تمهيد الحدّث وتنظيم اللقاء بين السيف والقلم، وأمّا الثاني فكان في ميدان استعراض الحجج لكلّ منهما في حقّ أفضليته، وجاء الميدان الأخير في عقّد الصلح والإقرار بفضليهما معاً. والميادين السابقة كأنّما تقرّب هذا الفن من جلسة محاكمة وإصدار حكم، فإذا كان كذلك، فماذا نقرأ من أدلّة، وكيف صدر قرار الحكم؟

بدأت مناظرة ابن بُرد في إظهار القوة والسبق والغلبة لكبيرين عظيمين هما السيف والقلم، ومن ذلك: " فإنّ السابق من جوادين سبقاً في حلبة، وقضيبين نسقا في تربة، والتحاسد من نجمين أنارا في أفق، وسهمين صارا على نسق. والتفاخر من زهرتين تفتحتا من كمامة، وبارقتين توضحتا من غمامة"^(٣). لقد تميّز ابن بُرد في التمهيد لهذه المفاخرة، فلا يزال من يقرأ هذه التوطئة ينظر بشغف عمّن الحديث، وكلّ ذلك بحسن تصوير وتنوّع عرض، وفي هذا حسن بدء وبديع تشويق، ولم يكتفِ ابن بُرد بتلك التشبيهات ليعلن شرارة البدء، وإنّما أردفها بما يُوجب المنافسة، وكيف يشبّ شيء على الآخر أحياناً، وإنّ كانا في الميدان نفسه، فنقرأ بأدبيّة عالية

(١) انظر مثلاً على ذلك في رسالة الشقندي التي فضّل بها الأندلس على المغرب في المقرّي، نفح الطيب، ج ٣،

ص ١٥٦ - ٢٢٠.

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٠٧.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٥٢٣.

وفنيّة بلاغية ما نصّه: " وربّما امتدّ أحد الجوادين بخطوة، أو خصّ أحد القضيبيين بربوة، أو كان أحد السهمين أنفذ مصيراً، أو راح أحد النجمين أضواً تنويراً، أو غدت إحدى الزهرتين أندى غضارة، أو أمست إحدى البارقتين أسنى إنارة؛ فالمقصر يرتقب تقدماً وتقارب الحالتين في المجانسة يشبّ نار المنافسة، وإن حال بينهما قدح النقاد، وقبح تحاسد الأضداد." (١)

ما تزال قريحة ابن بُرد تتهدى في جمل قصيرة، وموازنات تتركز في معناها وتنصبّ على هدف يقُدح الفكرة التي يبغيها، ألا وهي كفيّة تولّد روح المنافسة. وقد وظّف ابن بُرد فكرته الأولى فيما استخدمه من وصف متعدّد ليؤكد هذه الفكرة ويعزّزها؛ فتقارب الحالتين في المجانسة هو الذي يشبّ نار المنافسة. ويسنّ ابن بُرد قراراً واضحاً قبل البدء في استدعاء الأدلة والإدلاء بشهادة متافسيه هو بمثابة السُنّة والتشريع في الفرق بين المنافسة والعداوة، وكأنّي استشفّ روح ابن حزم هنا الذي قاسى الفتنة وجنّح إلى الألفة، فلا يبتعد ابن بُرد عنه وهو ابن زمن الفتنة أيضاً؛ فالحسدُ والقدح غير الاعتراف بالفضل أو إحقاق الأشياء منازلها، وعلى هذا فمن المنصف الاعتراف بإمكانية إخضاع هذه المفاخرة للرمزية؛ فالقلم أبكم إن لم يكن بيد من يُجربه بالحق، والسيف قطعة حديدية قد تصدأ دون أن تُسنل من غمدها، وقد تقطر دموعها دماً على ظلم اقترفته، وإذا كان ابن بُرد قد لمّح بذلك التشريع إلا أنه أجل التصريح بهذا إلى نهاية الجلسة، فقد أعقب ما سبق أن دخل بوابة التصريح مُعلنًا أن المتباريين في ميدان السبق هما السيف والقلم، وأن كلاً منهما يدعي العلو، حتى وصلا لمرحلة تنافر وشقاق، إذ كلُّ منهما يدعي هذا الشرف ويعيبه على غيره. ونقرأ فيما صاغ ابن بُرد ما نصّه: " وإنّ السيف والقلم لما كانا مصباحين يهذيان إلى قصد من بات يسري إلى المجد ومجمعين لا يفرق تجميعهما، جرّراً أذيال الخيلاء تفاخراً، وأشماً بأنف الكبرياء تنافراً، وادّعى كل واحد منهما أن الفوز لقدحه ... وأنّ الدر من أصدافه، وأنّ البكر من زفافه." (٢) لقد أقام ابن بُرد هذه المناظرة على الوصف والتصوير وبناء الحدث المتنامي، مختاراً المقال والسّجال طريقاً لذلك، ولا ندري هل يمكن عدّ هذه الطريقة انتصاراً للقلم الذي كان في مناظرة ابن بُرد يشكّل قلم الكتابة ولُبّ الأديب، أم أنّ هذا مجرد اقتراح لآلية عرض المزايا فحسب. وسواءً أكانت النية مبيّنة أم لا، فقد استطاع أديبنا أن ينفذ إلى نهج واضح الدلالة في اختيار ما سيقوله كلاهما، ومن ذلك: "و حين كشف الجدال قناعه، ومدّ الخصام ذراعه وهزّ الإباء من عطفه ... قاما يتباريان في المقال، ويتساجلان في الخصال، ويصف كل واحد منهما جلال نفسه، ويذكر فضل ما اجتبي من غرسه." (٣)

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٥٢٣.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٥٣ - ٢٥٤.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٥٤.

إنّ الدارس لما سبق يلمس طول التقديم والتمهيد الذي اعتنى به ابن بُرد، وهو مَطْلَبُ أراده ابن بُرد في هذا الفن بقصدية واضحة. وعلينا الاعتراف بأنّ أصداء ذلك بقي في النقد إلى عصرنا الحالي، فكم نسمع بعبارة "عليك ألا تهجم على الموضوع هجوماً"، أو "أردتُ بتقديمي هذا عدم الهجوم على الموضوع"، فابن بُرد على هذا لم يثأر البدء بالمفاخرة دون افتراض أرضية صلبة لها، ولم يُفقد ذلك المناظرة فنيته بل على العكس، لقد قدّم هذا التمهيد لرأي كل من السيف والقلم في بروز حقّ أفضليتهما في منطقٍ سلسلٍ مقبول. ونلمح في هذا العرض مَلْمَحِين: الأول قدرة الكاتب على رسم شخصية كل منهما فيما لو درسنا هذه المفاخرة ضمن المنهج النفسي، فالسيف قد بدت عليه السرعة والتعجل والميل للقطع في الحكم فكان حاداً يغلبه الفعل قبل القول، وأمّا القلم فظهرت الأناة على شخصيته، ومال للجدال العقلاني كما سيّضح، وأمّا الملمح الثاني فنراه في انتصار خفي للقلم؛ ففيه بدأت المفاخرة وفيه انتهت، وهو (أي القلم) صاحب الاقتراح بتدوين الصلح بينهما، فهل نستطيع التكهن بأنّ ابن بُرد إنّما يكتب بلسان حاله، وأنّه ينتصر للكُتاب بلغة التلميح، ولكنّه في الوقت نفسه لم يعن القادة وأصحاب السيوف حقوقهم حين مدّ لهم يد الصلح والمساواة، وعلى هذا يكون ابن بُرد أحسّ بظلم الكُتاب في زمنه، فلم يطالب بنسف الآخرين، وإنّما طالب بعدلٍ ورويةٍ إنصافاً أصحاب القلم.

وإذا ما دخلنا ميدان استعراض الأدلة والحجج فنلمح محاولة ابن بُرد في حيادية الطرح، فكلّ منهما قد أدلى بثقل موازينه، ولكنّ تلك الحيادية قد تأثرت بالنزعة الذاتية لكاتبنا، وتبدّى ذلك في إعطاء زمام البدء للقلم، ممّا جعله في موضع الهجوم فيما جعل السيف في موضع المدافع، ومن ذلك: "قال القلم ها الله أكبر أيها المسائل بدءاً يعقل لسانك ويحير جنانك، وبديهة تملأ سمعك وتضيق ذرعك. خيرُ الأقوال الحقُّ، وأحمدُ السجايا الصدق، والفضل من فضل الله - عزّ وجلّ - في تنزيله مُسمّى به لرسوله فقال: [ن * والقلم وما يسطرون] (١) (٢). ولم يكتفِ ابن بُرد بإعطاء زمام البدء، وإنّما جعل حُجة الختام للقلم أيضاً (٣)، وهذا مَلْمَحٌ قد يعضد الرأي السابق في أنّ قصد هذه المناظرة عرض تظلم القلم أمام السيف بكلّ ما يحمل من رمزية ودلالات.

ويأتي الملمح الأخير في مضمون هذه المناظرة يتعلّق بعقد الصلح، أي في نتيجة المناظرة، فقد حُسمت بالعناق ليعلن بلسان حال كاتب من كُتاب عهد الفتنة البربرية الحاجة إلى السلم حلاً للندية والخصام؟ ويبدو أنّ ذلك ما عاد مُجرّد تأويل شخصي لما طُرح من آراء في

(١) سورة القلم الآيتان (١ - ٢).

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٥٢٣ - ٥٢٤.

(٣) انظر المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٥٢٦.

كتاب هذا العهد تحديداً، وإنما سمة تبيّنت في النصوص المختلفة، وبالعودة لنص المناظرة فإنّ الجنوح للسلّم يُقرأ بوضوح بما نصّه: "ولما كثر تعارضهما وطال تراوضهما.... تبادرا إلى السلّم يعقدان لواءها، وإلى المؤلّفة يردان ماءها، وقالوا إنّ من القبيح أن تتشتت أهواؤنا وتتفرّق آراؤنا"^(١).

ويبقى مشهد المحاكمة السابق بما حمل من ملامح متعدّدة يؤكّد تفوّق ابن بُرد في فنّيّة تلك المناظرة، كما تظلّ تلك المناظرة مثالا على فن متفرّد في النثر كان ابن بُرد قطباً مميّزاً فيه في عهد الخلافة الأموية.

ويظلّ التفصيل في الأغراض النثرية لعصر الخلافة مرثناً بما وصلنا عبر المصادر المختلفة، إلا أنّنا ضمن هذا الكمّ النثري استطعنا الخروج بميزة عامة لنثر هذا العهد فيما يختصّ بالأغراض، أعتقد أنّ أبرزها بدا في تميّز بعض الفنون النثرية مثل فنّ مراسلات الورود الذي اكتسب خصوصيّة البيئة الأندلسيّة القرطبيّة، وعلى الكفّة المقابلة يمكن الحديث عن تأصيل لبعض الفنون كفن المناظرات.

أمّا بقية الفنون النثرية فقد تميّز بعضها بالمضامين الفريدة كفنّ القصة الهزليّة عند توابع ابن شهيد، وفنّ المقالة في طوق الحمامة عند ابن حزم، فيما اكتسبت بعض الفنون خصوصيّة من المناسبة الخاصة بدولة جاورت الأعاجم، وملكت أسباب القوّة كما لمسنا في فنّ الخطب السياسيّة، وكتّب السفارات والعهود.

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٥٢٧.

الفصل الثالث

الخصائص الفنيّة للنثر في

عصر الخلافة الأموية

المبحث الأول :- الشخصية الأندلسية

المبحث الثاني :- الأثر الديني

المبحث الثالث :- إطلالة الشعر

المبحث الرابع :- التكتيف والإيجاز

المبحث الخامس :- العمق الزمني

المبحث السادس :- البنية المكانية

المبحث السابع :- لغة النص

المبحث الثامن :- التناسّ

المبحث التاسع :- الروح الدراميّة

الخصائص الفنيّة للنثر في عصر الخلافة الأمويّة

إنّ الوقوف عند بعض الخصائص الفنيّة للنثر في عصر الخلافة الأموية يُسهم في تشكيل التصوّر العام حول هذا النثر، ذلك أنّ الخصيصة الفنيّة المُعيّنة، إنّما تعكس الطريقة التي نُفِّذ بها ذاك النص، وسوف أعرض لهذه الخصائص من زوايا متعددة، لعلّ ذلك يكشف خصوصية هذا النثر في بعض الجوانب، فليس أدلّ من الأسلوب كاشفاً عن تميّز نثر معيّن في عصر من العصور.

أمّا أبرز هذه المداخل في خصائص الأسلوب فيمكن الوقوف عندها تحت المظلات الآتية:-

١- الشخصية الأندلسية والخصوصيّة الفنيّة " بين الإبداع والاتباع "

هل كانت الشخصية الأندلسية في نثرها الفنيّ مقلّدة أم مبدعة؟ وهل استطاعت السّمات الفنيّة أن تُبرز خصوصية معيّنة للأندلس في هذا اللون من الأدب؟ قد يتفق معي الكثيرون بأنّ السؤال السابق سؤالٌ يصعب القطع به، والإجابة عنه بالإيجاب أو بالنفي، لكنني مع هذا سأحاول أن أعرض لأثر الشخصية الأندلسية في الخصائص الفنيّة في عهد الخلافة الأموية.

بدايةً علينا الاعتراف بأنّ الشخصية الأندلسية شخصيّة تميل للنقد، والنقد في طبيعته يفتّض إصدار الحُكم بعد تعليل وإظهار أسباب؛ فالكاتب على هذا يقظ لما يمكن أن يأتيه من الاعتراض والحكم عليه بالفشل، فهل سيكتفي بأدواته الفنيّة، أم سيخضع لسّمات العصر الفنيّة؟ وهذا صاحبُ النَّفْحِ يوكّد تلك الطبيعة الأندلسية بقوله: " وأمّا الكتابة فهي على ضربين أعلاهما كاتب الرسائل، وله حظٌّ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسمائه الكاتب، وبهذه السّمة يخطّه من يعظّمه في رسالة، وأهل الأندلس كثير و الانتقاد على صاحب هذه السّمة لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة، فإنّ كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه، ولا مكانه من سلطانه من تسلّط الألسن في المحافل والطعن عليه." (١)

ولا يخفى على الدارس أثر شخصيّة الأديب نفسه على فنّيته في الأسلوب واللغة، وهذا شيء ملموس في العهد الذي نعرض إليه، ولعلّ فيما يُنقل عن ابن درّاج والجزيري إطلالة معيّنة

(١) المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٢١٧.

على هذه الزاوية، فينقل لنا الحميدي ما نصّه: "إنّ ابن أبي عامر لما فتح شانت ياقيب^(١) أو غيرها استدعى كاتبه هذين، وأمر بإنشاء كتّب الفتح إلى الحضرة، فأما الجزيري فقال: سمعاً وطاعة، وأما ابن درّاج فقال: لا يتمّ لي ذلك في أقلّ من يومين أو ثلاثة، وكان معروفاً بالتنقيح والتجويد والتؤدة".^(٢) ومعنى ما سبق أنّ النموذج النثري كان يختلف في درجة تجويده وتنقيحه. ولكنّ السؤال الأهم هنا هل لهذا أثرٌ على فنيّة الأسلوب؟ يبدو أنّ مثل هذا التأثير ممكن، فابن درّاج مثلاً تأنّق في أسلوبه حتى عكس ذلك على فنيّة عالية تعلّقت بالمضمون، ومثّل هذا التغيير لا بدّ أنّه طرأ من الأسلوب الذي يختصّ بفن نثري دون غيره، وإلا فكيف لنا أن نفسر قول ابن حزم حول ذلك حين قال: "وقد كان أحدث ابن درّاج عندنا نوعاً من البلاغة ما بين الخطب والرسائل"^(٣). ولو أردنا التعمق في عبارة ابن حزم السابقة، فإنّه يمكننا الوصول إلى أنّ الشخصية الأندلسية استطاعت في نموذج ابن درّاج أن تقدّم فنيّة جديدة تختلف عما كانت في المشرق، وأنّ هذا النموذج في أسلوبه قد استُسيغ، وإلا ما كان ابن شهيد بصفته النقدية قد أشاد بأسلوب ابن درّاج بقوله: "والفرق بين أبي عمر^(٤) وغيره أنّ أبا عمر مطبوع النظام شديد أسر الكلام"^(٥). وليس المقصود هنا الحديث عن نثر بعينه، إنّما المقصود هو أثر الشخصية الأندلسية النائرة من حيث أسلوبها.

ولتمكين هذه الصورة فإننا نقف عند أسلوب ابن درّاج في نصّ أظنّه يقترب في أسلوبه ممّا قصد إليه ابن حزم، إذ ينقل لنا ابن بسّام ما نصّه: "وله من أخرى إلى علي بن حمّود^(٦): حسبك الله يا ابن رسول الله، وعلى هدى من الله فيما خفقت إليه رايانك، وصدقت به آياتك جدير أن يعزّ بطاعتك نصرك، كما شرح بتوفيقك صدرك، ويتمّ بتأييده أمرك بما أوليت أوليائه المؤمنين، وأبليت في عباده الصالحين المصابين في الأموال والأهلين أيام تراحمت إليهم أسباب القضاء بالبأساء والضراء، وأبرقت عليهم آفاق السماء بسيوف الأعداء تسحّ بوابل الدماء،

(١) شانت ياقيب: ذكرها الحميري باسم "شانت ياقوب" وهي ثغر من ثغور "ماردة"، وفيها كنيسة عظيمة للروم

يُذكر أنها مبنية على جسد يعقوب الحواري. انظر الحميري: صفة جزيرة الأندلس ص ١١٥.

(٢) الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ١٠٤.

(٣) ابن حزم، التقريب لحدّ المنطق ص ٢٠٥.

(٤) أبو عمر هو نفسه ابن درّاج.

(٥) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٦١.

(٦) علي بن حمّود: أحد الحكام الحموديين، تلقّب بالناصر حين استقلّ بالحكم، وتغلب على البربر وعلى سليمان

المستعين، لكن عبده احتالوا عليه وقتلوه عام ٤٠٨ هـ. انظر في المقري، نفح الطيب، ج ١،

وتموج بأسراب السباء فسرعان ما هاموا... قد جهدوا بالبلاء وعبوا بالداء العلياء، فلئن زلزلت بهم الأرض لقد سكن بهم عزّ سلطانك، ولئن تهافت بهم الذعر لقد اطمأنوا في مهاد أمانك".^(١)

ويلمح الناظر في النص السابق إغراقاً في ضمائر الخطاب مما يقرب النص من ذهن المتلقي وكأنه أمامه، وجاء التأثر الديني منذ البداية معززاً لهذه الرسالة فالخطاب — ابن رسول الله، وعلى هدى من الله " أي أن الاستعانة والتوفيق وهنا قد حملا الدعاء، وهذا مما يكثر في الخطابة أيضاً، أما قصر العبارة والطباق والترادف فكلاً أدوات فنية ظهرت بوضوح، وصبت جميعها في أن يكون النص السابق قريباً من الخطبة التي تعنى بالتأثير على العاطفة. ومع أن الرسالة السابقة تقصد مديح ابن حمّود، إلا أن ابن درّاج قد جعل ذلك المديح يأتي على مَطيّة مُسرعة أزلت المسافات، فكان الممدوح أمام ابن درّاج. ومثل هذا النوع النثري من المُحتمل أنه أثار في الطريقة العامة للرسائل المشابهة في ذلك العهد، وإذا كان ابن حزم قد أسند الريادة في ذلك لابن درّاج فنتوقع أن ابن درّاج هو ابن بيئته وعصره، وأن مثل تلك السمة قد تولدت عنده، وأثرت في غيره فيما بعد. وقد يكون ذلك مؤشراً على تحوّل الخطابة في ذلك العهد من المُشافهة إلى المراسلة، وبعبارة أخرى قد يكون ذلك مؤشراً على رجحان كفة الرسالة على الخطابة، وبخاصة إذا ما قارنا بين ما وصلنا من الفنين، وقد يُعزى ذلك في بعض جوانبه إلى اتساع رقعة الدولة التي احتاجت لفنّ الرسالة لتبليغ سكان الدولة بما تريده، أضف إلى ذلك الوضع السياسي في أواخر عصر الخلافة الذي غصّ بالفتنة والشقاق، فاحتاج إلى مثل تلك الرسائل المؤثرة في العاطفة التي يمكن إرسالها إلى أكثر من شخص وصقّع.

وبالعودة إلى أثر الشخصية الأندلسية النائرة على الأساليب الفنية آنذاك، فإننا نجد أن النثر الأندلسي قد تأثر بما كان في المشرق، وأنه عدّ النموذج المشرقي نموذجاً أعلى يُحتذى. وما حديثي عن ابن درّاج السابق بناف لهذا الرأي بل على العكس، ذلك أن اعتماد النموذج المشرقي الأعلى هو ما حدا بالناثرين إلى التجويد والتفقيح للوصول إلى ذلك النموذج، ولا بأس إن استطاعوا التفوق عليه. ومما يؤكد النمذجة المشرقية ما نقرأه في تنظير ابن شهيد في علم البيان إذ يقول: " ألا ترى أن الزمان لما دار كيف أحال بعض الرسم الأول في هذا الفن إلى طريقة عبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هارون وغيرهم من أهل البيان؛ فالصنعة معهم أفسح باعاً وأشدّ ذراعاً وأنور شعاعاً، لرجحان تلك العقول واتساع تلك القرائح في العلوم".^(٢) فابن شهيد لم يكتفِ بالإشارة لطريقة عبد الحميد وابن المقفع وطبقة الكتاب في ذلك العصر في المشرق، بل

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٦٤.

(٢) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٣٧.

علل طريقتهم في الكتابة بإعجاب شديد وثناء واضح. ويُطل النموذج المشرقي الأعلى حتى من بين ثنايا كتب التاريخ، فهذا صاحب البيان المغرب حين عرّج على أيام المنصور بن أبي عامر، وكيف حمل معه السعد للأندلس لم يجد لذلك عبارة ملائمة أكثر من قوله: "وملك الأندلس بضعا وعشرين حجة، لم تدحض لسعادتها حجة، ولم تزخر لمكروه بها لجة. لبست فيها البهاء والإشراق، وتنفست عن مثل أنفاس العراق"^(١). وقد يلوح هنا سؤال مفصلي يُسأل بالباح حول النثر الأندلسي في عهد الخلافة، فهل كان مقلداً لما كان في المشرق؟ وأرى أنّ الإجابة تتطلب التوضيح لبعض الأمور منها:-

- إنّ وضع نموذج أعلى في الكتابة من خارج الأندلس لا يعني بالضرورة أنّ الأندلسيين كانوا مقلدين في نثرهم، مستسخين لما كان يدور في المشرق من موضوعات وأساليب، وقد مرّ معنا في الفصل الثاني كيف تفوق الأندلسيون في رسائل الورد مثلاً، ممّا يعطيهم النموذج الأعلى في ذلك الفن في اعتقادي.

- إنّ الروح الأندلسية التي صفّلتها الطبيعة الخلابة قد انعكست على فنّيات الأسلوب؛ ومن ذلك روح التندرّ والفكاهة، ولعلّ في نموذج ابن شهيد في الوصف النثريّ للحلواء والرجل الشّره الذي انقضّ على أنواع الحلواء مثلاً طريفاً في ذلك، نستذكر منه قول ابن شهيد: "فصبّها رطبة الوقوع، كراديس كقطع الجذوع، فجعل يقطع ويبلع ويدحو فاه ويدفع، وعيناه تبصّان كأنهما جمرتان .. وأنا أقول له على رسلك أبا فلان؛ البطنة تذهب الفطنة، فلما التقمّ جملة جماهيرها، وأتى على مآخيرها، ووصل خورنقها بسديرها تجشأ، فهبت منه ريح عقيم، أيقنا لها بالعذاب الأليم"^(٢).

- لقد شكّل ذوق العصر أساساً في الفنّيات والأساليب، فأضحى السجع مثلاً مطلباً بذاته يُقصد في الكتابة النثرية، وهذا الذوق انعكس على كثير من الكتابات، كما وجدنا عند ابن شهيد وابن درّاج والجزيري؛ ولكنّ هذا الذوق ارتبط في الوقت ذاته بالقناعة الخاصة للأديب، فبيما وجدنا ابن شهيد مغرّياً بالسجع مقدّماً الحجج التي دعت له لذلك، نجد أنّ ابن حزم مثلاً كان أقلّ ولعاً بذلك، وقد يكون لهذا مسوغاته؛ ذلك أنّ أيّ أساليب فنّية في عصر معين تخضع على الجملة لعنصرين هما: فنّية العصر وفنّية الشخص الأديب نفسه، فابن حزم مثلاً فقيه ظاهري وقّف في

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٢٧٣.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م١/ق١، ص ٢٧١ - ٢٧٢.

وجه الحركات الباطنية، ولذا جاء حتى أسلوبه وبيانه واضحاً لا يحتاج لكبير تأنق حتى تبقى سمة الوضوح هي الأغلب، وأظنني في هذا المقام أخالف ما ذهب إليه د. إحسان عباس حين عدّ إغراق ابن شهيد بالصنعة من باب عدم إجادة التأمل في الحياة والناس مثلما كان في طوق الحماسة لابن حزم، فيقول د. عباس: "ولو قارناه بالتوابع والزوابع لفضلناه لسهولة طبيعته وجريان أسلوبه المسترسل، ولم نجد فيه جلبة لفظية، هذا إلى ما فيه من خصائص الكاتب المتأمل في الحياة، وهو شيء لا يُحسنه امرؤ مُعجَب بذاته مثل ابن شهيد".^(١) وغريب ما ذهب إليه د. عباس أنه عدّ التزويق اللفظي مقابلاً للكتابة في أحوال الناس، والدرس النقدي يقتضي توضيح الأمر بطريقة مختلفة؛ فالمقارنة نفسها قد لحقها حيف - في ظني - إذ قُورن بين فن المقالة الطويلة عند ابن حزم وفنّ القصة الهزلية عند ابن شهيد، وهما فنّان متغايران: ففي حين تتطلب المقالة التركيز على النظرة الذاتية في عرض القضية العامة، فإنّه يحق لكاتب القصة الإغراق في الخيال والبلاغة بما يراه مناسباً لخدمة شخصياته، وأعتقد أنّ تحييز د. عباس لابن حزم على حساب ابن شهيد قد تدخلت فيه النزعة الذاتية؛ لأنّه هو ذاته (أي د. عباس) اعترف بأنّ الصنعة هي سمة عصر ابن شهيد، فقد قال: "وابتليت الكتابة الأندلسية بشدة الزخرف، حتى أصبح التعبد للمحسنات أمراً بارزاً"^(٢). وعلينا التأنّي في قراءة حكم د. عباس الذي عدّ ابن شهيد مُعجَباً بذاته، وكأنّ ذلك قد انتقص من شخصيته، فإذا كان من باب الرأي الشخصي في ابن شهيد فله ذلك، وأمّا إذا كان حكماً نقدياً فقد ينقضه ما تناقلته كتب الأدب والمصادر في تميّز شخصية ابن شهيد وقوة لغته وسرعة بديهته^(٣)، وعوداً على بدء يمكن تلخيص الشخصية بأنّها متبعة للنموذج المشرقيّ في بعض الأغراض أحياناً، مُبدعة في بعض الأغراض متفنّنة في تغاير الأساليب كما رأينا.

٢ - الأثر الديني

إنّ وضوح الأثر الديني في أكثر من فنّ نثريّ في عصر الخلافة الأموية الأندلسية ملمح بارز، بدا في أكثر من فنّية أسلوبية، فمرة كانت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أدوات فنّية في عرض المثال الذي يحتاج إلى بصيرة وتدبّر، وتارة كانت اللهجة الدينية تُطلّ لتمسح النصّ بمسحة معينة، وأحياناً كان الحسّ الديني هو الذي يبرز أكان في موضوع إنساني عام أم مختصاً بأمة الإسلام. وقبل التفصيل فيما سبق وعرض المثال والنموذج الذي يكشف ويوضّح،

(١) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٣١١.

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠١.

(٣) راجع الإشارة إلى ذلك ص ١٥٥.

نتوقّف عند ما جاء في "صبح الأعشى" حول ضرورة الاستشهاد بالقرآن الكريم، وبخاصة في بعض الفنون النثرية مثل كتب الفتوحات ورسائل الحضّ على الجهاد، والوصايا والخطب وفنّ الشكر والتحميدات، إذ ينقل لنا القلقشندي ما نصّه: "ولا شك أنّ كاتب الإنشاء من أحوج الناس إلى الاستشهاد بكلام الله تعالى في أثناء محاوراته، وفصول مكاتباته والتمثل بنواهيته وأوامره، والتدبّر لقوارعه وزواجره، وهو حلية الرسائل وزينة الإنشاءات، وهو الذي يشدّ قوى الكلام، ويثبت صحته في الأفهام، فمتى خلت منه كانت عاطلة من المحاسن، عارية من الفضائل لأنّه الحجة التي لا تدحض، والحقيقة التي لا ترفض".^(١)

أمّا الاستشهاد الصريح بالآيات القرآنية فلمحناه جيداً في كتب الفتوح، ومن ذلك في كتاب الناصر لدين الله إلى الأفاق بفتح قلعة ببشتر: "وداخلها من جناتها ومصانعها موقية من قطينها خاوية على عروشها، كأنّ لم يغن بها ساكن، ولا استوطنها قاطن قد [أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب]^(٢) بما اقتروا، وصار جميع ما كانوا فيه من ظلّ العافية وأنقّ النعمة ثبورا^(٣)، وكلّ ما مناهم الشيطان غروراً، فكم بقعة فيها كانت بالكثرة مأهولة وبالثروة معمورة، فقد صارت أخلى من قفر وأوحش من قبر! وكذلك فعل الله تعالى جدّه، وإنّ طالت نظرته للكافرين، ومهلته للقوم المجرمين [إذا أخذ القرى وهي ظالمة إنّ أخذه أليم شديد]^(٤) وأمرنا عند ذلك بتخريب مدينة ببشتر... نسفاً لقرارة المشركين المعتدين، وطمّساً على دار الشرك، وقطعاً لآثار الإفك [فأصبحت كالصريم]^(٥)... فاعلم ذلك وقف عليه واستشعر حمد الله".^(٦)

ويتضح للدارس أنّ الاقتباس من القرآن الكريم جاء مكتفياً ضمن فنية أسلوبية، فلم يكن من باب الاستشهاد بالحجة القوية فحسب، بل كان يقوم مقام المعنى البلاغيّ، وهذا يدلّ على قدرة بيانية عالية، فجاءت الآيات في حسن توظيف، ناهيك عن إعجازها في المعنى، وهذا لا يتأتى لأي كاتب، فلا بُدّ أنّ كاتب النص كان على قدرة بلاغية أحسن فيها توظيف الآيات القرآنية الكريمة.

أمّا الغرض النثري الثاني الذي يلمح فيه الاستشهاد بالآيات القرآنية فهو الخطبة، وغني عن الذكر أنّ الخطب الدينية تركز على هذه السمة، لذا سأنّحي هذا النوع من الخطب، وألج إلى

(١) القلقشندي، صبح الأعشى، ج ١، ص ٩٥.

(٢) سورة الحشر الآية (٢).

(٣) ثبور: هلاك وزوال. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة ثبر).

(٤) سورة هود الآية (١٠٢).

(٥) سورة القلم الآية (٢٠).

(٦) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٣٠ - ٢٣١.

الخطب السياسية، وعلى الأخص خطبة البلوطي التي نالت شهرة كبيرة، فنقرأ في خطبة البلوطي حين وقف على أن ديار الإسلام محط أنظار وفود الروم ما نصّه: " فقد فتح الله عليكم أبواب البركات ، وتواترت عليكم أسباب الفتوحات، وصارت وفود الروم وافدة عليكم وآمال الأقيسين والأدنين إليكم يأتون من كل فج عميق وبلد سحيق، لأخذ حبل الله بينه وبينكم، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة تدل على أمور باطنة، دليلها قائم، وجفنها غير نائم [وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ، وَلِيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ، وَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا] ^(١). وليس في تصديق ما وعد الله عز وجل أدنى ارتياب ^(٢). ولا يختلف نهج البلوطي في الاستشهاد عن النموذج الأول، فقد جاءت الآية القرآنية في نموذج بلاغي ومعنى متنسق بين ما قبل الاستشهاد وما بعده، وليس من باب وضع الاقتباس القرآني كدليل ديني، وفي هذا عميق تبخر في آيات القرآن الكريم، وحسن توظيفها في الكلام البشري.

ولم تخل بعض الفنون النثرية التي قد تبدو بعيدة عن التوجه الديني من الاستشهاد بالقرآن الكريم، فقد وجدنا ابن شهيد في قصة التوابع والزوابع يدافع عن وجهة نظره النقدية في البيان ويعززها بقوله تعالى، ومن ذلك ما جرى بينه وبين الإفليبي في استعراض أدوات بيانها، إذ نقرأ ما نصّه: " إنما أنت كمغنٍ وسط لا يحسن فيطرب، ولا يسيء فيلهي، قال: قد علمنيه المؤدبون، قلت: ليس هو من شأنهم، إنما هو من تعليم الله تعالى حيث قال [الرَّحْمَنُ * عَلَّمَ الْقُرْآنَ * خَلَقَ الْإِنْسَانَ * عَلَّمَهُ الْبَيَانَ] ^(٣)، فجاء الاقتباس عند ابن شهيد حجة قوية لدحض الرأي المقابل، فلا مجال لإحضار أي حجة بعد كلامه تعالى.

أما الاستشهاد بالأحاديث النبوية الشريفة، فسمّة برزت في بعض الموضوعات النثرية لهذا العهد، وعلى الأخص في الخطب الدينية كما مر معنا في خطبة ابن المشاط حين مرّ بأحوال المؤمن والكافر ^(٤)، ولم يقتصر الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف على الخطب الدينية بل لمسناه في فن المقالات المطوّلة؛ إذ كان الاستشهاد بالحديث النبوي الشريف معزّراً لما أراد ابن حزم ذكره مثلاً في نم الكذب ^(٥) حين عرّج على "باب الوشاة" في طوق الحمامة.

(١) سورة النور الآية (٥٥).

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٢، ٢٤٣.

(٣) سورة الرحمن الآيات (١-٤).

(٤) راجع الحديث النبوي الشريف في الفصل الثاني ص ١١١.

(٥) راجع الأحاديث النبوية الشريفة في الفصل الثاني ص ١٥١.

ولم يقتصر التأثير الديني على الاقتباس بالنص الصريح من كلامه عزّ وعلا، أو من كلام نبيّه الأمين، وإنما جاءت هذه السمة بآئنة في بعض الأغراض الفنيّة والنصوص المختلفة بما يمكن أن ندعوه بالحسّ الدينيّ أو باللهجة الدينيّة؛ ومن ذلك الكتاب الرسمي الذي وجهه الحكّم المستنصر إلى أحد زعماء قبيلة إطانة مهران فيما نصّه: " وأمره بتقوى الله العظيم، فإنّ الله مع الذين اتّقوا والذين هم محسنون، وأمره أن يحتمل في أحكامه على كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وسنة محمد - صلى الله عليه وسلم - المرسل بهما، ومباشرة أمره بنفسه وحملهم على واضح الديانة ومناهجها المستقيمة، وما عقده منها الكتاب والسنة وأمره أن يعرف للمؤفّة قلوبهم وأهل الطاعة السابقين لهم حقوقهم"^(١). لقد غلب الموضوع الديني على الكتاب السابق ومع أن صبغته العامة أنه رسالة رسمية في تولّي الرياسة، إلا أن الضرورة اقتضت التركيز على المعاني الدينيّة التي لها علاقة بالشرعية الإسلامية في الحكم، وبتغليب الحكم السنّي على ما عداه.

أمّا إذا قلّنا نصوص التحميدات والشكر، فمن المألوف أن نرى غلبة الحسّ الديني على تلك النصوص؛ فنستشعر هذا الحس مع ابن بُرد وهو يحمّد الله بعد تكالب مصائب عدّة ومغادرة السعد لديار الإسلام وأقول النصر، لكنّه لم يفتن من رحمة الله قائلاً: " الحمد لله وإنّ عثرت الجود، وهوت السُعود، المرجو للإدالة، والمدعوّ في الإقالة، والقادر على تعجيل الانتصار والآخذ للإسلام بمنيم الثأر وما أتيت البصائر من تعليل ولا الأعداد من تقليل، ولا القلوب من خور ولا السواعد من قصر، ولا السيوف من كهم ولا الرماح من جزم، ولا الجياد من لؤم أعراق ولا الصفوف من سوء اتّساق، ولكنّ النصر تعذّر والوقت المقدور حضر، ولم يكن لتمضي سيوف لم يرد الله مضاءها، ولا لتبقى نفوس لم يرد الله بقاءها. وفي قوله تعالى أحسن التأسّي [إن يمسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس]^(٢)^(٣) والحسّ الدينيّ السابق له مسوغاته؛ فهو الذي شحذ همة ابن بُرد الذي بدوره أراد أن يشحذ همم المتلقين كلامه في لحظة عصيبة يكون الاتكاء على المعاني الدينيّة هو العلاج النفسيّ لحالة الضعف. ويبدو أن هذا الحسّ الديني قد لمسناه في كثير من الكتب والفنون النثرية إبان عهد الخلافة، ولهذا ارتباط وثيق بالوضع السياسي؛ فدولة الخلافة القرطبية يمكن أن تقسم إلى عهدين؛ عهد الناصر والحكّم والحاجب المنصور وكان رفع راية الجهاد هو ديدنهم، فجاءت كتب الفتح والحضّ على الجهاد والولاء والطاعة بهذا الحسّ الدينيّ العميق، وعهد الفتنة البربريّة التي

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجي) ص ١١٢ - ١١٤.

(٢) سورة آل عمران الآية (١٤٠).

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٤٩٣.

أخذ يتنازع قرطبة فيها الفتن وتكالب المصائب، فجاء الحسنّ الديني في كتابات بعض الناضرين كابن بُرد الأكبر وابن بُرد الأصغر وابن حزم يشدُّ من العزيمة؛ عسى الله أن يفرِّج تلك الكرب. ونقرأ اللهجة الدينية المتأثرة ببلاغة القرآن الكريم في فنّ المقالات على يدي ابن حزم في معرض حديثه عن التفوق الأندلسي في التآليف والمصنّفات فيما نصّه: "ولنا فيما تحقّقنا به تآليف جمّة؛ منها ما قد تمّ، ومنها ما شارف التمام، ومنها ما قد قضى منه صدر ويعين الله تعالى على باقيه، لم نقصد به مباهاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنسميها. والمراد بها ربّنا جلّ وجهه وهو ولي العون فيها، والمليّ بالمجازاة عليها. وما كان الله تعالى فسيبدو" ^(١). إنّ المطالع للنص السابق يستشعر البلاغة القرآنية في الأسلوب الفنيّ لنثر ابن حزم حين قال: "فمنها ما قد تمّ ومنها ما شارف ... ما قد قضى" وكأنّنا في صدّد الآية القرآنية: [من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبّه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً] ^(٢). ومثل هذا الحسنّ القرآني البلاغي ليس غريباً على أديب فقيه مثل ابن حزم.

ولا تغيب مثل هذه اللهجة الدينية والتأثير الديني في الأسلوب عن كتب التقرّيع التي عبّرت عن حالة النكوص عن الجهاد، ونستذكر هنا كتاب الحاجب المنصور في تعنيف بعض القادة والجنود الذين تخلّفوا عن الغزاة معه، ومع ذلك تحقّق له النصر، فأنشأ له الجزيري كتاباً لا نعدم في آخره الأثر الديني، ومن ذلك: "ولولا رجال منكم دحضوا عنكم العار... خرجت للإمام والأمة عن عهدتكم ونصحت المسلمين في الاستبدال لكم، ولم أعدم من الله تعالى عاجلاً نصر. وحسن عقبي؛ فلا بدّ أن ينصر دينه بما شاء." ^(٣) فاللهجة الدينية في آخر الكتاب تتكئ على معانٍ دينية في أنّ النصر وحسن العاقبة من عنده تعالى، وغدّى هذه المعاني الألفاظ المستوحاة من القرآن الكريم كقوله "حسن عقبي" و "ينصر دينه".

ويبقى العمق الديني في أكثر من فن نثري، ممّا يجيز لنا عدّ ذلك خصيصة فنيّة، وإنّ حمّلت الخصوصية لبعض الفنون أكثر من غيرها.

٣- إطلالة الشعر

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ٢، ص ١٨٦ - ١٨٧.

(٢) سورة الأحزاب الآية (٢٣).

(٣) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٧١ - ٧٢.

لم يفتأ الأدب يشع بكوكبي الشعر والنثر، ومن وسط هذه الحقيقة نسال: هل وجود فن نثري معين يعني بالضرورة الاستقلال الكامل بهذا الفن عن باحة الشعر؟ لعل الإجابة الصريحة في هذه المسألة تأتي على لسان صاحب الصناعتين الذي لم يعبر عن رأيه فحسب، وإنما عن واقع الحال المرغوب في الشعر والنثر حين عدّ " أن من أكمل صفات الخطيب والكااتب أن يكونا شاعرين، كما أن من أتم صفات الشاعر أن يكون خطيباً كاتباً" (١). فنستشف من ذلك أن قطبي الأدب يتقارضان. ومع هذا فليس كل فن نثري قابلاً لأن يزيّن بشعر معين، كما أنه ليس كل أديب ناثر بقادر على قرص الشعر، ولو نظرنا إلى عصر الخلافة للمحننا سمة إطلالة الشعر من نظم الناثر نفسه في أكثر من فن أدبي.

نستطيع ملاحظة هذه السمة في فنون المقالة والخطابة وبعض أنواع الرسائل وحتى التوقيعات كما سيأتي لاحقاً، فيما يستأثر فن مراسلات الورد بنصيب الأسد في هذه السمة. وبالعودة إلى أغراض الفنون النثرية فإننا لا نكاد نلمح أثر الشعر في الرسائل الرسمية، ولهذا مسوغاته إلى حد بعيد؛ فقد يُخرج الاعتناء بالشعر وبروز العاطفة فيه ما هو مقصود من الرسالة، وغني عن الذكر أن مضمون الرسالة الرسمية - كما أشير - كان يهتم بالأوضاع السياسية والإدارية ككتب تعنيف القواد أو الولاء والطاعة أو الفتوحات، وهذه في معظمها تتطلب الإيضاح في الفكرة، إلا أن قلة ورود الشعر في هذا الفن النثري لم يمنع من عدّ هذه السمة خصيصة أسلوبية لنثر عهد الخلافة لورودها في كثير من الفنون الأخرى. ففي الرسائل الإخوانية ننبين هذه السمة عند ابن درّاج مثلاً في الرسالة الإخوانية الاعتذارية إلى سليمان بن الحكم بما نصّه: "حاشا لله أن أستشف الحسي قبل جمومه، وأستكره الدرّ قبل حفوله، أو أتعامى عن سراج المعذرة، وأرغب عن أدب الله في نظرة إلى ميسرة، ولكن:

ماذا أقول لأفراخ بذي مرخ
ما أوضح العذر لي لو أنهم عذروا
حمر الحواصل لا ماء ولا شجر^(٢)
وأجمل الصبر بي لو أنهم صبروا
لكنهم صغروا عن أزمة كبرت
فما اعتذاري عن عذره الصغر^(٣)

لقد كان ابن درّاج شاعراً وناثراً، فجاءت الأبيات السابقة في خضم استمناحه واستعطافه للمرسل إليه تعبر بعاطفة قوية عما كان يدور في نفسه، ولم يكن لجوء أديبنا إلى الشعر من باب

(١) العسكري، الصناعتين، ج ١، ص ١٣٨ - ١٣٩.

(٢) راجع نسبة البيت في الفصل الثاني ص ٨٤.

(٣) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٦٣.

عرض الشاهد، لكنّه كان من صلب المعنى الذي قصده، فجاءت معاني النثر والشعر مؤتلفة لم يفصل بينهما إلا النوع الأدبي.

ونتابع إطلالة الشعر بشكل ملحوظ في الفن القصصي، ففي قصة التوابع والزوابع كان المرور بالشعراء بُنية أساسية في بناء القصة الهيكلي، واختار ابن شهيد أن يُطل علينا بنموذجين حين مرَّ بكل شاعر، فتارةً كانت شخصية الشاعر المزور تقرض من شعرها، وتارةً كان ابن شهيد يعرّف بأغراضه الشعرية وبشعره بشكل عام في ردّه على طلب الشاعر حتى يمنحه الإجازة، وهذا مَلْمَحٌ بَرَزَ بشكل ملحوظ ولافت، نستذكر منه على سبيل التمثيل حين مرَّ ابن شهيد بأبي نواس ما نصّه: " فقال لي أنشد حتى أنشدك، فقلت إن ذلك لأشدّ لتأنيسي، على أنه بعدك لمحسن إحسان، فأنشد:

يا ديرحنة من ذات الأكيراح من يصح عنك فإني لست بالصاحي
يعتاده كل محفوف مفارقه من الدهان عليه سحق أمساح

ثم قال لي: أنشد، فقلت: وهل أبقيت للإنشاد موضعاً! قال: لا بدّ لك، وأوعث^(١) بي، ولا تتجد، فأنشدته:

أصفيح شيم أم برق بدا أم سنا المحبوب أوري أزندا
هب من مرقدته منكسراً مسبلاً لكم مرخ للردا
يمسح النعسة من عيني رشا صائد في كل يوم أسدا^(٢)

أمّا في فنّ الرسائل الأدبية (التي نعتناها بالمقالات الطويلة) الذي مثله لنا ابن حزم تمثيلاً وافياً، فلا نعدم السمة السابقة فيه، ففي مقالة طوق الحمامة يُذيل ابن حزم كثيراً من المواقف التي ساقها بأبيات شعرية من نظمه^(٣)، ولست بصدد فنيّة هذه الأبيات وارتفاعها مقارنةً مع نثر ابن حزم^(٤)، ولكنني مع مَلْمَح وجود هذا الشعر بشكل بارز في طوق الحمامة، فنقرأ في مصنّف ابن حزم السابق في باب "علامات الحب" مثلاً ما نصّه: " وهذه العلامات تكون قبل استعار نار الحب وتأجج حريقه، وتوقد شعله واستنطارة لهبه. فأماً إذا تمكّن وأخذ مأخذه، فحينئذ ترى

(١) أوعث: أسرف. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة وعث).

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٦١.

(٣) طالع بعض الأمثلة في ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ١٠٩، ١١١، ١١٣، ١١٦، ١١٩، ١٢٢، ١٢٥، ١٢٧.

(٤) رأت بعض الدراسات التي قامت حول طوق الحمامة أنّ نثر ابن حزم قد تفوق على شعره، انظر حول ذلك في عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٣٠٣، ٣٠٩ - الجيوسي، الحضارة العربية الأندلسية، ج ٢، ص ٩٧٩ - ٩٨٠.

الحديث سراراً، والإعراض عن كل من حضر، إلا عن المحبوب جهاراً، ولي أبيات جمعت فيها كثيراً من هذه العلامات، منها:

أهوى الحديث إذا ما كان يُذكر لي	فيه ويَعْبِقُ لي عن عَبْر أَرْج
إن قال لم أستمع ممن يُجالسني	إلى سوى لفظه المستظرف الغنج
ولو يكون أمير المؤمنين معي	ما كنت من أجله عنه بمنعرج
فإن أقم عنه مضطراً فإنني لا	أزال ملتفتاً والمشى مشى وجي ^(١) » ^(٢)

وإذا ما عرّجنا على فنّ الخطبة، فإننا نجد للشعر نصيباً أيضاً؛ ولنا في خطبة البلوطي المشهورة مثل بيّن؛ فبعد أن وصل البلوطي كلام أبي علي القالي نثراً ذيل خطبته تلك بأبيات شعرية، وكانّ البلوطي ارتأى رأياً نقدياً في أثر الشعر إن كان في نهاية الخطبة، وأن ذلك ممّا يزيد في الأثر عند المتلقين، ومن ذلك: " وقد علمتم ما أحاط بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين، وصنوف الملحدين والساعين في شق عصاكم، وتفريق ملتكم وهناك حرمتكم، وتوهين دعوة نبيكم محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى جميع الأنبياء والمرسلين، أقول قولي هذا والحمد لله رب العالمين، وأنشد يقول:

مقال كحدّ السيف وسط المحافل	فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب نكي ترتمي جنباته	كبارق رعد عند رعش الأتامل
فما دحضت رجبي ولا زل مقولي	ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل
بخير إمام كان أو هو كائن	لمقتبل أو في العصور الأوائل
وفود ملوك الروم وسط فنائه	مخافة بأس أو رجاء لنائل

فقال العليّ، هذا والله كبش الدولة.^(٣) وإذا كان القصد من الأبيات السابقة التمثيل على سمة إطلالة الشعر في فن الخطبة، فإنّ لخصوصية المناسبة والطريقة التي ارتجل فيها البلوطي الخطبة وقفة خاصة، فإذا سلّمنا بارتجال الأبيات السابقة اتضحت لنا الفنية العالية وسرعة البديهة عند خطيبنا في قرضه للشعر، وفيما قدره من أهمية الاختتام بالشعر لما له من أثر في نفوس المتلقين.

(١) الوجي: الذي يتوجع من قدمه. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة وجي).

(٢) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ١٠٥.

(٣) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٣، ٢٤٤ وانظر بقية أبيات الشعر في المصدر نفسه.

أما بروز الشعر في التوقيعات، فقد يراه بعض الدارسين سمة، فيما قد لا يعدّه بعضهم الآخر كذلك، ومردّد ذلك أنّ هذا الفن قد عُرف في الأغراض الشعرية، فجاءت بعض التوقيعات كلّها على شكل مقطوعة شعرية^(١). أمّا ما وصلنا من توقيعات عهد الخلافة الأموية الأندلسية فمعظمه نثريّ خالص؛ ممّا يعني أنّنا نطلّ على هذه السّمة باستحياء في هذا الغرض الفني تحديداً، وإنّ لم نعدم أمثلة قليلة حملت سمة إطلالة الشعر مع النثر، ومن ذلك ما ينقله ابن بسّام في مراسلات تحمل عتاباً^(٢) جرت بين أبي محمد بن حزم^(٣) وأبي المغيرة عبد الوهاب بن حزم^(٤) حيث وقّع أبو المغيرة على ظهر رقعة وصلته ما نصّه: "قرأت هذه الرقعة العاقلة فحين استوعبتها أنشدتني:

نحنح زيدٌ وسعلُ لما رأى وقع الأسل

فأردتُ قطعها، وترك المراجعة عنها، فقالت لي نفسٌ قد عرفت ذكاءها: تالله لا قطعنها إلا يده، فأثبت على ما يكون سبباً لصونها، وقلت:

نعقت ولم تدري كيف الجواب واخطأت حتى أتاك الصواب
وأجريت وحدك في حلبة نأت عنك فيها الجياد العراب^(٥)

أما نصيب الأسد في بروز هذه السّمة فهو في رسائل الورود فيما تباهت به وازدانت، فلم تخل رسالة نثرية من تذييل شعري يؤكّد تفوق صنف من الورود، أو إظهار جمّ محاسنه؛ ونقرأ في مصنف البديع أمثلة عديدة، منها ما كتبه أبو حفص بن بُرد بما نصّه: "ثمّ قام البنفسج فقال: على الخبير سقطت أنا والله المتعبّد له الداعي إليه، المشغوف به كلّفا، المغضوض بيد النأي عنه أسفاً، وكفى ما بوجهي من نذب، وبجسمي من عدم نهوض، ولكن في التأسّي بك أنس، وفي الاستواء معك وجدان سلوّ، ثمّ قام البهار فقال:

ثمّ قالوا تحبّها قلتُ بهراً عدد النجم والحصى والتراب

-
- (١) انظر مثلاً على ذلك في جرّار والدروبي، التوقيعات الأندلسية ص ٦٨ - ٦٩.
(٢) انظر حول هذه المراسلات في ابن بسّام، الذخيرة، م/١ق/١، ص ١٦٢ - ١٦٦.
(٣) هو الفقيه الأديب المعروف أبو بكر بن حزم الذي مرّ ذكره.
(٤) عبد الوهاب بن حزم: هو ابن عم فقيه معروف أبي بكر بن حزم، وهو أديب مشهور ذكره ابن بسّام بقوله: "فارس ميدان البيان، وكان في زمانه في الجد والهزل صاحب اللواء في مجالس الأمراء، وقد أخرجت له من رسائله ممّا جرى بينه وبين ابن عمه ما يسحر الألباب، ويبيذ الشعراء والكتاب" (ت ٤٢٠ هـ). انظر ترجمته في ابن بسّام، الذخيرة، م/١ق/١، ص ١٣٢ - ١٣٣.
(٥) المصدر نفسه، م/١ق/١، ص ١٦٥، وانظر بقية أبيات التوقيع في المصدر نفسه ص ١٦٥ - ١٦٦.

لا تنتظرن إلى غصارة منبتي، ونضارة ورقية، وانظر إليّ وقد صرتُ حدقة باهته تشير إليه،
وعيناً شاخصة تندي بكاءً عليه:

ولولا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي. (١)

ولا تعني سمة إطلالة الشعر أن تكون دائماً من نظم الأديب، فقد تكون من باب الاستشهاد والتمثل كما لاحظنا في البيت الأخير الذي ذكره ابن بُرد فهو للخنساء في رثاء أخيها صخر (٢)، لكنه أحسن توظيفه فجاء متسقاً مع نثره في المعنى. ولما كانت النماذج في هذا الغرض النثري تتوالى تترى فإننا نمرّ بنموذج آخر ذيل بالشعر، وهو من إنشاء وزير الحاجب المنصور أبي مروان الجزيري الذي خصّه بالبنفسج، ونقرأ فيما خطّه الجزيري ما نصّه: " وإن فخرًا باستقلالهما على ساق هي أقوى من ساقِي، فلا غرو أنّ الوشي ضعيف، والهوى لطيف، والمسك خفيف، وليس المجد يُدرك بالصرّاع" كما قال حكيم الشعراء، وقد أودعت - أيّد الله المنصور - قوافي الشعر من وصفٍ مشابهما، وحضرتُ بنفسِي لئلا أُغيبَ من حضرتهما، فقديمًا فضّلوا الحاضر وإن كان مفضولاً، ولهذ قالوا: " ألدّ الطعام ما حضرَ لوقته " و " أشهرُ الناس من أنت في شعره " ولمولاي - أيّد الله - أن يعدل باختياره الصحيح، ويفصل بحكمه العدل إن شاء الله:

شهدتُ نوارَ البنفسج ألسنً	من لونه الأحوى ومن إيناعه
بمشابه الشعر الأثيث أعاره	قمرُ الجبين الصلّت نورَ شعاعه
ولربّما جفّ النجيعُ من الطلّي	بصوارمِ المنصور يومَ قراعه (٣)
فحكاه غيرَ مخالفٍ في لونه	لا في روائحه وطيبِ طباعه
ملكُ جهنّا قبله سبيل العلاء	حتى وضحنَ نهجه وشراعه
أما نداه فهو صنّف للحيا	في صوبه لم أعن في إقلاعه
في سيفه قصرَ لظولِ نجاده	وكمالٍ ساعدهِ وفُسحةِ باعه (٤)

لقد أثرتِ الأبيات السابقة الفكرة المختبئة في تلك الرسالة التي توحى بأنّ البنفسج بما يحمل من صفات تفوقٍ إنّما هو المنصور بن أبي عامر فيما لو تكوّر على هيئة زهرة مثلاً،

(١) الحميري، البديع في وصف الربيع ص ٦٠.

(٢) انظر الخنساء، تماضر بنت عمرو (ت ٢٤هـ)، ديوان الخنساء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠. ص ٨٤.

(٣) النجيع: الدم المائل إلى السواد. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة نجع).

الطلّي: الأعناق وواحدتها طلاة. انظر المصدر نفسه (مادة طلو).

(٤) الحميري، البديع ص ٨١ - ٨٢.

وهذا يعزّز أنّ سمة بروز الشعر داخل النص النثري يقوّي المعنى ويكتّفه، بل ربّما حمل الشعر قولبة المعنى بعاطفة أغنى، ففتح المجال للرمزية والإيماء، وأمثلة النموذج السابق عديدة في مصنف البديع^(١)، يمكن تأويله حسبما سبق. ويبقى استنثار فن الرسائل تحديداً بسمة بروز الشعر ممّا يلمس بوضوح في السمات العامة للنثر في القرن الرابع الهجري؛ أكان ذلك في الأندلس أم في المشرق العربي، وقد عرض د. زكي مبارك في مصنفه "النثر الفني في القرن الرابع" لهذه السمة، وعدّها من أبرز سمات النثر العربي للقرن المذكور.^(٢)

٤ - التكتيف والإيجاز

تتشابك الأدوات الأسلوبية التي تحقّق التكتيف والإيجاز، وتتضارب الآراء النقدية في عدّ هذه السمة تقوية للنص أم تشويهاً، وحتى لا نغرق في عموميات قد تُبعدنا عن دراسة هذه السمة في نثر الخلافة الأموية الأندلسية، فإنّ تقنين الحديث فيما يُستخلص ويستنتج من النصوص أنفسها قد يكون أنجع.

يميل النقد العربي القديم إلى الإيجاز ويفضّله في بعض الفنون وبخاصة الرسمية منها. وينسجم هذا مع ما ينقله صاحب الصناعتين بما نصّه: "يقول جعفر بن يحيى لكتّابه: إن قدرتم أن تجعلوا كتبكم توقيعات فافعلوا."^(٣)

ومعنى ذلك أنّ الإطالة في الفنون الرسمية قد تضيع المطلوب، وتوقع في الغلط، وإذا كان هذا هو الرأي المشرقي النقدي في الفنون الرسمية، فهل وجدت هذه السمة في الأندلس، وهل معنى ذلك أنّ بقية الفنون غير الرسمية اتّسمت بالتطويل؟

نستطيع استجلاء التكتيف والإيجاز في الأدب النثري لهذا العهد في أكثر من سمة

أبرزها:

أ. الدلالات والإيحاءات

إنّ وجود الدلالة العميقة والإيحاء الذي يمكن تشعيب رؤيته من عدة زوايا هو تكتيف وإيجاز، ومثل هذه السمة تلمح بكثرة في الفنون النثرية لهذا العهد (موضوع الدراسة)، وحتى يعضد التطبيق التنظير، فإننا نمرّ ببعض هذه الفنون كفن المناظرات والوصف النثري لنتبين بروز هذه السمة. أمّا عن الإيحاء فلنا في مناظرة السيف والقلم لابن بُرد الأصغر مثال توضيحي

(١) انظر بعض الأمثلة في المصدر نفسه ص ٦١، ٦٤، ٦٩، ٧٠، ١١٧.

(٢) انظر مبارك، زكي، النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، ١٩٧٥، ج ١، ص ١٢٨.

(٣) العسكري، الصناعتين، ج ١، ص ١٧٣.

عليه، فمن خضم معركة السيف والقلم نقرأ ما نصّه: " ولولا جلاء الصياقل صدأك، لأسرعت ذهاباً، وُعدت مع التراب تراباً، فقال السيف: جعجة رحي لا يتبعها طحن، وجلجلة رعد لا يليها مزن في وجه مالك تعرف امرته، وجه لئيم وجسم سقيم، وغرب يفل ودم يطل، ودموع سجام كأنهن سخام، ورأس لم يتغلغل فيه لهب، وجوف لم يتخضض فيه قلب أوحش من جوف العير، يشهد عليه كثرة الجور بقلة الخير، فهب من نومك، وأفطر من صومك، وتحكم بطرف نظار في جسم ماء وحلة نار. إن انتضاني جاهل أو همته أني سائل ففرّ خوفاً أن يغرق، وولّى حذراً أن يحترق... لو انتضيتُ والشمسُ كاسفة لم ينظر وقت تجليها، أو السنون مُجذبة أيقن بالحيا راعيها... فقال القلم: إن كنت ريحاً فقد لأقيت إحصاراً؛ ما كل بيضاء شحمة، ولا كل سوداء تمرة." (١)

لقد كثرت الصور الفنيّة في النص السابق، وكان القصد منها التباهي والتفاخر والحط من الآخر المنافس، وقد ابتعد الكاتب عن العبارة الصريحة الواضحة وحلّ مكانها الإيحاء والتصوير؛ ولم تكن مقابلة الجمل وترادفها من باب الإطالة أو الدوران المفرغ في حلقة واهية. إنّما كان من باب توليد المعاني وثرائها، فما حديث القلم عن الصياقل والصدأ إلا إيحاء بماديّة السيف ونزول قدره إن لم يتسن له من يشحذه، ويبدو أن هذا الإيحاء قد وصل العدو المقذوف، فانبهر السيف يردّ على القلم بالأداة الأسلوبية ذاتها، فكان الحديث عن جعجة الرحي غير المتبعة بطحن إيحاءً ثاقباً عن التقليل من شأن ما سمع، وأنّ الأمور بفعلها لا بقولها، وكأنّه يقول: أنا السيف صاحب الفعل وأنت القلم صاحب القول والكلام فحسب. وحتى يكون لهذا الإيحاء تمكّن ولهذا التكتيف كبير معنى، مرّت جملة " جلجلة رعد لا يليها مزن " كلمة برقي في عيون القلم، والمتلقّي بالطبع، جعلت درجة اليقظة عالية في تلقّي المضمون الذي تتسع دوائر المعنى فيه. ويستمر التصوير الفنيّ الذي يُعلي من درجة الإيحاء ويوسّعه حتى يرسم صورة مقبّنة للقلم، تخلو من عداد الأحياء إلى الأموات، وبشكل الإيحاء ضربية موفّقة حين يصرّ السيف أقول الجبان منه بمن يفرّ من الماء لأنه لا يجيد السباحة، وتستمر الدلالات في النص ككل، فتُشكل إيجازاً يحمل تكثيفاً يضع بين أيدي المتلقّي قدراً كبيراً من الحرية المتاحة في الدلالة بما يخدم فنيّة النص نفسه.

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ٥٢٦.

ب- الرمزية

تُعدّ قراءة نصّ معيّن بفكّ رموزه، طريقة من طرق فكّ النصّ، فهل وُجد الرمز في بعض الفنون النثرية لعهد الخلافة الأندلسية، وكيف يكون الرمز جزءاً من سمة التكثيف والإيجاز؟

يبدو أنّ تحديد ماهية الرمز والرمزية ليست مسألة واضحة المعالم في الاتجاه النقدي؛ إذ يرى "جراهام هو": "أنّ ليس للرمزية بوصفها مصطلحاً أدبياً معنى واضح، فهي ضباب مُشعّ أكثر منها منطقة محددة، وإلحاح متكرّر على أثر قوة الرمز على العمل، وبما أنّ الرموز عروض لفظية أو بصرية، فإنّها تعتبر تحقيقاً لتعقيدات التجربة، وإلاّ كانت غير مفهومة"^(١). ونقف عند عبارة "جراهام هو" السابقة الذي عدّ الرمزية ضباباً مُشعاً، لنربطها بسمة التكثيف، ذلك أنّ الضباب أو هذه الرمزية تحتاج لمفاتيح تحاول انقشاع الضباب للدخول إلى عالم النصّ باتّساع. وبالدخول إلى عمق النصوص النثرية نجد أنّ بعضها أشدّ دلالة على سمة الرمزية من غيرها. وتمثّل فنون النثر الوصفي والمناظرات والمقالات المطوّلة أمثلة توضيحية على بروز الرمز فيها.

وإذا ما عدنا لغرض النثر الوصفي مثلاً، لَمَسْنَا سؤالاً يتعلّق بسرّ اختيار بعض الحيوانات للوصف، وهل يحمل ذاك سرّاً ودلالة رمزية، أم هو مجرد رؤية لحيوان مُعيّن ثمّ وصفه؟ وما قصة اشتهار وصف الحلواء عند ابن شهيد، وهل كان القصد منها الفكاهة والتندر فحسب؟ وهل يحقّ لنا أن نرى في ذلك تكثيفاً لرموز عدة يمكن استجلاؤها من النصّ ذاته.

إنّ تفكيك النصّ بأسئلة محورية للمضمون ولآلية تنفيذ أدوات بناء النصّ تقودنا إلى فهم أوسع للنصّ يُحقّق الكشف عن سمته العامة، التي تكون فيها الدلالة والرمز مفاتيح مهمة لفتح مغالق النصّ. وليكن مثالنا التطبيقي من نصوص ابن شهيد في وصف كل من البرغوث والثعلب، فنقرأ من وصف الأول ما نصّه: "أسود زنجي وأهلي وحشي، ليس بوان ولا زُميل، وكأنّه جزء لا يتجزأ من ليل، وشونيزة أو ثبتها غريزة، أو نقطة مداد أو سويداء قلب، قراد شربه عبّ، ومشيه وثبّ، يكمن نهاره، ويسري ليله يدارك بطعن مؤلم، ويستحلّ دم كل مسلم..... وهو أصغر كلّ حقير، شرّه مبعوث وعهده منكوث."^(٢) وحتى نتبين سمة الرمز فيما سبق، فللدارس أن يسأل هل كان منبع الوصف السابق إعجاباً بالبرغوث أم خطأ من قيمته؟ فإذا ظننا أنّه إعجاب بهذا المخلوق الواهن، فلماذا اختتم ابن شهيد مقطوعته الوصفية بالإبانة عن شروره

(١) صابر، نجوى، النقد الأخلاقي، أصوله وتطبيقاته، دار العلوم العربية، بيروت، ١٩٩٠. ص ١٨٠ - ١٨١.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٧٥.

ونكث عهده! وإذا كان قصد ابن شهيد هو الحطّ من قيمة البرغوث، وبيان سوء أفعاله فإنّ ذلك يتناقض بما أعقب به ابن شهيد النص السابق حين قال: " وكذلك كلُّ برغوث كفى بهذه نقصاً للإنسان"^(١). وقد تكون عبارة ابن شهيد الأخيرة هي مفتاح الرمز؛ فالواضح أنّ أديبنا لم يرمُ وصفاً حقيقياً لبرغوث، وإنما أراد الحديث عن ضرورة أخذ الحيطة والحذر من العدو مهما بدا صغيراً، وإذا ما سلّمنا بأنّ الحديث عن العدو، وليس عن البرغوث الحقيقي تكشفنا لنا أمور أخرى في النص؛ فالدلالة اللونية في قوله زنجي قد تكون رمزاً للتخفي الذي قد يُباغتنا به العدو فيسلبنا بمفاجأته هذه أيّ سلاح للمقاومة، إلا إذا عرفناه وكشفنا سُبُل حيله. وعلى هذا يغدو تفكيك الرمز أوسع في كثافته من النصّ الأصلي الذي قرأناه، ولو أردنا أن نستمرّ في تحميل المعنى المرموزي دلالات ودلالات لتصاعد النصّ أضعافاً.

وحتى تتوضّح صورة اللوحة الرمزية السابقة، فإننا نطلّ مع ابن شهيد على وصف الثعلب الذي آثر ابن شهيد وصفه قائلاً: " أدهى من عمرو، وأفتك من قاتل حذيفة بن بدر، كثيرُ الوقائع بالمسلمين مُغريّ بإراقة دماء المؤذنين، إذا رأى الفرصة انتهبها، وإذا طلبته الكُماة أعجزها"^(٢). والرمز في المقطع السابق يقف على مفرقين: الأول لماذا اختار الكاتب الثعلب؟ والثاني لم تكرر الحديث عن المسلمين، وهل هي محض صدفة؟

إنّ منطقيّة الإجابة تقتضي أنّ الثعلب من حيث هو حيوان فحسب ليس مقصوداً لذاته في الوصف، وإنما لدلالة أفعاله؛ فالثعلب رمزٌ للدهاء وتحيّن الفرص، وكأنّ القطعة السابقة على صغرها مُتقلّة برمز أكبر في ضرورة الحذر ممّن كان في شخصية الثعلب، وبخاصة أنّ ابن شهيد أطلّ علينا في تلك القطع النثرية الوصفية في زمن غلب عليه التحايل على أمة الإسلام، فالفتنة لم تكن إلا مطلباً للفرقة والتفرق، وقد يظن بعض الدارسين أنّ هذا الرأي هو من باب المغالاة وليّ عنق النصّ، إلا أنّ ذلك يستقيم مع الوضع السياسي، ونباهة ابن شهيد المشهود لها من أقرانه ونقاد زمانه، إضافة إلى أنّ الرمز هو وسيلة فعّالة بيد الأديب حين يصبح قلمه هو لسان الأمة، وما خرجت قطعتنا ابن شهيد السابقتان عن هذا المنظور، وتُسعفنا نظرات في ختام قطعة وصف الثعلب على قراءة النص في هذه الرمزية؛ إذ يُنهي ابن شهيد القطعة بقوله: "وهو مع ذلك بُقراط في إدامه، وجالينوس في اعتدال طعامه"^(٣). ولم يتعرّض أديبنا إلى عظام من الفلاسفة والعلماء - في اعتقادي - حتى يُبيّن المذاق الطيب للحمّ الثعلب! إنّما الحديث عن طعام

(١) ابن بسام، الذخيرة، م ١/ ق ١، ص ٢٧٥.

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

النفوس لا الجسم. وغذاء النفوس يكون في التدبُّر والتفكُّر حتى لا يقع الإنسان عُرضة للدهاء فيكون تحت برائن ثعلب إنسي.

ج- قصر العبارة

تسود سمة قصر العبارة في مجموعة كبيرة من الأغراض النثرية للعهد موضوع الدراسة، وغريب هذه السمة أنها تطل علينا مع سمة الترادف والموازنة والمقابلة، فتصبح النظرة العجلى توقع في حيرة مفادها هل قصر العبارة يُزيل التكثيف بمجرد أن عُرضت هذه العبارة أو الجملة بأكثر من طريقة؟ وبالاستعانة بمجموعة من الموازنات نستطيع تبين السمة السابقة بوضوح أكبر في فنّ التوقيعات والأقوال المأثورة، وفي الوقت ذاته فلا تغيب هذه السمة عن فنون أخرى كالخطبة والمناظرات، وحتى في فن المقالة الطويلة.

قد يغدو من التكرار المرور بكل هذه الفنون لبيان بروز هذه السمة، ولكن لا بأس من تخير نماذج من بعضها لبيان صلتها بالتكثيف والإيجاز، فمن ذلك ما أثار عن ابن بُرد في جملة من التحميدات ممّا نصّه: "الحمد لله الذي علا وقهر وبطن وظهر، وبحكمته قدر وأمر، وبعده قدم وأخر، والحمد لله الذي علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان، المحجوب عن الأبصار والفائت إحاطة الأفكار تعالى في الحجب فعلا... والحمد لله جالي الكُرب السود، وفاتح المبهم المسدود الذي أقام العثرات، وأدال من الحسرات." (١)

يبدو التكثيف واضحاً في جمل التحميدات السابقة، وقد تقنن ابن بُرد في تخير صورة الحمد وسببه في عبارات موجزة، لم تتجاوز أحياناً الفعل وفاعله المستتر، ومثل هذه الفنية تحتاج إلى طول دُرْبَة حتى لا يُعَوِّق قصر العبارة الفهم. وما لمسناه سابقاً كان تمكيناً للفكرة وتثبيتاً لها مع إمكانية واسعة لتقليب كل عبارة وشرحها وتوضيحها للمتلقي، كل حسب طاقته في سعة الكلام والتحليل، فلو وقفنا مثلاً مع قول ابن بُرد "الذي علا وقهر وبطن وظهر وقدر وأمر" وطلبنا توضيح المقصود من كل فعل لجاءنا في ذلك آراء وآراء، تؤكّد سعة علم الخالق وعظمته وديمومة إحاطته في شتى الأحوال، لكنّ الكيفية التي قد يتوصل إليها كلُّ مُتلقٍ ستختلف ضرورة، وكلّ هذا كان من عبارات قصيرة مكثّفة. ولو مررنا بنموذج آخر من فنّ الخطبة - مثلاً - فسنرى السمة ذاتها تبرز؛ فنقرأ في خطبة البلوطي ما مفاده: "فقد أصبحتم بيمن خلافة أمير المؤمنين أيده الله بالعصمة والسداد، وألهمه بخالص التوفيق سبيل الرشاد، أحسن الناس حالاً، وأنعمهم بالاً، وأعزهم قراراً، وأمنعهم داراً، وأكثفهم جمعاً، وأجملهم صنعا... وأنتم

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م/١/ق ١، ص ٤٩١ - ٤٩٢.

بحمد الله على أعدائكم ظاهرون"^(١)، وقد جمع البلوطي في عباراته السابقة قصرَ العبارة إلى جانب السجع، واتكأ على الترادف والموازنة بين الجمل، ولم يقصد البلوطي بذلك إعادة المعنى، وإنما أراد تثبيت المعنى المنشود وتعزيزه، وإظهار هيبة الخلافة أمام وفود الروم، ولعلنا هنا نعود إلى السؤال الذي سبق أن طُرح حول الترادف والموازنة في الجمل وعلاقة ذلك بزوال التكثيف، فيُسعفنا النموذج السابق في الإجابة التي تؤكد أن تثبيت المعنى العام للنص لا يُضيره قولبة تلك المعاني على جهات متعددة من اللفظ، وبخاصة بمثل موقف مناسبة هذه الخطبة التي اقتضت بيان عظمة الخلافة القرطبية، فجاءت كل جملة على قصرها تشكّل دهشة للمتلقى ما يكاد يقرأها حتى يبدأ بدهشة جديدة، فحين بيّن البلوطي أن المسلمين بما من الله عليهم من حُسن الخلافة قد أصبحوا أحسن حالاً، أردف ذلك بعبارات "أنعمهم بالاً وأعزهم قراراً...." وكلّ منها تضرب على وتر تجعل المتلقي في دائرة واسعة من تخيل مدى الطمأنينة وشدة الأمن والرخاء، فتكون كل عبارة هي فكرة بحدّ ذاتها، قامت العبارة القصيرة بوضع حجر الأساس فيها، وأبقت للمتلقى الشرح والتفصيل.

٥- العمق الزمني

لقد مرّ النثر الأندلسي إبان عهد الخلافة بزمان جاوز القرن، فهل تحدّدت ملامح هذا النثر بالسّمات ذاتها، وهل أثرت ظروف مُعيّنة على هذا القرن فيمكن لنا تقسيم سماته داخل العصر نفسه؟

إنّ أصدق ما يمكن وصف نثر هذا العصر به أنّه نثر متأثر بزمانين: الأول هو زمن خلافة الناصر والمستنصر، والثاني هو زمن الحجابة العامرية والفتنة البربرية، ولا نقصد هنا التقسيم السياسي وإنما الملامح العامة لنثر عهد الخلافة. ويأتي هذا التقسيم - في ظني - لاعتبارين: الأول أنّ بعض الفنون النثرية قد تميّزت ونضجت في المرحلة الثانية أي مرحلة الحجابة العامرية وما تلاها كفنّ القصة والمناظرة ورسائل الورود مثلاً، وأما الاعتبار الثاني فهو تغيير في الأسلوب العام لبعض الفنون النثرية كفنّ الرسائل الديوانية مثلاً.

ولو نظرنا في رسالتين ديوانيتين إحداهما من عهد الناصر، والأخرى من عهد الفتنة لأمكننا أن نتبين أثر البعد الزمني على فنية الأسلوب، فمن الأولى كتاب الناصر إلى الأفاق بفتح بُشتر الذي امتاز بالطول النسبي وكثرة التحميدات، أمّا عن فنية صياغة العبارة فلم يُقصد بها السجع مطلباً، وهي مع ذلك لم تخل منه بلطف. ومنها في إطالة التحميدات " الحمد لله الذي علا فقهر، وملك فقدر وأحكم ما دبّر، وأعزّ الإسلام ونصر، وأذلّ الكفر ودمر، باعث الرسل ومُنزل

(١) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٣.

الكتب الذي اختصَّ محمداً - صلى الله عليه وسلم - بالنبوة وشرَّقه بالرسالة، وجعله البشير النذير والسراج المنير، وأوضح به اليقين، ونهَج به الدين وختم به النبيين... والحمد لله الذي جعل الإسلام نجاةً مَنْ تمسك به، ومؤدياً إلى رحمته، وجعل الشرك به خزيةً لمن تقلَّده، وسائقاً له إلى عذابه، ومستوجباً عليه عقابه، وجعل جهاد أهله من فرائضه العظمى".^(١)

ونرى الأسلوب يتغير قليلاً حين ندخل إلى عرض الرسالة وغرضها الأصلي وهو الإخبار عن بُشتر وأهمية فتحها، فيتوالى العرض التفصيلي لهذا الحدث بأناة؛ تارة بتوظيف السجع، وتارة بالابتعاد عنه، فلم يكن السجع إلى ذلك العهد مراماً بذاته، ومن ذلك: "ثمَّ إنا لم نزل، مُد شرفنا الله بخلافته، واختصنا بإمامة عباده نبتغي الغاية القصوى في جهاد أعدائه، وندأب في نصر أوليائه..... فلم نزل نبخعهم ونتحرَّاهم واحداً بعد واحد، ونستزلهم معقلاً بعد معقل، ونقصد منهم جانباً بعد جانب، نؤم الأدنى بعد الأدنى، ونستقري الأقصى فالأقصى حتى أدلَّ الله عزَّتهم.... وأفنى القتل أنصارهم وأشياهم، فعادت البلاد بعدهم مطمئنة ساكنة، قد أمن بها المخوف، وقوي بها الضعيف"^(٢). ويستمر كتاب فتح بُشتر في عرض ما كانت عليه بُشتر قبل الفتح، وما حدث أثناء الحصار، وكيف دبَّ الرعب قلوب أهل الفتنة والنفاق من أنصار ابن حفصون. وكل ذلك بمراوحة بين قصر عبارة وطولها حين يحتاج المعنى لذلك، وبين سجع غير مقصود تارة، وابتعاد عنه تارة أخرى. هذا عن حال الرسائل الديوانية إبان عهد الناصر، فكيف أضحى في عهد الحاجب المنصور والدولة العامرية؟

تمثّل نماذج رسائل الجزيري وابن درّاج وابن شهيد وابن بُرد الأكبر أمثلة بيّنة على ذلك، وكنتُ أمل أن يكون نموذجي من كتب الفتح التي تمت على يد ابن أبي عامر، ولكنها للأسف وصلتنا بالإشارة وبالمضمون جملةً لا بالنصّ الصريح، وبخاصة تلك الإشارة التي اعتنتُ كتب الأدب بذكرها بخصوص تأتي ابن درّاج بالكتابة مقارنة مع الجزيري^(٣). وكان يحذوني الأمل بتعادل كفة المقارنة والموازنة بين رسالتين ديوانيتين في الموضوع نفسه، فلمّا تعذّر لي ذلك - فيما استطعت الوصول إليه من نماذج في الرسائل الديوانية - ارتأيت أن تكون النماذج المُشار إليها ممّا له علاقة بالجهاد أو بالموالاة للسلطان؛ فمن الأولى نستذكر كتاب الجزيري الذي أنشأه على لسان الحاجب المنصور يعنّف فيه قواده وجنوده ممّن تخلفوا عن الغزو، وقد مرّ ذكر الكتاب وإنّما نقرأ جزءاً منه لتقريبه من الذهن، ولتصبح الموازنة أشمل. فنطالع فيما حفظ لنا صاحب "أعمال الأعلام" ما نصّه: "وكثيراً ما فرط من قولكم أنكم تجهلون قتال المعقل والحصون، وتشتاقون ملاقاة الفحول فحين جاءكم شأنجُه بالأمنية، وقاتلكم بالشريطة

(١) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج ٥، ص ٢٢٦ - ٢٢٧.

(٢) المصدر نفسه ص ٢٢٧.

(٣) انظر الحميدي، جذوة المقتبس، ج ١، ص ١٠٤.

أنكرتم ما عرفتم، ونافرتم ما ألفتم حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل، وأجفلتم إجمال الرئال من المقتنصين، ولولا رجال منكم دَحَصُوا عنكم العار، وحرروا رِقابكم من الذل لبرئت من جماعتكم، وشملت بالموجدة كافتكم^(١). وأول ما يطالع الدارس لهذا الكتاب هو القصر النسبي له مقارنة مع نموذج رسالة الفتح السابقة، إضافة إلى عدم وجود تمهيد له؛ فقد بدأ الجزيري الموضوع دون مقدمة. أما فيما يتعلق بالعبارات وبالأسلوب فنرى اللغة أكثر جزالة من الكتاب السابق، ونلمح إطلالة للسجع لكنها ليست مُغرقة.

ولا نستطيع الجزم بأن هذه السمة - أي سمة السجع غير المُغرِق - تنطبق على رسائل العهد العامري في الأندلس، لأننا لا نستطيع الحديث عن العمق الزمني دون الأخذ بعين الاعتبار الأسلوب الشخصي، فقد تَمَيَّزَ عدد كبير من الناثرين في هذا العهد ممن صبغوا كتاباتهم بصبغات فنية خاصة، فحاول كل كاتب أن يتميزَ بسمات معينة عن غيره في أسلوب الكتابة، ليكون الحكم الذي عبّر عنه د. إحسان عباس في أسلوب ابن بُرد الأكبر في سياقه الطبيعي؛ إذ أشار د. عباس إلى أن ابن بُرد يقفُ "وسَطاً بين هذين الكاتبين في أسلوبه فليس لديه استرسال الجزيري، ولا حوك ابن درّاج، وإنما لديه تعملٌ وازدواج".^(٢) فعلى هذا علينا أن نعي خصيصة العمق الزمني من جانبيين؛ الأول أن هنالك تأثيراً عاماً على الأسلوب ما بين النصف الأول لعهد الخلافة الأندلسية والنصف الثاني، والجانب الثاني في ضرورة ملاحظة أثر شخصية الكاتب نفسه على اختيار أسلوبه.

وإذا ما انتقلنا قليلاً إلى عهد الفتنة البربرية فإنّ ملحظ العمق الزمني وتغيّر الأسلوب ترجح كفته على الشخصية بشكل عام، ولعلّ أبرز من يُمثّل هذا الاتجاه هو ابن شهيد بتأثقه في الألفاظ ودرجه على السجع ودفاعه عنه، فأولع بالبديع ولعاً كبيراً، حتى أضحى الدارسون المحدثون، يجدون في طريقة ابن شهيد مدرسة أسلوبية تأثر بها الكثيرون^(٣). ومن نماذج ابن شهيد التي توضح الانتقال في طريقة الكتابة في الأندلس ما راسل به الخليفة المؤمن في شدة شغفه بقرطبة، حيث قصد إلى البديع قصداً ومطلباً، ومن ذلك: " هذا أيد الله المؤمن جوهر رطب نُظْم بلا نُقْب، غاية حُسْنه لو لفظه بحره على قُرب، وقد كان أقلّ حقوق مولاي أن أقف ببابه، وأخيّم بفنائنه، وأهدي إليه الشُّكر غَضّاً، وأنثرُ عليه المدح نضّاً، ولكنني ممنوع، وعن إرادتي مقموع، يملكني سلطان قدير، وأمير ليس كمثل أمير، غلب عليه صبر الأتقياء واستولى على عزم الأنبياء، وهو العشق؛ باطل يلعب بالحق، ليبين ضعف البشر، وتلوح قدرة مصرّف القدر، والذي أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب، بثُّ شاغل، وبرح قاتل، وصبرٌ

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٧٢.

(٢) عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٣٠١.

(٣) انظر حول هذه الآراء في المرجع نفسه ص ٣٠١.

يغيض، ودمع يفيض لعجوز بخراء^(١)..... تُدعى قرطبة^(٢). ويتّضح لدارس النص السابق سيطرة التزام السجع والمرور بجناس الاشتقاق تارة والترادف تارة أخرى، ولعلّ غلبة البديع - وعلى الأخص السجع - قد عبّر عنه ابن شهيد نفسه في نموذج التوابع والزوابع مُعلناً أنّه ذوق العصر وفتية ذلك العهد. ولا بأس من التذكير بذلك حين انتقد ابن شهيد أهل زمانه بدخول العجمة في لغتهم، واللكنة في حديثهم، وأنّ التفنن في السجع هو إعمال للفكر في تخير اللفظة مما يقوي أطراف الحديث، ويُعلي من شأن البيان، فيدافع ابن شهيد عن ذلك بقوله: " قال: فكيف كلامهم بينهم؟ قلت: ليس لسببويه فيه عمل، ولا للفراهيدي إليه طريق، ولا للبيان عليه سمة، إنّما لكنة أعجمية يؤدّون بها المعاني تأدية المجوس والنبط، فصاح إنا لله... ذهبت العرب وكلامهم، ارمهم يا هذا بسجع الكهان، فعسى أن ينفعك عندهم ويطير لك ذكراً فيهم"^(٣). والعبارة الأخيرة لابن شهيد وإن جاءت طريفة وكأنّها من باب التندر والفكاهة، إلا أنّها تنبض بروح ذلك العصر والزمن الذي يطير ذكر الكاتب فيه إن أغرق في البديع، وعلى رأسه السجع، ونصّ ابن شهيد السابق إنّما يمثّل مدرسة ابن شهيد التي بدأت في الربع الأول من القرن الخامس الهجري، ثمّ تعمقت فيما بعد، إلى أن أضحت الكتابة حتى الديوانية منها كما يذكرها د. إحسان عباس " مُبتلاة بشدة الزخرف وأصبح التعبد للمحسنات أمراً بارزاً"^(٤).

ويبدو أنّ عهد الفتنة قد حمل الأدب حملاً ثقيلاً وذلك بفساد الأذواق، وقلة الاعتناء بفهم فنون الأدب وعدم إعمال العقل في جودة ما يسمع، وقد يندهش المتلقّي لمثل هذا الحكم ويظنّه من باب الإجحاف، إذ كيف أنعت به عهد فساد الأذواق وهو عصر ابن درّاج وابن شهيد والجزيري وابن حزم وغيرهم من أعلام الأدب الأندلسي الذين تُذكر أعمالهم بإجلال. وبالعودة إلى الرأي السابق نبيّن أنّ ما ذهبت إليه ليس متعلّقاً بالأدباء أنفسهم، وإنّما الحديث عن الشعب الذي كان يتلقّى ذلك الأدب. وهذا الرأي لم يتأت لنا من فراغ؛ وإنّما من اعتراف شخصي من أدباء تلك الحقبة أمثال ابن شهيد وابن حزم^(٥) لنرى بأنّ مثل هذا الذوق من أهل ذلك الزمن، تطلّب جهداً مضاعفاً من الأدباء في عرض نتاجهم، ولا نخرج من مدرسة ابن شهيد الأدبية والنقدية التي عبّرت عن أضرار الفتنة على الأدب حين فصلّ لنا ابن شهيد الموقف قائلاً: " لا كقوم عندنا حظّهم من الفهم الحفظ، ومن العلم الذكر، وهذا حظّ القصاص وأعلى منازل النواح، فترى الممّخرق منهم إذا قرئ عليه الشعر يزوي أنفه ويكسر طرفه، وإذا عُرضت عليه

(١) بخراء: طيبة الرائحة لأنّها تطيّبت من بخور العود. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة بخر).

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣) المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٢٦٨ - ٢٦٩.

(٤) انظر عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٣٠١.

(٥) راجع رأي ابن حزم في تتبّع الأندلسيين لسقطات الأديب في زمنه ص ١١٩.

الخطبة، يميل شقّه، ويلوي شدقه، فإن تناولهما لم يبق ملحة إلا حشدها، ولا أبقى عفصة فجّة إلا جأبها. وأصل قلة هذا الشأن وعدم البيان فساد الأزمنة ونُبوء الأمكنة، وإن الفتنة نسخ للأشياء من العلوم والأهواء، ترى الفهم فيها بائراً السلعة، خاسراً الصفقة، يلمح بأعين الشأن، ويستقل بكل مكان". (١)

ويبقى البعد الزمني يؤكد تغيير أسلوب الكتابة وميلها نحو الزخرف كلما أغرقنا في عهد الخلافة الأموية الأندلسية كما بيّنا، وأن ذلك قد طال معظم الفنون الأدبية النثرية، فإذا خلا من بعضها فقد يكون بفعل أثر الشخصية النائرة لا الزمان، فالزمن زمن البديع والسجع، ولكن شخصية كابن حزم مثلاً أطلت علينا بنثر يبتعد عن التكلف ويميل لبساطة التركيب، ولعل ذلك قد يكون - كما ألمح - بفعل مذهبه الظاهري فانعكس ذلك على شخصيته، وحتى على أسلوبه الكتابي الذي أراده ابن حزم غير قابل للتأويل بفعل زخرف العبارة.

٦- البنية المكانية "سلطة المكان في رسم صورة الخطاب"

لعل الملمح السابق الذي تعلّق ببنية الأسلوب المتأثر بالزمن يبقى ناقصاً إن لم يقابله على الدقة المقابلة لملمح آخر يتعلّق بالمكان، ونسأل بإلحاح هل نستطيع قراءة الأندلس في نثر هذا العهد، وإلى أي حدّ برزت البنية المكانية الأندلسية التي كان لها أثرها؟

نستطيع تبين الملمح المكاني من زوايا عدة، يقف بروز بعض الفنون المتميّزة كفن وصف الورود ومراسلاتها في مقدمتها، فهو انعكاس لبيئة المكان الأندلسي الخلاب، فيما نلمح الشخصية الأندلسية المثقفة التي صقلها المكان فأبعد عنها الحدّة فجاءت عقلانية الطرح، انسيابية اللغة كما وجدناها عند ابن حزم ونثره، وأما عشق قرطبة الذي سيطر على ألباب الأدباء فملمح ثالث لا يغيب، أثر في موضوعات الأغراض الفنيّة، واجتهدت أن أمر بكتب السفارات والمعاهدات كمظهر آخر يجلي حقيقة أثر المكان في النثر.

أ- الأندلس في مراسلات الورود:

إن انعكاس البيئة المحليّة على الأدب سمة تتعلّق بالمكان لا يمكن تجاهلها، فكيف إذا كانت هذه البيئة المكانية هي الأندلس بكل ما تعنى به الكتاب والأدباء من جمالها الخلاب وتميّزها بكثير من الصفات التي حرمت منها دونها من الأصقاع، يذكرها المقرئ بقوله: "خصّ الله تعالى بلاد الأندلس من الربيع وغدق السقيا، ولذاذة الأقوات، وفرّاهة الحيوان ودُرر الفواكه،

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م/١/ق ١، ص ٢١٢ - ٢١٣.

وكثرة المياه وتبحر العمران، وجودة اللباس، وشرف الأبنية، وكثرة السلاح وصحة الهواء، وابيضاض ألوان الإنسان، ونبل الأذهان وقبول الصنائع، وشهامة الطباع ونفوذ الإراك، وإحكام التمدن والاعتماد، بما حرّمه الكثير من الأقطار" (١). وإذا كان حديثنا مُنصباً على عهد الخلافة الأموية فإنّ جمال الطبيعة قد انعكس بالدرجة الأولى على عشق الأديب الأندلسي للحدائق الغناء الفوّاحة بعبير الورود، حتى غدا فنّ مراسلات الورود فناً قائماً بذاته اعتضد الشعر والنثر في رسم ملامحه، وبات هذا الفن وسيلة تعبير ومراسلة لطيفة حتى مع ذوي السلطة والرياسة، نذكر من ذلك على سبيل المثال كتاب أبي مروان الجزيري إلى المنصور بن أبي عامر عن البهار بما نصّه: "بسم الله الرحمن الرحيم، أطال الله بقاء المنصور مولاي وأدام عزّه، وهناه سروره، وسوّغ نعمه عنده، إنّي - أيد الله المنصور مولاي - لما استقلّت بزهرتها مائلة قضي، وتنبّهت من سنتها نائمة جفوني، ونمت (٢) بعطرها ساطعة روائحي، وافترشت ديباج حديقة بكر وسميها (٣) وتتابع وليها، فالتقى ثرياها، وأخذت الأرض زخرفها وازينت، وطاب صعيدها حتى كان ترابها فتيت المسك أو سحيق الكافور، عن لي زهو بحسني، وارتياح لحالي، وإعجاب بمكاني، وشاركت ذلك دواعي هزة الشوق إليك، وشواحي لوعة البعد عنك، حين فارقت محلي، وآثرت بالزيارة غيري، فحرّكن مني ساكناً، وبعثن لي على مناجاة الشعر خاطراً." (٤)

ونلمح أثر المكان في القطعة السابقة جلياً؛ فالجزيري حين كتب هذه الرسالة كان بعيداً عن قرطبة، وقد هزه الشوق إليها بوردة البهار، فجاء نثره يحمل الشوق لقرطبة وأهلها، تلك المدينة التي ازدانت بالحدائق والورود، وجاءت الألفاظ فيما سبق متأثرة ببيئة المكان فتمازجت مع العاطفة لتأتي عبارات الشوق واللوعة والمناجاة وعطر الروائح والديباج والمسك مجتمعة، تؤكد أنّ مثل هذا الفن ما كان ليزدهر لولا بيئة مكانية فجّرت في نفوس أدباء الأندلس. ولعلنا هنا نتفق مع ما ذهب إليه الرومانسيون ومن بينهم الأديب "وردزورث" الذي "كان يرى أنّ الطبيعة الجميلة تهينا إحساساً بالحياة الحقّة، وتصفّي نفوسنا من شوائب الغرائز... وأنّ على الأديب أن يعلم الناس أن يندوقوا هذا الجمال" (٥).

(١) المقرّي، نفع الطيب، ج ١، ص ١٢٦.

(٢) نمت بعطرها: أي ظهرت روائحها. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة نم).

(٣) الوسمي: مطر الربيع الأول، وسمي كذلك لأنه يسّم الأرض بالنبات. انظر المصدر السابق (مادة وسم).

(٤) الحميدي، البديع ص ١٠٢.

(٥) انظر عناني، محمد، النقد التحليلي، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ١٩٩١. ص ٦٤.

ب- قراءة شخصية الأديب من خارطة المكانية:

إنّ انعكاس البيئة المكانية على الأسلوب، يجعلنا نطلّ على ما يُعرف بالسلسلة في الألفاظ والأناة في الطرح والعقلانية في الأفكار، ومن المنطقيّ أنّ تكون طبيعة الأندلس الساحرة قد أثرت في شخصية الأديب الأندلسي، وأرى أنّ ذلك يمكن تكشّفه في نثر عهد الخلافة من جانبين؛ الجانب الحضاري والجانب الفكري. أمّا الجانب الأول فيمكن في أثر الحضارة وال عمران على ما وصلنا من نثر، فلا نستطيع الحديث عن البيئة المكانية الطبيعية دون الولوج لأثر الإنسان وال عمران فيها، ذلك أنّ المكان هو بيئة المعيشة بما يحمل من إطلاقات حضارية متنوعة.

ولمّا كان عهد الخلافة قد حمل ثورة حضارية في الأندلس تجلّت في بعض مظاهرها بما وصلنا من حديث حول مدينتي الزهراء والزاهرة، أضحي بروز ذلك في الأدب ليس بعيداً، وإذا كان الشعر قد استأثر بنصيب الأسد في ذلك^(١) فإننا لم نعدّم هذا الأثر في النثر، ومن ذلك في فن الخطبة، ما جرى بين الخليفة الناصر والخطيب المنذر البلوطي حول ولع الخليفة بالعمارة وضرورة تنبيهه بالوعظ الديني بالألّه يلهبه ذلك عن شهود الجمعة بمسجد قرطبة، وقد مرّ التفصيل بهذه الخطبة، إنّما أكرّر الوقوف عندها لنرى أثر الحضارة المكانية على بعض فنون نثر ذلك العهد، ولا عجب أنّ نجد صاحب المطمح يذكر لنا تلك الحادثة ببيان علو مرتبة تلك الخطبة التي كانت الجرأة في الحق بُغيته، فنقرأ عند صاحب المطمح ما نصّه: "وكان الخليفة الناصر كلفاً بعمارة الأرض، وإقامة معالمها وانبساط مياهها واستجلابها من أبعدها بقاعها وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه، وعزّة سلطانه وعلو همته، فأفضى به الإغراق في ذلك إلى ابتناء مدينة الزهراء البناء الشائع ذكره، الذائع خبره، المنتشر في الأرض خبره، واستفرغ وسعته في تنجيدها وإتقان قصورها، وزخرفة مصانعها، فانهمك في ذلك حتى عطّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتّخذ، فأراد القاضي منذر بن سعيد - رحمه الله - وجّه الله في أن يعظه، ويقرّعه في التائب، ويغضّ منه، بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطابة، والتذكير بالإجابة."^(٢)

وإذا كان الجانب الحضاري العمراني قد انعكس على فنّ نثريّ في الموضوع، فإننا نرى الأثر المكانيّ الحضاريّ قد انعكس على فنون أخرى في الأسلوب وفنيّة العرض، وأرى في الوقوف على بعض النماذج النثرية لابن حزم أمثلة بيّنة على ذلك، ومن ذلك:-

(١) انظر بعض الأشعار في ابن عذاري، البيان المغرب، ج٢، ص ٣٧٧.

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤٥ - ٢٤٦.

- إن رسالة تفضيل الأندلس جاءت ردة فعل لاستفزاز فكري في تقصير أهل الأندلس في تخليد مآثرهم، وسواء أكنّا مع وجود رسالة حقيقة أبدت وجهة النظر تلك أم عددناها مجرد قصة تشويقية للبدء، فعلينا الاعتراف أنّ جهة التشويق تلك تهيئ الذهن لردة فعل عنيفة قد نتوهمها بداية في أسلوب ابن حزم في تلك المقالة، إلا أنّ القراءة النقدية الفعلية لهذا النصّ تقف بنا على مجموعة من الأمور، منها:

- جاء حديث التهيئة لما قبل نصّ التفضيل يُجلي حقيقة استفزازية بحق علماء الأندلس، ومن ذلك: "أنّ علماء الأندلس - وإن كانوا على الذروة العليا من التمكن بأفانين العلوم، وفي الغاية القصوى من التحكم على وجوه المعارف - فإنّ همّهم قد قصرت عن تخليد مآثر بلدهم، ومكارم ملوكهم، ومحاسن فقهاءهم، ومناقب قضاتهم، ومفاخر كتّابهم، فضائل علمائهم ... ثمّ تعدّى ذلك إلى أنّ أخلّى أرباب العلوم منا من أنّ يكون لهم تأليف يُحيي ذكرهم، ويُبقي علمهم، بل قطع على أنّ كلّ واحد منهم قد مات فدفن علمه معه، وحقق ظنّه في ذلك، واستدلّ على صحته عند نفسه بأنّ شيئاً من هذه التأليف لو كان منا موجوداً لكان إليهم منقولاً وعندهم ظاهراً لقرب المزار وكثرة السّفار، وتردّدهم إليهم وتكرّرهم علينا." (١) ويُلح استفزاز قريحة ابن حزم بما قد ينعكس على حدة في الإجابة من خلال الإشادة بعلماء الأندلس، ثمّ الانتقال من همم الكتّاب الذين قصروا في تخليد المآثر، وليس هذا فحسب، بل إنّ العلماء أنفسهم في ظنّ السائل السابق أيضاً مقصّرون؛ ذلك أنّ علمهم قد بقي في رؤوسهم ودفن معهم. ثمّ تؤكد تلك النظرة المبخسة لهم الأندلسيين في أنّ تلك المؤلفات لو كانت موجودة حقيقة لوصلت إلى بلاد المغرب لما بينها وبين الأندلس من قرب مسافة ورحلات سفر وعلم!

- جاء ردّ ابن حزم عمّا سبق على عكس ما يتوقّعه المتلقي؛ إذ سيطرت العقلانية والتسلسل في عرض الأفكار على متن المقالة، مستخدماً لغة واضحة وسلسة، لعلّ القصد في ذلك يعود إلى ضرورة الدفاع عن علماء الأندلس أمام حشد كبير ممّن يشكّك في قُصور الهمم، ولا نظنّ هذا الأسلوب إلا انعكاساً لشخصية الأندلسيّ المتقف غير المتعصّب، الذي كان للمكان أثر بيّن فيه. فالبيئة الجميلة ذات وفرة المياه وكثرة الورد والحدائق تجلي الفكر وتصفي النفس، فينعكس ذلك على أسلوب الأديب وفنيّة عرضه، ولما كان فنّ المقالات تحديداً يتطلب عرض وجهة النظر بطريقة واضحة كان اختياري لنموذج ابن حزم السابق متفقاً مع وجهة النظر هذه، وحتى نضع النقاط على الحروف يمكن أنّ نتبين سلاسة أسلوب ابن حزم، وعقلانية طرحه عبر الآتي:

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج٢، ص ١٧١ - ١٧٢.

- لقد تسلسل ابن حزم في عرض حُججه في الدفاع عن بلده الأندلس، مُبدئاً الحُجّة تلو الأخرى ببرهان واضح، مقارناً بين ما في الأندلس من علوم ومصنّفات وما بين غيرها دون أن يغبن الآخرين حقوقهم وفضائلهم، قاصداً في ذلك نصاعة الصورة؛ ومن ذلك قوله: " وأما في قسم الأقاليم فإن قرطبة مسقط رؤوسنا، ومعقّ تماثنا مع "سُرّ من رأى" في أقليم واحد، فلنا من الفهم والذكاء ما اقتضاه إقليمنا ... وذلك من أدلة التمكّن في علوم القراءات والروايات، وحفظ كثير من الفقه والبصر بالنحو والشعر واللغة والخبر والطب والحساب ... والذي نعاه علينا الكاتب المذكور لو كان كما ذكر لكننا فيه شركاء لأكثر أمهات الحواضر وجلائل البلاد ومتسعات الأعمال، فهذه القيروان بلد المخاطب لنا ما أذكرُ أنّي رأيتُ في أخبارها تآليفَ غيرَ المعرب عن أخبار المغرب، وحاشا تواليف محمد بن يوسف الوراق... ومحمد هذا أندلسي الأصل والفرع أباه من وادي الحجارة، ومدفنه بقرطبة وهجرته إليها، وإن كانت نشأته بالقيروان" (١). والناظر في النص السابق يقف على تقديم الحُجّة بمنطقية تبتعد عن العصبية المحليّة؛ فدفاع ابن حزم عن قرطبة وتمييز علمائها لم يمنعه من الاعتراف بكتاب المعرب وتواليف ابن الوراق، وهذه سمة من سمات هدوء الكاتب التي ساهمت بيئة الأندلس المكانية - في اعتقادنا - فيه، إضافة إلى نشأة ابن حزم في قصور الخلفاء (٢)، تلك النشأة التي انعكست فيها الرقة والتنعّم التي عاشها ابن حزم على أسلوبه المسترسل الهاديء حتى في المواضع التي تقتضي الحدة، كما في موضوع الردّ على الانتقاص من الهمم، في الموضوع المشار إليه آنفاً.

- إنّ دفاع ابن حزم عن علماء بلاده لم يمنعه من الاعتراف صراحة ببعض النقص في معاملة سكّان الأندلس لهم، والحسد الذي يُكنّه الناس للعالم الفذّ، ومثل هذا الاعتراف لا يتأتى إلا من شخصية ناضجة ساهم في تشكيل صورتها تلك أسلوب الحياة والتفكير، ولا شك أنّ لأثر البيئة دوراً كبيراً فيها، ومن صور تلك الاعترافات قول ابن حزم: " ولا سيّما أندلسنا؛ فإنّها خُصّت من حَسَد أهلها للعالم الظاهر فيهم، الماهر منهم واستقلالهم كثير ما يأتي به، واستهجانهم حسناته وتتبعهم سقطاته وعثراته، وأكثر ذلك مدة حياته بأضعاف ما في سائر البلاد. إنّ أجادَ قالوا سارق مُغير، ومنتحل مُدّع، وإنّ توسّط قالوا غثّ بارد وضعيف ساقط، وإنّ باكرَ الحيازة لَقَصَب السَّبِق قالوا متى كان هذا؟ وهكذا عندنا نصيبُ من ابتداء يحوك شعراً، أو يعمل بعمل رسالة فإنّه لا يفلت من هذه الحبائل، ولا يتخلّص من هذه النُصب إلا الناهض الفائت." (٣)

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ج ١، ص ١٦٦.

(٣) المصدر نفسه، ج ٢، ص ١٧٧ - ١٧٨.

ج- أثر عشق قرطبة على النثر

لم يكن تميّز قرطبة آتياً من كونها دار الخلافة وحاضرة السلطان فحسب، بل أتى تميّزها من فضائل عدة ميّزتها في البيئة والعمران الحضاري، فغدا من المنطقي أن ينعكس سرّ هذا التميّز على أدب ذلك العهد^(١). وقبل عرض جانب من هذا، رأيت أن أعزّز الرأي في تميّز قرطبة بما جاء على لسان صاحب النفح الذي خصّ قرطبة بباب مُستقل تحدّث فيه عن وصف قرطبة ومنتزهاتها ونهرها ومبانيها العامرة ومسجدها، ثمّ خصّ الحديث عن مدينتي الزهراء والزاهرة، ويتضح من العناوين السابقة أن الجمال الطبيعي والعمراني قد شكّلا مظهراً متميزاً عن بقية المدن الأندلسية، وجاء تقديمها على بقية المدن بقول المقرّي نقلاً عن ابن سعيد: "إنما قدّمنا هذه المملكة من بين سائر الممالك الأندلسية لكون سلاطين الأندلس الأول اتّخذوها سريراً لسلطنة الأندلس، ولم يعدلوا عن حضرة قرطبة، ثمّ سلاطين بني أمية وخلفاؤهم لم يعدلوا عن هذه المملكة لما رأوه لذلك أهلاً. وقرطبة أعظم علماً، وأكثر فضلاً بالنظر إلى غيرها من الممالك... وقال بعضهم: قرطبة قاعدة الأندلس ودار الملك التي يُجبي لها ثمرات كلّ جهة، وخيرات كلّ ناحية، واسطة بين الكور، موفية على النهر، زاهرة مشرقة أهدقت بها المنى، فحسُن مرآها وطاب جناها. وقال ابن حوقل: هي أعظم مدينة بالأندلس، وليس بجمع المغرب لها عندي شبيهة كثرة أهل وسعة محلّ وفسحة أسواق، ونظافة محال وعمارة مساجد، وكثرة حمامات وفنادق"^(٢).

ولا يشكّل النص السابق إلا غيضاً من فيض من نقولات واسعة في مدح قرطبة، وما يعيننا في هذا المقام انعكاس ذلك على الأدب، ولنا في كتابات الجزيري وابن حزم وابن شهيد أدلة وافية، ومنها ما نقله الحميري في رسالة للجزيري على لسان الورد في أرملاط الذي ذكره بقرطبة حاضرة الورود الطبيعية الساحرة، وفي ذلك يقول: "وطاب صعيدها حتى كان ترابها فتيت المسك أو سحيق الكافور، وعنّ لي زهو بحسني، وارتياح لحالي، وإعجاب بمكاني وشاركت ذلك دواعي هزة الشوق إليك، وشواجي لوعة البعد عنك حين فارقت محلي، وآثرت بالزيارة غيرك فحرّكن مني ساكناً"^(٣). فكانت قرطبة هي المكان النموذج الذي يُحنّ إليه مسكناً ومطلباً للعيشة الهانئة.

(١) انظر حول هذا الرأي في أبو حاتم، نبيل، اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري، دار الثقافة، الدوحة، ١٩٨٥. ص ٧٤.

(٢) انظر المقرّي، نفح الطيب، ج ١، ص ٤٥٨ - ٤٥٩.

(٣) الحميري، البديع ص ١٠٢.

أمّا قصص ابن حزم في الطوق فكانت كثيرة الإشارات إلى قرطبة، وقد يرى بعض الدارسين أنّ ذلك اعتيادي لأنّ ابن حزم أقام بقرطبة ردهاً طويلاً، فمن أين سيأتي بإمكانة قصصه وشخصياته! ولكنّ التعمق في القصص المسوقة يؤكد أنّ ابن حزم أراد إظهار الشخصية القرطبية تحديداً عن بقية الأندلس، وأنه أبدى شغفاً صريحاً بذلك، ومنها قوله في باب البين: " ولقد أخبرني بعض الوراد من قرطبة - وقد استخبرته عنها - أنه رأى دورنا ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها، وقد أمحت رسومها، وطمست أعلامها، وخفيت معاهدها وغيرها البلى، وصارت صحاري مُجدبة بعد العمران، وفيافي موحشة بعد الأنس، وخرائب منقطعة بعد الحُسن، وشعاباً مفزعة بعد الأمن، ومأوى للذئاب ومعازف للغيلان، وملاعب للجان، ومكان للوحوش... وعمّها الهدم كأفواه السباع فاغرة، تُؤذن بفناء الدنيا، وتريك عواقب أهلها، وتُخبرك عما يصير إليه كلّ من تراه قائماً فيها، وتزهد في طلبها بعد أن طالما زهدت في تركها... وكان ليها تبعاً لنهارها في انتشار ساكنها والتقاء عمّارها، فعاد نهارها تبعاً ليلها في الهدوء والاستيحاش." (١) لقد حرّك ذكر قرطبة عقب الفتنة، وما جرى بها من خراب، أشجان الكاتب ولوعته فأطنب في الحديث عن عشق قرطبة التي ما كان يتخيل فراقها، بصورٍ بلاغيةٍ مُبدعة.

أمّا ابن شهيد فقد دار في الفلك نفسه حين راسل الخليفة المؤمن في عهد الفتنة بيّنه شوقه لقرطبة؛ ذاك الشوق الذي أنحل جسمه فما عاد يقوى على الصبر، وما كان منه إلا أن قال: "العشق، باطل يلعب بالحق، ليبين ضعف البشر، وتلوح قدرة مصرف القدر، والذي أشكو منه أغرب الغرائب، وأعجب العجائب، بثّ شاغل، وبرحّ قاتل، وصبرٌ يغيض، ودمع يفيض لعجوز بخراء تدعى قرطبة" (٢).

والحنين إلى المكان هذا يتردد في مواضع أخرى (٣) كلّها تشترك في عشق مميّز للمدينة المميّزة في أدب تلك الخلافة.

د- هيبة المكان في السفارات والعهود

تلقي أخبار السفارات على تنوع موضوعاتها بظلال البنية المكانية على النثر؛ إذ شكّل إظهار هيبة المكان وعظمته مادة للكتابة أكّدت عمق الارتباط بالمكان، فالسفارة الثقافية الاقتصادية التي رامت طلب الفسيفساء للمسجد الجامع بقرطبة - مثلاً - كان البُعد الحضاري

(١) ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١، ص ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٢٠٧ - ٢٠٨.

(٣) انظر أمثلة في المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ١٢١، ١٤٢، ١٥١، ١٥٧، ١٩٤، ١٩٩.

للمكان هو القصد المطلوب منها، ومع أن نص الكتاب الذي أُنفذ لم يصلنا، إلا أن الإشارة إليه عند صاحب البيان المغرب واضحة تؤكد أن مثل تلك السفارات كانت من بين فنون النثر الرسمي، فيذكر ابن عذاري في أخبار سنة (٣٥٤هـ) ما نصّه: " وفيها شرع في تنزيل الفسيفساء بالمسجد الجامع، وكان ملك الروم بعث بها إلى الخليفة الحكم، وكان الحكم قد كتب له في ذلك." (١)

ولم تبتعد الأخبار المتعلقة بالسفارات السياسيّة عن ذلك البعد المكاني، فإظهار الهيبة من خلال بيان الجلوس في قصر الزهراء - مثلاً - كان يُوحي بعظمة الملّك، وقد مرّ بنا ما لهذه المدينة من تميّز حضاري ومعماري جعل قرطبة تختال بذلك وتتبختر، ونقرأ عند صاحب المقتبس في أخبار سنة ٣٦٣هـ ما نصّه: " فلما كان يوم الاثنين ... قعد الخليفة الحكم المستنصر بالله على السرير بقصر الزهراء أتمّ قعوده، وأفخمه زينة شهده الوزراء وطبقات أهل الخدمة.... وتوصّل إليه بعدهم رسل " حلوية " عمّة الطاغية أمير جليقية وكافلته...." (٢) ونطالع أيضاً في العام نفسه: " وفي يوم السبت... جلس أمير المؤمنين على السرير بقصر الزهراء جلوساً فخماً قامت المراتب له بداخل القصر وخارجه، وحجبه من عن يمينه الوزير الكاتب صاحب المدينة بقرطبة جعفر بن عثمان.... ووصل الصفيين في الحجة طبقات أهل الخدمة على مراتبهم، فأوصل إلى نفسه رسول طاغية برشلونة "غيتار" صاحب مدينة برشلونة لأميرها بريل بن شنير فأوصل كتابه... وتوصل إثره "إشراكه" رسول "هوتو" ملك الإفرنج فأوصل كتابه أيضاً." (٣) ونستطيع استجلاء أثر مدينة الزهراء على فخامة الموقف السابق بوضوح، وهو ممّا تكرّر كثيراً في كلّ المواقف التي اعتنت كثيراً ببيان هيبة الحكم، وعلى الأخص في عهدي الناصر والمستنصر.

٧- لغة النص

لما كانت اللغة أداة بسط الأفكار، غدا من المهم الوقوف عند ملامحها العامة في الخصائص الفنية، وسنعرض لها من زاويتي الموضوع والناثر؛ لما للموضوع من خصوصية قد تفرض على الأديب لغة معينة، وفي الوقت نفسه لا يغيب عن الذهن أثر ثقافة الأديب وتياراته المعينة على لغته المنتقاة.

(١) ابن عذاري، البيان المغرب، ج ٢، ص ٢٣٧.

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق الحجّي) ص ١٤٦.

(٣) المصدر نفسه ص ١٨٢.

أ- اللغة والموضوع: تتحدّد مفردات اللغة ودلالاتها إلى حدّ ما بالموضوع المطروق، وقد تتبعتُ نثرُ عهد الخلافة الأموية فوجدتُ أنّ هذه اللغة قد تراوحتُ بين الرقة في الألفاظ ذات الدلالات التأثيرية على النفس كما في رسائل الورود وحُسن الطبيعة ورسائل الاستعطاف، وبين الجزالة والفخامة كما في الخطب السياسية وكتب البشارة والفتوح وقد تصل أحياناً مرحلة من الحدّة كما في كتب الهجاء والتفريع، فيما مالت بعض الفنون إلى لغة متوسطة ما بين التيارين السابقين وقد مثّل فنّ المقالات ذلك إلى حد ما، وحتى لا تكون الأحكام السابقة مجرد تعميمات مُطلّقة سأعرض لبعض النماذج التي تعزّز الرأي في حُكم اللغة السابق.

إنّ استخدام المعجم اللغوي المرتكز جُملةً على محاسن الطبيعة، جعل من رسائل الورود ووصف الطبيعة قطعاً نثرية ذات دلالات تأثيرية رقيقة على النفس، فألفاظ الصفاء والنقاء تريح النفس وتروق للعاطفة؛ ومن ذلك قول أبي حفص بن بُرد يصف الربيع في قرطبة في رسالة إلى صديق له في دانية: "كيف تأملتَ الربيع وقد صاغ لمفارقها تيجاناً، وفتق لمعاصمها أرداناً، فكأنما راسلت الأرض زهرَ النجوم، مع كدر الغيوم أنّ تبديها عند جلائها في هيئة سمائها، وكيف عاينتَ انشفاق تلك الأباطح عن نهرها السابح كأنه فضةٌ تحتها نار، فليس لها أبداً قرار" (١). جاء استرسال اللغة السابقة متناسقاً مع الموضوع الذي يتطلب ألفاظاً تلامس القلب والروح قبل أن تلامس العقل، فالربيع هو فصل الألوان الزاهية والطبيعة الخلابة والطقس الذي تصفو معه النفس باعتداله. وحتى يكون الحكم النقدي على اللغة صائباً، فإننا لا نستطيع أن نعزل اللغة عن الأسلوب والدلالات التأثيرية، فانسيابية اللغة السابقة أو لنقل رقتها جاءت بفعل عاملين معاً: أولهما المعجم اللغوي الرقيق الذي اعتمد الزهر والنجوم والغيوم والأنهار والفضة أرضيةً لعباراته، وثانيهما الأسلوب الذي اعتمد الاستعارات المتلاحقة والتشخيص الذي بث الحياة في الأنهار والنجوم والأزهار فأضحت تتراسل وتترلق (٢) فيما بينها، ولا يبتعد فن وصف الطبيعة ورسائل الورود عن طبيعة اللغة السابقة إجمالاً.

أمّا رسائل الاستعطاف وبثّ الشكوى، فجاءت لغتها رقيقة كذلك تمشياً مع مضمونها، فلا يُستهجن أن يشيع في معجمها اللغوي ألفاظ تتعلق بالأمل والرجاء وبيان ضيق الحال والأسى، ونقرأ على سبيل المثال رسالة لصاعد البغدادي يستعطف الخليفة سليمان ويطلب منه أن يصفح عن الوزير ابن مسلمة بما نصّه: " جمع الله طوائف الفضل عليك، وأذلق بك الألسن، وأرهف فيك الخواطر، ورفرف عليك طير الآمال، ونفضت إليك علائق الرجال ... ولم أجد لابن مسلمة حين عضه الثقافة، وضاق به الخناق، وانقطع به الرجاء، وكبا به الدهر ملجأً غيرك، فعطفك

(١) الحميري، البديع ص ٢٦ - ٢٧.

(٢) تترلق: تنتعم وتترين. انظر ابن منظور، لسان العرب (مادة زلق).

على واله نيّه النحس من سنة السعد، وأيقظته الآفات من رفة الغفلة، ورشقتة سهام الزمان بصنوف الامتهان حتى لقب المنية أمنية، وسمى الموت قوتاً... وليعلم أن اصطناع المعروف يكافئ المرء في سمعه وبصره، ويلقاه في طريقه، ويحول بينه وبين محاربه ويجازيه في أهله وولده" (١). والناظر في النموذج السابق يقف على حصيلة لغوية ميزتها الرقة في العواطف والحزن من الوهن الذي أصاب المستعطف له، وفي الوقت ذاته تتميز تلك الحصيلة بألفاظ الرجاء والأمل المعقود على الخليفة المرتجى عطفه، وتشكل أفاظ (الفضل وإرهاف الخواطر وطير الآمال واصطناع المعروف ومجازاته) معجم أدبينا في إظهار الأمل والرجاء بالخليفة سليمان، فيما تشكل أفاظ (سهام الزمان والامتهان وعض الثفاف والنحس وضيق الخناق) دلالات لغوية بانئة لحالة الانكسار التي أراد صاعد البغدادي أن يمثلها بدقة، علها تكون سبباً لملامسة قلب الخليفة وعطفه. ولم تخرج الظلال التأثيرية في مثل هذا اللون الأدبي عما أشرنا إليه من عدم انفصال بين اللغة والأسلوب، مما متن المعنى اللغوي بقوة التأثير، لتعدو عبارة من مثل "نبه النحس من سنة السعد" تحمل دلالات نفسية متنوعة تعمق المعنى؛ فالتنبية يكون من الغفلة لأخذ الحذر من شيء سلبي، لكنه هنا كان تنبيهاً للقارىء واندھاشاً للدلالة؛ فجاء التنبيه من السعد. ومثل هذه الدلالات التي تعمقت بالأسلوب اللغوي تتكرر كثيراً في رسائل الاستعطاف وبث الشكوى التي تتطلب يقظة كبيرة من قلب المستعطف ليعفو ويتسامح.

وإذا ما انتقلنا إلى قوة اللغة وفخامتها فإننا نلج إلى فنون نثرية اقتضت ذلك، كفن الخطبة السياسية بخاصة، فالخطبة أساساً تعتمد قوة التأثير، فكيف إذا كانت بحضرة الخليفة وجمع غير كما رأينا في خطبة البلوطي، التي قد نضيف إليها عاملاً آخر هنا يتعلق بإظهار البراعة اللغوية من شخصية أرادت رأب صدع الموقف - كما مرّ سابقاً - فجاءت اللغة من معجمين ملحوظين: الأول يتعلق بالضعف والشقاق، والثاني يتعلق بالقوة والانتصار والرخاء الأمني الذي تحقق على يد الخليفة، ومن ذلك قول المنذر بن سعيد: "وأنا أذكركم نعم الله تعالى عليكم، وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين التي أمّنت سربكم ورفعت خوفكم، وكنتم قليلاً فكثركم، ومستضعفين فقواكم ومستنذلين فنصركم، ولآه الله رعايتكم وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق وأحاطت بكم تشعل النفاق حتى صرتم في مثل حدقة البعير، مع ضيق الحال ونكد العيش، فاستبدلتم بخلافته من الشده بالرخاء، وانتقلتم بيمن سياسته إلى كنف العافية بعد استيطان البلاء، ناشدتم الله يا معشر الملاء ألم تكن الدماء مسفوكة فأمتها، والأموال منتهبة فأحرزها وحصنها، ألم تكن البلاد خراباً فعمرها، وثغور المسلمين مهتزمة فحماها ونصرها؟" (٢)

(١) ابن بسام، الذخيرة، م ١/٤، ص ١٠.

(٢) ابن خاقان، مطمح الأنفس، القسم الثاني ص ٢٤١.

إنّ دراسة اللغة في النموذج السابق توضّح ما أُشير إليه أعلاه؛ فالتضاد والتقابل كان بيّناً بين الألفاظ والعبارات، فنلمح تراكيب خاصة بالأمن والرخاء وكَنَف العافية والتعمير والتحسين والحماية والنصر، ويقابلها الخوف والقلّة والنفاق والبلاء وسفك الدماء واهتضام الحقوق والخراب، وقد استطاع البلوطي أن يبتعد عن الزخرف اللفظي فجاءت عباراته قصيرة تنازعها الأسلوبان الخبري والإنشائي، فاستطاع هذا الأسلوب رسم الصورة الكلية للخطبة التي كان هدفها بيان قوة الدولة وتوضيح حالها مقارنة بما كان من وهن، ومن الطبيعي أن ننظر إلى هذه الخطبة يُبعدها الزمني الذي كان في بداية عهد الخلافة الأموية، فلم يَمِلِ للسجع والبديع قصداً ومطلباً، فيما تغيّرت الأحوال - كما مرّ معنا - في الربع الأخير من عهد الخلافة.

ولا نخرج من دائرة قوة اللغة والألفاظ إذا ما تحدّثنا عن كُتُب الفتوح أو كُتُب التفرّيع، فكلّ الفنين تطلّبا لغة جزلة تأثريّة وإن اختلفا في المضمون، ولعلّ النموذج الأوضح الذي وصلنا من كُتُب الفتوح ما تعلّق بفتح مدينة بُبشتر الذي مرّ آنفاً، وإذ أقف مرة أخرى عليه فمن باب التمثيل على نوعية اللغة وعلاقة ذلك بالأسلوب، ونستذكر منه: " فأصبحت مدينته بقعة الضلالة ومنبر الخلاف، ومعدن الغواية بما أحاط بها من أسوارها، وأبنيتها وقصابها، وداخلها من جنّاتها ومصانعها، مقيومة من قطينها، خاوية على عروشها، كأن لم يَغْن بها ساكن، ولا استوطنها قاطن قد [أتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرُّعب]^(١) وصار جميع ما كانوا من ظلّ العافية، وأنقّ النعمة ثبوراً"^(٢). لقد عرض الكتاب السابق مضموناً خاصاً تعلّق بقوة الفتوح، وآثار التدمير على قاعدة من قواعد الشرك، فلم يكن مُستهجناً أن تكون اللغة بقوة هذا الحدّث، وأن تنتقى من مُعجم خاص تسيطر عليه ألفاظ الانهزام والقفول والانكسار والخلو من الساكنين. وكما رأينا في الخطبة السابقة استدعى رسم الصورة المقابلة بيان ما كان عليه القوم من عافية ونعمة، وكيف تغيّرت أحوالهم نتيجة أفعالهم؛ فبعد ظلّ العافية وأنقّ النعمة غدوا ثبوراً، وبعد الأمن قذف الله في قلوبهم الرعب. والنموذج السابق يمثّل عناية في تخيّر الألفاظ التأثيرية؛ لأنّه كتاب موجّه إلى الأفاق يمثّل بشريّ بالفتح من جهة، وقذفاً بالرُّعب لمن كان يعادي دولة الناصر من جهة أخرى، وغنيّ عن الذكر ما للغة من سحر في التأثير على مثل هذه المواقف. أمّا الجمل المترادفة فعنصرٌ أسلوبِي اعتمد على اللغة ليقوّي المعنى المُراد، ويعمّقه في نفوس المتلقّين.

(١) سورة الحشر الآية (٢).

(٢) ابن حيان، المقتبس (تحقيق شالميتا) ج٥، ص ٢٣٠.

أمّا كتب التقرّيع فجاءت لغتها هي الأخرى جزلة منسجمة مع مضمونها، ولعلّ كتاب الحاجب المنصور الذي أنشأه الجزيري يوضح سيرورة اللغة في مثل تلك النماذج خير تمثيل، ونستذكر ذلك الكتاب بما نصّه: " وكثيراً ما فرط من قولكم إنكم تجهلون قتال المعاقل والحصون، وتشتاقون مُلاقة الرجال الفحول، فحين جاءكم شأنُجُه بالأمنية، وقاتلكم بالشريطة أنكرتم ما عرفتم ونافرتم ما أفتتم حتى فررتم فرار اليعافير من آساد الغيل، وأجفتم إجمال الرئال عن المقتنصين"^(١). تبدو اللغة الهازئة والساخرة بائنة على جوّ الكتاب السابق، وهي لغة تتسق مع اللوم والتقرّيع؛ فالحديث عن اشتياق مُلاقة الرجال الفحول يقابله فرار مَشِين لم يجد الجزيري له صورة إيحائية أشمل من فرار اليعافير من آساد الغيل، وإجمال الرئال عن المقتنصين. وقد استطاع الجزيري أن يتكئ على معجم القوة والضعف في رسم إطار الكتاب السابق بتمكّن، فكلمات الرجال الفحول وقتال المعاقل والحصون، ألفاظُ ترسم الصورة النظرية فيما يتوقّع الحاجب المنصور من المقاتلين الأشداء، فيما تأتي ألفاظ الفرار واليعافير والإجمال ترسم الصورة الحقيقية في تخلف بعض المقاتلين عن القتال. وعلى الرُغم من قصر الكتاب السابق إلا أنه حمل لغة تقرّيع واستهزاء واضحة، وكان الهدف التأثري منه محققاً في المُجمل.

ب- اللغة والأديب الناثر:

لئن كان الموضوع يُحدّد ملامح اللغة في بعض الفنون، فإنّ ذلك لا يمنع من أن تكون للأديب لغته الخاصة التي تتأثر بأسلوبه الفنيّ في العرض. ويمكننا استكشاف أثر الأديب على اللغة بالوقوف عند لغة بعض الأدباء الناثرين.

يبدو أنّ لغة الأديب قد حُكمت بأكثر من عنصر متشابك؛ فالزمن والموضوع والثقافة الخاصة إضافة إلى الشخصية كلّها تتدخل في خلق اللغة الخاصة بالناثر، ففي حين شغف ابن شهيد بالسجع مثلاً، فإنّ ذلك لم يقف حائلاً بينه وبين عدّه من أعظم أدباء عصره بشهادة نقاد الأندلس^(٢)، لأنّ ابن شهيد كان يعتني بالألفاظ بالطبع دون أن يتكلّف، أمّا ابن الإفيلي مثلاً فقد عدّ نثره متواضعاً لتكلفه في اللغة، ونستطيع تبين ذلك من الخبر الذي أورده ابن بسّام في حقّه إذ يقول: " وكان أبو القاسم المعروف بابن الإفيلي... قد بدّ أهل زمانه بقرطبة في علم اللسان العربي، والضبط لغريب اللغة في ألفاظ الأشعار الجاهلية والإسلامية... وكان لحق الفتنة البربرية بقرطبة... واستكتبه محمد بن عبد الرحمن المستكفي بعد ابن بُرد، فوقع كلامه جانب

(١) ابن الخطيب، أعمال الأعلام ص ٧٢.

(٢) انظر ص ١٥٥.

من البلاغة؛ لأنه كان على طريقة المعلمين المتكلمين، فلم يجر في أساليب الكتاب المطواعين فزهد فيه" (١).

والناظر في الخبر السابق يرى أن غريب اللغة ومهجورها مما لم يرحب به، وبخاصة في الكتابة السلطانية، فيبدو أن تمكن ابن الإفليبي من غريب اللغة قد انعكس على لغته فزهد فيه. وقد أتيت بذلك لبيان الفارق بينه وبين ابن شهيد الذي كانت لغته قوية، وتحتاج إلى تفكر أحياناً، لكنها لم تكن لغة غريبة بعيدة عن روح العصر، وأما السجع في أسلوب ابن شهيد فهو دليل على قوة لغته لا ضعفها؛ فالسجع يتطلب معجماً لغوياً ضخماً من الأديب. وإذا كان ابن شهيد قد مثل اللغة السجعية المطبوعة وابن الإفليبي اللغة الغريبة المتكلفة، فإننا لم نعد حالة التوسط بينهما كما رأينا في لغة ابن حزم في طوق الحمامة وغيرها من فنونه النثرية، إذ جاءت لغته سلسلة مفهومة قريبة من الطبع تخاطب العقل بمنطقية الأديب المثقف المتوازن، فلم تكن لغة حادة حتى في رسالة تفضيل الأندلس كما بينا.

والأدباء الثلاثة السابقون من عهد مترامن، وإنما عرضت إليهم على سبيل التخيير حتى نبين ما لشخصية الأديب ذاته في العصر الواحد من أثر على لغته وأسلوبه، لأنه يتعذر على الدارس أن ينقد اللغة بمعزل عن القصديّة الأدبية التي تهتم اهتماماً خاصاً بلغة الأديب، وما تتطوي عليه من إيماءات يمكن الكشف عن دلالاتها. (٢)

٨ - التناص

ما فتئت قضية الإبداع والسرقة قضية مطروقة في النقد، ولست هنا بصدد تناول هذه القضية بأبعادها المتعددة، لكنني سأعرض إلى جزئية التناص منها في بعض الفنون النثرية لعهد الخلافة فيما يخدم الخصائص الفنية لهذا النثر.

" يرى "دوبوجراند" أن عنصر التناص هو أهم العناصر في نظرية أنواع النصوص، ذلك أن النصوص إنما تكتب بحسب رأيه في إطار خبرة سابقة؛ وعلى الرغم من أن مفهوم التناص يثير كثيراً من الإشكالات، "لأن بعض المحدثين حرقوه عن معناه الصحيح، فالواضح أن المقصود به ليس أن النصوص تمثل إعادات لبعضها بعضاً، بل المقصود به أن النصوص السابقة تشكل خبرة إليها في تكوين النصوص اللاحقة والكشف عنها." (٣)

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ ق ١، ص ٢٨١ - ٢٨٢.

(٢) ياسين، السيد، التحليل الاجتماعي الأدبي، ط ٢، دار التنوير، بيروت، ١٩٨٢. ص ٤٣.

(٣) عوض، يوسف، نظرية النقد الأدبي الحديث، دار الأمين، القاهرة، ١٩٩٤. ص ١٠٢.

إنّ الأخذ برأي "دوبوجراند" السابق المتعلّق بعلم النص يقود إلى عموميّة على درجة عالية، ولذا سأفصر نموذجيّ في ملامح التناس على نصيّ التوابع والزوابع وطوق الحمامة اللذين يمثلان أوضح النصوص النثرية الفنية في عهد الخلافة الأموية^(١)، إضافة إلى أنّ هذين النصين مما ثار الجدل في الدراسات الحديثة حول تعدّد روافدهما وتعدّد تأثيرهما في نصوص أخرى.

أمّا فيما يتعلّق بنصّ التوابع والزوابع فإنّ معظم الدراسات الأدبية التي وقفت عند التأثير والتأثير في هذا النص، درّست العلاقة بين هذا النصّ ونصّ أبي العلاء المعري، وكان حسّم القضية فيمن كان له السبق في الابتداع وفيمن احتذى قضية شاغلة^(٢)، وما يعنينا هنا في قضية التناس أنّ التوابع والزوابع ورسالة الغفران تمثّلان نهجاً متقارباً في الفنّ الأدبي، ممّا يرجح بأنّ فنية التناس قد تكون بطبيعة تأثر أحدهما بالآخر، ويهمننا هنا التأثير أو التأثير لأنّ كليهما إغناء للتجربة النثرية الفنية، التي تفرّز فيما بعد إغناء للتجربة الأدبية لفنّ أدبي بعينه.

يرى الكاتب سليم ريدان " أنّ تجربة الأديب في تميّزها وتفرّدتها لا يمكن أن تبدو في بعض وحدات النص، فالمقارنة ينبغي أن تكون بين نصوص كاملة في معنى واسع لكلمة نص يشمل الرسائل والقصص ومجموع المقامات حيث تبدو تجربة الأديب كاملة"^(٣). وتبدو النظرة الكلية في كلا القصتين فيما يتعلّق بالتناس - في اعتقادي - في الأسلوب الفنّي الذي نفّذ فيه النوع الأدبي؛ أي في اختيار الرحلة الذهنية، وقد يكون من الظلم الفنّي أن نقف عند جزئيات كل من العاملين لأنّ المضمون مختلف، وهذا قطعاً سيؤثر على فنية الطرح في كلا القصتين. وأستغرب ما ذهب إليه د. محمد غنيمي هلال الذي قرّر أنّ قصة أبي العلاء المعري أكثر نضجاً، وأنّ قصة التوابع تفتقر إلى العمق الفنّي^(٤)؛ إذ كيف يمكن مقارنة رحلة إلى عالم جنّ الشعراء والناثرين برحلة إلى عالم الجنة والنار، بكلّ ما تحمله الرحلة الثانية من آراء فلسفية ومعتقدية سنلقي بظلالها على المتلقي، وأرى أنّ المقارنة باختلاف هذا المضمون ستظلم أحد النصين. وحتى يكون لرأينا حجة، أفق عند فنية المشهد الدرامي عند ابن شهيد الذي أعدّه مثلاً جيداً على العمق الفنّي للقصة الذي قلل من شأنه د. هلال، فابن شهيد في زيارته الميدانية عبر التوابع والزوابع كان يمسك بأطراف القصة الفنية في رسم ملامح المكان والزمان، ثمّ ينتقل إلى بناء الحدث النسيجي الذي كانت عناصر الرؤية والسمع والمؤثرات الخيالية تسبكه كحدث دراميّ

(١) انظر رأي "د. إحسان عباس" في عباس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة ص ٣٠٣.

(٢) انظر بعض الآراء في ذلك في السيوفي، مصطفى، ملامح التجديد في النثر الفنّي خلال القرن الخامس، ط ١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٥. ص ٧٤ - ٧٦.

(٣) انظر هذا الرأي بتصرّف في ريدان، ظاهرة التماثل والتميّز في الأدب الأندلسي ص ٩.

(٤) هلال، محمد غنيمي، الأدب المقارن، دار العودة، بيروت، ١٩٨٣. ص ٢٢٩.

ومشهد يُقرأ بفنية الزائر والمزور في ندبة واضحة، ولنا في مشهد زيارة أبي نواس - مثلاً - نموذج واضح على ما ذهبتُ إليه^(١)، وألح على أن القَطْع بعلو فنية أحد النموذجين السابقين قد أتى بفعل تأثير المضمون، وفي هذا ابتعاد عن مفهوم التناص بما أريد له من خبرة سابقة في فنية النص لا في مضمونه.

وإذا ما انتقلنا إلى نصّ ابن حزم في الطوق، فإننا نجد أنّ أدبنا هنا قد انتهج فنية التنظير والتمثيل، إذ كان ابن حزم يعرض وجهة نظره في الباب الذي يتحدث عنه مُعرجاً على قصة أو موقف يعزّزان وجهة النظر تلك. ولعلّ صاحب الطوق هنا لم يبتعد عن فنية حوار المأدبة الأفلاطوني^(٢) الذي نظر للحب وأصوله وماهيته عن طريق الحوار المتنامي، وعرض الخبرة كما وجدنا عند سقراط ومحبوبته "ديوتيميا"، ولما كانت الطبيعة الإنسانية تتشابه في الانفعالات والاستجابات في كثير من مواقف الحب، أمكننا القول إنّ ابن حزم قد يكون متأثر بذلك الحوار في المضمون والفنية، وقد يعترض عليّ لأنني رفضت المقارنة بين التوابع ورسالة الغفران في المضمون، وأجزتها في طوق الحمامة وحوار المأدبة، وجوابي على هذا أنّ المضمون في المقارنة الأخيرة واحد مما جرّاني على طرح التناص بينهما فنيةً ومضموناً، فالخبرة السابقة التي كانت بحوزة ابن حزم حول رأي سقراط مثلاً بأنّ الخطابة وحدها لا تعبر عن آلية الحب وماهيته هي ما قادت ابن حزم الفيلسوف - إنّ جاز لنا التعبير - أن يقرن ذلك التنظير بالتطبيق، وأن يأخذ من نفسه أنموذجاً للتطبيق أحياناً، وكأني بابن حزم قد تجرّد لموضوع الحب بالفلسفة المجردة وبالفلسفة التطبيقية لتكتمل الصورة فيه، وقد تماهى في هذا الطرح ممّا جعل من قصصه وأشعاره مادة للدرس تقف عند مفصل هل كان ابن حزم فيلسوفاً أم فقيهاً أم مُجرباً للحب؟ ولعليّ هنا أعود إلى الرأي في أنّ الطوق أكثر من مجرد قصص وآراء في الحب بين الأشخاص، إنه الرابطة الأقوى في الوجود الإنساني الذي يقود إلى وجود حضاري، وما كانت آراء الفلاسفة في حوار المأدبة ببعيدة عن هذا، ولذا رفض سقراط أن يكون الحديث خطابياً تنظيرياً، وعرضه من واقع تجربته الذاتية، ليكون أنموذجاً للطرح الإنساني العام.

(١) راجع المشهد بما يحتوي من عناصر الظلال التأثيرية في ابن بسام، الذخيرة م ١/ق ١ ص ٢٥٩ - ٢٦٠.
(٢) حوار المأدبة هو حوار في الحب يتولّى الحديث فيه خمسة من المتحدثين اجتمعوا في بيت أحدهم، وأحبّوا أن يتجنّبوا الاستسلام إلى نوبة من الشرب بعد انتهائهم من الطعام، فتناوبوا الحديث واحداً تلو الآخر. فلمّا جاء دور السادس وهو سقراط، رأى أنّه يقصر عنهم في البلاغة حول ما ذكروا، وكانت هذه طريقتة الهزلية في انتقاد الطريقة الخطابية التي عالجوا فيها الموضوع، فتحوّل هو إلى طريقة الحوار المتنامي، فانقل لقصّ حوار جرى بينه وبين امرأة تدعى "ديوتيميا" وهي عارفة بفنون الحب.
انظر حول حوار المأدبة في ابن حزم، رسائل ابن حزم، ج ١ (مقدّمة تحقيق إحسان عباس لطوق الحمامة) ص ٢٤ - ٢٥.

ونخلص ممّا سبق إلى أنّ التناصّ لم يغب عن الخصائص الفنيّة للعصر موضوع الدراسة، لكنّه خضع لعوامل قنّنته ، وحكمت بروزه في بعض الأنواع الأدبية على حساب أنواع أخرى.

٩- الروح الدرامية

يبرز الملمح الدرامي في كثير من فنون هذا العهد، ولعلّ ذلك يتأتّى من ملامح أخرى متشابكة ستكون حصيلتها بالتأكيد هي هذه الروح الدرامية، فعناصر المكان والزمان والشغف بطبيعة خلابة وعصر بلغت فيه عظمة الدولة أوجها ثمّ بدأت بالأفول، إضافة إلى عنصر التكثيف الذي اقتضاه الذوق العام، كل ذلك حمل في أطره الفنيّة ميل كثير من فنون النثر إلى تلك الروح الدرامية. ونماذج هذا الملمح كثيرة يمكن مشاهدتها في النثر الوصفي والقصة والمقالة وحتى الخطبة والرسالة. ولعلّ من نافلة القول كيف تحرك المشهد الفني الناطق في قصة التوابع أو في طوق ابن حزم أو في النثر الوصفي عند ابن شهيد وابن بُرد، وكل ذلك جاء من دلالات وشخصيات نقلت مستوى الحدث من الخطاب النصّي المدوّن إلى النص الناطق المتخيّل.

وبالعودة إلى أي من النماذج السابقة يمكن الاستدلال على تلك الروح الدرامية التي احتاجتها طبيعة ذاك العهد وظروفه، فالعقل الأندلسي القرطبي كان عقلاً متخيلاً؛ أحبّ الطبيعة وأحبّ العلم فمزج بين العاطفة والعقل في نثره بذاك الأسلوب الذي يزرع للحديث عن نفسه.

لم تكن رسالة ابن شهيد في صفة البرد والنار والحطب ببعيدة عن التصوّر السابق مثلاً، إذ يقول ابن شهيد: " صبحتُنا اليوم خيلُ البردِ مُغيرة، فانقبضتُ إلى أُخريات الإيوان، وقد كدّسني بصارم وسانان، فجعلتُ مجنّي حطّبا دلّ على نفسه، وتشظّي من يبسه، فسَلطتُ عليه صاحب الشرر، ورميته منها ببنات الحديد والحجر، فواقعه قليلاً وعاركه طويلاً، فكان لها عجيح وله من حرّها ضجيج، ثمّ خلا لها صريعاً، واستولتُ عليه صعباً منيعاً، فبددتُ شمله وألفتُ شملها، واستحالت حية لا يستلذ قتلها، ترمي بألوان وتتهدّد بلسان، فلذعت البرد لذعةً، ونكزته على فؤاده نكزة خراً لها على جبينه، ومات بها من حينه." (١)

لم يكن نص ابن شهيد السابق وصفاً للبرد والحطب والنار بقدر ما تحول إلى مشهد درامي؛ سيطرت عليه الأفعال والدلالات التي حولته إلى ساحة عراك، ومعركة حامية الوطيس بين عناصر الحطب والنار ومُجابهة البرد. ويزداد التشويق ويتعالى في المشهد السابق الذي تسلل إلى النص عبر تخيّل المشهد المُعمّم بالحركة، فكانت أفعال التشظّي والشرر والضجة

(١) الثعالبي، يتيمة الدهر، ج٢، ص ٥١ - ٥٢.

واللذعة والنكزة لبنات بنائية للشخصيات المتخيّلة في البرد والحطب والنار، لينتهي المشهد السابق بانتصار النار على البرد، ولا غرؤ أن تكون الروح الدرامية هي سلاح الكاتب في الأسلوب السابق، فمثل هذا الأسلوب يعلو إلى مرتبة محاكاة النص بالتخيّل الحركي الحدّي الذي يتفوّق على مجرد العرض الوصفي العقيم.

وتتوالى الروح الدرامية في نماذج أخرى عند أدبينا السابق وعند غيره في النثر الوصفي، كما نراها أيضاً في فنون أخرى كالمناظرات. وبالعودة إلى مناظرة ابن بُرد بين السيف والقلم فإننا نقفُ على هذه السّمة بوضوح، ومن ذلك: " أستعيذُ بالله من خطلٍ أرعيت فيه سواعك، وزللٍ افتتحت به كلامك، إنّ ازديارك بتمكّن وجداني وبخسِ أثماني لَنَقْصٍ في طباعك وقصرٍ في باعك، ألا وإنّ الذهب معدنه في العفر وهو أنفُس الجواهر، والنار مكنُها في الحجر وهي إحدى العناصر، وإنّ الماء وهو الحياة أكثرُ المعاشِ وجداناً، وأقلها أثماناً، وقلمنا تلقى الأعلاق النفسية إلا في الأمكنة الخسيسة، وأمّا التعرّي فغنينا بالجمال عن جرّ الأذيال وهل يصلح الثُر حتى يطرح صدفه... أم يتلألأ الصبح حتى تتجلي صدفه.... ولولا جلاء الصياقل صدأك لأسرعت ذهاباً وعُدت مع التراب تُراباً." (١)

وتتجلي حقيقة المشهد الدرامي السابق في تحوّلِهِ إلى جلسةٍ محكميّة، يتقنن القلم فيها في عرض حُججه بتدرّجٍ ومنطقيّة، ولا يغيب عن المتلقّي ما يحمل هذا الأسلوب التشخيصي من ملامح نفسي واجتماعي يُعلي من درجة التأثير في التلقي، فالقارئ ينسى أنه أمام قضية قلم وسيف، وينغمس في قضية صراع بين شخصيتين كلٍّ منهما مُتقلّ بالبراهين التي تجعل مُثوله في ساحة المحكمة أكثر قوة واتزاناً، وما كان تركيز القلم في النص المُنتقى السابق إلا تدعيماً لشخصية القلم المتنزّنة التي أرادت الدفاع عن رُخص أثمانٍ أشياء قيمتها في فائدتها تتجاوز أعنان السماء، وكل ذلك على لسان القلم ذاته الذي قدّم حججه بمنطقيّة عكست فكرة العلم، في حين جاءت شخصيّة السيف - إذا ما عدنا لنص المناظرة (٢) في ملامحها النفسية والاجتماعية - تتمثّل الشخصية المندفعة الحادة، لتمثّل هذه المناظرة في منظورها العام انعكاساً للأراء عبّر انعكاس الشخصيات أنفسها في أطرها الدرامية العامة.

إنّ استعراض الملامح العامة للنثر الفني في عصر الخلافة الأموية موضوع الدراسة يقف بالباحث على مجموعة من الأطر يمكن بثّها في كفتي ميزان متعادلتيْن؛ تتمثّل الكفة الأولى المنحنى البياني للحالة السياسية التي انتقلت من ضعف إلى أوج وعظمة، ثمّ عادت للتشظّي

(١) ابن بسّام، الذخيرة، م ١/ق ١، ص ٥٢٥ - ٥٢٦

(٢) انظر المصدر نفسه، م ١/ق ١، ص ٥٢٠ - ٥٣٠.

خلال قرن من الزمن، بكل ما يحمله هذا البعد من أثر على الشخصية النائرة وموضوعاتها المنتقاة وأسلوب عرضها، فيما تمثل الكفة الأخرى البيئة المكانية الأندلسية التي كانت قرطبة فيها واسطة العقد الأندلسي، فانعكس حبها على كثير من الفنون، وألقت ملامحها الحضارية بظلالها على النثر مضموناً وأسلوباً، فيما توزعت بعض ملامح هذا النثر بين الكفتين السابقتين بفعل طبيعة النثر الأندلسي الذي ما غاب عنه النموذج النثري العربي مُمثلاً بالنموذج المشرقي، لتتعاقد الملامح السابقة في إعطاء خصوصية معينة للنثر الفني في ذلك العهد.

الخاتمة

قدّمت الدراسة بحثاً في النثر الفني الأندلسي من ناحيتي الشكل والمضمون مروراً بالعوامل المؤثرة فيه، وتوصّلت الدراسة إلى أنّ العامل السياسي كان الخيط الذي انتظم العوامل العامّة المؤثرة في النتاج النثري لهذا العصر.

واستقرت الدراسة النتاج الكمي للفنون المختلفة، وتوصّلت إلى رجحان كفة فنّ الرسائل بأنواعه المختلفة على بقية الفنون النثرية، فيما كانت النماذج التي وصلتنا في فن المناظرات الأقلّ عدداً، ولم تغفل الدراسة الإشارة إلى التأسيس في فنّي المناظرات ورسائل وصف الورود، مبيّنة أنّ أقدم النصوص الأندلسية التي وصلتنا في هذين الفنّين كانت من عهد الخلافة الأموية.

لقد اعتمدت الدراسة النمذجة في عرض كثير من الفنون النثرية الفنيّة، واستنتجت أنّ العمق الزمني والشخصية النائرة كانا الأكثر تأثيراً في تشكيل صورة النتاج النثري من ناحيتي المضمون والسّمات، ففيما ازدهرت الرسائل الديوانية مثلاً في عصري الخليفين الناصر والمستنصر بشكل لافت، أفرز لنا عهد الحجابة العامرية فنّ رسائل وصف الورود، وتميّز عهد الفتنة البربرية بنثر ابن حزم وابن شهيد وابن بُرد بفنون نثرية متنوّعة، وبأساليب متفرّدة خضعت لشخصية كلّ أديب. أمّا من الناحية الفنيّة فتوصّلت الدراسة إلى أنّ عهد الفتنة البربرية ابتلي بزخرف الكتابة حتى أُجبر أديب مثل ابن شهيد أن يخضع لذوق العصر فيه ويدافع عنه، فيما ابتعد النثر في صدر الخلافة الأموية الأندلسية عن ذلك الإيغال في البديع.

وأظهرت الدراسة تضافر مجموعة من العوامل والظروف أسهمت في خصوصية هذا النثر، فتميّز عدد من الأدباء الناثرين المعدودين في الأدب العربي بعامّة أمثال ابن حزم وابن شهيد وابن درّاج وابن بُرد.

وتخلص الدراسة إلى القول: إنّ النثر الفني في عصر الخلافة حمل خصوصية ميّزته في بعض الأغراض الفنيّة، وفي الأساليب المتبّعة على تغايرها عن بقية العصور الأدبية الأندلسية، وأنها مهّدت لعصر أدبيّ ذهبيّ هو عصر ملوك الطوائف فيما بعد.

ويظلّ الأمل بالكشف عمّا هو مخبأ في بطون الكتب هو الرهان الراجح على جلاء صورة نثر هذا العصر الأدبيّ بما يزيده ألقاً وتميّزاً.

المصادر والمراجع

- آريبي، راشال (١٩٨٨)، ابن حزم والحب العذري، مجلة دراسات أندلسية (١): ٤٠ - ٦٣.
- ابن الأثير، أبو عبدالله محمد بن عبدالله البنسي (ت ٦٥٨هـ-)، التكملة لكتاب الصلة (تحقيق عبد السلام الهراس)، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٥.
- ابن الأثير، أبو عبدالله محمد بن عبدالله البنسي (ت ٦٥٨هـ-)، الحلة السيرة (تحقيق حسين مؤنس)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.
- إبراهيم، السيد (١٩٧٧)، نظرية القارئ، القاهرة: مكتبة زهراء الشرق.
- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد (ت ٦٦٨هـ-)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.
- ابن الأثير، عزّ الدين علي بن أبي الكرم (ت ٦٣٠هـ-)، الكامل في التاريخ، ط١، (تحقيق خليل مأمون)، دار المعرفة، لبنان، ٢٠٠٢.
- الإدريسي، أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن إدريس (ت ٥٦٠هـ-)، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٢.
- أدهم، علي (١٩٧٥)، عبد الرحمن الناصر، بيروت: دار القدس.
- أرسلان، شكيب، (١٩٨٣)، خلاصة تاريخ الأندلس، بيروت: دار مكتبة الحياة.
- بالنشيا، آنخل، (١٩٩٠)، تاريخ الفكر الأندلسي، (ترجمة حسين مؤنس)، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل (ت ٢٥٦هـ-)، التاريخ الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٦.
- بروفنسال، ليفي (٢٠٠٢)، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية: النظم والمؤسسات الفكرية، (ترجمة علي البمي وآخرين)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٣هـ-)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ط٢، (تحقيق د. إحسان عباس)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩.
- ابن بسّام، أبو الحسن علي بن بسّام الشنتريني (ت ٥٤٣هـ-)، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (تحقيق سالم البدري)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨.

- ابن يشكوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت ٥٧٨هـ)، الصلة في تاريخ علماء الأندلس (شرح وتقديم صلاح الدين الهواري)، المكتبة العصرية، صيدا، ٢٠٠٣.
- بكار، توفيق (١٩٩٥)، جدلية المماثلة والمقابلة في رسالة التوابع والزوابع، مجلة دراسات أندلسية (١٣): ٥ - ١٩.
- بلباس، ليوبولدو (٢٠٠٢)، تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية: الفن والعمارة، (ترجمة علي البمبي وآخرين)، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.
- بلا شارل (١٩٦٥)، ابن شهيد الأندلسي: حياته وشعره، عمان: جمعية عمال المطابع الوطنية.
- بهجت، منجد (١٩٨٨)، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، الموصل: دار الكتب للنشر.
- التابعي، محمد (١٩٨٨)، السفارات في الإسلام، القاهرة: مكتبة مدبولي.
- ترزي، فؤاد (١٩٦١)، مسلم بن الوليد: صريع الغواني، بيروت: دار الكتاب.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩)، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، (تحقيق أبو الفضل إبراهيم)، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٥.
- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد (ت ٤٢٩هـ)، يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر (تحقيق مفيد قميحة)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.
- جبور، جبرائيل (١٩٧٩)، ابن عبد ربه وعقده، ط٢، بيروت: دار الآفاق الجديدة.
- جرار، صلاح، الدروبي (٢٠٠٠)، محمد، التوقيعات الأندلسية، منشورات جامعة آل البيت.
- جرار، صلاح (٢٠٠٣)، صلاح في أروقة الزهراء، عمان: أمانة عمان الكبرى.
- ابن جلجل، أبو داود سليمان بن حسّان (ت ٣٧٧هـ)، طبقات الأطباء والحكماء (تحقيق فؤاد رشيد)، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي، القاهرة، ١٩٥٥.
- الجبوسي، سلمى (١٩٩٩)، الحضارة العربية في الأندلس، ط٢، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.
- الحجي، عبد الرحمن (٢٠٠٢)، العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة حتى نهاية القرن الرابع، أبو ظبي: المجمع الثقافي.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، التقريب لحد المنطق والمدخل إليه بالألفاظ العامية والأمثلة الفقهية (تحقيق أحمد المزيدي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.

- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، **جمهرة أنساب العرب** (تحقيق ليفي بروفنسال)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، **رسائل ابن حزم الأندلسي** (تحقيق د. إحسان عباس)، ج ١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، **رسائل ابن حزم الأندلسي** (تحقيق د. إحسان عباس)، ج ٢، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨١.
- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد الأندلسي (ت ٤٥٦هـ)، **طوق الحمامة في الألفة والألاف** (تحقيق د. إحسان عباس)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣.
- الحطيئة، جرول بن أوس (ت ٤٥هـ)، **ديوان الحطيئة**، ط ١، (شرح يوسف عيد)، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.
- أبو حاتم، نبيل (١٩٨٥)، **اتجاهات الشعر العربي في القرن الرابع الهجري**، الدوحة: دار الثقافة.
- حمادة، محمد (١٩٨٠)، **الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقيا**، ط ١، بيروت: مؤسسة الرسالة.
- الحميدي، محمد بن فتوح (ت ٤٨٨هـ)، **جذوة المقتبس في ذكر ولاية الأندلس** (تحقيق محمد بن تاويت)، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٥٢.
- الحميري، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (ت ٩٠٠هـ)، **صفة جزيرة الأندلس: منتخبة من كتاب الروض المعطار** (تحقيق ليفي بروفنسال)، مطبعة لجنة التأليف، القاهرة، ١٩٣٧.
- الحميري، أبو الوليد إسماعيل بن محمد الإشبيلي (ت ٤٤٤هـ)، **البديع في وصف الربيع** (تحقيق عبدالله عسيلان)، دار المدني، جدة، ١٩٨٧.
- ابن حيّان، أبو مروان حيّان بن خلف (ت ٤٦٩هـ)، **المقتبس** (تحقيق عبد الرحمن الحجّي)، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٥.
- ابن حيّان، أبو مروان حيّان بن خلف (ت ٤٦٩هـ)، **المقتبس**، ح ٥ (تحقيق ب. شالميتا وف. كورينطي)، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٧٩.
- ابن خاقان، أو نصر الفتح بن محمد (ت ٥٢٩هـ)، **مطمح الأنفس ومسرح التأنس** (تحقيق محمد شوابكة)، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٣.

- الخشني، أبو عبدالله محمد بن حارث (ت ٣٦١هـ)، أخبار الفقهاء والمحدثين (تحقيق ماريّا آبيلا ولويس مولينا)، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، مدريد، ١٩٩٢.
- الخشني، أبو عبدالله محمد بن حارث (ت ٣٦١هـ)، قضاة قرطبة وعلماء إفريقية (تحقيق السيد عزت العطار)، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩٤.
- ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب السلماي (ت ٧٧٦هـ)، أعمال الأعلام (تحقيق ليفي بروفنسال)، دار المكشوف، بيروت، ١٩٥٦.
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد الحضرمي (ت ٨٠٨هـ)، مقدمة ابن خلدون (تحقيق علي عبد الواحد)، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠٠٤.
- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد (ت ٦٨١هـ)، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ط ١، (تحقيق محمد المرعشلي)، دار إحياء التراث، بيروت، ١٩٩٧.
- الخنساء، تماضر بن عمرو (ت ٢٤هـ)، ديوان الخنساء، دار صادر، بيروت، ١٩٦٠.
- ريدان، سليم (١٩٩٧)، في التعامل مع التوابع والزوابع لابن شهيد وتعدّد روافدها. مجلة دراسات أندلسية (١٨): ٥-٢٦.
- الزبيدي، أبو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٧٩هـ)، طبقات النحويين واللغويين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.
- الزركلي، خير الدين (٢٠٠٥)، الأعلام، بيروت: دار العلم للملايين.
- أبو زيتون، وديع (٢٠٠٥)، تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي حتى سقوط الخلافة القرطبية، عمان: الأهلية للنشر.
- سالم، السيد (١٩٧٢)، قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، بيروت: دار النهضة العربية.
- السامرائي، عبد الحميد (٢٠٠٣)، تاريخ الجهاد الإسلامي في الأندلس، ليبيا: دار شموع الثقافة.
- ستانلي، لين بول (١٩٥٧)، قصة العرب في إسبانيا (ترجمة علي الجارم)، القاهرة: دار المعارف.
- ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، رايات المبرزين وغايات المميزين (تحقيق نعمان القاضي)، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٣.
- ابن سعيد، نور الدين أبو الحسن علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ)، المغرب في حلى المغرب، ط ١، (تحقيق خليل المنصور)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.

- ابن سماك، أبو القاسم محمد بن أبي العلاء (مجهول الوفاة)، الزهراء المنثورة في نكت الأخبار المأثورة، ط١، (تحقيق محمود مكي)، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٤.
- السمرة، محمود (١٩٧٤)، في النقد الأدبي، بيروت: الدار المتحدة.
- السيوفي، مصطفى (١٩٨٥)، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس، ط١، بيروت: عالم الكتب.
- شعلان، سناء (٢٠٠٤)، السرد الغرائبي والعجائبي في الرواية والقصة القصيرة في الأردن، عمان: وزارة الثقافة.
- ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن أبي مروان (ت ٤٢٦هـ)، رسالة التوابع والزوابع (تحقيق بطرس البستاني)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.
- الشوابكة، نوال (١٩٩٩)، فن الخطابة في الأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- صابر، نجوى (١٩٩٠)، النقد الأخلاقي: أصوله وتطبيقاته، ط١، بيروت: دار العلوم العربية.
- صاعد الأندلسي، أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت ٤٦٢هـ)، طبقات الأمم، مطبعة السعادة، القاهرة، د.ت.
- صالح، محمود (٢٠٠٦)، فنون النثر في الأدب العباسي، عمان: دار جرير.
- الضبي، أبو جعفر أحمد بن يحيى (ت ٥٩٩هـ)، بغية الملتبس في تاريخ رجال أهل الأندلس (تحقيق روحية السويقي)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧.
- ابن طباطبا، أبو الحسن محمد بن أحمد (ت ٣٢٢هـ)، كتاب عيار الشعر (تحقيق عبد العزيز المانع)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٥.
- العبادي، أحمد (١٩٧١)، في التاريخ العباسي والأندلسي، بيروت: دار النهضة العربية.
- عباس، إحسان (٢٠٠١، ط٢)، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر سيادة قرطبة، عمان: دار الشروق.
- عبد الحلیم، رجب (١٩٨٥)، العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية، القاهرة: دار النهضة العربية.
- ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٨)، العقد الفريد (تحقيق بركات يوسف)، دار الأرقم، بيروت، ١٩٩٩.

- ابن عذاري، أبو عبدالله أحمد بن محمد المراكشي (ت ٦٩٥هـ)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب** (تحقيق ج، س، كولان وليفي بروفنسال)، مطبعة بريل، هولندا، ١٩٥١.
- عزّام، حذيفة (٢٠٠٧)، **أدب الوصايا في الأندلس**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- العسقلاني، أحمد بن علي بن حجر (ت ٨٥٢هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة** (تحقيق علي البجاوي)، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ.
- العسكري: أبو هلال الحسن بن عبدالله (ت بعد ٣٩٥هـ)، **كتاب الصناعتين : الكتابة والشعر** (تحقيق مفيد قمحية)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٤.
- علوش، جواد (١٩٧٦)، **صاعد البغدادي: سفير الثقافة الشرقية في الأندلس**، مجلة كلية الآداب (٢٠): ٣٧ - ٦٩.
- عناني، محمد (١٩٩١)، **النقد التحليلي**، القاهرة: الهيئة المصرية العامة.
- عوض، يوسف (١٩٩٤)، **نظرية النقد الأدبي الحديث**، القاهرة: دار الأمين.
- عيد، يوسف (٢٠٠٠)، **معجم الحضارة الأندلسية**، بيروت: دار الفكر العربي.
- عيسى، فوزي (٢٠٠٢)، **الرسالة الأدبية في النثر الأندلسي**، القاهرة: دار المعرفة الجامعية.
- فراي، نورثرب (١٩٩١)، **تشريح النقد** (ترجمة محمد عصفور)، عمان: منشورات الجامعة الأردنية.
- ابن الفرضي، أبو الوليد عبدالله بن محمد (ت ٤٠٣هـ)، **تاريخ علماء الأندلس**، ط٢، دار الكتاب المصري، القاهرة، ١٩٨٩.
- فكري، أحمد (د.ت)، **قرطبة في العصر الإسلامي**، الإسكندرية: مؤسسة شباب الجامعة.
- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** (تحقيق أحمد بكير)، ج٣، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٧.
- القاضي عياض، أبو الفضل عياض بن موسى (ت ٥٤٤هـ)، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك** (تحقيق محمد بن شريفة)، ج٥، منشورات وزارة الأوقاف المغربية، الرباط، ١٩٦٥.
- قدامة بن جعفر، أبو الفرج قدامة بن زياد (ت ٣٣٧هـ)، **الخراج وصناعة الكتابة** (تحقيق محمد الزبيدي)، دار الحرية، بغداد، ١٩٨١.

- القفطي، جمال الدين أبو الحسن علي (ت ٦٤٦هـ)، إنباه الرواة على أنباه النحاة (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم)، دار الكتاب المصرية، القاهرة، ١٩٥٠.
- القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفزاري (ت ٨٢١هـ)، صبح الأعشى في صناعة الإنشا (تحقيق محمد شمس الدين)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٩.
- القيسي، فايز (١٩٨٦)، أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، رسالة دكتوراة غير منشورة، الجامعة الأردنية، عمان، الأردن.
- مؤلف مجهول، أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم (تحقيق محمد عزب)، دار الفرجاني، القاهرة، ١٩٩٤.
- مبارك، زكي (١٩٧٥)، النثر الفني في القرن الرابع، بيروت: دار الجيل.
- المراكشي، محيي الدين عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ)، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ط ١ (تحقيق محمد العريان ومحمد العلمي)، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩.
- المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، أزهار الرياض في أخبار عياض، صندوق إحياء التراث، الرباط، ١٩٧٨.
- المقرئ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت ١٠٤١هـ)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (تحقيق د. إحسان عباس)، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨.
- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، بيروت، ١٩٩٧.
- النباهي، أبو الحسن علي بن عبدالله المالقي (ت بعد ٧٩٢هـ)، المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا (تحقيق مريم طویل)، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٥.
- ابن النديم، أبو الفرج محمد بن إسحق (ت ٤٣٨هـ)، الفهرست (تحقيق شعبان خليفة)، العربي للنشر، القاهرة، ١٩٩١.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج (ت ٢٦١هـ)، صحيح مسلم (تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي)، دار إحياء التراث، بيروت، د.ت.
- هلال، محمد (١٩٨٣)، الأدب المقارن، بيروت: دار العودة.
- ياسين، السيد (١٩٨٢)، التحليل الاجتماعي للأدب، بيروت: دار التنوير.
- بني ياسين، يوسف (٢٠٠٢)، علم التاريخ في الأندلس، إربد: حمادة للدراسات الجامعية والنشر.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦هـ)، معجم الأدياء: إرشاد الأريب إلى معرفة الأريب (تحقيق د. إحسان عباس)، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٣.
- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبدالله ياقوت (ت ٦٢٦هـ)، معجم البلدان، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ٢٠٠٢.

ANDALUSIAN FINE PROSE IN THE Umayyad CALIPHATE PERIOD

By
Manal Salem Al-Aqabani

Supervisor
Dr. Salah Jarrar, prof

ABSTRACT

This thesis aims at studying the Andalusian prose in the age of the Umayyad caliphate from the aspects of form and content in light of the general circumstances which produced the prose of that age, reaching to the conclusion of their technical qualities.

The study is comprised of an introduction, three chapters and a conclusion. The introduction shows the motives behind conducting the study and clarifies the research mechanisms in respect of the methodologies employed and the sources referred to.

The first chapter presented the factors affecting the prosperity of literature in this epic. Some general aspects comprised the ground of the prose production in both form and content through the age of the Andalusian Umayyad Caliphate starting by the reign of Caliph Al-Nasir and ending with the age of the Barbarian sedition, taking into consideration the economic, political, social and cultural manifestations.

The second chapter is about the objectives and contents of the prose. This chapter is comprised of eleven inquiries which represent the different types of prose. They are the letters, pledges, covenants, speeches, treatises, comedy stories, descriptive narrative, commandments, scientific narrative, aphorisms, and debates.

The third chapter discusses the technical qualities of the prose in the Caliphate age. It approaches those qualities from nine angles which brings into view the qualities which affected form and content: they are the effect of the personality on the performing technicality of the narrator, the religious influence and the emergence of poetry for condensation and briefing, they are included in the discussion of signifiers, inspirers, symbolism, and short expressions; while time depth and space construction represented two separate qualities which reflected the particularity of time and space in the Andalusian Prose in the age of the Caliphate. The qualities didn't ignore emphasizing the attributes of the language, contextually, and the spirit of drama.

The conclusion includes the most prominent results of this study, showing the particularity of prose in the age of the Umayyad Caliphate distinguishing it from the rest of the Arabic literature's ages.